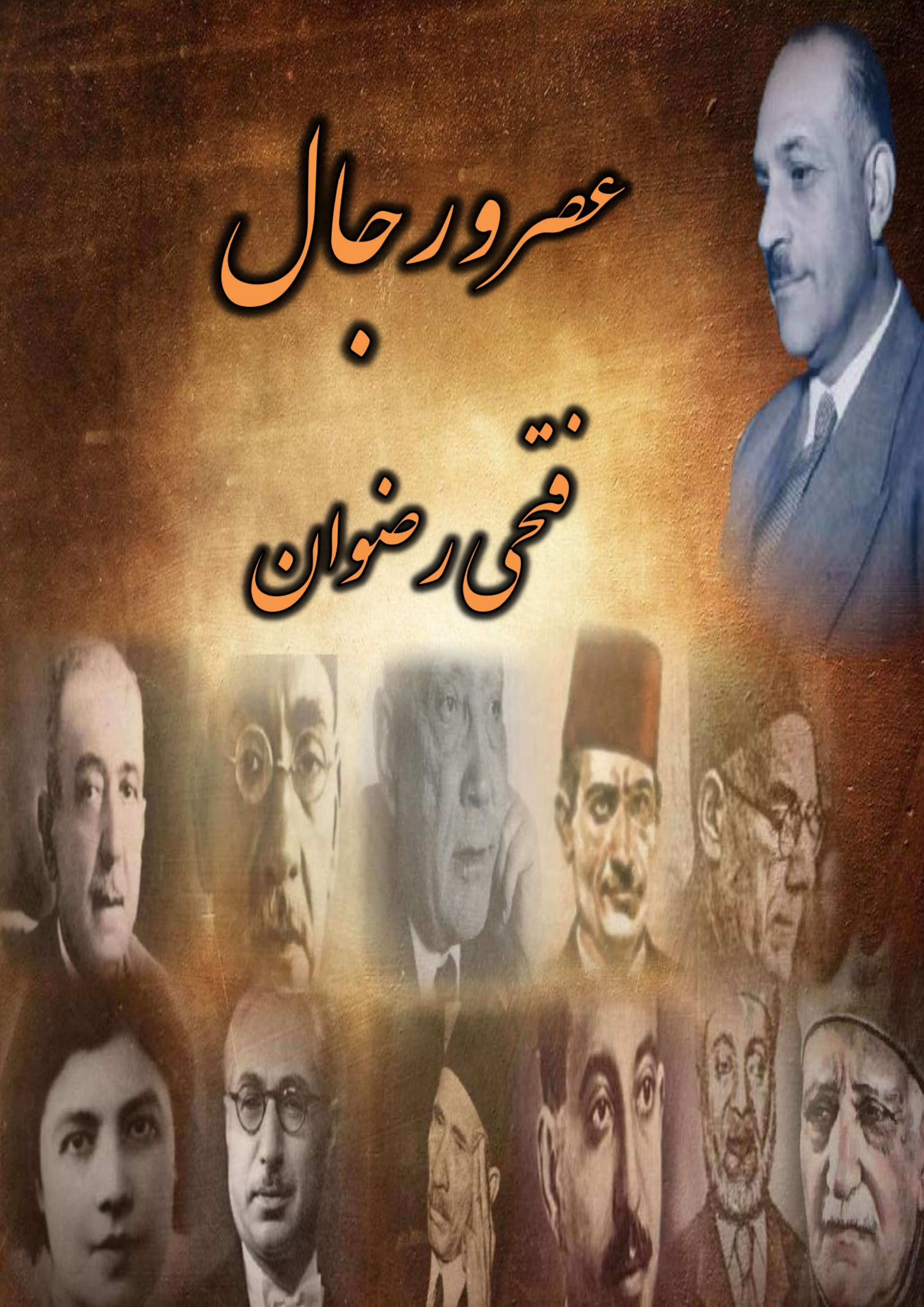
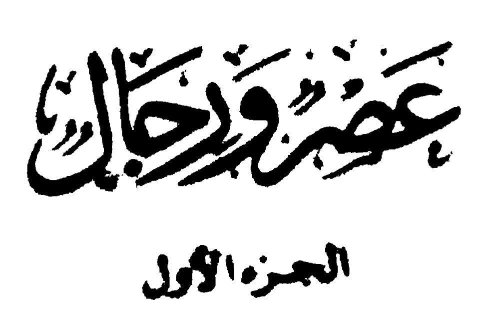

عصر ورجال
فتحي رضوان


عصر ورجال
الجزء الأول



الجزء الأول

تأليف: فتحي رضوان



٢٠٠٨

عصر ورجال جـ ١

لوحة الغلاف من أعمال الفنان : حامد عويس

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

رضوان ، فتحى

عصر ورجال/ فتحى رضوان - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.

مج١ ٣٨٢ ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك : ٩ - ٣٨١ - ٤٢٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨.

١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - ثورة ١٩١٩م.

٢ - الأدباء العرب - مصر.

أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٧٤٧ / ٢٠٠٨

I.S.B.N 978 - 977- 420 -381 - 9

ديوى ٩٦٢,٠٤٨

تقديم

أما العصر فهو الفترة ما بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ والأحداث السياسية التى حدثت فيها مثل إعلان الدستور، ووفاة سعد زغلول، ثم معاهدة ١٩٣٦، وإعلان الحرب العالمية الثانية، وحرب فلسطين، وما صاحب هذه الأحداث من انعكاسات على الناحية الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

أما الرجال فهم أولئك الذين شاركوا فى صناعة هذه الأحداث أو كانوا شهودًا عليها سواء كانوا أدباءً أو مفكرين، حيث يرصد المؤلف فى كتابه الذى يقع فى جزءين الحياة الخاصة لتلك الشخصيات كمرآة للحياة العامة، وقد ساعدته معرفته الشخصية بهم والتعامل معهم عن قرب على سبر أغوارهم وترجمة أفكارهم التى ساهمت فى تشكيل وجدان الشعب المصرى فى هذه الفترة الحافلة بالأحداث الوطنية والتاريخية، حيث يصف لنا فى الجزء الأول من الكتاب لقاءاته مع أحمد شوقى أمير الشعراء ثم حافظ إبراهيم والألقاب التى أطلقت كشاعر النيل، وشاعر اللواء، وشاعر الوطنية، وشاعر الحزب الوطنى ثم إبراهيم عبدالقادر المازنى ومقالاته فى جريدة السياسة وجريدة البلاغ ثم عباس محمود العقاد واشتغاله بالصحافة بعد أن استقال من وظيفته الحكومية، وسلامة موسى الكاتب القبطى الذى أخذ على عاتقه التعبير عن هموم المجتمع المصرى

كله من ناحية وهموم المجتمع القبطى من ناحية أخرى، وقد أدى دوره بتوازن شديد، ثم «على الغاياتى» وتاريخه فهو صاحب ديوان «وطنيتى» الذى يعد وثيقة من وثائق الحركة الوطنية، ويختتم الجزء الأول بالحديث عن الآنسة اللبنانية «مى» التى كانت تعقد فى منزلها ندوة يوم الثلاثاء من كل أسبوع يحضرها الأدباء ورجال الفكر والسياسة، أما الجزء الثانى فيتضمن دراسات عن يوسف حلمى الشاب المصرى الذى جمع فى نفسه وتاريخه كل مزايا وعيوب عصره، وأحمد لطفى السيد الذى كان وزيرًا للمعارف فى الوزارة التى أوقفت دستور ١٩٢٣ وعطلت الحياة النيابية، والدكتور محمد حسين هيكل الأديب الكبير ورئيس تحرير جريدة السياسة، ثم أحمد أمين أستاذ القانون، وأخيرًا عبدالحميد الديب الذى كان صورة لمجتمع فيه مواهب تنقصها الإرادة، وفيه توثب وتهيؤ للتمرد والثورة.

اختارت مكتبة الأسرة هذا الكتاب لمؤلفه فتحى رضوان الكاتب والمفكر السياسى لتقدمه هذا العام عن طبعته الأولى الصادرة فى ٢٠٠٢.

مقدمة

لكم أحببت هذا الكتاب ، وهو بعد فكرة فى رأسى ، لم تتخلق ، ولم يصبح لها رأس ، ولم تظهر لها قدم . ولكم زدت له حباً ، وهو مشروع كتاب ، اتضحت معالمه وظهرت ملامحه . ولكم أمتعنى وأسعدنى ، وأنا أعيش له ، وأقرأ الكتب ، والصحف، من أجله ولكم أضاء حياتى ، وقوى إيمانى ببلدى ولغتى وأنا أكتب صحائفه صفحة بعد صفحة بل سطراً بعد سطر . لا لأن ما كتبته فيه حقق بالضبط ما أردته ، بل لأنه أتاح لى أن أعيش مع أصحاب الأسماء التى صنعت تاريخنا الأدبى الحديث ، وأن أزداد منهم قربا ، ولهم فهماً .

* * *

وما من كتاب تقفز فكرته إلى رأس صاحبه ، أو تولد فى قلبه ، إلا ويرتبط به المؤلف كما يرتبط الأب بابنه ، بل بأكثر مما يرتبط الوالد بالمولود . فإن الفكرة أشد مكراً من الحسناء اللعوب . لاتبدو إلا فى حالة من الغموض والإستخفاء ، ثم هى لاتكف عن معابثة صاحبها ، تقترب منه حتى يحسب أنها ملء يديه ، وطوع إرادته ، ثم يمد يده نحوها فإذا هى بعيدة ، فييئس منها ويدعها ، وهو يحسبها وهماً من أوهام العقل ، لكنها تعود إليه ، أكثر جمالا ، وأشد فتنة ، وأقل غموضاً ، وأقرب منالا . فيتهيأ لاستقبالها ، بروح الواثق المطمئن ، ثم لاتلبث الحقيقة أن تصفعه فى غير رحمة : لقد طارت الفكرة ، أو عادت إلى الغموض ، أو بدت عند الاقتراب منها أقل جمالا ، أو شوهاء لا تطاق فإذا عادت تحصن بتجربته القريبة ، واصطنع الثبات ، ولم يحفل بندائها الملح ،

وهو يحسب أنه نفض يده منها ، واستراح من عبثها المغرى ، ودلالها الممض ولكنها تتسلل إلى أفكاره فيراها حلماً من أحلام اليقظة ، ثم يرى نفسه فجأة فى قبضتها القوية المتمكنة ، لاتريد أن تفلت خناقة ، فيستسلم ، ويقبل منهـا الأمر ويعلن الإذعان والطاعة. فإذاهى خرساء صامتة ،لا تنطق ،ولا توحى ،ولا تأمر ولا تنهى .. فينظر إليها ، وقداستحال الحب لها كرهاً ، والإعجاب بها ،سخطاً ، والترحيب بمقدمها عزوفاً وصدوداً .

وهكذا دواليك حتى يتم بين الفكرة والعقل الذى راودته ، التزاوج ، فاذاهما شىء واحد : لاندرى أيهما يسيطر على الآخر ، وأيهما يخضع لصاحبه ، حتى يتم الميلاد ، فتخرج للناس قصيده ، أو مقالا ، أو قصة أو كتاباً . وقد تأتى بعد هذا العناء كلـه شوهاء أو عرجاء ، أو حولاء ، أو عمياء . وإن لم يكن من المستحيل أن تأتى حسناء ، أو نجلاء . وفى الحالتين ، لايستطيع صاحبها أن ينكرها . قد يحزن لما يشوهها من عيب أو عيوب ، ولكنها آخر الأمر ابنته، إن لم يفخر بها ، فهو يشفق عليها فى دنيا لسانها طويل ، ونقدها ثقيل ، ورضاؤها الكامل مستحيل .

* * *

وقد فعل بى هذا الكتاب كل ذلك .

ولكن لماذا أطلت فى الحديث عن عملية الخلق الفنى وتطوراتها ومتاعبهـا؟ لعله لم يأت ذلك اعتباطاً فان موضوع الكتاب الذى أقدم له بهـذه السطور ، هو الخلق الأدبى كاتمرضه حياة بضعة عشر كاتباً وشاعراً من أكبر كتابنا وشعرائنا.

قلت لك أننى أحببت هذه الفكرة ، لأن إخراجهـا إلى عالم الحيـاة كان

يقتضيني أن أعيش مع الأدباء الذى اقترح على الخاطر الأول للكتاب أن أجمعهم موضوعه . ولكم أحب أن أعيش مع الذين فكروا وأبدعوا . فإن الدخول إلى دنيا حياتهم ، أمتع كثيراً من الدخول إلى عالم أفكارهم . الأول يفضى إلى سياحة تتعلم منها ، وأنت تشاهد وتتفرج وتسمع وتلهو ، والثانى يؤدى رحلة تعليم وإرشاد ، ووقار وتزمت ، لابد لك من أن تحصر لها الذهن وتجهد الفكر ، وتمسك ورقاً وقلماً لتقيد وتسجل .

والدخول إلى حياة العالم الأديب والشاعر ، يقربك من الإنسان ، مجرداً من جلال أفكاره ، ومظاهر شهرته ، ويحررك من سيطرة شخصيته الآمرة أو الناهية ، أو الضاحكة الساخرة ، أو المتجهمة المتعالية ، فترى كم تضفى آثار الإنسان عليه الصفات والأضواء ، مايكاد يخرجه عن حقيقة أصله ، فيبدو لنا إلها أو أقرب مايكون من الإله ، أو شيطاناً مريداً ، أو أقرب مايكون من الشيطان المريد ، ثم ترى كيف يعانى الإنسان الخالق المبدع من عصره وماورثه عن أهله ، مما يعطل أحياناً موهبته ، أو يضعف من آثارها . ثم ترى الصراع المجيد بين الإنسان ، وبين كل نوازع الضعف ، وبواعث الاستسلام ، فتهولك انتصاراته وتأسى لهزائمه ، وأنت لا تملك نفسك فى الحالين من التساؤل كيف انتصر وكل شىء يدعو إلى الهزيمة ؟ ولماذا انهزم وكل شىء يدل على أنه جمع عزمه على الانتصار ..

والحق أنى لم أجعل من همى أن أصف حياة كبار أدبائنا أو مفكرينا الخاصة بقدر ما أردت أن أصف حياة العصر الذى بدأ ببدء ثورة سنة ١٩١٩ والذى انتهى ببدء ثورة سنة ١٩٥٢ .

ولكن كيف أصف هذا العصر ؟ هذا هو العناء الذى وصفت لك طرفاً منه . كان أمامى أكثر من أسلوب . كان من هذه الأساليب ، أن أروى الأحداث البارزة فى العهد مابين الثورتين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢

كذكريات لى منذ اتصلت بالحياة الأدبية والفكرية، متابعاً فى السرد والرواية أدوار حياتى أنا كما فعل ستيفان زفايج فى كتابه « عالم الأمس » والحق أننى وقفت طويلا مأخوذاً بهذا المنهج . وبدا لى أن أقسم هذه الحقبة التى بلغت ثلاثين عاماً أو يزيد إلى أقسام حسب الأحداث السياسية الكبرى فاجعل قسما للثورة حتى إعلان الدستور ، ثم قسما عن إعلان الدستور حتى وفاة سعد سنة ١٩٢٥ ثم من وفاة سعد حتى إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ . ثم من المعاهدة إلى إعلان الحرب العالمية الثانية، ومن نهايتها حتى حرب فلسطين وأروى فى كل حقبة من هذه الحقب، أحداثها الأدبية، ودور كل أديب من الأدباء فيها ولكنى مالبثت حتى تبينت ضخامة هذا المشروع فعدلت عنه .

انتهيت آخر الأمر إلى أن أروى قصة العصر وأصوره، من خلال رواية حياة كبار أدبائه . فليس أصدق فى رواية التاريخ ، وتحديد خصائصه ، من قصص حياة الأشخاص اللذين صنعوا هذا التاريخ ، وليس أصدق فى رواية الحياة العامة من الحياة الخاصة لمن خلقوا هذه الحياة العامة ولعبوا على مسرحها وأدوا الأدوار الكبرى فيها . فالحياة الخاصة للكبار ، هى الصورة الخالية من التزييف ، للعصر الذى ينتمون إليه ، أو الذى ينتمى إليهم ، المحببة إلى القلب السهلة التناول .

الحياة الخاصة إن رواها صاحبها، أو رواها صديق، أو عدو ، تنضح بالصدق ، أكثر مما تنضح الحياة العامة . فالحياة العامة فسيحة متشابكة ، ولها أكثر من جانب، وفرص التزييف فيها والغرض والمحاباة لانهاية لها . أما الحياة الخاصة مهما علا قدر صاحبها محدودة ، والقدر المتاح للحركة فيها لمن يريدون الاصطناع والتلفيق أقل بكثير منه فى الحياة العامة .

على أننا إذا لم نشغل فقط بالصدق والتزييف ، وجدنا أن الحيـــاة الخاصة أكثر دلالة على روح العصر من آلاف الوثائق ، ومئات الـكتب والمجلدات :

فرب خطاب شخصى ، أو زى شائع فى عصر ، أو دعابات أو فـكاهات متداولة فيه ، أو أنواع مآكل ومشارب مفضلة عند أهله ، أو فضائح غرامية وقعت لمشاهيره ، أبلغ فى بيان حياة الشعب فى فترة من فتراته من مجلدات ضخمة يسهر على كتابتها مؤرخ ، ويجمع لها الوثائق ، ويراجع لها المصادر .

ففضيحة عقد الملـكة فى عهدما قبل الثورة الفرنسية ، تروى من أسرار هذا العهد وحقائق تاريخه ، أكثر مما تروى لنا نصوص دستور ١٧٩٢ ، كما أن زواج شقيقات الملك فاروق فى أمريكا أيضاً تروى لنا عن عصر ما قبل ثورة سنة ١٩٥٢ ، أكثر مما ترويه مناقشات مجلس النواب والشيوخ فى خمس سنوات كاملة .

ولـكن ما هى الحياة الخاصة التى قصدت أن أروى قصة هذه الفترة عن طريقها ؟ هل هى هذه الحياة التى لا تخص إلا الإنسان وحده والتى تدور حول طعام وشراب ، وحب وزواج ، ونزوات لا تمارس إلا وراء الستائر المسدلة ، ولذائذ لا تتعاطى إلا فى الأركان المظلمة ؟ وبعبارة أخرى ، هل قررت أن أتعقب الجوانب المظلمة الحميمة من حياة مفكرينا وأدبائنا ، وأن أحصى عليهم سقطاتهم وأكشف الستر عن زلاتهم ، لأرسم صورة العصر الذى عاشوا فيه ، وساهموا فى بنائه ؟

إذا كان شىء من هذا قد تبادر إلى الذهن ، فهو جدير بأن ينفى بأسرع وبأقوى ما يستطاع ، ذلك لأن مثل هذه الزلات والسقطات فى رأيى ، لا تمثل عصراً ، ولا تؤرخ عهداً ، فللإنسان جانبه الحيوانى ، وهو جانب لا يختلف فيه الناس فى عهد من عهد . إنما الحياة الخاصة التى أعنيها ، هى هذه الطبقة التى تأتى بعد الحياة العامة مباشرة ، وتعلو الحياة الداخلية اليومية مباشرة .

فإذا أحب الأديب وانعكس هذا الحب فى أدبه وشعره ، فهذا هو الجانب العام الخاص الذى يرينا من حياة الأديب وفكره ، ومن حياة أهله وعصره ، ما لا ترينا القصائد التى نظمها فى هذا الحب ذاته . وقد يبيع الكاتب قلمه لحزب ، أو لشخص ، فهذا الجانب من حياته ، يرينا من شخصيته ومن أسلوب العصر ، ما لا ترينا مجلدات المؤرخين ، ومجموعات المقالات . ولكن كيف نصل إلى هذه الحياة الخاصة لأدبائنا وكبار مفكرينا ؟ ليس هناك إلا واحد من سبيلين إما أن نقع على ترجمة حياة كتبها الأديب لنفسه ، وإما ترجمة حياة كتبها صديق يعرف الأديب معرفة حميمة ، والخير كل الخير فى أن تتوافر لنا الوسيلتان . فنجد بين أيدينا ما كتبه الأديب عن حياته ، ونجد ما كتبه الصديق عن هذه الحياة ذاتها .

والحق أن هذه التراجم الذاتية قليلة فى أدبنا الحديث ، ولكنها بدأت تتزايد فى الأيام الأخيرة ، ولم نعد نجد الأديب الكبير الذى يفارق دنيانا ، دون أن يخرج عنه كتاب أو أكثر يروى حياته ، ويصف دخائل معيشته ، يفتح لنا أبواب دنياه التى كانت تغلقها تقاليد المجتمع فى وجوهنا . صحيح أن هذه التراجم مع قلتها لا تزال تنقصها الجرأة التى تجدها عند كتاب مثل هذه التراجم فى الأدب الغربى ، كما ينقص بعضها الشمول والاتساع ، حتى كأنها عجالة لا تتناول الحياة كلها ، ولكنها على أية حال خير من لا شىء ، وهى بداية ستتبعها قطعاً أعمال أكبر ، وأكثر جرأة ، فأول الغيث قطر .

وكما بدأت تراجم الحياة التى يؤلفها أصدقاء الأدباء المعروفين تتكاثر ، كذلك بدأت تتكاثر التراجم الذاتية التى يؤلفها هؤلاء الأدباء عن أنفسهم وحياتهم ففى السنوات الأخيرة مثلا ، أخرج الدكتور محمد حسين هيكل مذكراته ، كما نشر الدكتور أحمد أمين كتابه « حياتى » ثم سلامه موسى كتابه

« تربية سلامة موسى » ثم أخرج العقاد كتابين هما « أنا » و « وحياة قلم » ، فى حلقتين من حلقات كتاب الهلال ، والفضل فى نشر هاتين الحلقتين للأستاذ طاهر الطناحى الذى قام كذلك على نشر كتابى « قصة حياتى » « وهذه حياتى» للأستاذين لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى .

وبفضل هذه الكتب وأمثالها أصبح ممكناً أن نستخرج صورة للعصر الذى تمنيت أن أصوره وأن نكل إلى حياة هؤلاء الأدباء ، أن تخلق الصورة الشاملة له ، بما تسام به كل منها على حدة . وهذه الصورة بعد اكتمالها تكون أقرب الصور إلى الصدق ، وأحفلها بالحياة ، وأقدرها على إثارة الخيال .

على أننى إلتزمت ألا أترجم حياة إلا من عرفتهم شخصياً ، أتيحت لى فرصة الإختلاط بهم ، والوقوف على جوانب من أخلاقهم .

أما من عرفتهم ، ولم أوفق إلى العثور على ترجمة حياة كاملة لهم ، فقد اضطررت أن أجمعهم فى فصل واحد ، رويت فيه ما سمعته عنهم ، أو رأيته منهم لم يتسع له هذا الكتاب .

* * *

والوفاء يقتضينى أن أعبر مرة أخرى عن شعورى بالدين العميق لهذا الكتاب الذى جمع أرواح وعقول هؤلاء الكبار حولى والذى أتاح لى أن أتأملهم واحداً بعد واحد . وأن أتأملهم جميعاً ، وأن أبتعد عن صورتهم لأراها أكثر وضوحاً، ثم أقترب منها لأدقق النظر فى تفصيلات الصورة وأنا بين الابتعاد والاقتراب ، وبين النظر إليهم مجتمعين والنظر إليهم متفرقين ، ثم بين انتقال من النظر خلالهم إلى العصر الذى ولدوا فيه ، وحاربوا فى ميدانه ، إلى النظر إليهم ، من خلال ذلك العصر نفسه ، نشأت بينى وبينهم مودة أكثر إدراكا ومعرفة

وأكثر وداً ومحبة، فليس أدعى إلى نشوء الصداقة من الاقتراب الودود، ومن التأمل الذى يبحث ليفهم، لا ليقع على العيوب، ولا ليغمض العين عنها .

لقد استطعت أن أرى هؤلاء الكتاب، وهم يبنون أنفسهم ، ويبنون فى الوقت نفسه وطنهم : منهم من كان يحمل الأحجار الثقيلة فوق كتفه ، ومنهم من كان يحمل بين كفيه حفنة من تراب ، المرة بعد المرة ،ومنهم من يحب أن يشارك فى البناء على (الصقالات) التى تركب خارج البناء ، ومنهم من يفضل أن يعمل فى (التوصيلات الداخلية) ، ومنهم من تشغله زخارف البناء ونقوشه أكثر مما يشغله الأساس الذى يقوم عليه . ولكنهم جميعاً كانوا يودون أن يعيشوا حتى يروا بأعينهم بناءً شامخاً لأمتهم. لا أستثنى حتى من لا جلد له منهم على العمل ، أو من كان يحب أن يلهو وهو يعمل .

وقد كانوا فى مجموعهم يمثلون مصر ، فهذا الفلاح الذى تنزح عائلته من الريف فراراً من ظلم السخرة والكرباج ، مضحية بأرضها فى القرية ، وهذا اليتيم الذى يتركه أبوه فى كفالة خاله دون أن يخلف له مالا أو عقاراً ، وهذا الذى ترجع أصوله إلى شعوب غير شعب مصر ، وغير الشعوب العربية ، وهذا الذى ينتسب إلى طبقة الأغنياء ، وإن لم يكن غنياً ، أو الذى يرث عن والديه الثروة ، وإن لم تكن عريقة. كل هؤلاء يمثلون العناصر العديدة التى كونت الشعب المصرى. كذلك مثل كل منهم جانباً من الثقافة المصرية فمنهم من بدأ تعليمه فى الأزهر، ثم أكمله فى مصر وأوربا .ومنهم من حصل قليلا من العلم فى المدارس أو المعاهد النظامية ثم علم نفسه بالقراءة والكتابة ، والاستماع ، والتردد على المجالس . ومنهم من تلقى علماً نظامياً حديثاً فى مراحل التعليم كلها ، ومنهم من تعلم فى مدارس مصر، ثم أكمل تعليمه فى معاهد الغرب . وقد كانت ثقافة المصريين خليطاً من هذه الدراسات والثقافات: منها ما هو أزهرى قح ، ومنها ما هو أزهرى انتهى

بالتعليم النظامى الحديث ، ومنها ما هو مصرى بحت ، ومنها ما هو مصرى اتصل بالثقافة الأوربية ، ومنها ما هو ثمرة الاجتهاد لم يبدأ فى مدرسة ، ولم يسر على خطة ، إنما جادت به الموهبة مع الإرادة . وفى هؤلاء الكتاب من احتمى بالحكومات ، وعمل لحساب الأحزاب . وفيهم من عمل مع الأحزاب ، ولم يعمل لها : وجد العمل فى جريدة الحزب ، فكتب فى الجريدة ، وكتب ما أراده أصحاب الجريدة ، لا اقتناعاً بما يكتب ، ولكن اقتناعاً بأن هذا هو سبيل العيش المفتوح . وأن الأدب وحده لا يؤكل طعاماً ، ولا يقيم أوداً .

وفيهم أيضاً من نأى عن الأحزاب ، ولم يحتم بحكومة ناقماً عليها جميعاً وعلى الحكومات قاطبة ، وفيهم من كان يتعفف ويقتصد فى التماس الرزق وأسباب الشهرة — وفيهم من كان يبذل نفسه بلا تحفظ ولا احتياط بغير حاجة أو ضيق رزق .

ومن هذا كله تكونت ملامح العصر وخصائصه وصفاته .

ولقد حرصت على ألا أقدم فى الكتاب إلا الذين أتموا رسالتهم فى هذه الدنيا ، وأكملوا رحلتهم فى عالمنا ، ثم لحقوا بالرفيق الأعلى ، فإن الأحياء لا تعتبر حياتهم كاملة ، حتى يتوفاهم الله ، فرب رجل تقدم به السن ، وتوالت أعماله حتى حسب الناس أنه لا مزيد فى جعبته يقدمه للناس ، فإذا هو وأقدامه على عتبة الآخرة ، قد اهتزت نفسه بخاطر جديد ، يكسبه شباباً وفتوة ، ويكسب أدبه نضارة وحيوية ، وكأنه يبدأ حياته .

وكم من تطور ، وقع للشيوخ فى أخريات أيامهم ، جعل الخاتمة أروع من البداية ومن أواسط العمر . وكم من داع جليل ، انتكس وهو على أبواب الأبدية فكفر بكل ما دعى إليه ، وتنكر لكل ما بشر به . فلندع الأحياء إذن ، يتابعون جهادهم ، ويواصلون عملهم ، حتى تحين الساعة التى يجد مؤرخ

الأدب أو مؤرخ السياسة ، أنه قادر على أن يصور حياتهم، ويصدر عليهم أحكامه .
والخسارة بتخطى الحديث عن الأحياء قليلة ، ذلك لأن فى شخصيات هذا الكتاب
من التنوع والتعدد ، والاتساع والشمول ، ما جعل حياتهم مرآة انعكست الحياة
المصرية فيها انعكاساً كاملا . هذا إلى أن أكثر أبناء هذا العصر الذى نصوره فى
هذا الكتاب اشتبكت علاقتهم، وتوثقت صلاتهم بعضهم ببعض ، بحيث أصبح
من المستحيل أن نتحدث عن الكتاب الذين فارقونا ، دون أن نشير فى أكثر
من موضع إلى الأحياء الذين يؤنسون حياتنا ويمتعوننا بما يكتبون ويقولون.

* * *

ولكن ما هدف هذا التاريخ ؟

أهو تقويم لأعمال هذه الصفوة المختارة من أهل الفكر والقلم ؟ أم هو
دراسة مقارنة نضع فيها الكاتب وقرينه فى « مصر » مع أقرانه فى الخارج ؟ أهى
دراسة أدبية تعرض المذاهب المختلفة ، والمدارس المتعارضة فى الأدب والصحافة
مثلا ؟ أو هو تاريخ سياسى يتناول الأدباء من حيث نشاطهم فى ميدان السياسة
والأحزاب ؟

الواقع أن هذه الأهداف جميعاً عرضت نفسها علىّ ، وحاولت إغرائى ،
ولاسيما ما اتصل منها بالحديث عن المذاهب الصحفية التى توزعت المصريين فى
بداية القرن العشرين ، والتى كانت صحيفة الجريدة ، لسان حال واحد منها ،
واللواء صوت الثانى ، والمؤيد ، منبر المذهب الثالث . وهى مذاهب ومدارس
وإن كانت لاتدخل فى الحقبة المحدودة لهذا الكتاب ، إلا أن آثارها بقيت
حتى قامت ثورة سنة ١٩١٩ ، واستمرت حتى تم الإجهاض الوطنى فى أعقاب
تلك الثورة .

لـكنى لم ألبث حتى نجحت فى مقاومة هذا الإغراء ، والإفلات من قبضته ، ذلك لأننى بعد طول التفـكير عقدت العزم على أن أقدم صورة العصر ، من خلال صور حياة هؤلاء الـكتاب الأربعة عشر مع تعليقات هنا وهناك ، لأن هذا الجمع ، لا بد منه كتوطئة وتمهيد ، لدراسات أخرى تفصيلية ، فنى الراجح أنه لم يتفق لأبناء الجيل الناشىء ، أن قرأ عن هؤلاء جميعاً ، وإن كان من المحتمل أنه قرأ عن بعضهم ، أو عن أكثرهم ، فإن أتيحت له فرصة القراءة عنهم جميعاً فى كتاب واحد ، فقد يسهل بعد ذلك أن نشعب القول ونشققه فى هذه الحقبة من حياتنا ، فنتناولها بأكثر من أسلوب ، ومن أكثر من ناحية ، ولأكثر من هدف .

ولـكنى لا أكتم القارىء أنى خرجت أحياناً عن خطة الـكتاب ، فقد أغرانى بعض آراء هؤلاء الـكتاب أو مسلـكهم فى موقف معين على المقارنة بينهم وبين سواهم ، أو تقدير شىء من آثارهم ، أو تقويم أعمالهم ، ولـكن هذه المخالفة كانت الاستثناء الذى يدل على القاعدة ، ولا يدل على انهيارها .

فقد كان غاية الـكتاب التأمل فى حياة هؤلاء الـكبار ذاتها ، لا فيما أثمرته من كتب ، ولا فيما جادت به من أعمال أدبية ، أو ما بذرته من بذور إلا بوصف هذه الـكتب وتلك الأعمال ، والبذور ، من جوانب هذه الحياة . كان ذلك التأمل ، غاية ممتعة ومغرية ، فسعيت جهدى إلى الوصول إليها وتحقيقها .

ولست أدرى إلى أى حد نجحت فى الإقتراب منها .

* * *

بقى أن أقدم بين يدى هذا الـكتاب باعتراف ، لا يكلفنى القيام به جهداً كبيراً . فلست أحب أن أزعم أننى كنت محايداً وأنا أقدم هذه الشخصيات ، فإنى لم أجد مايدعونى إلى أن أتجرد من ميولى وأذواقى ونظراتى فى السياسة ،

وفى التاريخ الوطنى لبلدى . ولـكن الشىء الذى تحريته ، ما وسعنى الجهد والإخلاص ، هو أنى لم أخف شيئاً وقفت عليه فى مصدر أو مرجع من المصادر أو المراجع التاريخية لهذه الحقبة ، وما نسبت لأحد كلاماً لم يقله أو أوردته ناقصاً ، أو أوردته فى غير عبارته التى بقيت فى رأسى . على أن ما جاء فى الـكتاب على لسانى ، رواية لبعض الوقائع قليل بحيث لو حذف لما تغير قدر الـكتاب بالزيادة أو بالنقص ، أما آرائى التى جهرت بها ، فمن حق من يسمعها أن يأخذ بها أو يطرحها ، أو يزنها بميزانه قبل أن يفعل شيئاً من ذلك .

* * *

وبعد ، فهذا الـكتاب محاولة يمكن أن تزداد على الأيام كمالاً ونضجاً ، وليس حتما أن يتم ذلك على يدى ، وإن كنت أتمنى أن تسمح الظروف بذلك . ولـكن إن ساهم فى هذه المحاولة سواى ، وحاولها غيرى ، ممن يكونون أكثر علماً بهذا العصر ، وأعظم جلداً على العمل ، وأقدر على التعبير والإبانة ، وأعرف بهؤلاء العظماء ، فلن أكون أقل سعادة أو غبطة . فهذا عصر جدير بأن تـكثر الأقلام فى رواية أحداثه ، وتصوير شخصياته ، وتحقيق آثاره ؟

فتحى رضوان

تمهيد

روح العصر

أى عصر هذا العصر الذى نؤرخ له ؟

أهو حقيقة عصر ذهبى كما تردد على خاطرى فترة ، وأنا أتهيأ للتفكير فى الكتابة عنه ؟

أم هو عصر انحلال وفساد ، وخيانة ومساومة ؟ أهو عصر عمالقة الشعر ، وكبار الكتاب، وبذر بذور النهضة ، والتحضير لها ، وإعداد خمائرها ؟ أم هو عصر أقزام لم يقولوا قولاً ذا قيمة ، ولم يفعلوا شيئاً ذا جدوى، وأضاعوا على بلادهم فرصاً ثمينة ؟ أهو عصر اضطراب وقلق وتمرد ، حاول أن يثور على الاستعمار وعلى الملكية ، وعلى حكومات الأقلية ، واحتضن ما استطاع قضية العمال ، ودافع ما وسعه الدفاع عن الحريات الدستورية ، والحقوق الأساسية للشعب ؟ أم هو عصر ، أطفأ جذوة ثورة سنة ١٩١٩ ، ونقلها من الكفاح المجيد الذى بدأته ضد الإنجليز ، وكفاح الفلاحين فى القرى ، والعمال فى المدن ، والطلبة والمثقفين فى طول البلاد وعرضها ، إلى منازعات حزبية صغيرة تافهة استهدفت أكثر ما استهدفت كراسى الوزارة ، واستعملت أكثر ما استعملت حقوق الشعب، ومبادىء الدستور ، ونزاهة الحكم ، وسائل ووسائط لتحقيق المآرب الخاصة ، وإشباع الأطماع الحزبية ؟

أهو العصر الذى ترجمت فيه الكتب الغربية وبدأت حركة التنوير ، وتلاحقت على مدى سنيه مؤلفات لم يشهد العصر الذى قبله ، بل العصور التى سبقته شيئاً مماثلاً لها .

أم هو العصر الذى اتسمت مؤلفاته الكبرى بأنها مجموعة مقالات فاتسمت بالتالى أكثر آثاره بالطابع الصحفى الذى يميل إلى العجلة ، والخفة ، وإشباع حاجيات الساعة بلا تعمق ولا تخصص ، ولا أناة ؟

أهو العصر الذى يتصف مفكروه بالشجاعة فى إبداء الرأى ، والعزم على مواجهة ميراث الماضى من الأفكار التقليدية ، والقيود المكبلة للأذهان ، والخوف من رجال الدين ، ومن رجال الدولة ، ومن الجماهير ؟ أم هو العهد الذى لمعت فى سمائه بوارق خاطفة أوهمت الناس أنهم على أبواب حركة تحرر لا يعرف أبطالها الخوف ثم لم تلبث أن انطفأت ولاذ الذين أرغوا وأزبدوا والذين أبرقوا وأرعدوا ، بالصمت ، وابتلعوا أفكارهم ، وأخلدوا إلى ما كان جارياً وسارياً من الأفكار والمبادىء ، لم يرفعوا صوتاً ولم يمتشقوا سيفاً ولم يخوضوا معركة ؟

أتحسبه عصر العظائم : أعلن فيه الدستور ، وبنيت فيه الجامعة ، ووقعت حركة سنة ١٩٣٥ وكثرت فيه الصحف ، وبدأت فيه فكرة الوحدة العربية تعلن عن نفسها ، وتطل برأسها ، وعرضت فيه قضية مصر فى الأمم المتحدة ، وألغيت المعاهدة ؟ أم هو العصر الذى عطل فيه الدستور ، فلم ينفذ حكمه طوال ثلاثين عاماً ، عاماً واحداً ، فهو إما موقوف ، وإما ملغى ، وإما محل لعبث حكومات الأكثرية والأقلية معاً . والعصر الذى أعلنت فيه الأحكام العرفية فاستمرت واتصلت ، يتذرع لإعلانها ، بأوهى الأسباب ، حزب بعد حزب ، وحاكم بعد حاكم ، حتى أصبحت هذه الأحكام هى الأصل ، والحرية هى الاستثناء ، وكتابنا الكبار ، يهاجمونها باسم حزب ، حينما يكون حزبهم فى المعارضة ، ويدافعون عنها حينما يكونون فى السلطان ؟

أهو عهد الصحافة الكبيرة التى زادت صفحاتها ، وزاد قراءها ، وزاد

محرروها وارتفع أجرهم ، كما ارتفع قدرهم ،أم هو العهد الذى كان فيه الصحفيون سلعاً معروضة فى الأسواق يشتريها من يدفع أكثر ، أو كالممثلين فى المسارح، يغيرون كل يوم ثيابهم ، ويخفون وجوههم ، ويرتدون ماشاء المخرجون والمؤلفون من أثواب ، ويرددون ما أختير لهم من ألفاظ وأقوال ، ومافرض عليهم من مواقف وأوضاع ؟ أهو عهد الصحافة التى كانت تهز مقالاتها الرأى العام ، وتثير أخبارها الحكومات والحكام ، أم هو عهد الصحافة التى هبطت باللغة إلى السوقية والعامية ، وهجرت المقال إلى الخبر ، وهبطت بالخبر من عليائه السياسية والأدبية ، إلى تفاهات أنباء المخادع ، وعلاقات سيء السمعة من الرجال والنساء ، ثم إلى ترويج الإشاعات ، وتلفيق الحكايات والتسلل إلى مواطن السلطة والنفوذ عن طريق استرضاء الحكام ، والطامعين فى الحكم ، واسباغ هالات المجد عليهم ؟ .

أهو العهد الذى تحرر فيه الشبان من سيطرة الزعماء التقليديين ،وخرجوا على الأحزاب التى أنهكها الصراع الحزبى ، فأصبح لهم نشاطهم ، وكيانهم ، وصدرت عنهم أفكار جديدة ، بعثت دماً جديداً فى الكيان الوطنى الذى شاخ ودب إلى الضعف ، وخرجت من صفوفهم قيادات شابة أعلى صوتاً ، وأشجع قلباً ، وأثبت قدماً ، من الشيوخ الفانين ، أم هو العهد الذى خانت فيه الحركات الشابة مبدأها ، فربطت نفسها بهذا الحزب وذاك ،وجرت فى أعقاب زعيم بعد زعيم ، وتداولتها الجماعات السياسية القديمة فأفسدتها وأتلفتها ، ثم تفرقت صفوفها ، وتبعثر أنصارها ، فلم تنجح فى أن تقود الشعب ، ولم تستطيع أن تغير مجرى الأحداث وكان ذلك فى وسعها ؟

أهو العهد الذى وضع حد فيه للمعارك الكلامية التى تصدع الرؤوس وتضيع الوقت ، وتطير مع الهواء كرغاء الصابون ، ليبدأ الجهاد المسلح

السرى، الذى يعيد عقول الخونة وأعداء الشعب والممثلين إلى رءوسهم، ويحملهم على أن يأخذوا الحركة الوطنية مأخذ الجد ، وأن يحسبوا للأمة ، وعناصرها الشابة كل حساب ، أم هو العهد الذى سددت فيه المسالك أمام الشباب والشيوخ معاً ، فطاشت العقول ، فأصبح الرصاص يضرب عبثاً ، يميناً ويساراً بلا هدف واضح ولا خطة مرسومة ، كانت كفيلة بأن تجعل من هذا العمل السرى ، قوى فعالة ضاغطة على أعداء الشعب وخصومه ؟

ولندع التعميم لندخل إلى شىء من التفصيل :

ما هى الأسماء التى لمعت فى سماء هذا العصر ؟

عرفت مصر من الشعراء فى هذا العصر .

أحمد شوقى ، حافظ إبراهيم ، خليل مطران ، أحمد محرم ، أحمد نسيم ، محمد عبد المطلب ، على الجارم .

ثم جاء فى أعقابهم جيل قوامه عباس العقاد ، عبد الرحمن شكرى ، ابراهيم المازنى .

وتلاه جيل قوامه أحمد رامى، أحمد زكى أبو شادى ، إبراهيم ناجى ، على محمود طه ، محمود حسن اسماعيل، حسن القاياتى ، محمد الأسمر ، محمد أبو الوفا ، محمد عبد الغنى حسن، محمد الهراوى ، حسن كامل الصيرفى ، عبد الرحمن صدقى والهمشرى.

فهل عرفت مصر قبل هذا العهد مثل هذا العدد الكبير من الشعراء على اختلاف مدارس الشعر ؟ من عهد محمد على إلى عهد الثورة العرابية وعهد الاحتلال كانت الأسماء التى أضاءت أسماء الشعر لا تزيد عن خمسة يتقدمها محمود سامى البارودى ثم يلحق به شوقى ثم حافظ ثم اسماعيل باشا صبرى .

وقد بقى شوقى وحافظ لينضموا إلى حملة ألوية الشعر فى عهد ما بعد ثورة سنة ١٩١٩ حتى ثورة سنة ١٩٥٢ .

فهو عهد غنى بشعرائه قطعاً ، وقد كان الشعر من أكبر متع الناس فيه ؛ فلم تكن القصيدة عملا فنياً أدبياً يحتفى به الأدباء ورجال الفكر وحدهم بل كانت حدثاً قومياً يشغل الأديب وغير الأديب ويتحدث عنه الناس فى دواوين الحكومة وعلى المقاهى وفى عربات الترام ، وكان الشعر الذى تتداوله الأفواه ، وتنشره الصحف ؛ وتذيعه على الناس شعراً اجتماعياً يصور كفاح المصريين فى سبيل أهدافهم القومية فكان الشعر يتغذى من معين الوطنية ، ثم يغنيه .

وكانت معارك الشعر ، معارك عامة ، ينفعل بها وجدان الشعب ، فيتحزب لمعسكراتها فى حماسة وعنف .

كان لشوقى أنصاره ، ولحافظ أنصاره ، وكان لمطران من الصفوة المثقفة من يعلى قدره على زعيمى الشعر ، فلما خرج العقاد ومدرسة الديوان وحملت على الشعر التقليدى وبشرت بشعر جديد كان ذلك فى نظر بعض الناس شيئا أقرب إلى التجديف بالله ، والتشكيك فى الكتب المنزلة . وكان فى رأى الآخرين عملية تطهير أو تحرير لحياتنا العقلية وقيمنا الأدبية جديرة بأن يقف المصريون إجلالاً لأصحابها ، وأن يبذلوا لأهداف المعركة نفسها ، التأييد والمظاهرة .

إذن كان هذا العصر عصراً متحركاً حياً ولم يأخذ الشعر مأخذ الإهمال أو عدم الاكتراث .

ولكن كان الشعر فى المرحلة الأولى من العصر الذى نؤرخ له ، شعراً يخاطب الجماهير ، ويصف ما يدور فى نفوس الناس ، ويترضاهم ، ويجرى إلى ما يتجهون ، فلم تكن نفس الشاعر فى هذا الشعر ، هى التى تظهر فى أبياته ، وإنما كان رأيه ومذهبه السياسى أو المذهب الذى يدافع عنه ، وقدرته فى النظم، وحظه من جزالة اللفظ ، وجلال الديباجة ، فكان أقرب ما يكون من المقال السياسى أو الخطبة أو النشيد ، ولم يكن هذا وحده عيب الشعر فى هذه المرحلة ،

بل أنه انطوى على عيب أكبر ، ذلك أنه أصبح بضاعة يتكسب منها الشاعر مالا أو منصباً أو جاهاً ، فما من شاعر إلا وكان له قوى يلوذ به ، ويجرى عليه الرزق ، ويحميه ، كان شوقى شاعر القصر ، وكان حافظ فى حماية محمد عبده ، ثم الوزير حشمت ، ثم بيت محمود باشا سليمان وأبنائه ، والأباظية ، ثم سعد والوفد . فمن لم يجد من الشعراء من ينشر شعره ، ويروج له ، بقى خاملا وإن كان شعره جيداً ، فنسيم ومحرم لم يذع شعرهما ذيوع شعر شوقى وحافظ لأنه لم يكن لهما ما لشوقى من جاه ، وما كان عند حافظ من موهبة الحديث الممتع ، والفكاهة الخلابة ، وذرابة اللسان ، والميل إلى المجتمعات ، مما فتح له أبواب البيوت الكبيرة ، وأكسبه عطف أصحابها . وقد انعكس هذا كله على شعر هؤلاء ، فأنت تقع على قصائد لهم اقتضتها الظروف العابرة ، وميلهم إلى تملق الأقوياء ، وترضى ذوى السلطان ، تعجب كيف لم يلمهم الرأى العام عنها ويشتد فى اللوم ، وكيف بقى صوتهم مسموعا واسمهم ذائعا وشعرهم مقروءاً . فقد مدح حافظ الإنجليز ، ومدح شوقى أعوان الإنجليز وعملاءهم من أمثال مصطفى فهمى وأضرابه ، ورروجا لأقبح ما يروج له ناطق فى بلد محتل ، يحارب أعداءه ويناضلهم .

ولكن هذا الشعر الذى كان يسمى بشعر المناسبات الذى كان يطلع به الشعراء التقليديون الكبار حتى العقد الثالث من القرن العشرين أى حتى سنة ١٩٣٠ وما بعدها بقليل ، أعنى السنوات التى مات فيها حافظ ثم شوقى ، اختفى ولم يعد هناك شاعر واحد تحتفل الصحف بنشر قصيدته فى صدرها ، أو يلتفت إليه الناس وإلى ماينظم ، إذا مات عظيم ، أو وقعت مناسبة وطنية سارة أو محزنة فقد قامت مدرسة الديوان ، جماعة الشعراء المجددين ــ أو الذين كانوا يسمون المجددين ــ العقاد وشكرى والمازنى بالحملة على مدرسة شوقى وحافظ

وعابت عليهم أنهم لا يصدرون عن عاطفة ، وأنهم يقلدون شعراء المعلقات والعهدين الأموى والعباسى ، ويحاكون ماقالوا ، وأن قصائدهم ليست وحدة متكاملة، وإنما هى مجموعة متفرقة من المعانى، يمكن أن تتقدم فى القصيدة أو تتأخر أو تحذف كلية ، دون أن تصاب القصيدة بخلل ، ودون أن يتعطل فيها السياق أو يضطرب . ثم نظموا أشعارهم ، وقدموها للناس ، فلم يكتب لها النجاح الذى كتب لقصائد التقليديين ، وكف أحد زعماء المدرسة عن نظم الشعر ، واختفى الثانى لفترة طويلة عن الحياة الأدبية ، وواصل الثالث وحده نظم الشعر حتى منح لقب أمير الشعراء ، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ به ، ولعله زهد فيه . إذ لم يجد له صدى عند الناس ولا إيماناً به ، فلم يعد أحد يناديه به، أو يخلعه عليه، أو حتى يفكر فيه .

ونشأت جمعية أبولو ، برياسة الدكتور زكى أبوشادى المحلل الكيماوى والشاعر الكاتب . وقد أتاحت مجلة هذه الجمعية لعدد غير قليل من الشعراء الشبان أن ينشروا شعرهم ، وأن يكون فى هذا النشر ، دعوة لمذهبهم الجديد فى الشعر وهو شعر رومانسى ، ذاتى ، كأنه النقيض من شعر المدرسة القديمة ، فقد شغلوا بدنيا نفوسهم ، وأداروا شعرهم كله على وصف مشاعرهم وعواطفهم ، ووساوسهم وهواجسهم ، وأحزانهم وآلامهم . شعر يعبر عن أصحابه تعبيراً كاملا ، لا تشغله فى الأغلب الأعم الأحداث الكبرى ولا تستوقفه معارك السياسة، ولا يوجه الخطاب إلى الجماهير . وهو شعر تغلب عليه الرقة والحزن والانطواء ، فأكثر أصحابه من المثقفين الذين لم تواتهم الدنيا بثروة ولا بشهرة ولا بمنصب، وزعيمهم نفسه الدكتور زكى أبوشادى كان على تعدد مايشغله من شعر وتربية نحل، وتجارب فى المعمل ، ووظيفته فى الحكومة ، وترجمة وتأليف ، لم ينل مكانة فى المجتمع ، ولم يقر له بعبقرية ولا تفرد أو امتياز حتى هاجر من مصر وقضى بعيداً

عنها — كانوا موظفين قضت عليهم قيود الوظيفة أن ينأوا ، ما استطاعوا ، عن مهاب رياح السياسة ، وعصف أعاصيرها .

ولقد روى سلامه موسى أنه رشح نفسه يوماً لعضوية المجمع العلمى ، فاعترض وكيل الوزارة على ترشيحه وكان أبو شادى عضواً فى المجمع فلم يجرؤ على الدفاع عن سلامه موسى احتراماً لوكيل الوازرة أو للوزير ، واعتـــذر لسلامه موسى بذلك .

ولذلك لم تستطع جماعة أبولو ومن لف لف أعضائها ، وجرى على منهجهم أن يحتلوا مكانة الشعراء القدامى ، وصغر شأن الشعر فى المجتمع شيئاً فشيئاً .

غير أن المدرسة القديمة، لم تسلم لواءها للجيل الجديد من الشعراء إلا بعد أن أضفت على الشعر رواءاً جديداً ، وبعد أن اقتحمت به ميداناً بكراً لم تطأه قدم شاعر عربى من قبل ، ذلك هو ميدان المسرحية الشعرية ، وقد كانت مسرحيـــة شوقى ، مهما قيل فى ضعف حبكتها المسرحية ، وفى خلوها من أخطر عنـاصر المسرحية وهو الحركة ، واعتمادها على القصيدة ، فقد كانت بداية ، وكان فى وسع الشعراء الشبان ، أن يضيفوا إلى ذلك البداية ، ويعلوا فوقهـا البنـاء ، وأن يستكملوا النقص ويعززوا أسباب النجاح ، ولـكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء عزيز أباظه بمسرحياته التى احتذى فيها شوقى ، وقد كان أبناء مدرسة أبولو أولى أن يسلـكوا هذا الدرب الذى فتحه شوقى لهم .

وإذا أردنا أن نقوم رصيد االشعر فى تلك الحقبة من حياتنا ، كنا مضطرين أن نقول أن الشعر بعد أن بدأ مزدهراً غنياً انقطعت صلة الناس به فى بلادنا ، انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، فلم يعد أحـد يتـــذوق الشعر ، إلا من كان من المتخصصين والأدباء ، وتزداد القطيعة إتساعاً بين الشعر والناس يوماً بعد يوم

حتى يكاد يخرج من حياتنا ، ولا يدرى أحد ماذا سيفعل الشعر الحديث ، هل سيقدر له أن يحيا ، وأن يحتل مكانة الشعر القديم ، وأن يكون شاغلا من شواغل الناس ، وزاداً روحياً وفنياً لهم ؟ .

* * *

وقد اجتمع فى ذلك العصر ، من الكتاب عدد ضخم ، فكان المنفلوطى، ثم العقاد والمازنى وهيكل وطه حسين وعبد العزيز البشرى ، ومنصور فهمى، ومحمود عزمى ، ومحمد عبدالله عنان ، ثم مصطفى صادق الرافعى ، وأحمد حسن الزيات ، وأحمد أمين، وزكى مبارك، ومحمد مندور .

وكان فى جانب آخر من حياتنا الأدبية محمود تيمور، وتوفيق الحكيم،وحسن محمود ، وأحمد خيرى سعيد ، ومحمود طاهر لاشين ، ويحيى حقى، وحسين فوزى يؤلفون القصص أو يكتبون للمسرح أو عن الموسيقى أو يترجمون عن الأدب الغربى . ويتناولون من الأغراض ما لا يتناوله أبناء الطبقة الأولى ولا أبناء الطبقة الثانية .

وكان فى جانب ثالث أدباء لا تدرى أتنسبهم إلى مدرسة المقامات القديمة أم إلى مدرسة الأدب الشعبى ، منهم حسين شفيق المصرى ، ومحمد ابراهيم هلال ، ومحمد المهياوى .

وكان هناك صحفيون على آثارهم مسحة أدب كداود بركات وعبد القادر حمزة وأنطون الجميل وأمين الرافعى.

ثم وأخيراً تجد محامين ومؤرخين وأساتذة جامعات يساهمون فى الحياة الأدبية بجهد غير قليل فى مقدمتهم جميعاً عبد الرحمن الرافعى ، ثم لطفى جمعه المحامى ، والدكتور محمدصبرى السربونى والدكتور محمد كامل حسين(الطبيب) وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام .

وكان فى خلفية المسرح الأدبى أناس كتبوا فى أوائل الحركة الأدبية قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها ثم كفوا عن الكتابة ، وفى مقدمة هؤلاء ابراهيم رمزى صاحب كتاب (باب القمر) فى تاريخ البعثة المحمدية وصاحب المسرحية الأولى (عزة بنت الخليفة) و (الخروج من الحمام مش زى دخوله) و (شجرة الدر) .

وكان هناك صحفيون جددوا أسلوب الكتابة ووزعوا نشاطهم بين السياسة والأدب وبين مهن يرتزقون منها كالمحاماة والطب . ومن أعلام هؤلاء فكرى أباظه وسعيد عبده . اشتغل كلاهما بالصحافة وبالأدب الصحفى السهل الخفيف السريع وامتهن أولهما المحاماة والثانى الطب .

ماذا فعل هذا العدد العديد من الكتاب بأساليبهم المختلفة وأمزجتهم المتباينة . ماذا تركوا لنا ! كم يساوى أدبهم ! وكم تساوى آثارهم ! .

لسنا نستطيع أن نعتبر هؤلاء رواداً ، فلقد عبد الطريق أمامهم كتاب العصر الذى سبق عصرهم . عصر نهضة صحافة المقالة فى عهد مصطفى كامل بألويته الثلاثة العربية والإنجليزية والفرنسية ، وباللواء الشهرى ، وبمدرسته الكبرى فى التحرير ، التى تغذت بشبابه وفتوته ، وببلاغته الخطابية ، وبأسلوبه الجديد ، فى تناول أمور السياسة الداخلية والسياسة الخارجية : أسلوب الحرارة ، والتدفق ، والبساطة والتصميم ، وللتحدى .

هذه النهضة قد فتحت أبواب الفكر للشباب ، وقد نشأت مقابلها ، المؤيد والجريدة ، وكانت كل منهما مدرسة للكتابة ، جلت فيها اللغة العربية نفسها ، واستعادت شبابها ، وتخلصت نهائياً من الأغلال التى كانت تكبل أقدامها ، وتغشى عينيها : أغلال وسلاسل السجع المرزول والمحسنات

اللفظية الثقيلة ، والمترادفات التي تقتل المعنى وتستنفد الصبر . وانطلقت سهلة خفيفة تتناول الموضوعات التي تهم الجموع التي استيقظت على صوت مصطفى كامل الجيل الأخاذ ، ونغمات ندائه المتصل ، الذى يمس شغاف القلوب ويحرك الخيال ويثيره .

واتصل الشبان الذين يكتبون فى الصحف الثلاثة بأدب الغرب . وعرفوا روسو وبنتام وقرأوا كارليل وديكنز ، وداروين ونيتشه وآنس خطامم الأولى فرح أنطون ، فى مجلة الجامعة ، وشبلى شميل بصوته الجهورى ، وأحاديثه المتصلة عن مذهب النشوء والارتقاء فى الصالونات الأدبية ، وعلى المقاهى وفى غرف رؤساء التحرير .

ففضل الزيادة لم يكن للعقاد ولا للمازنى ولا لهيكل ولا لشكرى ، ولا لمنصور فهمى أو أحمد أمين أو سلامه موسى . كل الذى قاله هؤلاء ، كان قد سبقهم إليه جيل ماقبل سنة ١٩١٤ ، فماذا فعل هذا الجيل إذن عندما انتهت إليهم القيادة الفكرية . بعد أن مات مصطفى كامل وعلى يوسف ، وخرج من ميدان الصحافة والسياسة لطفى السيد ، وبعد أن اختفى فرح أنطون وشبلى شميل؟

أول مايستوقف النظر فى إنتاج هؤلاء الكتاب ، إنه كان جزئياً لا يتكامل لم يجرؤ أحدهم فى الغالب على إخراج كتاب إلا بعد أن تقدم العمر وطال عليهم فى الكتابة والصحافة المطال . كل ما أخرجوه فى النصف الطويل الأول من حياتهم مجموعات تضم مقالاتهم (فى أوقات الفراغ) لهيكل يقابله عند العقاد (مطالعات فى الكتب والحياة) و (ساعات بين الكتب) ، و (مراجعات فى الآداب والعلم) وعند المازنى (حصاد الهشيم) و (قبض الريح) و (صندوق

ولم يكن تأليف الكتب بطريق تجميع مقالات متفرقة مجرد مرحلة من مراحل الحياة الفكرية لهؤلاء الكتاب بل كان ذلك صفة من صفاتهم العقلية، تكشف عن طبيعة تكوينهم، وعن حدود قدراتهم ومواهبهم.

فقد كانوا منذ البداية عاجزين عن أن تكون لهم نظرة شاملة لأمر من الأمور السياسية أو الأدبية.

كان الأمر عندهم تنقلا بين الشخصيات والأفكار والكتب. وكان ما يصدر عنهم انطباعات سريعة، من قراءات لا تستولى عليهم، ولا تملأ حياتهم ولا وجدانهم. وإنما أقصى ما تستطيعه لهذه القراءات أن تدخل إلى نفوسهم نشوة الإعجاب بفكرة أو بشخص، ولكنها لا تلبث أن تنطفىء لتحل محلها إعجاب بفكرة أخرى وشخصية تالية. فهيكل الذى ألف كتاباً جيداً عن (روسو) من جزئين، لا يكاد يذكر روسو فيما كتب بعد ذلك وكأنه لم يقرأ له أو يقرأ عنه، دع عنك أنه ألف كتاباً طويلا عن حياته وأفكاره. والمقالات التى تقرأها فى كتب العقاد والمازنى عن نيشته ودور كايم وغيرهما، أشبه شىء بقاعات فى متحف صور، تجد فيها إنتاج كل الفنانين فى حياد يقف من الجميع على بعد واحد تقريباً.

ولذلك إذا فرغت من قراءة كل ما كتبه العقاد والمازنى وهيكل فعلا، لاتعرف بالضبط ما الذى يريده أى منهم، ثم لا تعرف الفارق بين الواحد منهم والآخر، فيما عدا الفوارق المادية من حيث الوضوح والغموض، أو جزالة الأسلوب ورخاوته، فإنهم فى واقع الأمر أبناء مدرسة واحدة، وقد انتقلوا جميعاً إلى التأريخ للإسلام، والدفاع عنه، وختموا حياتهم الفكرية بهذا التطور. وكأنهم كانوا جميعاً على موعد فى كل خطوة يخطونها. ويسوغ لك أن تساءل، بعد أن تقرأ كتب العقاد فى عبقريات محمد وعمر وأبو بكر والصديقة بنت الصديق والإمام على والحسين وعن الإسلام بين حقائقه وأباطيل خصومه، وكتب

هيكل عن محمد وأبى بكر وعمر ومنزل الوحى ، وكتب غيرهم ممن ينتسبون إلى نفس العصر ، ونفس المدرسة ، عن الإسلام ، لك أن تتساءل بعد أن تفرغ من قراءة هذه الكتب الكثيرة ما الفارق بين هيكل والعقاد وغيرهما حينما لم يكونوا يذكرون الإسلام إلا نادراً وهيكل والعقاد وزملاؤهم حينما وجهوا جهدهم الأدبى ، ووقفوا دراساتهم أو كادوا ، على الإسلام وأبطاله وأحكامه ، ومواقع معاركه ، وأثره فى الفكر الإنسانى ؟ وقد لا يروقك أن تعلم أنه لاشىء مطلقاً أو لاشىء تقريباً ، فكما كانوا يؤلفون فى الماضى عن روسو وجيته وبيكون كتباً ، وكما كانوا يكتبون مقالات عن فرانس ونيشته وعن الفلسفة الغربية ، وعن زعماء الفكر الأوروبى ، كتبوا عن الإسلام ونبيه وصحابة رسوله ، وعن أثره وفلسفته ، فما من شىء فى حياتهم تغير بتغير موضوع دراستهم وكتاباتهم ، وما من شىء تأثر فى أسلوب تفكيرهم ، وكان الطبيعى ، وقد بلغ الإعجاب عندهم بالإسلام إلى هذا الحد الكبير ، أن ينعكس على مسلكهم فى الحياة العامة وعلى تفكيرهم السياسى وهم رجال سياسة وصحافة ، هذا القدر من الإعجاب ، ولكنك لا ترى له أثراً ، وليس هذا إلا مظهراً كاشفاً عن موقف كتاب هذا الجيل كله . فالكتابة عندهم ، لم تكن معاناه روحية ، ولم تكن إعلاناً عن إيمان ، وعقيدة ، ولا ارتباط وتصميم ، وقد عجل هذا التحلل الروحى بنهاية هذا العهد ، وبالكارثة التى ختم بها :

بدأ هؤلاء الشبان حياتهم الفكرية ، وهم يتمنون أن يكونوا طليعة فكر (علمانى) . لا دينى . طليعة حرة ، لمدرسة من الأحرار ، لا تخيفهم التقاليد الموروثة ، ولا القيم التى أسبغ عليها الخوف والكسل والتراخى العقلى والوجدانى هالات قداسة لا تستحقها بل لعلهم تاقوا إلى الذهاب إلى أكثر من ذلك ، بالدعوة من التحرر من الدين كله أو الإقلال من شأنه ولكنهم لم يجرؤوا من البداية على التصريح بشىء من هذا ، وتركوا للجمهور أن يستنتج

من مسلكهم العام ، أنهم لا دينيون وأنهم يريدون أن يخلقوا حركة فكرية لاتهاب عمائم الشيوخ ولا الخرافات الشائعة بين الناس ، وأن يقتحموا قلاع الرجعية الفكرية ، فماذا فعلوا ؟ كان أقصى ما استطاعوا أن يفعلوه أن يذكروا اسم الرسول مجرداً من لقب سيدنا ، وألا يتبعوه بالصلاة عليه ، فسيدنا محمد ، هو عندهم محمد ، كما أن سيدنا أبا بكر وسيدنا عمر ، ليسا سوى أبى بكر وعمر وقنعوا بهذا وكفى الله المؤمنين القتال .

أما ما هم به طه حسين فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) من الدعوة إلى استبعاد القرآن والكتب المنزلة كمرجع تاريخى ، عند تحقيق العصور التى تعرض لها فى آياته ، فقد حذفه طه من كتابه فى الأدب الجاهلى ، فقد قامت قيامة علماء الأزهر وشيوخه ، وقامت قيامة زعماء المدرسة التقليدية ، فألفوا فى الرد عليه عشرات الكتب والمقالات ، أمسك بعدها عن هذا القول ، ولم يعد إليه ، وأعلن على الملأ أجمعين أنه يؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله .

وقد نهج نفس المنهج على عبد الرازق ، حينما أصدر كتابه « الإسلام وأصول الحكم » والذى قال فيه أن الخلافة لم تكن أصلا من أصول العقيدة الإسلامية ، ولا عنصراً من عناصر رسالة الرسول عليه السلام وأن القرآن والسنة لم يبينا أصول الحكم . فقد عزل من القضاء ، بعد أن حوكم أمام هيئة كبار العلماء ، فكان كتابه هذا بيضة الديك ، لم يكتب بعده ، كما لم يكتب قبله ، سوى « الأمالى » وأمسك عن القول فى الإسلام والخلافة ، وفى أى شىء آخر .

وكان المنتظر من هذه الجماعة التى أرادت أن توهمنا ، أنها متوثبة ومتحررة أن تقف موقفاً لا هوادة فيه من عدوين خطيرين ، يهددان مصر وأهل مصر ، هما الإحتلال البريطانى ، والملكية المصرية ، فماذا كان موقفهما منهما ؟ كان العقاد أول الأمر ، أعنف

فى مخاطبة الإنجليز وفى مخاصمة الملك . لـكن مخاصمته للانجليز ، كانت تآتى عادة فى المرتبة الثانية بعد العراك مع خصوم الوفد وخصوم سعد ، بل أن مخاصمة الإنجليز والتصدى لهم، كان فرعاً عن مخاصمةعدلى. فالإنجليز ليسوا مكروهين لذاتهم ، بل مكروهين لأنهم يسندون عدلى ، وهم فى الواقع يداولون الحـكم بين سعد وعدلى ، يسندون هذا حيناً وذاك حيناً ، ويؤججون بينهم نار المعارك .

أما هيكل فـكان بحكم كونه المتحدث باسم الأحرار الدستوريين ،أضعف صوتاًفى مخاصمة الإنجليز،وإن لم يتورط قطفى الثناء عليهم ،أو فى مهادنة الإحتلال أو التسليم به من حيث المبدأ ، أما الملك فقد كان الدستوريون بوصفهم ورثة حزب الأمة خصومه الرسميين وقد كان عبد العزيز فهمى أسبق إلى مهاجمة الملك فى شخص رئيس ديوان الملك حسن نشأت ، بكلمات عنيفة غاية العنف من العقاد ومن الوفد كله، كما كان أحمد عبد الغفار أكثر النواب جرءة حينما هاجم مخصصات الملك فى برلمان سنة ١٩٢٦ ، وهو برلمان الائتلاف . ولـكن طبع عباس العقاد ، ومزاجه أتاحا له شرف القولة المشهورة فى البرلمان ، سنة ١٩٢٨ « إننا مستعدون أن نحطم أكبر رأس تتآمر على الدستور » وقد دفع عن هذا الموقف الجليل تسعة أشهر فى السجن .

ولـكن ماذا انتهى إليه هذا الجيل من المفـكرين فى شأن الإنجليز والملك ، لقد هدأت المعركة مع الإنجليز . فقد استحال النضال الوطنى ، حرباً أهلية بين الأحزاب يصيب الإنجليز خلالها بعض الرشاش . ولـكن السهام والحراب ، والقذائف والمدافع توجه كلها إلى العدو الداخلى ، ولذلك هبطت الوطنية المصرية إلى مستوى كان له أسوأ الأثر على الفـكر .

لم يكن الناس يسمعون ولا يرون شيئاً يثير طموحهم الروحى ، ولا يحرك عواطفهم إلى مثل أعلى ولا يقودهم إلى تضحية نبيلة ، أو مغامرة جليلة . كان الصراع تافهاً وضئيلا ، وكانت أسلحته ضعيفة وصغيرة ، وكان كل ما يقال أو يكتب مكرراً معاداً ، فلم يؤثر عن كتابنا جميعاً فى هذه المرحلة كلام يستحق أن يخلد . كتب العقاد وهيكل والمازنى وعزمى وغيرهم من أمثال عباس حافظ وحفنى محمود ، آلاف بل عشرات الآلاف من المقالات السياسية الحزبية ، فلم يبق منها شىء مطلقاً . لم يذكر العقاد ولا المازنى ولا هيكل فيما كتبوه عن أنفسهم ، مقالا سياسياً ذا قيمة أدبية أو فكرية ، حين احتدم الصراع الحزبى واشتعل أدواره . بل إنى أذكر أن العقاد شكا لى يوماً فى بيته بمصر الجديدة أنه يشعر بأن ما يكتبه ، كأنما يلقى به فى بئر .

قارن هذا بما أثمرته الحركة الوطنية الهندية . من آثار أدبية كبيرة ورائعة. لقد كان غاندى ونهرو وساروجينى نايدو وأبو الكلام أزاد وشوكت على ومحمد على ،وغيرهم وغيرهم من العشرات والمئات ، مفكرين ، وخطباء ،وفلاسفة وشعراء ، أوحت لهم الفلسفة الغاندية أو الإسلام ، ومستوى النضال الرفيع الذى التزمته الحركة الهندية ، بالأفكار والقصائد والكتب وقد خلد أكثر ما قاله غاندى ،وجمع فى كتب ،ودرس ، وتناقله الناس فى أنحاء العالم يعلقون ويدرسون. وأنى لأدعوك أن تراجع كل ما قاله سعد زغلول وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت — وأن تقرأه — فإن وقعت على معنى إنسانى ذى قيمة أو على فكرة كبيرة ، تتجاوز أحداث اليوم ، فإنى لأكونن من السعداء .

ولذلك لم يكن غريباً ألا ترتسم فى الذهن صورة المناضل العنيد للانجليز ، إذا ما ذكر إسم واحد من كتاب العصر الذى نؤرخ له .قال كل منهم كلاماً حاداً أو ليناً ، متصلا أو متقطعاً ضد الإنجليز حسب مقتضيات ظروف الساعة ، فلما

انقضت هذه الظروف . لم يبق فى الذهن أثر لهـا فلم تـكن مخاصمة الإنجليز وإجلاؤهم عن البلاد شغلا شاغلا لواحد من كبار كتابنا بل أن العقاد خلال الحرب كان يذيع من الإذاعة المصرية لصالح الحلفاء ،وتوج جهوده بإصدار كتاب ضد هتلر ، فلما قربت جيوش الألمان من الإسكندرية هاجر إلى السودان .

أما الملك فقد تغير الوضع منه بعد وفاة الملك فؤاد، إذ لم يعد الملك عدواً للشعب ، لفترة طويلة ، بل أن العقاد ثار حينما منح الملك فاروق لبعض الصحفيين رتباً وألقاباً ، ولم يشمله العطف الملـكى الكريم ، وبقى الأمر على هذا المستوى حتى وقعت حادثة فبراير سنة ١٩٤٢، فكسب الملك عطفاً شعبياً جديدا ، بقى متقداً ومتجدداً حتى أوشكت الحرب على الانتهاء ومالت كفة الإنجليز إلى النصر فأخذ الملك يتقرب إليهم شيئا فشيئاً ، حتى أصبح جنرالا فى جيشهم،ونفض يده من محاولات الوطنية إلى غير رجعة .

ولما فسد الملك وفسدت بطانته ، وتوالت الفضائح وأخذ الناس يتململون مما يجرى وراء الستار ، وأحياناً أمامه وعلى المسرح ذاته من أمور شائنة تمس كرامة الشعب ومصالحه حيناً ، وتمس نزاهة الحـكم أحياناً ، لم نسمع لـكبار كتابنا شيئا ذا قيمة فى هذه الـكارثة القومية . وقد كان المنتظر من العقاد الذى بدأ حياته متنمراً يتوثب لمنازلة الملك ويهدد بتحطيم رأسه إن هو فـكر فى المساس بالدستور أن يقود حملة ضد الملك فاروق فلم يفعل ، بل إن الحملة بدأها غيره ، وحمى وطيسها ، وتوالت مواقعها ، والعقاد لاصـــوت له فيها ، وكبار كتابنا لا يساهمون بقليل أو كثير ، لتندفع إلى الأمام ويتسع نطاقها . لقد سقط اللواء من أيدى هؤلاء الـكتاب الـكبار ، فتلقفته أيدى جيل اخر ، مضى إلى غايته ، شجاعاً لا يلوى على شىء .

بل أن بعض كبار كتابنا ضفروا أكاليل الغار فوق رأس الملك فاروق ،

وأحرقوا من بين يديه البخور ، الأمر الذى لا تزال ذكراه عالقة فى الأذهان تسجل كيف أفلس هذا العصر إفلاساً مروعاً .

وجملة القول أن كبار كتابنا فى عصر ما بين الثورتين ، وعدوا بالتحرر ، وبالثورة ، وبقلب الأوضاع الفاسدة ، وبإطلاق العقول من أسارها ، ومجابهة دعاة القديم الرث البالى ، فلم يفعلوا من هذا كله شيئاً ، ساروا على القديم ، وأيدوه فى بعض الأحيان ، كفروا بالثورة ، وداروا دورة طويلة ثم عادوا إلى حيث بدأ عهدهم .

ولذلك أصبح من الهين أن يجتمع كبار الكتاب فى معسكر واحد . فقد كانوا منذ البداية متشابهين متقاربين ، فلم يفرقهم إلا النضال بين أحزاب لم يكن فى الواقع الأمر بينها خلاف فى الطبيعة ولا فى الأسلوب ، ولا فى الهدف . كانوا جميعاً ينتمون إلى مدرسة واحدة ، هى مدرسة حزب الأمة ، ثم باعد بينهم حينا تنافس على الحكم، ثم عاودا كما كانوا .

وأنى لأقطع بأن مجرى التاريخ كان يتغير ، لو أن هؤلاء الكتاب ،أدركوا رسالتهم على صورة أخرى. ولو أن الوقت اتسع لهم ليقرأوا ويستوعبوا ما قرأوه ويقفوا عند شىء من هذا الذى قرأوه وقفة تأمل ودراسة،لأفضى ذلك إلى عقيدة متكاملة كانت خليقة أن تدفعهم قطعاً إلى أن يلعبوا دور المناضل المستبسل . ولكن هذا التنقل بين الثقافات والدراسات جعل الأمر عندهم نزهة فكرية ، أو سياحة عقلية ، تتوالى فيها الصور وتتعاقب دون أن يقوم بين إحداها وبينهم ارتباط أو التزام .

* * *

على أن صورة هذا العهد لا تكمل إلا إذا وقفنا طويلا أمام شخصية أدبية كبيرة هى مصطفى لطفى المنفلوطى فلست أحسب أن النجاح كتب لكاتب مصرى مثلما كتب للمنفلوطى . بل أنى أعتقد أن الفترة التالية لنهاية الحرب

العالمية الأولى . يمكن أن تسمى عهد المنفلوطى . فلم يكن ثمة بيت يخلو من كتاب له ضم مقالاته هو (النظرات) أو من واحـــدة من الروايات الأربع أو الخمس التى عربها عن الفرنسية فأقبل الشباب عليها إقبالا حماسياً ، وتخاطفوها ، وحفظوا فقرات منها عن ظهر قلب ، وطبعت بأسلوبها أسلوبهم ، وتسربت ألفاظها وعباراتها وتشبيهاتها إلى ما يكتبون . وفى تاريخ الآداب ، يحدث أن يقبل الشباب — من الفتيان — والفتيات — على كاتب ، بينما يظهر الشيوخ والرجال النقمة عليه ، والـكره له . كما يحدث العكس . يعلى الآباء من قدر كاتب وينصحون أولادهم بأن يقرأوه ويتتلمذوا عليه . ويرفض الشباب هذه النصيحة إما لأن أسلوبه صعب لا يفهم ، وإما لأن أفـكاره جامدة لا تساير التطور ، وإما لأنه يتحدث فيما لا يعنيهم ولا يشغل بالهم . ولـكن هذه القاعدة لم تنطبق على المنفلوطى فقد أحبه الشبان والشيوخ معاً ، قرأه الأوائل فى إعجاب وحرارة ، وقرأه الأواخر فى تقدير واحترام .

وكان المنفلوطى أغرب من ترجم إلى اللغة العربية ، فقد كان لا يعرف الفرنسية التى ترجم عنها ولا يعرف غيرها من اللغات الأجنبية ، ولم يحاول أن يعرف . ولـكنه كان يتلقى من أصدقائه الذين يجيدون هـــذه اللغة ، ترجمة روايات وقصص فرنسية ، فيقرأ هو هذه الترجمة ، ويحيط بما جاء فيها ، ويتذوقها ، ثم يعيد كتابتها فـكأنه ينشؤها بقلمه ، أو يخرجها من قلبه .

ولـكن بأية لغة يكتب هذه القصص والروايات ؟ لغة هى البساطة بعينها تتسلسل ألفاظها فى اتساق عجيب . وتتوالى فى يسر أخاذ . ومع ذلك هى فى أعلى مراتب البيان العربى : لغة خالية من البديع الثقيل ، وبهرج المحسنات اللفظية الغليظة ، تمتاز بالرقة ، وبالوضوح ، وتسودها روح من الحزن أثرت فى قلوب شباب أمة خرجت من حرب عالمية دون أن تحقق أملها فى الحرية . ثم من ثورة

لم تلبث حتى بردت وجمدت فى مكانها . شباب أمة كان لايزال نصفه راسخاً فى قيود الحجاب يتطلع إلى السفور فى خجل واستحياء وتردد . وكان النصف الثانى حائراً لايدرى ماذا يفعل ، بعد أن خيل إليه أن ولسون رئيس الولايات المتحدة قد فتح باب الحرية للشعوب الضعيفة المضطهدة ، ثم بعد أن خيّل إليه أنه قادر على أن ينتزع حقوقه بيده عنوة، فثار وبذل دمه وحياته فى سخاء وشجاعة. ثم ألفى نفسه فى موضعه كما كان، لم يتقدم .

ولذلك كان التوافق شديداً بين الأحزان التى صورها المنفلوطى فى رواياته التى عربها . والأحزان التى كانت تجيش بها صدور فتيان الأمة وفتياتها . أحزان مصدرها دائما مثالية مخفقة ، وآمال خائبة، وفضيلة تتوثب وتريد أن تصارع وتناضل ، فى مجتمع مسلح بالتقاليد والعقائد البالية يدوس بقدمه فى غير رحمة العواطف الرقيقة التى تتحرك فى قلوب بريئة ونفوس طاهرة ، لا تطمع فى أكثر من حقها، ولا تمتد يدها إلى سلاح ولا تجنح إلى عنف .

كانت (ماجدولين) لالفونس كار وكانت (فى سبيل التاج) لفرانسوكوبيه (والفضيلة) لبرنادين دوسان بيير ، وكان (الشاعر) لأدمون روستان ، وجوهاً متعددة لشخصية واحدة : شخصية المثالى الذى يواجه المجتمع المتصلب ، المثالى الذى يؤثر التضحية فى صمت ، والذى ينكر ذاته غير ناظر إلى الجزاء أو الثواب . فماجدولين وبول وفرجينى وسيرانودى برجراك ، وروكسان. كل هؤلاء أنقياء طاهرون ، وكلهم مثاليون لاتستهويهم متع المجتمع ، ولا أبهته ، ولا مظاهر جاهه . ماجدولين انتحرت لأن حبيبها أساء الظن بها وهى مظلومة وبول وفرجينى ماتا غرقاً لأن الفضيلة حالت بينهما وبين النجاة ، وقسطنطين قتل بتهمة الخيانة حتى لايتهم أبوه بها، ويحاكم عليها، وهو يستحق ذلك وأكثر منه. وسيرانو ، قنع من الحب، بأن يعبر عنه ، ويبلغ فى هذا التعبير أسمى مايصل إليه الشاعر ، ثم لا يجنى من الحب ، إلا مرارته وخيبة .

كان المنفلوطى فى حياة الأدب المصرى العربى مرحلة هامة ، فى الحدود التى أنتج فيها ثماره . فهو لم يزعم لنفسه أنه صاحب رأى ، إلا أن يكون رأيه فى الحياة ، هو ما يخرج به القارىء من كل ما يقدمه من دعوة مستبسلة إلى الفضيلة ، وإن لم تكن الفضيلة قادرة على أن تثيب المتمسكين بها ، السائرين فى طريقها ، والدعوة إلى المثل الأعلى المجرد ، وإن لم يكن هذا المثل الأعلى فى متناول الأيدى ، والدعوة إلى الجهر بالحق ، ولو كان هذا الحق مغلوباً على أمره يائساً من النصر ، موقنا بالهزيمة .

كانت الأساليب العربية قد تحررت قبل المنفلوطى من السجع ومن المحسنات اللفظية التى تقتل المعنى ، وتحيل الكتابة صناعة بلا روح ، ولا هـــدف . فالمنفلوطى لم يحررها . وكانت الآداب الغربية قد بدأت تدخل فى حياة المصريين مترجمة — وإن كان ما ترجم منها قليلا — فالمنفلوطى لا فضل له فى لفت شباب المتأدبين إليها . ولكن المنفلوطى فعل أكثر من ذلك . ذلك لأنه وضع بين يدى الشباب سبعة أو ثمانية كتب ، فى لغة عربية صحيحة سليمة ، وحببهم فى القراءة ، ونقل إلى جموعهم صوراً مما يفكر به كتاب الغرب ، ورسم لهم صورة مجتمع لم يكونوا يعرفون الكثير عنه . وقد كانت اللغة العربية — وقد بدأت الأيام الأولى لتجديد شبابها — فى حاجة إلى عدد ضخم من القراء يرتبطون بها ، ويحبونها ، ويعرفون أنها أداة تعبير ، وليست مجالا لإظهار الثروة البيانية ، ولا ميدانا للعب بالألفاظ ، ولا مباراة فى الجرى فى دهاليز تلتف حول نفسها كأنها (المقرنصات) التى تحلى المساجد والبيوت القديمة ، وقوامها خطوط كوفيه تستدير وتتداخل ولا تقرأ ...

أحب الشباب لغة المنفلوطى السهلة ، الذاهبة إلى هدفها بلا تردد ، فأحبوا لغة بلادهم وجاشت فى نفس وقلب مئات منهم الرغبة فى أن يكتبوا ، لحاول

أكثرهم الكتابة ، مدفوعاً بيد المنفلوطى ، متأثراً بأدبه ، ولم يكن فى وسع أى كاتب من كتاب ذلك العصر ، غير المنفلوطى أن يحقق هذا الأثر ، فلم يكن لأى منهم هذه الموسيقى الهادئة الرائعة — ولم يكن فى مقدورهم جميعاً أن يشنفوا أسماع الشباب بهذه الأنغام البيانية التى لا ينفر منها الذوق ، ولا تجنى على العقل .

ولقد كان من حسن حظ اللغة العربية ، والأدب العربى فى مصر — أن المنفلوطى لم يتجه إلى روايات الرعب أو روايات الإثارة البوليسية ، فقد كانت إثارة كلها تمجيداً للمثل الأعلى ، وإعزازاً للوطن ، وإكباراً للفضيلة .

ولسنا نزعم للمنفلوطى ، أنه واصف ماهر لخلجات النفس الإنسانية ، ولا محلل صادق للعلاقات البشرية . فلم يكن هذا عنصراً من عناصر الرسالة التى اختير لها وأداها على أحسن وجه . لقد وصف كثيراً نفوس الناس ، ومواقف بؤسهم وشقائهم ، وتصدى لبواعث أزماتهم ومحنهم ، ولكنه كان يقنع دائماً بالظاهر الواضح من اضطرابات تلك النفوس ، وكان تصويره لها ، تصويراً لا يتعمق ، فلم تكن ثقافته ، ولا دراسته ولا مزاجه ، مما يعينه على الوصول فى هذا الصدد إلى شىء ذى قيمة ، ولكن ما كان يقوله وهو يصف الناس ونفوسهم ، وحزنهم وشقاءهم ، دعوة رقيقة لقرائه لأن يقرأوا المزيد من الكتب ، وأن يبذلوا الكثير من وقتهم ليتأملوا ذاتهم ، وليتأملوا الآخرين .

هذا هو المنفلوطى ، وهذا هو دوره : واحد من ذوى الآثار الجليلة فى تاريخ أدبنا ، سابق — بمنهجه وأسلوبه — لكثيرين ساروا على دربه ، ثم تناولهم الزمن بالتغيير والتطوير .

* * *

وقد كان من سمات هذا العصر أيضاً ، جورجى زيدان ، ولو أنه ينتسب

بتاريخه ـ مولداً ووفاة ـ إلى العهد الذى يسبق عصر ما بين الثورتين . إلا أن آثاره بقيت مقروءة ، فى هذا العصر الأخير ، فأصبح من حقه أن يعد من رجاله .

لقد نهض جورجى زيدان بأعباء أدبية كثيرة . أخرج مجلة (الهلال) الشهرية ، ثم كتاب تاريخ التمدن الإسلامى فى خمسة أجزاء ، ثم سلسلة روايات التاريخ الإسلامى إبتداء من عهد ما قبل البعثة المحمدية ، حتى عهد محمد على . فما بين فتاة غسان إلى أسير المتمهدى ، من روايات ، هو التاريخ الإسلامى حقبة حقبة .

لم يكن جورجى زيدان روائياً عالى الكعب — ولم تكن رواياته عملا أدبياً بالمعايير الحديثة للرواية أو القصة ، ولم يكن مؤرخاً تهيأ لعمله وتوافر عليه كما يتهيأ ويتوافر المؤرخ الذى يجعل تحقيق التاريخ هدفه . بل كان فى كل ما كتب من هؤلاء الذين يذللون العلم ويقربونه للناس . لا يتحيفون الحقائق ولا يطمسونها ، ولا يأخذون الوقائع مأخــذ الإستهانة والعبث ، ولكن لا يتابعونها ويتعقبونها تعقب العالم الذى يعتبر أن تحقيق كل جزئية هى الوديعة الكبرى التى أؤتمن عليها . ومن هنا استطاع شبابنا أن يقرأ تاريخه العربى فى كتاب تاريخ التمدن الإسلامى ، وأن يلم إلماماً طيباً بالوقائع الكبرى فى التاريخ الإسلامى فى رواياته التى بلغت نحواً من عشرين رواية .

ولم يخل عمل جورجى زيدان من الطعن ، فقد رماه الكثيرون بأن رواياته التى ألفها عن العهود الإسلامية — كتبت بروح متعصب للمسيحية ، كاره للإسلام ، وأنه دس فيها ما يجعل للمسيحيين فى كل دور من أدوار الإسلام أكبر مما كان لهم ، وغمز خلفاء المسلمين وأمراءهم هنا وهناك غمزات قد تخفى على غير المتمكن العارف بتاريخ حضارته ودينه ، ولكنها واضحة جلية للعلماء الجهابذة .

وقد يكون بعض هذا صحيحاً ، فجورجى زيدان مسيحى ، ولم يزعم لنفسه

أنه كتب هذه الحلقات التاريخية ليروج للإسلام ، ولا لينتصف له من المسيحيين، ولا ليحمل على المسيحية . واسمه ناطق بمسيحيته ينبه القارىء ليكون على حذر ولكننى أشهد بأن إخوانى وأنا قد قرأنا هذه الكتب ، وقرأتها من قبلنا غير نا فلم ينطبع فى نفوسنا إلا الحب للإسلام والإعجاب به ، ولما شببنا عن الطوق وأدركنا شيئا من تاريخ الإسلام وعن مواقف أعدائه منه ، ولم نجد فيما كتبه جورجى زيدان مآخذ تهدر عمله ، أو تؤهله للحرق أو الاستبعاد .

لقد اضطلع جورجى زيدان بمهمة كانت تشغل ، ولا تزال تشغل ذمة كتابنا ومؤرخينا وأدبائنا . فنهض بها فى همة ومثابرة ، يستحق عليهما الإعجاب .

والروايات الإسلامية التى كتبها جورجى زيدان ، وإن لم تكن كبيرة الحظ من الحبكة القصصية ، وكانت فى الأغلب الأعم تدور فى قالب واحد ، وتجرى فى أسلوب متشابه ، إلا أنها كانت واضحة ، لا يعيبها البطء ، ولا الإطالة فى غير مقتض ، ولا الخروج عن السياق . فلا ينقصها عنصر الحركة ، وإن كانت حركة هادئة ، والحوار فيها قليل ، ولا يرتفع إلى مستوى الإجادة ، ولكنه يؤدى دوره المتواضع فى رواية تاريخية . جملة القول أن روايات جورجى زيدان هى خامات لا بأس بها إلى اليوم ، وكانت فى درجة الجودة بالأمس ، وهى تنتظر فى الحالين ، قلم الروائى الموهوب ، ليخرج منها سلسلة حارة حية ، تعرض التاريخ الإسلامى ، فى يسر وسهولة ، وببساطة ووضوح .

أما تاريخ التمدن الإسلامى بأجزائه الخمسة ، فقيمته أنه أول عمل متكامل فى موضوعه ، كتب باللغة العربية الحديثة وحاول أن يجمع شتات تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد بقى هذا العمل معلقاً ، حتى نهض به ، أو بجزء منه الأستاذ أحمد أمين فى سلسلة فجر وضحى وظهر الإسلام بعد أن قام الأستاذ محمد كرد على ببعض هذا الواجب .

* * *

ومن سمات هذا العصر ، سمتان أخريان .

فى نحو سنة ١٩٣٧ ظهرت سلسلة (كتاب الشهر) وكانت عملا من أعمال شباب حزب مصر الفتـــاة ، ومن أبقى هـــذه الأعمال أثرا ، ومن أكثرها نفعاً . وأهمية هذه السلسلة أنها أرادت أن تجعل من نشر الثقافة السياسية والتاريخية هدفاً من أهداف العمل السياسى الوطنى بعد أن كانت السياسة فى مصر ، جهدا مجدبا لا يمد الشباب بزاد فكرى ، أو روحى ، وفى أن هذه السلسلة كانت النموذج الذى إحتذته بقية السلاسل التى جاءت على أثرها ، وقد كثرت هذه السلاسل ، فمنها من عمر ومنها من عاجلته الوفاة — ومن السلاسل التى عمرت ، سلسلة (إقرأ) التى أصدرتها دار المعارف ، ومن السلاسل التى توقفت عن الصدور (كتب للجميع) بعد أن أخرجت نحو مائتى كتاب ثم سلسلة (كتابى) ولم يسبق هذه السلاسل جميعاً إلا السلسلة المجيدة (مسامرات الشعب) التى كان يصدرها خليل صادق والتى أدت خدمـــة جليلة فى عهد ما قبل الحرب العالمية الأولى .

أما السمة الثانية فهى هذا الجهد العظيم الذى قام به الأستاذ كامل الكيلانى فى إخراج مكتبة الأطفال ، وسلاسلها المتنوعة ، متعاونا مع دار المعارف حيناً ، ومستقلا بنفسه حيناً آخر ، فهذا العمل كان بلاشك تطوراً فى نظرة المجتمع العربى ، إلى أساليب نشر الثقافة ، من جهة ، وإلى حق الطفل فى هذا النشر ، وحظه منه .

فالطفل هو أبو الرجل ، والأطفال الذين ينشأون بعيدين عن الكتاب ، والذين لا تولد ملكة القراءة عندهم وهم فى مراحل الحياة الأولى يصعب عليهم أن يقتربوا من الكتاب ، وأن يحبوه ، بل أن تعويدهم القراءة يصبح شاقا عليهم وعلى المربين . ولقد ذهب الأستاذ كامل الكيلانى ، فى إنشاء مكتبة الأطفال إلى مدى بعيد ، ومثابرته فى هذا الإنشاء سنة بعد سنة ، جديرة بأن تذكر كحسنة من حسنات العصر الذى نؤرخه ، وكفضل لكامل الكيلانى ، من الجحود ، عدم التنويه به

وقد كان للمسرح دور فى هذا العصر ، بعد تحضير وتمهيد رائع من أبناء العصر الذى سبقه .

والحق إن تاريخ المسرح فى بلادنا كان دامياً . سقطت فى ميدانه ضحايا كثيرون ، وضحايا حقيقية ، لا مجازية . فقدطوت المحن بعض أبطاله ، وكأنما ابتلعهم ماء البحر ، فلم يذكرهم أحد حتى اليوم . واستبسل بعضهم فى جهاده ، حتى ضربه المرض الجسيم ، ضربات متواليات ، فاحتمل وثبت ، واستمر يعمل مشلولا أو مقعدا حتى جاءه الموت ، وهو يستعد للصعود إلى المسرح وخرج أكثرهم من الحياة فقيرا معدما منسياً .

نعم ، إنه تاريخ مجيد ، يشبه كفاحنا الوطنى فى أعلى صوره . من منا يذكر عبد الرازق عنايت ، هذا البطل المجهول ، الذى أحب المسرح حتى ملك عليه لبه ، وحتى بذل فى سبيله كل شىء ؟

بلاشك إن هذا الرجل ، يستحق أن نفرد له صفحة كاملة بل فصلا كاملا فى كتاب المسرح المصرى فى الفترة التى بدأت مع مطالع القرن العشرين — من سنة ١٩٠٤ حتى سنة ١٩١٨ أو ما حولها .

فقد شيد هذا المجاهد المؤمن أول مسرح حديث من حر ماله ، على أرض سوق الخضار الحالى بميدان العتبة الخضراء — ووضعه فى خدمة مسرح (أحمد أبو خليل القبانى) الرائد الثانى للمسرح العربى بعد مارون نقاش وأخويه نقولا وسليم نقاش . ولكن هذا المسرح لم يلبث حتى احترق عن آخره وكان قدبذل فى سبيل بنائه وتأثيثه مالا كثيراً . ولكن عبد الرازق عنايت لم تهزه الصدمة على شدتها ، فأسس مسرحاً جديداً فى شارع الباب البحرى لحديقة الأزبكية غير بعيد عن ميدان الخازندرا وشارع الجمهورية (ابراهيم سابقاً) واطلق على هذا المسرح اسم دار التمثيل العربى ، وهو اسم اقترن بالكثير من أدوار وتاريخ

المسرح فى بلادنا وشهد الكثير من أيام ازدهاره ، كما شهد الكثير من محنه .

وفى هذا المسرح أقيمت لأول مرة المقاصير (البناوير) للسيدات وخصص فيه باب لهن ، واقتنى للمسرح الكثير من المناظر الفخمة والثياب الغالية والمعدات الفنية . وعلى هذا المسرح تألق الشيخ سلامه حجازى وبقى يجلجل صوته عليه حتى أصيب بالفالج فى ١٨ من يوليو سنة ١٩٠٩ وهو يصطاف فى لبنان .

وسلامه حجازى هو أيضاً بطل من أبطال المسرح المصرى جدير بكل تقدير واحترام ، كان أبوه بحاراً من أهل رشيد ، وحصل شيئاً من العلم فى كتاب وحفظ القرآن ، ثم اشتغل مؤذناً فى مسجد هناك ، ثم انتقل إلى الإسكندرية حتى عمل مؤذناً فى مسجد الأباصيرى ، فذاع صيته كمؤذن ، ثم سمع صوته أحد مؤسسى الفرق المسرحية الأولى فى بلادنا هو (يوسف خياط) فألحقه بفرقته ، ومنها انتقل إلى فرق الرواد الأوائل للمسرح كالقرداحى والقبانى واسكندر فرح . وقد استطاع صوته أن يجذب إلى المسرح المئات ، فى وقت كانت فيه المواصلات شاقة ، إذ لم تزد فى الأغلب الأعم عن ظهور الحمير ، فلم يكن فى وسع الأكثرية أن يركبوا العربات التى تجرها الجياد . وبفضل صوته شهد المصريون روايات مقتبسة ومعدة لتتفق مع ذوق المصريين عن شعراء أوربا مثل شكسبير وراسين وموليير . فشهد المصريون شهداء الغرام ، وضحية الغواية ، وتسبا ، وكان الشيخ سلامه حجازى يعزز صوته الجميل ، وأثره الأخاذ على الأسماع والقلوب ، بموهبة فطرية فى التلحين طوعت له الألحان ، وكان يؤدى ألحانه لا تسنده فرقة موسيقية ولا تقيد ألحانه فى (نوته) .

وقد كانت أغانيه كلها بالعربية الفصيحة ، كذلك كانت رواياته بهذه اللغة ، وما يزخرفها فى ذلك الحين من أسجاع ومحسنات بديعية أخرى .

هذا الصوت الجميل العميق الجليل ، قفز بالغناء المصرى ، تقفزة أقامته على

قدميه ، بعد أن كان جالساً على التخت يدندن ويهوم ، ويكرر المقطع عشرات المرات ، ويقطع الأغنية إلى أشلاء . كان يجتمع فى صوت سلامه حجازى ، صوت الخطيب وصوت الشاعر ، وصوت المؤذن . فأصبح الغناء فناً سليماً يحلد قوى السامعين ، ويرتفع بنفوسهم ، ويرفه عنهم فى الوقت نفسه . لم يكن تخديراً ولا تنويماً .

ولما أصيب بالمرض ، لم يستكن ، بل أنه عاد إلى المسرح ، وكان يدع أدواره للممثلين آخرين يقومون بها ، فإذا جاء دور الغناء ، أطفئت الأنوار فأظلمت خشبة المسرح ثم يدخل هو ، يصوب إليه النور — فيغنى غناء ينسى معه النظارة أن هذا المنشد المجلجل مريض لا يقوى على السير . وقد بقى على هذا الحال من الجهاد حتى يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، وكانت فرقته قد سبقته إلى المنصورة ، وكان قد وعد باللحاق بها ، وبينما تنتظره هناك ومعها جماهيره التى تعشق فنه جاء النبأ يحمل نعيه .

* * *

فى سنة ١٩١٢ جاء (جورج أبيض) بعد أن درس التمثيل فى باريس على يد الممثل الكبير (سوليفان) مبعوثاً من الخديو عباس . بدأ حياته فى مصر ناظراً لمحطة سيدى جابر ، إذ كان قد تعلم استعمال التلغراف فى بيروت . وبعد أن مثل روايات بالفرنسية على مسرح الأوبرا ، مثل فى مارس سنة ١٩١٢ على نفس المسرح رواياته الثلاثة التى اشتهر بها ، والتى لم ينجح فى غيرها ، نجاحه فيها ، ونعنى بها أوديب . ولويس الحادى عشر ، وعطيل .

وفى سنة ١٩١٣ ، ظهرت أول رواية مصرية ، باسم « مصر الجديدة » كتبها فرح أنطون أحد أفراد الجماعة اللبنانية التى حملت على أكتافها عبء الدور

الأول من أدوار المسرح المصرى ، أمثال اسكندر فرح ، وأولاد نقاش (مارون وسليم ونقولا) ثم قرداحى وقبانى . ومن الكتاب خليل مطران ، وطانيوس عبده ، ونجيب الحداد ، وإلياس فياض .

وقد قام عزيز عيد بمحاولات متصلة ليحول الجمهور المصرى من المسرح الغنائى ، ثم المسرح التراجيدى ، الذى تزعمه سلامه حجازى ، وجورج أبيض — وكانا قد اتحدا لفترة ما معاً فى فرقة واحدة — فلم يستطع مع كل ما بذله من جهد وما وضع فى خدمة هذه المحاولات من كفاية فنية كبيرة . فرواياته الفودفيلية مثل (ضربة مقرعة) ، (خللى بالك من أميلى) و (ياست ما تمشيش كده عريانه) مع ما كان فيها من إثارة حسية ومفاجآت وفكاهات ، ومواقف محرجة أخفقت جميعاً . وبقى الشعب المصرى متشبثاً بالروايات المأسوية ، وبالغناء حتى جاءت الحرب ، وأعلنت الأحكام العرفية وأظلمت الشوارع وساد الاكتئاب النفوس ، وتوالت المتاعب والمصاعب ، فمال الناس إلى الخفيف السهل والتمسوا أسباب الترويح والترفيه ، فظهر على المسرح نجيب الريحانى باسم (كشكش بك) — وكان قد ظهر من قبله على الكسار باسم « بربرى مصر الوحيد » — يؤلف له أمين صدقى .

وفى هذه الأثناء بدأ سيد درويش يشق طريقه إلى الضوء ، فلحن أول ما لحن رواية لم يسمع باسمها أحد ، لفرقة لم تظفر من تاريخ المسرح المصرى بسطر واحد ، تلك هى فرقة عمر وصفى ، أما الرواية فهى « بنات الشيخ والكهرباء » تأليف فرح أنطون . ثم لحن أوبريت (شهر زاد) لفرقة جورج أبيض وإخراج عزيز عيد ففشلت كذلك ، ثم لحن أوبريت « ولو » لفرقة نجيب الريحانى ، على مسرح الرينسانس ، فنجحت .

ولم ينجح عزيز عيد فى شىء مقدار نجاحه فى إبراز (منيرة المهدية) فقد

أعلن فى سنة ١٩١٥ وهو يحاول تقديم رواياته الفكاهية أنه سيسند هذه الروايات بالغناء الذى يعرف مدى تعلق المصريين به ، وكان قد عثر فى بعض المقاهى على مطربة مصرية ، أعجبه صوتها فقدمها معلناً أنه سيقدم للجمهور أول ممثلة مصرية ، وقد كان لهذه المطربة ، ذات الصوت القوى الشجى دور يستحق الذكر فى تاريخ النهضة المسرحية ، بدأت حياتها الفنية بأداء أدوار الشيخ سلامه حجازى ، مرتدية ثوب الرجال ، فخلبت ألباب السامعين ثم كونت فرقة لها ، ومثلت روايات الشيخ سلامه حجازى « صلاح الدين — روميو وجوليت — عايده — على نور الدين — صدق الاخاء » .

والحق أن صوتها كان قوياً متعدد الطبقات ، عميقاً ، مرناً ، وقد خطت خطوة كانت فى عهدها شيئاً كبيراً جداً ذلك هو تقديمها أوبرا كارمين ، ترجمها لها فرح أنطون ، بعد تعديل وتبديل كبيرين على عادة المقتبسين والمترجمين فى تلك الأيام . وقد كان فرح أنطون أول من استعمل لفظ (الاقتباس) . ثم قام بتلحين هذه الأوبرا كامل الخلعى ، وقدمت لأول مرة فى ٢١ من مارس سنة ١٩٢٧ — فاستقبلها الجمهور استقبالا حماسياً إذ اشترى جميع التذاكر قبل الحفلة بأسبوع ، ولم يكن شىء من هذا معروفاً فى بلادنا ، وبقى الجمهور حريصاً على مشاهدة هذا العمل الفنى الجديد ، حتى كانت إدارة المسرح مضطرة فى بعض الأحيان إلى الاستعانة بالبوليس . وقد كانت ألحان هذه (الأوبرا) إن جاز تسميتها بذلك ، مضبوطة (بالنوتة) .

ثم أخرجت منيرة المهدية رواية غنائية ثانية هى الغندورة من تأليف الشيخ يونس القاضى ، ثم أخرجت بعد أن وضعت الحرب أوزارها رواية كليوباترة ومارك أنطوان التى بدأ تلحينها سيد درويش ، ثم أكمله عبد الوهاب .

كان إخراج رواية غنائية — ودع عنك ما إذا كانت أوبرا أو أوبريت

أو شيئاً بينهما — منذ خمسين عاماً عملا يبشر بأن الخطوات فى طريق السداد ، وأنه مجرد مقدمة متواضعة لجهد كامل يزداد مع الأيام نضجاً . ولكن ما لبثت الجهود أن توقفت ، وعدنا إلى (التخت) وبقيت ألحاننا وأغانينا تدور فى حلقة مفرغة ، وفى مستوى بدائى ، بعيد عن الأسس العلمية والقوالب العلمية يستغرق الغناء الفردى البسيط كل نشاطنا الفنى ، ونبذل له من الوقت والجهد والمال ، وكأنه غاية الجهـــد الفنى ، وهو فى الواقع أدنى المراحل ، وأقلها استحقاقاً للعناية ، لأن وظيفة الغناء الفردى ، هو الترفيه السريع والخفيف عن الناس .

* * *

ساد المسرح الاستعراضى « الغنائى » الحياة الفنية فى مصر منذ بدأت سنو الحرب ، واستمر هذا الطراز من الفنون المسرحية هو الغالب حتى كانت سنة ١٩٢٣ — سنة عاد يوسف وهبى من رحلة فى إيطاليا ، وكان والده قد توفى فورث عنه مالاً قيل إنه لم يكن قليلا فأقنعه عزيز عيد ، بإنشاء فرقة مسرحية ، فاستجاب لهذه الدعوة ، وأنشأ مسرحاً على أرض كانت تستعمل (جراجاً) أو مخزناً بشارع عماد الدين ثم حملت الفرقة اسم (رمسيس) فكان اسماً فريداً بين أسماء المسارح وصالات الغناء فقد كانت جميعاً ــ باستثناء دار التمثيل العربى ــ أسماء أجنبية فهى بين كازينودى بارى إلى البرنتانيا ، والأجبسيانا والأبى دى روز والرينسانس والكوزمو ــ وقد امتازت الفرقة بشىء آخر لم تعهده حياتنا الفنية من قبل وهو مثابرة الممثلين على (بروفات) مرهقة ، ومنتظمة ، كانت تدار كالحصص فى المدارس . وقد انعكست هذه الشدة فى المحافظة على مواعيد (البروفات) ، على دقة مواعيد بدء الحفلات المسرحية

فقد كان مسرح رمسيس مضرب الأمثال فى المحافظة على المواعيد ـ كما كان المسرح نفسه آية من آيات النظام . وكان الممثلون جميعاً من الشباب المثقف الذى أحب التمثيل وانقطع له لا بحثاً عن الرزق ، بل إشباعاً للهواية فقد كان من أبطال هذه الفرقة حسين رياض ، وأحمد علام ، وزكى رستم ، وفتوح نشاطى ، ثم كان من الممثلات روز اليوسف ، وزينب صدقى ، وفاطمة رشدى ، وأمينه رزق . وقدمت السنة الأولى لهذه الفرقة عملا فنياً نظيفاً متقناً ، فأقبل الناس على مسرح رمسيس ، معجبين ونخورين . ولكن لم تلبث هذه المكانة حتى تدهورت شيئاً فشيئاً ، ذلك لأن الروايات الميلودرامية ذات اللون الصارخ رجحت كفتها فى برنامج مسرح رمسيس ، ثم جاءت نقطة التحول الحاسمة ، بنجاح رواية (عاصفة فى بيت) التى قدمها جورج أبيض ، وكانت بقلم أنطون يزبك المحامى اللبنانى الأصل ، وقد شجع نجاحها على تقديم روايات شبيهة بها من حيث كثرة فواجعها ، وغزارة ما يسفكه أبطالها من دموع ، وضخامة ما يطلقونه من صراخ . وقدم الرواية الجديدة هذه المرة مسرح رمسيس باسم (الذبائح) فنجحت نجاحا ساحقا .

وكان نجاحها بداية عهد المسرحيات المصرية المكتوبة باللغة العامية القائمة على إثارة عواطف الحزن فى قلوب المتفرجين ، واستدرار دموعهم .

وختم هذا كله بالخاتمة التى كانت متوقعة ، وهى إفلاس المسرح نهائياً ، وانصراف الناس عنه كلية ، فقد جاءت الحرب العالمية الثانية ، بموجة طاغية من الإنتاج السينمائى الرخيص الذى وجد مجال الكسب والنجاح المادى فيه ، مفتوحاً على المصاريع بسبب صعوبة إستيراد أفلام أفضل من الخارج . لم يكن هذا الإنتاج بطبيعته ، عملا أدبياً أو ثقافياً ، بل كان عملا تجارياً بحتاً أزهق

الروح الفنية ، وأقام فى طريق الحياة الأدبية السليمة فى بلادنا صعابا جمة ، لا تزال قائمة إلى اليوم . ولما كسد المسرح ، وضعف مقامه عند الناس ، واستولت السينما على أبطاله ، فكرت الحكومة أن تنشىء فرقة حكومية تضم أبطال المسرح ، وقد أنشئت فعلا هذه الفرقة بإسم الفرقة القومية فى سنة ١٩٣٠ فحاولت ما استطاعت أن تقيم المسرح على قدميه وأشرف على إدارتها أول الأمر الشاعر خليل مطران ولكن لم توضع لها سياسة واضحة المعالم تعين على بعث المسرح وتستعيد جمهوره ، ولكنها كانت علامة على وجود المسرح ، ودليلا على عدم اندثاره ، وقد شفع هذا العمل بعمل آخر لا يقل عنه قيمة ، وهو إنشاء معهد للتمثيل ، فقد قرر الأستاذ مراد سيد أحمد وزير المعارف إنشاء المعهد ، ولكنه حينما ترك مكانه لحلمى عيسى من بعده ، ألغى الجانب التجريبى من دراسات المعهد ، بحجة أن ذلك القسم يؤدى إلى اختلاط الشبان والشابات .

* * *

على أن الحرب لم تكد تضع أوزارها حتى بدأ نجيب الريحانى دوراً جديداً من حياته ، بفرقة كتب لها النجاح والاستمرار على الوجه الذى لم يكتب لفرقة غيرها . بدأ نجاح نجيب الريحانى برواياته الاستعراضية التى عرف فيها هو بإسم (كشكش بك .) وقد كانت هذه الروايات ، وروايات زميله على الكسار أليق ما تكون بظروف الحرب التى لا تحتمل فناً جاداً ، ولا مسرحاً وقوراً . وقد رفهت الفرقتان فعلا عن أعصاب الشعب المرهقة ، وخففت من متاعب وأحزان الناس فى خلال سنوات الحرب القائمة القاسية ، ولما انتهت الحرب ، لم تطور الفرقتان نفسيهما ، فعجزتا عن تقديم شىء ذى قيمة ، يستلفت الأنظار فانتهتا تماما . إلا أن نجيب الريحانى عاد قبل نهاية الحرب العالمية الثانية ، بفرقة

قدمت سلسلة من الروايات الفرنسية التى مصرها الأستاذ بديع خيرى ، وطعمت بمشاهد تصور بعض مايقع فى حياتنا العامة من عيوب فوجد فيها النظارة ، تعويضاً عن الفراغ المروع الذى كان الإنسان يواجهه كلما اتجه إلى ناحية من نواحى حياتنا الفنية . لكن لا تظنن أن هذه الروايات كانت تصور دائماً حياتنا تصويراً أميناً ، أو قريباً من الواقع ، فقد نقلت عن المسرح الفرنسى ، فخرجت فى أحيان كثيرة أبعد ماتكون عن حياتنا وعاداتنا وتقاليدنا ، واتخمت بشتائم مسرفة ، إلى حد كبير . واعتمدت فى معظم الأحيان لإضحاك الجمهور على أسماء غريبة لأبطال الرواية ، ولكن لم يكن هناك منافس لهذه الفرقة ، وكان الناس أكثر ما يكونون جوعاً إلى فن مصرى يخاطبهم فى شئونهم وينقد عيوبهم ، ويصور لهم حياتهم ، فوجدوا فيه ما يتوقون إليه عند هذه الفرقة ، فمنحوها تأييداً وتشجيعاً وبالغوا فى ذلك إلى حد إسباغ صفات الفلسيوف والمفكر والمربى والفنان الخالد ، والممثل الخلاق ، على (نجيب الريحانى)

* * *

والكلام عن المسرح لا يكمل إلا إذا تحدثنا عن مجلة المسرح التى صاحبت نهضة المسرح فى السنين الثلاث الأولى من حياة فرقة رمسيس ، فقد أخرج هذه المجلة الأستاذ محمد عبد المجيد حلمى وهو شاب من أهل الصعيد — كان يحرر فى جريدة كوكب الشرق التى كان يصدرها أحمد حافظ عوض النائب الوفدى ، والصحفى الذى كان من محررى الجريدة ، وكان بعد ذلك المستشار السياسى للخديو عباس .

وكانت المجلة قطعة حارة من النقد المسرحى ، استطاعت بفضل حدة أسلوب كاتبها ، وشدة حملاته على ما كان يراه من عيوب المسرح فى ذلك الحين ، أن تشيع حب المسرح فى قلوب الشباب ، فأصبح فى كل مدرسة فرقة

تمثيلية ، وكان أبطال المسرح المصرى هم أبطال الشباب ونماذجه المحببة . فقد كسفت شمس المسرح ، شموس الفنون والهوايات الأخرى ، فانسحب أبطال الكرة وفتر الاهتمام بالغناء . ولكن أصيب عبد المجيد حلمى صاحب المجلة بذات الصدر فمات شابا بعد أن نشر مجموعة من الرسائل الملتهبة ، ووجهها إلى حبيبة لم يكشف عن اسمها ولكن عرف فيما بعد أنها كانت نجمة الغناء فى ذلك العهد — منيرة المهدية .

وقد يكون هنا موضع للاشارة إلى بطل من أبطال المسرح المدرسى فى بلادنا ذلك هو الأستاذ محمود مراد مدرس التاريخ بمدرسة الخديوية، الذى مات شابا بعد أن بذر فى قلوب تلاميذه حب المسرح، وبعد أن ألف لهم رواية «مجد رمسيس» وغيرها.

ولكن ماذا يكون رصيد الحركة الفنية ، عند مطلع ثورة ١٩٥٢ ، وكم يساوى ؟ ؟ أحسب أننا بعد هذا العرض ، لسنا فى حاجة إلى رد على هذا السؤال .

كنا فى ميدان الفنون التعبيرية : فنون المسرح والغناء والموسيقى بلا حياة فنية . كانت المحاولات السابقة على حرب سنة ١٩١٤ ، لبناء المسرح ، ولتطوير الموسيقى والتى اضطلع بأعبائها الشيخ سلامه حجازى ، مع عبد الرازق عنايت وجورج أبيض والمحامى عبد الرحمن رشدى ، ومنيرة المهدية ، تبشر بحياة أفضل وأكثر سلامة لو اضطردت خطواتها على نفس الطريق الذى بدأته ، ولو وجدت لمن يقومها ويزيدها سداداً ، وينفق عليها . قلت أن عبد الرازق أنشأ فى وقت مبكر أى فى سنة ١٩٠٥ مسرح دار التمثيل ، بعد أن احترق له مسرح على أرض سوق الخضار ، وانشأ طلعت حرب سنة ١٩١٩ شركة ترقية التمثيل العربى ، وبنى مسرح الأزبكية لتؤدى عليه فرقة أولاد عكاشة أوبراتها أو اوبرتاتها مثل « شمشون ودليله » و « هدى » و « عبد الرحمن الناصر » و « الدرة » ومن هذه الأبروتات ما كتبه توفيق الحكيم وحسين فوزى فما الذى حدث حتى قضى على هذه الأعمال الجميلة فماتت فى المهد ما الذى صرفنا عن الأعمال الغنائية الكبيرة إلى الغناء الفردى ، الذى يدور فى حلقة ضيقة لايخرج منها ؟

لقد كان سيد درويش بالأبريتات التى لحنها (كا لعشرة الطيبة) و(الباروكة) و (شهر زاد) زادا جديداً للحركة الفنية ، فقد أدخل فى غنائنا ، غناء المجاميع ، والغناء الثنائى ، واستلهم لألحانه ألحان الشعب الموروثه وجعل التلحين وسيلة تعبير ، تماماً كلفظ الأغنية ، ونص القصيدة . وصور بألحانه حياة الطوائف المختلفة وتهيأ لهذه الألحان العذبة الحية النجاح بفضل مشاركة بديع خيرى فيها بنصه الجميل ، وأزجاله المتقده ومعانيه الوطنية .

ولكن ما الذى حدث حتى عدنا إلى الوراء بظهورنا فلم نقو على بعث الروايات الغنائية حتى بعد وفاة سيد درويش فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، بنحو أربعين عاماً بل أننا لم نستطع أن نعيد عرض أعمال سيد درويش فى سنة ١٩٦١ وما بعدها؟

لا شك فى أن العيب فى ذلك روحى ، فلقد كانت حياتنا العامة كلها ارتحالا ابتداء من السياسة وانتهاء بالأدب ، مارا بالاقتصاد .

كانت النهضة الفنية التى رأينا بوا كيرها فى سنة ١٩٠٥ ومابعدها موا كبة لحركة البعث الوطنية التى أشعل جذوتها مصطفى كامل فقد صدر اللواء سنة ١٩٠٠ فتحركت كل عناصر الحياة فى نفس الشعب ، غنى الشعراء ، وألف الكتاب وكثرت الصحف ، وتعددت الأندية الأدبية ونشطت حركة الترجمة ، والتفتت الأذهان إلى الحركات الفكرية والسياسية فى أوروبا ، وازدادت هذه العناصر النشيطة احتداماً حتى انفجرت سنة ١٩١٩ فشمر الشعب عن سواعده ، وأصبح له هدف واضح يسعى إليه ، ومعركة يتهيأ لخوضها ، بل معركة خاضها بالفعل ، وعلى صوت الرصاص المدوى ، وهتافات الجماهير العالية ، وتدافع المستشهدين لملاقاة الموت ، وسقوط الأغلال والقيود من فوق الأيدى والأعناق عرف الفن طريقه . فلما أجهضت هذه الحركة الوطنية ، وفقدت المعركة حرارتها وجلالها ، انقطع الوحى عن الفن لتتلقفه التجارة . فأصبح غناء جنسياً

صارخاً ، ثم هذب بعض الشيء حينما ظهر الغناء الرومانسى ، غناء الدموع ، والتدلل والفناء فى المحبوب . والانقياد له ، وهو غناء كان يتفق مع روح العصر الذى نفض يده من سلاحه منذ وئدت ثورة سنة ١٩١٩ ، فلم يبق أمامه إلا الشكوى والتأوهات

ولم يتغير الأمر فى الغناء ، بوقوف المطربين والمطربات أثناء الأداء ، بدلاً من الجلوس مع أفراد التخت ، فان تقاليد التخت بقيت مرعية . فالمغنى يكرر الفقرة الواحدة من الأغنية الواحدة عشرين مرة ، ثم يمزق الأغنية أشلاء — يبدأ بالمقطع الأول ثم ينتقل إلى ما يليه ثم يعود إليه ، ثم يتركه إلى الثالث ثم إلى الرابع ثم إلى الثانى وهكذا حتى يصاب السامع بدوار ، يسلم نفسه بعده إلى شيء يقرب من النوم مع حشرجة هى فى الأصل تأوه واستجابة للغناء ، وهى فى النهاية إيذان بنفاد طاقة الصراخ والتشنج عند المستمعين ، إلا جماعة منهم تزود بالمنبهات والمثيرات التى تعينها على العربدة والصخب إلى نهاية السهرة .

نعم ، لقد أصبحت حفلاتنا الغنائية ، نسخة من حلقات الزار التى تقفز فيها المريضات بأعصابهن ، فى حركات دائرية ، أو رأسية ، مع التطاول والتقاصر ، والتثنى والتلوى ، التماساً لتخفيف الضغط الداخلى ولا يزال الحال على هذا المنوال .

والغناء شقيق الموسيقى ، ولو صلح حال الموسيقى — لصلح — لكنها تركت بغير تقويم علمى ، ولم نقنع بترك موسيقانا على حالها ، بل زدناها سوء إذ خلطناها بالموسيقى الغربية ، باسم التجديد - فخرجت موسيقانا الحديثة ، مسخاً لا هى شرقية ولا هى غربية ، فأفسدنا الأذواق ، وسددنا طريق التطور السليم . طريق تعلم الموسيقى الغربية على أصولها الحديثة ، وحفظ موسيقانا القديمة نقية ، ومحاولة الانتقال من تراثنا اللحنى العريق مصبوباً فى قوالب الفن الغربى

المتعارف عليها ، وذات الحدود والضوابط الواضحة ، إلى الأساليب العالمية

ومما يدل على أن ما أصاب فنوننا التعبيرية من بوار ، سببه نضوب المعين الروحى فى حياتنا ، بعد إخفاق ثورة سنة ١٩١٩ ، وشمول الحيرة لأبناء الشعب إننا نجد توثباً فى مجال الفنون التشكيلية (الرسم والنحت والحفر) فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، شبيهاً بما رأيناه فى مجال الفنون التعبيرية فإن أول تمثال نحته محمود مختار ، كان فى تلك الفترة ، ولكن ما الذى أنقذ الفنون التشكيلية فى بلادنا من التردى فى الهوة التى تردت فيها فنوننا التعبيرية ؟ أول ما أنقذ الفنون التشكيلية من السوقية والابتذال ، إنها بطبيعتها لا تتأثر كثيراً باعتبارات التجارة ودواعيها ، الأمر الذى نجده قوياً وواضحاً فى مجـــال فنون الغناء والموسيقى والمسرح ، فالأخيرة توجه إلى الجموع ، والربح الذى ينتجه مستغلو تلك الفنون إذا أحسنوا الاستغلال ، ربح ضخم جداً .

والأمر الثانى أننا بدأنا فى مجال فنون الرسم والحفر بداية سليمة فقد أنشئت فى مصر مدرسة للفنون الجميلة استقدم لها الأمير يوسف كمال أساتذة أجانب ، فتلقى أولادنا على أيديهم الأصول الحديثة لهذه الفنون القديمة ، وبعد أن أتموا دراستهم فى مصر ، أكملوها فى الخارج ، فلما عادوا كانوا أساتذة للجيل الذى يليهم ـ فتلقى العلم مثلهم وسافر أيضاً إلى أوروبا ، وهكذا . فوجدت نواة سليمة للفن على أصوله الحديثة ، نشرت حولها ، تقاليده فى بلادنا بناها الفنانون الأوائل وتركوها لغيرهم ليعلوا عليها البناء .

ويقول حامد سعيد فى كتاب الفن المعاصر فى مصر ـ عن اتصال ظهور مختار بحالة الامتلاء التى صاحبته الثورة .

« كان مختار فى الفن بشرى « العصر الجديد » الذى عاد فيه حنين هذه الكتلة البشرية إلى الحياة الخلاقة ـ بعد أن طالت عليها الآماد تحيا كما تحيا

النباتات فى البذور . كان هو النبت أو رمزه — وفى صحبة هذا التشبيه يرى تحته فى ضوء مفيد : فالريح رمز الروح تلعب دوراً فيه وكأنها الإشارة إلى عــودة الحياة ، داخل البذرة إلى النور والهواء . »

ويقول برنارد شو عن بتهوفن « كان بتهوفن موجة طامية فى تلك العاصفة الهوجاء التى هبت من أعماق الروح الانسانية وأنتجت الثورة الفرنسية » . فلا بد من ثورة مجيدة لخلق فن مجيد .

* * *

أما الصحافة — وتعنينا هنا الصحافة الأدبية — فقد كانت أكثر الأجهزة الأدبية تأثراً بالجدب الروحى الذى أصاب حياتنا فى أعقاب فشل ثورة سنة ١٩١٩ . كانت الصحافة سلاحاً من أسلحة الثورة ، تأثرت بها ، فى حالتى الازدهار والفشل . دبت إليها الحياة دافقة حارة ، حينما كانت الثورة منطلقة ، فلما تعثرت فى أوحال الخلاف الحزبى ، أصبحت سلاحاً لهذه المعركة الداخلية الضئيلة المعنى .

ظهرت فى فترة الحرب مجلة « السفور » للأستاذ عبد الحميد حمدى، وتعاون على التحرير فيها محمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وطه حسين وأحمد أمين ، ثم ظهرت مجلة الشباب حوالى سنة ١٩١٩ لأحمد خيرى سعيد ، وكان يكتب فيها ويكتب فيها معه الدكتور حسين فوزى ومحمد تيمور ثم مجلة الفجر التى عاونه فى تحريرها محمود طاهر لاشين ومحمود تيمور . وكان من كتّاب هاتين المجلتين أيضاً ابراهيم المصرى وحسن محمود وأحمد شوقى حسن وفايق رياض وأندريا جبريل[1] .

---

(١) مقال للدكتور حسين فوزى فى عدد الأهرام الأدبى يوم الجمعة ٣٠/٤/١٩٦٥

كان هؤلاء جميعاً نواة المدرسة الادبية الحديثة ، قرأ أكثرهم الأدب العربى القديم ، وقد حدثنا الدكتور هيكل والأستاذ أحمد أمين عن ذلك كما حدثنا غيرهما ، فأحبوا الجاحظ وآمالى القالى ، وأمثال الميدانى ، وعرفوا العقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغانى للأصفهانى ، ثم ما لبثوا حتى عرفوا الأدب الانجليزى ثم الأدب الروسى فشغفوا به ، وتأثروا بمنهجه ، وتتلمذوا على ديستفسكى وتشيكوف وتورجنيف ، وألف بعضهم القصص القصيرة ، والبعض الآخر كتب للمسرح ، ونقدوا مؤلفات بعضهم البعض واستمعوا إلى مطالعات فى الآداب الغربية لمختارات تعجب الواحد منهم ، فيأبى إلا أن يشرك الاصدقاء والاخوان فى التمتع بها .

ولكن تبحث عن هؤلاء بعد أن لفظت الثورة أنفاسها فلا تجدهم أو تكاد ـ المجلات اختفت ، وتفرق شملهم وعين بعضهم فى وظائف ، وسافر فريق منهم إلى الخارج .

وبقيت البلاد بلا جريدة أدبيـــة تقريباً حتى ظهرت السياسة الأسبوعية فكانت امتداداً لمجلة السفور ، فأكثر الذين كتبوا فيها ، شاركوا فى تحرير السياسة الأسبوعية — ولكنك تبحث فى السياسة الأسبوعية عن مسرحية واحدة بقلم واحد من هؤلاء أو من غيرهم ، فلا تجد ، كما لا تجد قصة ، ولا نقد الكتاب إلا فى النادر بل لا تشهد على صفحاتها معركة واحدة ، حول قضية من قضايا الأدب . وظهرت بعد ذلك البلاغ الأسبوعى لتكون نظيراً للسياسة الأسبوعية ، قام على تحريرها إبراهيم المصرى . ولكنها كانت أقل لمعاناً من السياسة ، وأن إشتركا سوياً فى صفة الهدوء ، وفى انعدام المنهج فى كليهما — فلم تضع إحداهما لنفسها سياسة التعريف المنتظم المستقر بالأدب الغربى والجديد من آثاره — ولا تقريب الأدب — العربى القديم والكشف عن كنوزه — لحديث الاربعاء

الذى كان فصولا بقلم طه حسين فى الأدب العربى القديم — لم ينشر فى السياسة الأسبوعية بل فى السياسة اليومية ، كل أربعاء — كما يدل عليه إسمه — ومع ذلك اختفى البلاغ واختفت السياسة الأسبوعية بعد سنين قليلة . لتظهر بعد ذلك الرسالة ثم الثقافة ، فيشترك فى تحريرهما أحمد أمين أحد أعضاء أسرة السفور ، وإن كان محرروها هم أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد أديتا دوراً كبيراً وأتاحتا فرصة الظهور لعدد من الكتاب الشبان الذين رسخت أقدامهم فيما بعد ، وتلقوا اللواء من الجيل ، الذى سبقهم . ولكن لم تكن الرسالة ولا الثقافة أوفى حظاً من السياسة أو البلاغ فى المنهج والخطة . فالمقالات تأتى من الكتّاب اعتباطا ، وتنشر اعتباطا . فالمجلتان لا تدعوان إلى شىء واضح محدد فى الأدب — ولا فى الحياة ، وهما عاجزتان عن إعطاء صورة للنشاط الأدبى فى بلادنا أو فى بلاد العرب . فما يصدر فى مصر من الكتب لا يقدم للقراء ولا ينقد إلا عندما تقضى المصادفة ، وما يجرى فى سوريا والعراق وفلسطين — دع عنك تونس والمغرب — لا يحتفل به ، ولا يشار إليه . وما يجد فى إنجلترا وفرنسا أو ألمانيا من المذاهب والأفكار ، وما يولد من المدارس الفكرية ، لا يجد من يتتبعه ، مع أن أكثر الذين حرروا فى المجالين ، تعلم فى أوروبا — وأتقن إحدى لغاتها . ولكن هذا أو بعضه يقتضى تلك المجلات جهداً وعناء ، وكان التحرير فيها ، أقرب إلى الهواية منه إلى الإحتراف ، وأدنى إلى إزجاء الفراغ منه إلى العمل الجاد المضنى . وفى هذه المجلات جميعاً لا تجد شيئاً ذا قيمة عن المسرح أو القصة أو الرواية أو التراجم . فالعنصر الغالب فيها جميعاً هو عنصر المقالة ومن هنا كانت قصص محمود تيمور وطاهر لاشين ويحيى حقى كالواحة فى صحراء .

وبالجملة كانت الحياة الادبية عملا إضافياً على أعمال المشتغلين بالسياسة أو الموظفين أيا كانت سواء فى الجامعة أو فى وزارة المعارف أو فى غيرهما . فكانت بذلك نشاطاً سطحياً ، شابه الحياة العامة . فكان فيها فتور تلك الحياة

وعشوائيتها، واتصافها بالجزئية. نخلت مما يهز أو يثير، ومن حرارة الإيمان الراغب فى التغيير: والحق أنه لم يكن هناك شعور بالضيق بما يجرى، ولم تكن هناك الرغبة أو الإرادة فى التغيير، ولذلك كانت المعارك الادبية شجاراً مفتعلا، الصخب المفرقع فيه أكثر من الغضب الصادق. وحينما تقوم هذه المعارك، تقوم كالحرائق التى تشب عن إهمال أو عن غير عمد، ثم لا تلبث أن تنطفىء، فلا تدرى لماذا شبت، ولماذا أطفئت، ثم لا تتبين لها أثر بعد إندلاعها والإحاطة بها ثم إخمادها أنها لا تترك شيئا نعم لا تترك شيئا مطلقا، فلكم تشاجر العقاد مع صادق الرافعى، ولكن على أى شىء؟

كان المجتمع الأدبى فى مصر كالمجتمع كله — فى ذلك العصر، راضياً لا تؤرقه مشكلات حقيقية، ولا ينبض بحياة جديدة، ولا تقوى على الإصطدام بمراكز القوة الأساسية فيه — لذلك تأخر ظهور المسرح وتأخر ظهور القصة الطويلة، وتأخر التأثر بالقصة القصيرة أو الإلتفات إليها، فالمسرح والقصة، هما أداتان من أدوات التعبير يتغذيان بالصراع ويعيشان على مشكلات المجتمع الملحة الكاوية — وهما التفريج عن الضيق المكبوت، أو المتفجر من المجتمع القائم بتصوير مجتمع سواه، أو بتصويره هو، للتنديد به، ووخزه، وإظهار معايبه ومثالبه. لقد كتب محمد المويلحى حديث عيسى بن هشام، ليهوى بمطارقه على المجتمع، قدر ما أستطاعت يداه أن تحمل من المطارق، وكتب هيكل زينب — وهو فى فرنسا، يحن إلى وطنه، ويقارن بينه وبين المجتمع الذى انتقل إليه — وراءه، فتفجر الحنين، والضيق بما يجرى فى الريف، بهذه القصة التى تحسى فيها بأمل حائر، وحيرة آملة.

كان لا بد من أزمات عامة يحس بها الكتّاب، ويشعرون أنها أزماتهم الخاصة، فيسهدون لها، ويشقون بسببها ولا يرون سبيلا إلى الفرار منها — إلا بالكتابة.

ولكنك قد تسأل ما الذى جعل الحياة العامة بين الثورتين فاترة ، وجعل أهل مصر يعيشون فى انبساط ودعة ، كأنهم يمرون فى عصر السعادة والرخاء ؟

أن الشعوب لا تشعر بالضيق ، ولا تمر بالأزمة ، إلا حينما تعانى كلها من محنة تسحقها أو خطر يهدد أمنها . وفى الفترة ما بين الثورتين لم يكن فى مصر ، ما يدعو إلى هذا الشعور . فمشكلة الإحتلال تراجعت إلى الخلف . ولم تعد تؤرق أحداً بالقدر الذى يبعث الألم والحزن فى النفوس ، فالإنجليز قنعوا بإدارة دفة السياسة من وراء ستار ، وقد أعانهم على ذلك تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ أولا ، ومعاهد سنة ١٩٣٦ ثانيا ، وبقى التنافس على الدستور والحكم ، هو وخده مصدر الصراع بين الاحزاب ، ولم يكن أحد يخسر كثيراً بسبب هذا الصراع ، فالاحزاب إن كانت فى الحكم إغترفت من خيزاته ما أستطاعت ، وإن كانت فى المعارضة وجدت فى ادعائها الدفاع عن الحرية والدستور ونزاهة الحكام ما يرضى شعورها الادبى ومن خيرات الشركات والدفاع فى القضايا الكبيرة ، وإدارة المشروعات التى تدر الارباح ، ما يرضى طمعها وجشعها المادى .

وقد كانت الطبقات التى تكون العنصر الاساسى فى الجماهير وهم الفلاحون والعمال فى درجة من الضعف السياسى بحيث لم تكن لتخيف أحدا ، وإن كان العمال قد بدأوا يكونون النقابات ، وبدأت النقابات تلعب دورها فى الدفاع عن حقوقهم ، وتنتزع شيئا فشيئا بعض هذه الحقوق . ولكن كان هذا التطور فى جملته أبعد ما يكون عن دور الازمة وعن مرحلة الاحتقان .

ومن هنا كان الشعور الذى يسود المجتمع ، هو شعور الاسترخاء ، وكانت السمات الظاهرة أينما أدار الانسان نظره ، سمات الدعة وخلو البال . فقد انتشرت فى القاهرة مثلا ندوات ، كان يجتمع فيها أهل الفكر من صحفيين وشعراء وأدباء

ومتأدبين ، ومتصيدى الاخبار ، وعيون الاحزاب ورقباء الحكومات ، ومندوبى قلم المخابرات البريطانية وغيرهم . فإذا دخلت إلى إحدى هذه الندوات أحسست فى التو ، كم يستمتع روادها بالحياة ، وكم يظفرون بالسعادة والرغد . فنشاط هذه الندوات جميعا ، الإستماع إلى الفكاهات والمداعبات وأخبار المقالب والمكائد ، وأبناء الفضائح ، فإذا جد الجد ، استمع هؤلاء الرواد إلى قصيدة من الشعراء الخفيف، فإذا احتدم الامر، كانت مناقشة فى مسألة حزبية وسط ضحكات تكاد تكون فرقعات ، بينما يرفع بعض الحاضرين كؤوس الخمر إلى أفواههم فى تلذذ واستمتاع باديين ، فى حين يلتهم واحد أو اثنان طعاما دسما يتكون من الفراخ أو الكباب ، أو من أطباق المكرونة والارز المحشو بقطع اللحم .

وكانت ندوة جريدة الاهرام فى مقدمة تلك الندوات ثم ندوة أمام جريدة الاهرام فى بار اللواء ، وثالثة غير بعيدة من الاثنين على مقربة من البنك الاهلى الآن ، هى ندوة بار الأنجلو ، ورابعة فى قهوة متاتيا ، وخامسة فى قهوة (كافية دى لابيه)فى ميدان الاوبرا وسادسة فى قهوة بربجبينا وقبل ذلك بسنتين كانت هناك ندوة رائجة تعقد فى بار (صولت) بشارع قصر النيل . ولما أصدر الاستاذ محمد توفيق دياب جريدة الجهاد فى دار قريبة من ضريح سعد ، كانت حجرته ، ندوة من هذه الندوات . وقد كنت أحب أن أصور لك هذه الندوات فى شىء من التفصيل والأفاضة لانها كانت فى واقع الامر مراكز أدبية فى ذلك العصر ، لا تشع فكراً ،ولا يصدر عنها شىء ذو قيمة ، ولا يحقق خيرا ؛ولكنها كانت وحدها الاماكن التى يتواصى المفكرون وكبار الكتّاب والصحفيين بالالتقاء فيها. ولكنى للاسف لم أكن من روادها ، فقد كنت أسمع عنها ، وعن أخبارها، ولم يجد على الحظ إلا بالتردد على مكتب رئيس تحرير الاهرام فى عهدى داود بركات وأنطون الجميل ، فقد كنت ألم بها بين الحين والحين ، فأرى وأسمع قليلا ثم

أنصرف ، وفى كل مرة كنت أحس بالغربة والوحشة ، فلم أكن ممن يحسنون المشاركة فى هذا المنتدى الذى يحتاج إلى جعبة مليئة بالفكاهات والقدرة على الحديث الممتع الشهى ، والرغبة فى الضحك ، أو التظاهر به ، أو الاستمتاع بمنظر الذى يضحكون .

كان باب رئيس تحرير الاهرام مفتوحا لكل من يدفعه ، وكان رئيس التحرير — سواء فى عهد داود بركات أو أنطون الجميل — منصرفا دائما إلى عمله يقرأ أصول المقالات ، فى سرعة ، ويؤشر عليها فى سرعة كذلك ، ويرفع رأسه بين الحين والحين فيقول كلمة أو يضحك لكلمة ، أو يهز رأسه . وقد كنت أرى حوله شعراء كبار منهم شوقى ، وموظفون كبار منهم الوزراء الذين يحكمون ، والوزراء الذين تركوا الوزارة ، وفى فترة كان رئيس الديوان الملكى ، يقضى سهرته كل ليلة هناك وقد كان داود بركات أكثر مشاركة فى الحديث ، وكان صوته جهوريا ، بينما كان أنطون الجميل مقلاً زاهدا فى الكلام . وقبل وفاة أنطون الجميل ، بدأت أرى فى مكتبه صحون الاكل وأذكر أنى رأيت أحد المحررين المشهورين يلتهم فرخة كاملة ، ويتكلم ويتناثر الأكل من فمه .

وكنت أرى فى ندوة بار اللواء العديد مشاهير المجتمع بينهم حفنى محمود الوزير الدستورى ، وكان من أبرز شخصيات هذه الندوة الشيخ أحمد عبد الحليم العسكرى ، وقد كان نجماً من نجوم هذا المجتمع السعيد الخالى البال وكان عبد الحميد الديب الشاعر ممن يرتادون هذه الندوة . وعلى رصيف قهوة أو بار الأنجلو ، كنت أرى حافظ إبراهيم أحياناً والشيخ عبد العزيز البشرى كثيرا ، وخليل مطران دائماً ، فقد كان مكتبه فى النقابة الزراعية أمام هذا المقهى .

وفى قهوة متاتيا كنت أرى الشيخ عبد العزيز الثعالبى زعيم تونس ،

وكانت الصحف تسميه دائما (زعيم تونس الأكبر) وكان يجالسه فى الغالب الأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى والشيخ عبد الحليم طمارة وهو قاضى شرعى، وكان الشيخ الثعالبى يدعو أصحابه هؤلاء إلى مأدبة كسكسى فى منزله بشبرا يصنعه بيده هو ، كأحسن ما يكون هذا الصنف المغربى الشهى .

وكانت ثمة شخصيات تطوف بهذه الندوات جميعاً . وفى مقدمة تلك الشخصيات الدكتور محجوب ثابت ، الذى كان اسمه ورسمه ، وما يحكى عنه ، وما يحكى له ، مادة لا تنفد فى الصحف والمجالس . كان الدكتور محجوب طبيباً ولكنه اشتغل بالسياسة ، ثم بكل نشاط اجتماعى فى البلاد — بدأ يجمع التبرعات للوفد عندما تكون الوفد فى سنة ١٩١٩ ، ثم بقى عاملا نشيطا متحركا فى السياسة يتكلم عن السودان ويدعو إلى وحدة وادى النيل ، كلما خطب أو كتب أو تناقش فأصبح حديثه المسرف عن السودان نقطة ضعف فى شخصيته يداعبه أصدقاؤه ويسرفون فى المداعبة معه من أجلها ، وكان يملأ أحاديثه بقافات ، ويروى الشعر ، وهو يداعب عثنونه ، وكان فى يده عصا ثقيلة لا تفارقه ، يلوح بها إذا غضب وكثيرا ما يغضب دون أن يؤذى . ثم يخوض فى الحديث فيتناول شئون العمال وكان من أوائل العاملين للحركة العمالية ثم فى شئون الطيران ، ثم فى شئون الجامعة والتدريب العسكرى وزيادة قوة الجيش ؛ وتاريخ العرب ومآثرهم على الحضارة والإنسانية وهكذا وهكذا .

وكان من شخصيات ذلك المجتمع الشيخ التفتازانى وهو شيخ طريقة : تعلم أصلا فى المدارس الثانوية ولم يتم تعليمه ، وكان يلبس طربوشا ، ويلف حوله شال عملته ، ثم يرتدى السكاكولة ، ولا يدع مجالا من مجالات السمر ، إلا وقصده . ولا داراً من دور السياسة إلا اتصل بها ، وكان يدعى مع شيوخ الأزهر إلى دار المندوب السامى كل ليلة قدر .

وكان من نجوم هذا المهد الأستاذ محمد وحيد الأيوبى له ندوة فى قهوة (كافيه دى لابيه)، وقد ألف حزباً فى سنة ١٩٠٧ عندما نشأت الأحزاب أسماه الحزب (الوطنى الحر) وقد كان هو كل الحزب رئيساً وأعضاء وأمانة صندوق وأمانة سر، ولم يسمع عن هذا الحزب شىء، ولم يؤثر عنه حركة، وكان من دعاة التحالف مع الإنجليز، والتعاون معهم والإشادة بفضلهم على البلاد[1]، وقد انتهى به الأمر إلى الاكتفاء بمطالعة القراء فى الأهرام أو فى المقطم أو فى الاخبار بطرفه نحوية لا تزيد عن خمسة أسطر ممهورة بتوقيعه «وحيد» يصحح فيها خطأ شائعاً، أو يكشف عن حقيقة لغوية مهجورة. وقد كانت هذه الطارف لقلة سطورها شيئاً طريفاً يبتسم له الناس.

وقد كان فى مصر فى تلك الآونة شخصيتان غريبتان أولهما الشيخ صالح روتر، وهو شيخ عرف بالارتزاق من نقل الاخبار السياسية قبل أن تذاع — وكثرة تنقله بين أندية السياسة، لما يحبوه به ذوو النفوس من العطف، وما ينفحونه من مال، لأنه يروج الاشاعات التى يحبون رواجها، ويكذب الانباء التى يغضبون لانتشارها، ولانه يحمل إليهم فى مجالس الأصدقاء والأعداء على السواء. وهو سريع الحركة، نحيل الجسم، وقد يكون عند بعض الناس خفيف الظل، وعادة يخف ظل الانسان على غيره، إذا أسرفوا فى مداعبته ولم يغضب وإذا أمتعهم بالخبر السار، وإذا خدمهم، فى غير مماحكة ولا ترفع.

وكان صالح عيسى السودانى شخصية تراها أغلب ما تراها مع حلمى عيسى وزير المعارف الاسبق على شرفة فندق الكونتنال، وهو شاب سودانى اشتغل

---

[1] المادة الأولى من برنامج هذا الحزب تنص على مسالمة المحتلين والسعى فى نيل ثقتهم ثم مسالمة الأجانب (المقطم فى ١٦ يولية سنة ١٩٢١).

بالسياسة ، وكان من تلاميذ المرحوم محجوب ثابت ومن دعاته ، وقد ألف عنه بعد وفاته كتاباً باسم الاسرار السياسية ، وقد كان صالح عيسى ، على النقيض من شخصيات تلك الندوات والمجالس ، فقد اختار لنفسه الشدة والفظاظة واتهام الناس ، وإخافتهم بنقده ولسانه ، أسلوباً حقق له بعض الاهمية — عند أصحاب الندوات والمجالس السياسية فالحياة الاجتماعية الرخية الهينة ، حياة المكانة الصغيرة ، والاشاعات والفكاهات ، ومجالس السمر ، واستماع الشعر الخفيف ، ونقد الزعماء فى راحة بال . فى حاجة إلى الحريف والحامض ، كما أنها فى حاجة إلى الحلو والبارد ،وقد كان صالح السودانى هو الصنف الحريف، يشتم ويسب ، ويحمل تحت أبطه حملا غير خفيف من الصحف والكتب ، ولا تكاد تلمسه فى بعض الاحيان حتى يثور . .

* * *

ومن الندوات التى كدت أغفلها ، هى ندوة دار الكتب . وتعليمات دار الكتب كانت ولا تزال تمنع موظفيها من شرب الدخان فى مكاتبهم، فكانوا ينزلون إلى حجرة صغيرة مجاورة لمدخل الدار ، بعد الباب الرئيسى مباشرة ، وهناك لا يشربون السجائر فقط ، بل يتجاذبون أطراف الحديث ، ويشهد حوارهم عدد من أصدقائهم ،ويشاركون فيه . وقد ترددت على هذه الندوة عشرات المرات ، ورأيت فيها رامى ، والحاج محمد الهراوى الشاعر الذى كان أول من نظم الشعر للأطفال ، وطبع منظوماته فى كتاب . وقد كان كثير من الأدباء يتفكهون بالاستشهاد بهذه الأبيات السهلة مثل :

هذى الكرة   كالسكرة

هيا اصعدى   هزى يدى .

ولو نسج على منوال الهراوى آخرون ، لأفاد أولادنا كثيرا ،فان من أحسن وسائل التربية والتثقيف للأطفال الأغانى المنظومة ، والشعر السهل.

ولا يكمل الحديث عن الصحافة والصحف فى عهد مابين الثورتين إلا إذا تحدثنا عن أربع مجلات . أولها مجلة الكشكول ؛ التى أصدرها سليمان فوزى، وقد كان سليمان من الصحفيين الاوائل الذين عملوا مع الشيخ على يوسف فى جريدةالمؤيد ولم نستطع أن نعرف رصيده من التعليم أو الثقافة ، إلا أن الذى نعلمه على وجه اليقين أن مجلته التى كانت من أقوى خصوم سعد زغلول والوفد ، وأنها حققت لنفسها مكانة بين صحف المعارضة بأكثر من وسيلة . فالكشكول كانت صفحة جديدة فى الصحافة المصرية هى صفحة الصحافة الفكاهة النقديةأى التى تتخذ من الفكاهة والدعابة ، سبيلا للنقد السياسى . فلم يكن هناك صحيفة غيرها فى عهدها تنقد الشخصيات السياسية أو تعلق على الحوادث الجارية ، بأسلوب فكه . وقد نوعت فى أساليبها النقدية ، فاستعانت بأقلام أدباء كبار كمحمد الهياوى ، وعبد العزيز البشرى ، ومحمد إبراهيم هلال وحسين شفيق المصرى فتباروا فى إشاعة روح الفكاهة فى أعمدة المجلة ، فى لغة جذلة ، وعلى طريقة المقامات حينا ، وبشعر هزلى حينا ، تجده رصيناً كشعر الجاهلية أو الشعر الأموى والعباسى ، ثم تعززه مع ذلك فتحشوه حشواً باللذعات والقفشات البلدية . وقد ابتدع الكشكول باباً كان ينشر فيه قصائد لشاعر أسماه « الشاعر إياه » وكان يرمزون بهذا إلى الوزير الوفدى محمد نجيب الغرابلى ، فقد عرف عنه أنه يقرض الشعر ، وكانت قصائد (الشاعر إياه) فى كثير من الأحيان من آيات الشعر الفكاهى النقدى ، وقد تداولت الألسن العديد من قصائد هذا الباب ، واستشهدوا بها فى المناسبات السياسية ، وجنوبهم تكاد تتفجر من كثرة الضحك — كما ابتدع الكشكول باباً طريفاً غاية الطرافة ،هو باب (دائرة المعارف الوفدية) وكانت الألفاظ ترد فى هذه الدائرة على ترتيب الحروف الأبجدية ، ولكنها لا تدور إلا على الشخصيات الوفدية فتشبعها نقداً وسخرية ، فى لغة هى غاية الرصانة.

وقد كان الشائع وقتذاك أن من كتاب الكشكول كبار الساسة الدستوريين أمثال — إسماعيل صدقى وعبد الحميد بدوى .

إلا أن فضل الكشكول على الصحافة المصرية فى ذلك الحين أنها أدخلت الرسم الكاريكاتورى ، وجعلته أساساً من أسس التحرير فيها ، وقد وفقت إلى رسام أسبانى هو (سانتز) فرسم للشخصيات المصرية كثيراً من الرسوم التى جعلت الكشكول مجلة مقروءة حتى فى الفترات التى كانت فيها حملاتها على سعد زغلول كأقسى ماتكون والتى كان فيها سعد فى القمة من حب الشعب وتأييده والالتفاف حوله ـ ولقد تعرضت جريدة الكشكول لحملات عنيفة من مظاهرات الشباب الوفدى ، اقتحمت بعضها داره وأحرقته ، ولكن سليمان فوزى بقى صامدا .

لم تكن الكشكول مجلة سياسية فحسب ، بل كانت بأسلوبها ولغتها ، ويعلو كعب محرريها ، مجلة أدبية دفعت بحرارة جديدة إلى اللغة العربية ، وجعلتها أداة نقد وتعبير عن الأمور الجارية ، والشئون الحيوية ، نخرجت اللغة من عزلتها ، ومن رصانتها الجامدة ، وزاد انطلاقها .

وباقى المجلات الأربعة،هى المحاسن المصورة ثم المعرفةوالعصور. أما المحاسن المصورة فهى ـ بقدر مانعلم ـ أول جريدة أدبية ظهرت للناس بعد ثورة ١٩١٩، واقتصرت على الجوانب الأدبية والفنية،فى تبويب حديث اوعلى ورق مصقول. ظهرت فى نحو سنة ١٩٢٢ ،ولم تعمر ،وأفردت للآداب والتاريخ والفنون أبوابًا به وحلت كل باب ، بعنوان كتب بالخط الجميل ،وزين برسوم تتفق مع موضوعه ، وكانت فى حجم طويل شبيه بحجم مجلة آخر ساعة الآن ،ولم يكن من الممكن لمجلة تكتب فى الأدب والفن وحدهما أن تعمر ـ وهى لا يؤيدها حزب،ولا ينفق عليها رجل قادر على تحمل الخسائر حتى يثبت قدمها ، ويعرفها القراء ويقبلون

عليها ، وقد كان أكثر الذين يكتبون فيها شبانا لم تذع أسماؤهم بعد ، وقد كنت أقرأ لأحدهم ، فأرى اسمه فى ذيل المقال مقرونا بعبارة « بكالوريوس آداب من أمريكا » وكان مثل هذا اللقب غير معروف فى مصر ، إذ لم تكن الجامعة قد أنشئت بعد ، وكانت الألقاب العلمية المعروفة عندنا هى : الليسانس ، والدبلوم — ولم يكن لقب الدكتور يطلق إلا على الأطباء . ومرت أيام وإذا بى أرى فى إحدى المحاكم محضراً ينادى على أسماء أصحاب القضايا، واسمه كاسم صاحب المقالات الأدبية فى المحاسن المصورة وصاحب لقب البكالوريوس ، فسألته أيكون هو كاتب تلك المقالات فأجاب بنعم ، ومنذ ذلك اليوم لم أكن أراه ألا ونتحدث ملياً فى الأدب ، وأظهر له فى كل مرة عجبى من أنه قانع بوظيفة لايحاول أن يستأنف الكتابة الأدبية فلا يزيد عن قوله « ربنا يسهل . . . »

وقد علمت منه أن صاحب المحاسن المصورة ، كان رجلا ضعيف النظر ، فعاد يوماً إلى إدارة جريدته فكاد يصطدم بأكداس من الورق صفت أعمدة الواحد بعد الآخر ، فمسح نظارته ، وتأمل فيها ، وسأل ماذا يكون كل هذا الورق فقيل له أعداد المحاسن المصورة ، التى ردت بغير بيع ، فخرج من دار الجريدة لايلوى على شىء ، ولم يعد إليها إلا بعد أن سوى حسابات الديون ، ثم قفل باب الجريدة بالضبة والمفتاح وإلى الأبد . . .

أما المجلتان الأخريان: فهى المعرفة والعصور — أصدر (المعرفة) الأستاذ عبدالعزيز الاسلامبولى سنوات غير قليلة وقد كانت تعنى بالفلسفة الاسلامية ومايتصل بها ، وقد ختمت حياتها ، دون أن تلفت الأنظار كثيراً — وقد كان ينقصها الورق الجيد ، والتنسيق الحديث ، والموضوعات المتصلة بالتطورات الجارية ، والأقلام

المقروءة ، ولـكنها كانت جهاداً فى سبيل نشر طراز من المعرفة كان من الخير أن تقوم عليه مجلة من المجلات ، وأن تجد ممن يمد لها يده لتتطور ، وتتقدم ، وتستـكمل نقصها.أما مجلة العصور التىأصدرها الأستاذ إسماعيل مظهر فقد كانت مجلة علمية ، على نسق المقتطف وإن كانت أكثر جفافاً،ولم يكن للعصور ما كان لأصحاب المقطم الذين يصدرون المقتطف من النفوذ وكثرة العلاقات والثراء والخبرة الصحفية.وقد كشفت الوثائق التى نشرت أخيراً عن الأحزاب أن الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور فكر فى إنشاء حزب الفلاحين ، على أن يكون فرعاً من فروع حزب الوفد،على غرار الحزب التعاونى المتفرع من حزب العمال البريطانى، وقد وجه خطاباً بهذا المعنى إلى رئيس الوفد،وقد وئدت فكرته بطبيعة الحال ولم يذكرها أحد حتى نبش فى الأوراق القديمة ، ونشرت هذه المحاولات القديمة ؛ الدالة على حيرة الناس ـ فى أعقاب إجهاض ثورة فى سنة ١٩١٩ ـ فى اختيار الطريق الذى يسلـكونه .

وقد كانت العصور جديرة بأن تخلق من حولها اتباعاً وأشياعاً للتفكير العلمى ، وأن يكون صاحبها صاحب مدرسة فى الفـكر المصرى الحديث ، لاسيما أنه كان من أسبق المصريين إلى التعريف بنظرية داروين ، وقد ترجم أصل الأنواع فعلا لصاحب هذه النظرية ، فى وقت جد مبكر . ولـكن العصور ، ختمت حياتها أيضاً فى غير ضجيج .

* * *

من شخصيات العصر الذى نؤرخ له ذات الدلالات المميزة ، بيرم التونسى فقد كان شابا صغيرا عندما أنفجرت ثورة سنة ١٩١٩ ، وكان السلطان فؤاد من خصوم هذه الحركة وكان الشائع على ألسنة الناس ، أن السلطان أكره على الزواج من السيده نازلى عبد الرحيم صبرى، وكان قد وعدها بالزواج ثم عدل عن وعده ولى العرش ، حتى شكا والدها إلى المندوب السامى البريطانى أو المعتمد

البريطانى من ذلك ، فرأت السلطات البريطانيه أنه مما يسىء اليهم سياسياً أن تبقى هذه الشكوى محلقة فوق رأس الرجل الذى اختاروه لعرش مصر ، فأرغم على الزواج منها ، واتخذ بيرم من هذه الأشاعة موضوعاً لزجلين قال فيهما :

البنت ماشية من زمان تتمخطـــر
والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر
ياراكب الفيتون وقلبـك حامى
أسبق على القبـــة وطـــير قدامى
تلقى العروسه محمـــــــل شامى
وجوزها يشبه فى الشوارب عنـــتر
وحط زهر الفـــل فوقها وفوقك
وهات لها الشبشب يكون على ذوقك
ونزل النونو القـــديم من طوقك
يطلع فى طوعـــك لا الولد يتكبر
العطفة من قبـــل النظام مفتوحه
والوزه من قبل الفرح مدبوحـــه

وقال فى الزجل الثانى .

الباميه فى البستان تهـز القرون وجنبها القرع الملوكى اللطيف
شوف الميران حصل ولاد البطون والديدبان يرمح يجيب الرغيف
ودخـــل الأغراب فاميلية على

يا باديشاه وأنت ابنك ظهر ربك يبـارك فى عمر الغلام
نزل يلعلط تحت برج القمر يا خساره بس الشهر كان مش تمام

وقد تناقلت الألسن هذه الأزجال ، ورددتها على طريقة تناقل الأقوال الممنوعة ، فى عهود الثورات والساعات الحرجة فى حياة الأمم .

فقبضت السلطات على « بيرم » ، ولما كان غير متمتع بالجنسية المصرية ، لكونه من التونسيين المشمولين بالحماية الفرنسية ، فقد أضطرت إلى ترحيله من مصر ، فلجأ إلى فرنسا ، وقضى وقتاً من أسوأ ما مر به فى حياته ، عانى فيه الجوع والبرد ، والتشرد والمرض ، ولما جاء سعد إلى باريس على رأس الوفد ، لجأ إليه ليعينه ، فأقفل سعد بابه فى وجهه ، خوفاً من أن يصل إلى السلطان فؤاد أن الوفد مد يده إلى بيرم ، وبعد سنين طويلة ، وبعد أن مات السلطان فؤاد استطاع بيرم أن يعود إلى بلاده ، وأن يتبوأ فيها أمارة الفن الشعبى ، وفن المقامات الأدبية الشعبية ، والأدوار الغنائيه — والطقاطيق . وقد جرت ألفاظه وعبارته على الألسن ، جميلة المعنى ، رشيقة المبنى ، تناظر الشعر التقليدى فى أروع وأعلى مراتبه .

ومن معالم الحياة الأدبية أيضا — فى فترة ما بين الثورتين — مقالات فكرى أباظة السياسة التى كان يكتبها فى جريدة الأهرام ، ويوقعها بامضاء « فكرى أباظة المحامى » فقد كانت بلا شك شيئاً جديداً فى الصحافة السياسية . إذ كانت مقالات سريعة خفيفة ، تملؤها علامات الاستعجاب والإستفهام ، وتفصل بين كل جملة والأخرى فيها ، نقط عديدة . ولكن هذه العلامات والنقط أضفت على هذه المقالات طابعا خاصاً بها ، جعلت القراء يقبلون على مطالعتها ، وقد حوت من النقد السياسى الخفيف ، والمتحرر من التبعية للحزبين الكبيرين : الوفد والأحرار الدستوريين . وبفضل الشهرة التى كسبها فكرى من هذه المقالات ، استطاع أن يكون مذيعا منتظما فى الإذاعة وكانت هذه الأحاديث بما أحتوته من نقد إجتماعى لونا جديدا فى أحاديث الإذاعة .

* * *

صورة هذه الحقبة لا تكمل أيضا إلا بذكر (محمد مصطفى حمام) فقد لعب دوراً فريدا فى السياسة والأدب . فقد كان إنسانا موهوبا ، حسن الأسلوب يقرض الشعر ويرويه، وتمتلىء جعبته بالنوادر والفكاهات، وينتقل بين الندوات وأهم الأدوار التى عرفت عنه ، أو نسبت إليه ، إنه كان يؤلف الخطب لأحد كبار زعماء ذلك العهد ، ثم لا يدع لا فرصة من الفرص تمر ، حتى يثخن هذا الزعيم ذاته ، بالنقد اللاذع أو الجارح ، مقلدا إياه فى خطبه ، وفى مفارقاته الغريبة ، تقليداً مضحكا . وقد كان (حمام) موهبة مبددة ، لو توفر على عمل أدبى متصل فى الصحافة أو التأليف ، لترك أثرا محموداً ، ولكن شاءت له شخصيته القلقة ، أن يكون أديباً متجولا ، وأن يضحك من الحياة ، ويتحمل شظفها أحيانا كثيرة .

وفى أخريات أيامه سافر إلى الكويت واشتغل باذاعتها ، وقد توفى وهو يعمل بها فى سنة ١٩٦٤

* * *

وكانت المحاماة ، جزء هاما فى حياتنا الأدبية . كان الكتاب يكتبون المقالات ، فلا تلبث حتى تصبح موضوعاً لقضية ، فتتسلمها أيدى المحامين ، ثم يتناولونها ببيانهم يترافعون فى الجلسة ويكتبون المذكرات ويستخرجون منها أكثر مما أودعه فيها كتابها من معنى ثم يضفون عليها، بأسلوبهم البراق، وعباراتهم الوهاجة ، وأصواتهم الرنانة، وإشاراتهم الرشيقة الأخاذه ، قيمة وطرافه .

والحق أن هذا العهد ، الذى نؤرخ له ، عرف عدداً كبيراً من المحامين الذين ارتفع بيانهم إلى درجات رفيعة ، والذين تسلحوا لمهنتهم من الثقافة والإطلاع والدراسات الأدبية والفقهية ، بزاد واسع ، وعدة عظيمة .

ولم نكن ندرى هل القانونيون هم الذين صنعوا الحياة الأدبية وقادوها أم الأدباء هم الذين صنعوا الحياة القانونية وأغنوها ، فقد أوشك الأدباء أن يكونوا من القانونيين ، أو أوشك القانونيون أن يكونوا من أدباء الصدر.

كان محمد حسين هيكل طالب قانون فى فرنسا ، منح أجازة — الدكتوراه من كلية الحقوق فى باريس ، واشتغل محامياً عشر سنوات متصلة فى المنصورة ، وكان لطفى السيد من قبل وكيلا للنيابة ومحامياً . وكان من الكتاب فى مختلف فروع الثقافة والفكر ، ومؤلفى الكتب ، من رجال القانون ، فمحمود عزمى ، وأمين وعبدالرحمن الرافعى وعبد القادر حمزة ومحمد لطفى جمعه ، ومحمد عبدالله عنان ثم توفيق الحكيم فى الجيل التالى كانوا جميعاً من رجال القانون ، وإذا عددنا أحمد ماهر من رجال الصحافة لاشتغاله بتحرير كوكب الشرق اليومية مساء زمنا ، جاز لنا أن نعده من القانونيين الذين اشتغلوا بالأدب السياسى . وكان الدكتور محمد مندور ، الذى فقدناه أخيراً ، أديباً ومحامياً فى وقت واحد .. وكان كتاب الحزب الوطنى جميعاً من رجال القانون فاحمد وجدى ، وأحمد وفيق ، واسماعيل شيمى فضلا عن مصطفى كامل ومحمد فريد كلهم قانونيين .

ونحن نعتبر عبد العزيز البشرى ، والشيخ أحمد أمين ، والشيخ الخضرى وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام وكل الذين أسدوا إلى الأدب المصرى فى الفترة التى نتحدث عنها ، من رجال القانون ، وإن درسوا فى الأزهر أو القضاء الشرعى ، فدراسة الشريعة الاسلامية ، هى دراسة قانونية ، وكتب القانون الإسلامية ، هى فى الذروة من الأدب : جزالة اسلوب ، ورقة عبارة ، وايجازا معجزا ، وحرصاً على تطابق اللفظ مع المعنى ، ووزناً للتعابير بميزان الذهب . ولذلك ما اتصل إحد من الأزهريين بالحياة العامة ، وجرب قلمه فى مناقشة شئون الدنيا ، وما جريات الإحداث ، وإصناف إلى ثقافته الأزهرية شيئاً من الثقافة الحديثة ، ونهج فى

تنظيم تفكيره ، وتبويب بحثه ، على الأساليب الأدبية حتى تفجرت مواهبه ، وتدفقت آثاره .

أما المرافعات والأحكام البليغة والرصينة ، التى سجلت أحداث حياتنا فى تلك الحقبة ، فأكثر من أن تعد ، وقد كان فى مقدمة من نهضوا بهذا الجانب فى حياتنا الأدبية بعد مصطفى كامل ومحمد فريد القانونيين، ولطفى السيد وطلعت حرب المحاميين، فابراهيم الهلباوى ، وأحمد لطفى ومحمد على علوبة ومصطفى الشوربجى ، وتوفيق دوس ، ووهيب دوس ، واحمد وجدى ، ومرقس فهمى . ولقد كانت قاعات المحاكم أثناء مرافعاتهم ندوات أدبية يتقاطر عليها الأدباء ، والصحفيون والجمهور يغترفون منها وينتشون .

وقد كان عبد العزيز فهمى ، وحامد فهمى وعبد الخالق ثروت من هؤلاء الذين سنوا للأدب القضائى سننه ، فكانت أحكام عبد العزيز فهمى ، وحامد فهمى ، ومرافعات عبد الخالق ثروت ، شيئاً جديداً فى حياة اللغة العربية : قوموا لغة الأحكام ، وجملوها ، فى رصانة ووقار ، جعل أدبنا القانونى ، قادرا على الإستقلال بنفسه ، عن مصادر القانون التى كانت أجنبية صرفه .

وقد كان الفقيه أحمد أمين ، صديقاً لسميه الأديب احمد أمين ، وكانا يدرسان سويا كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ، ويطبقان مافى الكتاب على الآثار التى يشرحها ، ويسرد تاريخها ، ويروى ماطرأ عليها على مر الزمان من تغييرات فذلك لأن الأديب والفقيه كانا شاعرين بالإنسجام والألفة ، لأنهما فى واقع الأمر ينتسبان إلى فرع واحد هو من فروع الثقافة والنشاط الذهنى الإنسانى فالأدب والقانون شقيقان توأمان ، وسيلتهما التعبير وميدانهما النفس الإنسانية فى مختلف علاقاتها .

ولذلك ليس غريبا أن يدرس شوقى القانون فى فرنسا ، وأن يشتغل حافظ

ابراهيم بالمحاماة حيناً فى صدر شبابه ، فالثقافة القانونية التى صاحبت الإنسان من فجر حياته ، زاملت الأدب والفن ، فى هذه المصاحبة ، فراح يرتقى درجات حضارته ، درجة بعد درجة ، وحضارة بعد حضارة ، وهو يعتمد بأحدى ذراعيه على الأدب ، وبالثانية على القانون . وإذا كان الأدب والقانون توأمين ، فإن القانون والسياسة ، توأمان كذلك ،ولهذا كان المحامون ورجال القانون ، ينتقلون من أحدهما إلى الآخر ، بلا كلفة أو عناء ، بل كانا أحيانا يمارسان القانون والسياسة فى وقت واحد ، وكأنما يمارسان شيئاً واحداً .

والأمثلة على ذلك فى الفترة التى نتحدث عنها كثيرة ، فقد كان سعد زغلول ، يشتغل بالسياسة والقانون ، وهو على رأس الثورة المصرية ، حتى توفاه الله ، ويؤكد الذين يعرفون دخائل حياته ، أنه كان يعد المرافعة للمحامين فى قضية نصيريه ماهر والنقراشى ، وكانت معارك مكرم عبيد السياسية ، الكبرى فى ساحات المحاكم ، أكثر منها على منابر الإجتماعات السياسية ، وقد كان سجعه الذى أطرب انصار الوفد زمناً طويلا يزين مرافعاته ، ويزخرفها كما يزين خطابة ويزخرفها .

وقد كانت هذه المرافعات والخطب المسجوعة ، ظاهرة أدبية فى حياتنا فى فترة مابين الثورتين ، فقد كان سر إعجاب المعجبين الأكبر به ، قدرته فى اللعب بعواطف قرائه وسامعيه بهذا السجع الذى كان فى الغالب ، خفيفاً على السمع ، كأنه خال من التكلف والاصطناع .

وقد كان من خطباء هذا العهد من رجال القانون المتأدبين حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى الذى ألف فى أخريات حياته كتابا عنوانه « أبو الهول قال لى »

وقد كان حافظ رمضان من أبلغ خطبائنا ، وأجملهم إشارة ، وأوسعهم

علماً بتاريخ مصر السياسى الحديث ، وأحلام سمتا على منصة الخطابة ، وكانت عبارته فوق رصانتها ، سهلة ، ومقنعة وممتعة.

ومادمنا قد ذكرنا الخطباء ، باعتبار الخطابة سمة من سمات الحياة الأدبية فى كل عهد فنحن لايمكن أن نغفل خطيباً من خطباء الثورة ، لمع فى سمائها لمع الشهاب ، وكان خليقا بان تستفيض شهرته ، بعد أن انتهت الثورة ، وخمدت جذوتها ، إن لم يكن فى ميدان السياسة ، فنى ميدان المحاماه ، ذلك هو محمد شكرى كيرشاه ، فقد كان يتفجر ، ويندفع فى خطبه ، اندفاع السيل العرم ، لا تكاد تلاحقه الآذان ، وإن كانت النفوس ، مشدودة اليه ، والعيون مسلطة عليه ، والأيدى والأذرع متصلبة متشنجة من فرط التأثر به . وهو مع سرعة ارتجاله ، وحضور بديهته ، ينتقى ألفاظه ، فتأتى عالية ، وأحيانا غير مألوفة ولكنه لم يكن بالخطيب الذى يؤثر بلفظ فى جملة ، ولا بجملة فى السياق ، ولكن بالخطبة كلها ، وبحرارة عاطفته ، وصدق إيمانه بما يقول ، فكان أشبه بالعاصفة ، فمكان خطيب ثورة سنة ١٩١٩ ، خطيب جماهيرها والمحرض لها ، والمؤجج لنيرانها ، على منبر الأزهر بخاصة ، وعلى منابر المساجد والكنائس بعامة محجوزا له ، غير مدافع ولا منازع ، وإن كان بعض معاصريه ، يؤثرون عليه الأستاذ إبراهيم عبد الهادى الذى ولى الوزارة ثم رأسها سنة ١٩٥٠ . وقد زامل شكرى على منبر الثورة — أثنان هم الأب سرجيوس والشيخ مصطفى القاياتى ويأتى بعد هؤلاء الشيخ محمود أبو العيون .

* * *

فى الجانب الشرقى من القاهرة ، قريبا من الأزهر ، حيث نشأت قاهرة المعز لدين الله ، وجوهر الصقلى ، كانت تعقد ندوات ، لا تبدأ عادة إلا بعد العشاء ، وتستمر حتى الفجر . تلك هى سهرات سيدنا الحسين ، حيث يشرب الناس الشاى الأخضر المغربى . وتدور الشيشة بالتمباك الحمى ، على رواد قهوة

الفيشاوى . وقد تناول هؤلاء عشاءهم قبل السهرة عند الدهان أو العجاتى ، من الكباب والنيفة والطرب والكفته ، مع أطباق السلطات الخضراء ، وسلطات اللبن الزبادى والطحينة ، ثم يشربون معها وبعدها أكوابا كثيرة من الماء المثلج فى الصيف حيث تعقد عادة هذه الندوات ، ثم يتجشأون بأصوات مسموعة ، فتفوح رائحة اللحم المشوى، والمشهيات الحريفه ، ثم يبدأون هزلا متصلا. إلى هذا الحى يتقاطر الأدباء الكبار والصغار ، ولا يتعبون من سماع النوادر ، وتبادل المداعبات الخفيفة والثقيلة ، وإقامة الحفلات الهزلية ، للعبث من بعض الشخصيات التى يعج بها هذا الحى ، من أدعياء الأدب ، وأنصاف البلهاء ، والمشعوذين ، والدجالين ومرضى العقول ، ومدعى المرض ، والمصابين بأوهام العظمة ، والمتصوفين حقاً ، والمتجرين بالتصوف ، وطالبى اللذة الجسدية الصارخة ، شاذة وطبيعية ، وطالبى اللذة الروحية ، وطالبى اللذتين معا ، فى جو بعيد عن القاهرة التى أسلمت نفسها لحضارة الغرب ، وفيها المعارى ، ومقاهيها التى يديرها أخواننا — الوافدون من الشاطىء الآخر لبحر الروم .

إلى هذا الحى كان يأتى شوقى ، وحافظ ، والبشرى ، كما كان يعيش عبد الحميد الديب ، وعشرات من الشعراء والمتشاعرين ، والصحفيين والفنانين يلهمهم جو هذا الحى المتشبث بأهداب الماضى ، والمعتز بالأزهر ومقام الحسين ، والمتحدى لسير الزمن ، وكأن الزمن صديق خان الصداقة ، فترك حى الحسين ، وراح يمتع عينيه ، ويشبع حواسه من حضارة الغرب ، وطرائف حياتها ، زاهداً فى أسلوب حياة المصريين فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، معتبراً هذا الأسلوب ، من ألفه إلى يائه ، أثراً قد يزين متحفا ، ولكنه لا يصلح للذين يدفعهم الزمن بكلتا يديه ، وأحيانا بكلتا رجليه ، وقد نفد صبره .

ولم يبق فى ذاكرتى من شخصيات هذا الحى ، إلا رجل كان يسمى

الدكتور على المنزلاوى رأيته يوماً مهزوز الأعصاب ، يرتدى بذلة لا قديمة ولا جديدة ، وينظر بعيون واسعة ، نظرات ثابتة ، ولست أذكر ما إذا كان هذا البطل ، قد أسبغ على نفسه لقب الدكتور فى الطب أو فى الفلسفة ، ولكن الذى أذكره أنه أشبع هواية السخرية فى النفوس شياطين حى الحسين ، وأشقيائه هواة العبث ، فلكم أقاموا له حفلات تكريم ، وألقوا فيها خطباً وقصائد وأزجالا ، ووزعوا فيها المشروبات ، ووقفت لجنة التكريم على باب القهوة ، تستقبل المدعويين وتجلسهم فى أماكنهم . وقد كان فى هؤلاء المدعويين بعض رجال الأدب من ذوى المقام جاءوا ليرفهوا عن أنفسهم ، ويضحكوا ما استطاعوا إلى الضحك سبيلا والدكتور المنزلاوى ، فرح بالحفلة ، وبالخطب بالقصائد ، عاجزا عن أن يفهم ما فيها من عبث عنيف ، وتشبيهات مهينه ، وأوصاف مقلوبة . فلما آذنت الحفلة بالانتهاء وقف هو آخر الحفلة يخطب ، جاداً ، متأثراً ، والمحتفلون به ، والمدعوون يكادون يقعون على الأرض أعياء من فرط الضحك .

* * *

وهل يمكن أن نتحدث عن حياتنا الأدبية دون أن نقف أمام الجامعة ودورها فى تلك الحياة ؟

لقد كانت الجامعة أملا من آمال المصريين ، ولما أراد المصريون الإحتفال بتكريم مصطفى كامل بمناسبة عودته من أوروبا بعد حملة صحفية وسياسية ناجحة ، أشار على القائمين على الإحتفال بأن يوجهوا المال الذى جمعوه لهذا الغرض إلى مشروع إنشاء الجامعة وكانت تسمى وقتذاك بالكلية .

وقد بقيت هذه الجامعة خيالا محبباً إلى المصريين ، وشبحاً مخيفاً للانجليز ، حتى أن كرومر رأى أن خير وسيلة للقضاء عليه هو الترويج للمشروع الذى عرف بمشروع الكتاتيب ، وقامت على أثر ذلك مناقشة طويلة وعقيمة حول أى التعليمين أحوج إليه مصر : أهو التعليم الجامعى ، أم التعليم الأولى . وبذل

فى تلك المناقشة جهد كبير ، وأريق حبر كثير ، مع أن المناظرة بينهما أشبه شىء بالمناظرة بين الخبز والماء مثلا ، وأيهما أهم كأن أحدهما يتعارض مع الثانى ، أو كان أحدهما يغنى عن الآخر .

ثم نشأت الجامعة الأهلية ، وكانت بلا جدال تجربة ناجحة ، وتوطئة للحياة الجامعية المثمرة ، ثم احتضنت الحكومة الجامعة ، ونزل مجلس إدارة الجامعة الأهلية ، للحكومة عما بقى من هذه الجامعة من مقومات وعناصر ذمة ، ثم بنيت هذه المبانى الانيقة لكليات الحقوق والآداب فى الجيزة ، وابتدأ الطلاب يفدون إلى قاعاتها ، وهم يكادون يقفزون فرحاً بأنهم وصلوا إلى هذه المرحلة الجميلة من مراحل التعليم : مرحلة التعليم الذى يتحرر فيه الطالب من التبعية للمدرس والإعتماد عليه ، والذى يخرج فيه الطالب عن تحصيل العلم من كتاب بعينه أو بطريقة محددة — إلى البحث فى كل مرجع يطوله ،والإعتماد على النفس فى التحصيل ، وإتخاذ الأستاذ مرشداً ومعيناً ، ثم أخا كبيراً وصديقاً : لا يرهبه ، بل يحبه . كانت هذه الصور الأخاذه ترد على خاطرنا ونحن نخطو درجات سلم الكلية ، ثم ونحن ندخل إلى مدرجاتها الأنيقة الفسيحة ثم خف وجيب قلوبنا شيئاً فشيئاً ، بعد أن كان منظر الأستاذ ، وهو يهل علينا من بعيد كفيلا بأن يبعث فى أوصالنا رعدة خفيفة ، هى رعدة السرور والتطلع معاً .

لم يكن هناك من يراقب حضورنا وإنصرافنا أول الأمر ، وكنا نشعر بالحرية فى جضور المحاضرات ، أو فى الإنصراف عنها ، ولكن ألزمنا بعد ذلك بأن نوقع على دفاتر للحضور توضع على أبواب المدرجات كما كان ينادى على أسمائنا فى الأقسام التى كنا نتوزع عليها ، حتى يتاح للمدرسين الشبان أن يتصلوا بنا ، وأن يراجعوا معنا المحاضرات ، ويجروا لنا الامتحانات ، ومع

ذلك كان فى إمكاننا أن نوقع على دفتر الحضور ولا ندخل المحاضرة ، بل كان فى الإمكان أن يتفق الواحد منا مع زميل له أن يوقع أمام إسمه نيابة عنه ، وكان يمكن أن يجيب طالب إذا نودى على اسم زميله إذا أراد مساعدته أو إذا طلبت منه هـــذه المساعدة وأذكر أنى وددت أن أصحب بعض طلبة كلية الطب فى زيارتهم لمستشفى الأمراض العقلية ، بدافع الفضول ، فتقدم إلى يومها طالب ورجانى أن أنتحل أسمه عندما ينادى عليه الأستاذ ، ولكن السيارة التى كانت ستنقل هذا الفريق من الطلبة إلى المستشفى تعطلت وأعفيت من هذا التزييف المألوف بين الزملاء .

ومع ذلك فقد بقى لنا قدر غير قليل من الحرية فقد كانت الدراسة نصف يوم ، وكانت تقع أحيانا فى المساء ، وكان عدد المحاضرات فى بعض الأيام يقل حتى لا يتجاوز أثنتين . فالفراغ الطويل كان أمامنا ، لو أردنا أن نملأه بالعمل المفيد . ولـكننا لم نجد من يقودنا إلى المكتبة ، وكان النشاط الأدبى والفنى ضعيفاً ، وكانت الرياضة البدنية ، أوفر حظاً من غيرها من وجوه النشاط ولـكنها مع ذلك بقيت هواية عدد قليل جداً من الطلاب ، وكانت الصلة بين الأساتذة والطلبة ضعيفة ، ولـكنها لم تكن معدومة ، وقد استطاع بعض الأساتذة أن يصطنعوا لهم تلاميذ ، يقربونهم ويخصونهم بالرعاية ، ويفتحون لهم الأبواب . وإنى لأذكر أن الدكتور عبد الرزاق السنهورى كان واحداً من هؤلاء ، فقد ألفت زيارته فى بيته ، وكان أستاذى حلمى بهجت بدوى ومحمد مصطفى القللى صديقين ، وربما يسر عليهم الإتصال بنا ، والتودد الينا ، أن فارق السن كان غير كبير ، فقد كانا من النابهين الذين أتموا تعليمهم مبكرين ، وحصلو على أجازة الدكتوراه من فرنسا ، قبل بلوغ الثلاثين ، وقد ذادت صلتنا مع الأيام بالاستاذين المرحوم محمـــد حامد فهمى وعبد الحـكيم الرفاعى . وكم كنت سعيداً إذ جمعتنى الظروف بالعمل مع أكثرهم فزدت منهم قربا ، وزادوا فى نفسى قدرا .

ولكن ماذا فعلت الجامعة ، هل حققت للبلاد أكثر مما حققت مدرسة الحقوق ومدرسة المعلمين العليا قبل نشوء الجامعة ؟ هل تجاوزت الجامعة أسوارها ، وخرجت إلى الناس ، تقرب اليهم العلم ، وتحبب لهم المعرفة ،وتحرك فى رءوسهم خواطر جديدة ، وتدفعهم إلى مناهج فى الحياة غير مطروقة ؟ هل ولد البحث الحر فى قاعاتها ، وهل فتحت أبواب ونوافذ الفكر الأجنبى ، فعرف الناس مالم يعرفوا ، وفكروا فيما لم يألفوا التفكير فيه ؟

أنى أوثر الصمت .

وقد لا تكون الجامعة مسئولة عن القصور أو العيب الذى شاب نشاطها فقد كان فى مصر الاحتلال ونكبت الجامعة وخصوصاً كلية الآداب بالصراع بين الدول المتكالبة على خلق مناطق نفوذ أدبى وسياسى فى الشرق كله ، عامة والشرق العربى خاصة . فقد كان هناك الإنجليز والفرنسيون وكان هناك أحيانا البلجيكيون والطليان . وكان على رأس كل قسم أستاذ أجنبى يحاول أن يملأه بأبناء جلدته ، وأهل عشيرته . وقد حدثنا فى ذلك أحمد أمين كما سنرى حينما نعرض لحياته فى أحد الفصول القادمة من هذا الكتاب . ولا شك أن بعض هؤلاء الأساتذة كانوا من الكبار ذوى المقام غير المنكور ، ولكن بعضهم الآخر كان ممن لايحملون إلا لقب البكالوريوس أو الليسانس من جامعاتهم وممن لم يسهموا فى العلم أو الأدب بشىء عظيم .. ومع ذلك فان استقدام كبار الأساتذة إلى الجامعة لم يكن إلا من قبيل مباهاة « محدث النعمة » من جهة « والمصابين بمركب النقص » من جهة أخرى . فالفرح بأننا استقدمنا للجامعة الاستاذ الكبير . لامعنى له إلا إذا كان أولادنا قادرين على الافادة منه ، والتأثر به .. وأولادنا لايصلحون للأخذ عن الاساتذة الكبار الاجانب

إلا إذا أتقنوا لغتهم . والجامعة لم تبذل جهداً خاصاً فى تلقين تلاميذها فى السنين الأولى اللغات الأجنبية التى سيتلقون بها محاضرات هؤلاء الأساتذة الكبار . ولذلك كان وجود بعض هؤلاء الأساتذة الأجانب الكبار عبئاً مالياً على الدولة ، دون نفع كبير منه للعلم والثقافة فى بلادنا .

وإذا كان الاحتلال قد جعل الجامعة ميداناً للصراع بين الأساتذة الأجانب وكان قد حدد الدول التى يمكن لنا أن نستقدم منها الأساتذة ، فإن الأحزاب جعلت الجامعة ، ميداناً للعب الكرة الشراب . أى ميداناً للعبة لاضوابط لها ، ولا قواعد ، تجرى فى أى وقت ، وفى أية حارة ، مع صراخ شديد ، وتلويح بالأيدى ، وتراشق بالحجارة . دخلت السياسة الحزبية الوضيعة الجامعة ، فأفسدتها وأتلفت قيمها ، وأصبح بعض الأساتذة ، مشغولا عن للتدريس والأستاذية ، والتأليف ، واصطناع التلاميذ ، بالجرى فى أعقاب الزعماء والمتزعمين، والمرشحين للسلطان ، والدعوة للأحزاب ، والتمسح فى أعتابها . ولست أنسى ليلة رأيت فيها أستاذاً بكلية الآداب عند محمد محمود باشا رئيس الوزراء ، جاء فى صحبة تلميذ من تلاميذه ، المشتغلين بالسياسة ، ليقدم كتاباً . ويقتضينى الإنصاف أن أذكر أن محمد محمود ، كان برما بهذه الزيارة ، ولعله خجل من وجودى الذى لم يكن محسوباً حسابه ، فقد ظهر على الاشمئزاز والتقزز من هذا الهبوط الذى لا يمكن السكوت عليه ، أو التجاوز عنه .

وقد كان من الشائع أن يكون الأستاذ محسوباً على تلميذ من التلاميذ المشتغلين بالسياسة الحزبية وهم فى الأغلب من أسوأ التلاميذ أخلاقاً ، ومن أضعفهم مادة ، ومن أقلهم صبراً على التعليم . كما كان شائعاً أن يهجر الأساتذة الجامعة بحثاً عن وظيفة إدارية ، كوظيفة فى وزارة الداخلية ، أو وظيفة فى القضاء ، أو فى السلك السياسى ، لأن فى شغل الوظيفة الجديدة ، زيادة بضعة جنيهات فى المرتب ، أو ممارسة للسلطة ، أو كسباً للوجاهة ، أو قرباً من الزعيم : أقفرت

الجامعة ، فقد شغرت صفوف الأساتذة ، صفاً بعد صف ، فلم يبق من الأساتذة القدامى إلا أقل القليل ، فوصل إلى كراسى الأستاذية ، الأحدث سنا ، والأقل تجربة . مع أن الجامعة هى حصن الأمة الحصين ، ومعينها العلمى والروحى الذى إن نضب ، أجدبت حياتها ، وهبطت روحها ، وسدت سبل الخير أمامها .

وقد انعكس هذا كله على إنتاج ونشاط الأساتذه ، فقل أن نجد لواحد منهم كتابا غير المذكرات التى يلقيها على الطلبة فى المنهج المقرر . وهو كتاب واحد أو كتابان لاثالث لهما ، وعليهما يعيش ، مكتفيا باللقب العلمى ، وبالوظيفة ، شاغلا نفسه بالبحث عن وظيفة أخرى خير منها .

وأساتذة هـذه حالهم لاتنتظر منهم أن ينظموا للناس سلاسل المحاضرات تتناول الشئون العامة المتصلة بفروع معرفتهم التى تخصصوا لها ، فقد تركت الجامعة هـذا الميدان ميدان تذليل المعرفة وتبسيطها ، وتقريبهـا إلى الناس ، وتناول الشئون العامة الجارية ، من زاوية المعرفة الجامعيه وفى ظلها . تركوا هذا كله للجامعة الأمريكية ، فقد ألفت أن تنظم سلاسل سنوية لمحاضرات تتناول موضوعا واحداً من زوايا مختلفة ، وتدعو إلى المحاضرة فيها أساتذة الجامعة ، وقد كانت هذا السلاسل ناجحة نجاحا عظيما وإن كان يعيبها أنها لاتخوض إلا فيما لايزعج الإنجليز والأمريكان .

إن الأزهر هوأبو الجامعات الحديثة ،وقد كانت هيئة كبار العلماء فيه ،بمثابةهيئة الأساتذة فى تلك الجامعات الحديثة ، وقد كان قانون هيئة كبار العلماء فى الأزهر ينص على أن الأستاذ يبقى فى الهيئة « ما دام فى عقله » ، أى ما دام يعقل ويقدر على الكلام المفهوم ذلك لأن الأستاذ لا يقوم بمال ، ولا يستغنى عنه بغيره ، ولو كان فى مثل إجتهاده وكفايته ومقامه . فلكل أستاذ روحه ومنهجه وطابعه وتلاميذه . ولا تزال الحياة العلمية فى بلادنا تضطرب وتتقهقر ، حتى ننقل عن الأزهر القديم الإيمان بعرف

بأن لأستاذ الجامعة قدره، فلا ننزع الأستاذ من الجامعة حتى ولا لمنصب الوزير أو المدير فتلك وظائف سياسية وإدارية، ويمكن أن يقوم بها غير المتخصصين فى المعرفة ويمكن للاستاذ أن يرشد ويوصى ويكتب التقارير ويلقى المحاضرات، دون أن يترك مكانه فى الجامعة.

وإنى أبعثها صيحة عالية، أن أعيدوا أساتذة الجامعة إلى كراسيهم ومناصبهم، وتوسعوا فى الإفادة من الأساتذة الذين بلغوا سن المعاش ولا يزالون يتمتعون بالصحة وبالقدرة على الإنتاج، بنظام الأساتذة غير المتفرغين وأرفعوا مرتب الأستاذ حتى يصل إلى مرتب الوزير، ونصوا فى قانون الجامعة أنه لا يترك منصب الجامعة إلا واحد من إثنين مطرود منها لخطأ جسيم، أو مريض لا يقوى على العمل، وكلاهما لا يسمح له بالعمل فى منصب حكومى آخر، سداً لباب التأويل والاجتهاد، — الذى سيلجه أصحاب الأغراض، فينقلون أستاذ الجامعة إلى الوظيفة الإدارية بدعوى أن صحته لا تسمح له بالعمل فى الجامعة تحايلا على القانون. لقد أخرجت مدرسة المعلمين العليا، ومدرسة الحقوق، ومدرسة القضاء الشرعى والأزهر ودار العلوم، للبلاد قبل الجامعة المازنى، وعبدالرحمن شكرى، وأحمد أمين أمين، من الأدباء كما أخرجت لنا سليم حسن وشفيق غربال، وشفيق جبره من المورخين والأثريين ومحمد فريد وأحمد لطفى وعبدالحميد أبو هيف وآحمد أمين، وأمين الرافعى، وحافظ رمضان ومحمـــد حسين هيكل، ولطفى السيد وعبدالعزيز فهمى وعبد الخالق ثروت وأحمد وجدى ومرقس فهمى الفقهاء والساسه والمشرعين والمحامين فهل أخرجت لنا الجامعة مثلهم، أو عدداً يقارب عددهم أوثر الصمت للمرة الثانية

ولكنى استطيع أن أقول إن مكان الجامعة، لا يزال شاغراً، ولا يزال الأمل الذى عقد عليها، معلقاً فى حاجة إلى من ينهض بتحقيقه، فهل يكون غد الجامعة خيراً من أمسها؟ نرجـــو ..

وإذا فرغنا من الحديث عن الجامعة ، رأينا أنفسنا أمام الحديث عن الإذاعه ، فقد كانت الإذاعة التى بدأت حياتها فى مصر فى السنين الأولى من العقد الثالث (١٩٣٠ وما بعدها) عاملا من أقوى العوامل الثقافية فى حياتها ، تعلو على الصحافة ، أو على الأقل تنافسها ، فى الخير والشر معا .

فماذا فعلت فى حياتنا هذه الإذاعة ؟

بدأت الإذاعة أهلية ، وتركت فترة غير قصيرة فى يد محطات يديرها أشخاص هدفهم جميعاً الربح والتجارة . وكانت محطات ضعيفة لا تتجاوز قدرة إرسالها نطاق القاهرة . وكانت برامجها بطبيعة الحال ، ضعيفة كذلك ، اعتمدت فى الأكثر الأعم ، على الإسطوانات التى سجلت عليها أغانى المطربين والمطربين والمطربات وبعض الأحاديث ، ثم تلاوة من القرآن ، ولم يكن ممكنا السكوت على هذه الحال ، ولكن البديل كان أسوأ ، فقد انتقل مرفق الإذاعة إلى شركة ماركونى البريطانية ، فخرجت من حياة مصر القومية ، تماما كما لابد أن تخرج الصحافة أو التعليم من هذه الحياة ، حينما تخضع للنفوذ البريطانى . أصبحت الإذاعة الحكومية ، أكثر نظاما ، وأكثر قوة، وزادت ساعات الإرسال ، وتحدث إلى المستمعين ، خطباء أكبر شأنا ، ولكن بقيت مرفق بلا روح ، أبعد الأشياء عن الشئون الجارية ، وعن مشكلات الأمة ، وعن التفكير فى تطور فنون البلد المحلية ، أو استلهام تاريخها ، أو الاهتمام بالطبقات الصغيرة فيها . وقد كان ملحوظا فى الموظفين الذين يوكل إليهم العمل فى الإذاعة ، أن يكونوا من خريجى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب وإن أثبت العمل أن الكثير من هؤلاء كانوا من خصوم السياسة الانجليزية .

ولكن لعل ضعف الإذاعة فى فترة الادارة الإنجليزية ، مما خفف من

أضرارها فالإذاعة بحكم كونها أداة اتصال بالجماهير ، ميالة إلى ترضى نزعات هذه الجماهير . والجماهير فى كل زمان ومكان ، أميل إلى العام دون الخاص ، والسهل دون الصعب ، والسطحى دون العميق ، والقريب دون البعيد ، والخفيف دون النفيس . فلو استسلمت الإذاعة لهذه الميول وسايرتها ، تحولت إلى جهاز مدمر ، يشيع السوقية والتفاهة ، ويؤكد الانحطاط والابتذال ، ويعوق التقدم والتسامى ، ويكره العمل المتقن ، والجهد العالى ، وقد كانت الإذاعة المصرية فى العهد الماركونى ، أضعف من أن تكون قوة تأثير عميقة على الجماهير ، فبقيت قوة محدودة الأثر ، لا تنفع إلا قليلا ، ولا تضر إلا قليلا ،حتى إذا قامت الحرب العالمية الثانية، عبئت للدعاية للجهد الحربى البريطانى ، فلما انتهت الحرب وخرجت الإذاعة من السيطرة البريطانية المباشرة ، بقيت إدارة دعاية للملك ، وللحزب الحاكم ، بعيدة عن التيارات الجديدة فى الوطن ، لا تمد يدها للفن المصرى ، ولا للأدب المصرى إلا بالقدر الذى يمليه التقدم العام الذى لا يفلت منه مرفق ولا شخص ولا جهاز .

* * *

ماذا فعل هذا العصر ، وماذا فعله رجاله ؟ ماذا يساوى هذا العصر ، هل ذهب وكله أخطاء وآثام وعجز وحيرة ، أم كان له ولرجاله فضل لا ينكر ، ومقام لا يجحد .

لا شك فى أن هذا العصر كان حصيلة العصور التى سبقته فى الرجال وفى التجارب ، فقد مات أبطال العصر السابق عليه ، أو اختفوا قبل الأوان .

مات مصطفى كامل شابا فى نحو الثانية والثلاثين من عمره ، بينما امتد عمر زملائه ومعاصريه إلى ماقبل الثورة بقليـــل بل منهم من شهدها وعاش معها سنين .

ومات الشيخ على يوسف دون الستين ، كما مات من قبل عبد الله النديم بعيدا عن وطنه ، فى استانبول .

ومات الشيخ محمد عبده فى سنة ١٩٠٥ وهو فى حدود الستين ، وترك محمد فريد مصر فى سنة ١٩١٢ ، وهو بعد فى حدود الأربعين ، ومات سنة ١٩١٨ وهو فى حدود الخمسين ، وخرج الخديو عباس من مصر فى شبابه ، لذلك كان شباب العصر السابق هم رجال العصر الذى نؤرخ له ، ونتحدث عنه ؛ ولكن لو سارت الأمور على غير ما سارت عليه ، لكان من الممكن أن يبقى مصطفى كامل وعلى يوسف ومحمد فريد وعبد الله النديم ومحمد عبده على المسرح ، ولحجبوا الصف الأول عن هيكل والعقاد والمازنى وباقى أساتذة العصر الثانى .

* * *

وقد كانت الأفكار التى أثيرت فى فترة ما بين الاحتلال والحرب العالمية الأولى كلها معلقة لم يفصل فيها ولم ينته الرأى العام إلى رأى حاسم فى شأنها : بقيت نظرية حزب الأمة الداعية إلى الثقة بالإنجليز ، والاعتماد عليهم فى تنفيذ خطة إصلاح داخلية تعنى بالتعليم والصحة ، فى ظل دستور يبسط يد المصريين فى شئونهم الداخلية تناظرها نظرية الحزب الوطنى التى تدعو إلى مكافحة الاحتلال البريطانى بكل وسيلة وسلاح ، المفكرون والعقلاء يؤمنون بالنظرية الأولى ويعملون لها ، والشعب فى مجموعه ، وشبابه المثقفين على وجه خاص ، يكفرون بتلك النظرية وينتفضون غضباً على الداعين لها . ولكن المفكرين والعقلاء هم أصحاب الصدارة فى البلاد نوكل إليهم إدارة الحكم ، ويتولون توجيه الأمور ، وإذا تحدثوا إلى الشبان ، خلبوا ألبابهم ، بلطف أساليبهم ، وسعة إطلاعهم ، وبما امتازوا به من رصانة واحترام للنفس .

ورث عصر ما بين الثورتين هاتين المدرستين ، وورث معهما من بقى من رجالهما ، ولذلك ازدحمت الساحة العامة بشخصيات كثيرة ، فرأينا شوقى وحافظ ومطران إلى جانب محرم ونسيم ، إلى جانب العقاد وشكرى والمازنى ، إلى جانب الجارم ورامى .

ورأينا لطفى السيد إلى جانب المنفلوطى ، وهيكل ومنصور فهمى ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين .

وقد حمل هؤلاء جميعاً فى أشخاصهم وعقولهم صفات العصر وسماته . فهم متأرجحون بين التطرف وبين الاعتدال ، وبين حب مصر ، والإعجاب بالانجليز ، بين الإيمان بالسياسة والعمل السياسى ، والكفر بهما والرغبة فى البعد عنهما كانوا يحبون الاستقلال لأشخاصهم ، وهو مايقتضيهم شيئا من الحرمان ، والزهد والتحرر من أصحاب السلطة وزعماء الأحزاب . ثم كانوا يحبون الحياة الهينة الرخية ، وهوما أدى بمن اشتغل منهم بالشئون العامة إلى العمل للاحزاب أو فى جرائدا لأحزاب ، والخضوع لها ، أو الفناء فيها .

كانوا يتوقون إلى أن يقولوا كلاماً عظيما ، وأن يخوضوا معارك كبيرة وأن يحققوا أحلاماً باهرة ، وكانوا فى الوقت نفسه محبين للراحة ، مؤثرين العافية ، يخافون الفقر والسجن ، والبعد عن الأهل .

كانت تساورهم أفكار ضخمة، لابد لتنفيذها وتحقيقها من سهر وانقطاع وجهد وتعب ، وكانت الشهرة السهلة ، والعمل الصحفى ، والإنتاج الخفيف ، تغريهم بالربح السريع والإنتاج الصغير ، وتجميع المقالات ، والدراسات الجزئية والتنقل بين الأحزاب والأفكار والمذاهب والمدارس .

ومع ذلك كله ، لقد تركوا شيئاً له أثره وقيمته ، وقالوا كلاماً نافعاً ، وتعرضوا بين الحين والحين لبعض الأذى ، وأثاروا أحلاماً فى النفوس ، وخواطر فى العقول ، ومشاعر فى القلوب ، وتحدثوا عن الحرية وعن الدستور؛ وعن الأدب وعن الحياة ، وترجموا ، ولخصوا وعرّفوا قدر ما استطاعوا بالأدب الانجليزى والفرنسى والروسى والألمانى؛ ونقلوا إلى بلادنا ، وفى مجالنا الفكرى قضايا الأدب المعاصر عن الفن والأدب وصلتهما بالحياة ، ودورها فى المجتمع ،

وفتحوا نافذة لشبابنا يطل منها على مايجرى فى العالم من معارك السياسة والفكر وكانوا بالجملة رواداً فى فروع مختلفة من الثقافة لم يتخصصوا ، ولم ينقطعوا لفرع ، ولم يلتزموا منهجاً ، ولم يدعوا لمدرسة ، ولم تتضح لهم فلسفة ، وإنما بذروا هنا وهناك بذورا منها الصالح المثمر ومنها مالا يضر ولا ينفع ،وقد كانوا فى أيامهم كل شىء فى حياة أمتهم ، يكتبون فى السياسة فى الصحف ، فى الأدب فى المجلات ويلقون المحاضرات فى الأندية ، وتؤلف منهم اللجان ، ويؤخذ بعضهم فى الوزارات ، ويرشحون للمجالس النيابية ويستشيرهم رجال الحكم والسياسة ، وينتقلون من المقال إلى الكتاب ، ومن الكتاب إلى تراجم الحياة ، ومنها إلى القصة أحياناً ، وإلى الرواية أحياناً أخرى وإن لم يستهوهم المسرح إلا قليلا .

لقد كانت آياديهم على الفكر المصرى خليقة أن يعظم أثرها وأن يكتب لها نصيب أكبر من الخلود لو أن نصيبهم من الشجاعة كان أكبر ،ولو كان إخلاصهم للفكرة أعمق ، ولو كانت نظرتهم إلى الحياة أشمل وأوسع . فقد تركوا جميع القضايا معلقة . بل لعلهم لم يقتربوا من قضية ما ، اقترابا كافياً ،حتى المشكلات اللغوية لم يحسموها برأى : تحدثوا فعلا عن العامية والفصحى ، ولم ينتهوا إلى شىء ، فقد قنع الواحد منهم بالإشارة إلى المشكلة مرة فى الحياة أو مرتين ثم كأنه لم يثرها ، ولم يتحدث فيها .

تحدثوا عن علاقتنا بالعرب والجامعة العربية — وعن دور مصر السياسى والعالمى ، وعن موقفها من الفكر الإسلامى ، السياسى ، فلم يقولوا فى هذا كله شيئا . وكان موقفهم جميعا مائعا من المذاهب الاقتصادية السياسية الجديدة ، لم يقبلوها ولم يرفضوها ، إذا استثنينا سلامة موسى الذى واظب على الدعوة إلى الإشتراكية والعقاد الذى انفجر غضبه وسخطه على الشيوعية قبل وفاته بقليل .

ولا زلت أذكر محمود عزمى ، والقبعة على رأسه ، فقد كان هذا المسلك منه تحفزاً للتجديد ، وإعلاناً له ، ولكن عزمى خلع القبعة ، وعاد إلى الطربوش بعد شهور من هذه المحاولة ولم يفكر بعد ذلك قط فى القبعة ، فكان أشبه شيء بموقف طه من نظرية أن الكتب المقدسة ليست وثائق علمية لإثبات التاريخ وموقف على عبد الرازق من نظرية أن الخلافة ليست أصلا من أصول الحكم الإسلامى ، قالوا بالنظريتين مرة كما لبس عزمى القبعة مرة ، وخلع عزمى القبعة إلى غير رجعه كما خلعا نظريتهما إلى غير رجعة . .

ولكنا لا نملك أنفسنا من توجيه التحية لهؤلاء الأساتذة ، ومن الإقرار لهم بالجميل ، والإعتراف لهم بالفضل ، فقد أعطونا أحسن ما عندهم ، فإذا كان ما عندهم مشوباً بالنقص ، فالهدية على مقدر مهديها ، وصاحب الهدية جدير بالشكر على أنه لم يبخل بشيء عنده ولم يدخر وسعا فى التجويد والإتقان والبذل والعطاء .

وإذا كان الجيل الجديد قد تلقى عنهم الرسالة ، فقد تلقاها مفتوح العينين ، مدركا تمام الإدراك ، ما تعثر فيه سلفه ، محيطا بنقص التركة التى ورثها ، عارفا لمزاياها ، منتفعا بالأخطاء ، وقد كان للذين سبقوه أكثر من عذر يعتذرون به كان الاحتلال «جاثماً» على الصدور ، فارضاً ثقله على الحياتين السياسية والعقلية وكانت الملكية قائمة ، تسد أكثر من سبيل فى وجوه المفكرين ، وكان دور بلادنا فى الحياة الدولية لا يوحى بالطموح والتطلع إلى المساهمة الجدية فى الحياة الفكرية الإنسانية ، وكانت دنيا العرب يسودها الاضطراب والجدب ، وتتوزعها الشكوك ، والحيرة ، فلم يستطع الأدباء والمفكرون ، أن يحددوا منهم موقفها ، فقد شاب العناصر الأصيلة ، شوائب دخيلة حجبت حقيقتها ، وأفسدت جوهرها — صحيح أن الأدباء والمفكرين ، تعظم رسالتهم ، أى تعظم الحاجة

إليهم ، كلما اشتد الأمر بالبلاد ، وأحدقت بها النوائب ، وتكاثفت أمام أبنائها الظلمات ، ولكن كتابنا نشأوا فى مدرسة عوقت جهادهم ، وعكرت عليهم إيمانهم ، فخرج عملهم ، مشوباً بعيوب هذه المدرسة ومنهجها . ولم يعد لهذه المدرسة وجود ، بل لا يمكن أن يكون لها الآن وجود ، لذلك فالجيل الجديد من مفكرينا يستطيعون أن يبدعوا وأن يكشفوا عن مزيد من الفضائل ، لم يوفق إلى الكشف عنها الذين سبقوهم ، وأن يرفعوا مشعل الفكر ، إلى أكثر مما ارتفع ، وإلى أسمى مما وصل .

الفصل الأول

أحمد شوقى الشاعر

حينما ذهبت إلى قصر أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، المعروف « بكرمة ابن هانى » ، والواقع على شاطىء النيل الغربى بالجيزة ، لم أكن أصدق أننى سأقابل إنساناً بهذا الإسم ، فأحمد شوقى ، أو شوقى بك ، كان بالنسبة لنا ، معنى لايتجسد ، وفكرة تحمل إسم إنسان ، ولكن لم يخطر على بالنا ، أنها يمكن أن تحل فى جسم آدمى ، نخاطبه ويخاطبنا ، ويجمعنا وإياه مكان واحد . وقد أعان على هذا الوهم وتثبيته ، أن الصحف فى تلك الأيام ، لم تكن تنشر صور الأدباء والمفكرين إلا قليلا ، ولم تكن تعنى بذكر أنباء حياتهم الخاصة .

ذكرت وأنا أخطو فى حديقة كرمة ابن هانى ، فى ارتباك وخجل ، أن خالى أشار فى ليلة من ليالى الشتاء إلى إنسان قصير يلبس معطفا ، ونحن نهم بالخروج من سينما (راديوم) التى كانت فى المكان الذى يشغله مسرح الريحانى الآن وقال : «شوقى بك أمير الشعراء !». وحاولت أن أرى فى نور الشارع الخافت ، أمير الشعراء هذا ، فكان كل ما استطعت أن ألمحه شبحاً يسير فى خطوة بين الاتئاد والسرعة ، ثم انعطف إلى طريق جانبى ، ثم اختفى . فأسبغ هذا الجو كله على شخص شوقى بك ، غموضاً ، زاد الخيال المحيط به عندى ، جمالا وشاعرية .

وراح خالى ليلتها يقول لى أن من عادة شوقى بك أن يشهد حفلات السينما فى الصفوف الأولى ، وهى أرخص الأماكن ، لأن نظره لا يعينه على الرؤية من بعيد ، ولكن هذا الكلام لم يكن يحيل شوقى بك إلى واحد من الناس ،

يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فقد كنت أسمع خالى وأنا لا أربط بين كلامه وبين أمير الشعراء .

كان شوقى بك بالنسبة لنا قصائد تنشر فى الصفحات الأولى من الصحف ، ونصوصاً تكتب فى كتب المحفوظات المقررة علينا فى المدارس ، وإعجاباً بألفاظه ومعانيه ، بلا تحفظ ولا احتياط ، كأن هذا الشاعر ، لا يصدر عنه إلا السحر ، ولا ينظم إلا أروع الشعر ، وكأن نقده أو الاقتصاد فى إظهار التحمس له ، لون من التجديف . ولم تكن كتب الأدب فى المدارس قد عرفت بعد ، دراسة حياة الشعراء والكتاب ، ووصف البيئة التى نشأوا فيها ، وتحليل العوامل التى أثرت فيهم . فكان المتنبي وابو تمام وابو العلاء والبحترى ، وكان الجاحظ وابن المقفع ، وبديع الزمان والحريرى ، مجرد أسماء كأنها أسماء المعانى المجردة كالجمال والكمال ، والوفاء والذكاء .

وقد كان أول بحث تحليلي ينشر لحياة شوقى ، هو البحث الذى قدم به الدكتور محمد حسين هيكل للجزء الأول من الشوقيات ، ومع ذلك فإن هذا الفصل خلا من اشارات واضحة إلى حياة شوقى ، يعين على تبين ملامحها ، فكانت من التعميم أشبه شىء بشعر شوقى نفسه .

كان كل ما أذكره من شئون شوقى الخاصة ، أنه حينما ولد ، كان يرفع نظره إلى السماء أبدا ، ولا يستطيع أن يحول عينيه إلى أسفل ، لعلة فى عضلات العين أو أعصابها ، فلما دخلت به جارية إلى الخديو اسماعيل ، وسأل الخديو الجارية عن الطفل ، وسر رفع عينيه إلى أعلى ، ولم تحر الجارية جوابا ، أخرج من جيبه جنيهات ذهبيـــة ، ونثرها على السجادة ، فخطف بريق الذهب عينى الطفل ، فأدارها من سقف القاعة إلى أرضها وكنت أظن أن (هيكل)

قد أورد هذه الواقعه فى مقدمته ، ولـكن حينما راجعتها وأنا أضع هذا الفصل ، لم يقع نظرى عليها فى تلك المقدمة .

وكان خصوم شوقى يقولون أنه منذ ولد ، وهو يبحث عن الذهب ، ويحول نظره إليه ، وأنه على طول حديثه عن الفقراء والعطف عليهم ، كان هواه مع الأغنياء ووقوفه مع الأقوياء ، وشعره بخوراً يحرق بين يدى أصحاب السلطه ، وذوى الجاه .

ويقال أن الخديو إسماعيل قال للجارية « كلما نظر الطفل إلى السماء ، انثرى له ذهباً ، حتى يتعود النظر إلى الأرض . »

فقالت الجارية : هذا دواء يا مولاى لا يخرج إلا من صيدليتك .

* * *

رحت أقطع طريقى إلى (السلاملك) الذى سيقابلنى فيه شوق ، وأنا لا أكاد ألتفت إلى شىء فى الحديقة المتصلة بالنيل ، أو القريبة منه ، وأنا لا أدرى ماذا سأقول لشوقى ، وماذا سيقول لى ، وكيف سيلقانى . وكلما اقتربت من الحجرة التى عرفت أنه ينتظرنى فيها ، زاد اضطرابى ، ثم وجدت نفسى آخر الأمر أمام شوقى بك أمير الشعراء .

هل أستطيع أن أصدق جواسى وأنا بعد طالب فى كلية الحقوق ، إنى أرى بعينى صاحب هذا الإسم الضخم ، الذى يكاد يكون قطعة من تاريخنا العظيم ، يتحرك أمامى . نظرت إلى الحجرة ، أو أجلت عينى فيها بسرعة ، فلم أر فيها شيئاً باهراً من الرياش أو الأثاث . فقد كانت وسطاً بين الاتساع والضيق ، وكان كل ما فيها من الأثاث عاديا ، ويخيل إلى الآن أن ما استوقف نظرى وقتذاك هو مجموعة من الـكتب تناثرت هنا وهناك ، بعضها مفتوح ومنكفىء ،

وبعضها مغلق ، منها ما وضع اثنين اثنين وما وضع ثلاثة ثلاثة ، ومنها ما ألقى به فى الأرض ، وما ترك فوق وسادة أريكة وهكذا . إذن شوقى يقرأ ، أو أنه لا يزال يقرأ .

ورأيتنى أمام إنسان ضئيل ، قصير ، مددت يدى نحوه ، فمد يداً نحيلة صغيرة مرتعدة ، كأنها يدطفل ، مضطرب ، وقد خيل إلىّ وقتها أننى لو ضغطت عليها لانكسرت ، وقد كنت آنذاك شابا نحيلا ضعيفاً . ولما سكن جأشى ، ابتدأت أملا عينى من وجهه ، فكان أول ما وقع نظرى عليه هذه العيون التى كانت نظرتها مشدودة إلى أعلى دائما ، فقد كانت عيونا قلقة تترجرج ، وتضطرب فى محاجرها ، كأنها زئبق فى يد مشلولة ، ولكن أهم ما أحسست به ، هو فتور رب البيت ، فإنه لم يرحب بى كما كنت أرجو ، ولست أذكر الآن شيئاً مما قلته ، ولا شيء مما رد به ، ولكنه على كل حال ، وعد بأنه ينظم القصيدة التى طلبتها منه لمشروع القرش ، وخرجت وأنا بين الرضا والامتعاض من هذه المقابلة . ولكن ما كاد الشعور الذى بعثته هذه المقابلة يزول ، أو يخف ، حتى حل محله ، شعور بالفخر بأنى قابلت شوقى ، وتحدثت إليه ، وأنى مستطيع أن أذكر هذا لزملائى وإخوانى ، وأنهم سيجدون فيه ما يدعوهم إلى الإعجاب بى ، وتوجيه أكثر من سؤال لى عن الشاعر العظيم وشكله وهيئته وطريقته فى الكلام ، وشكل بيته ، ونوع أثاثه وهكذا . ولم ينقض على هذه المقابلة وقت كثير حتى عدت إلى شوقى مرة أخرى ، أجدد الطلب ، فقد ظهر عدد المصور الخاص ، الذى جمعت فيه العديد من آراء الزعماء والقادة ومقالات وقصائد الشعراء والكتاب ، ولم يكن بين هذا كله ، قصيدة شوقى التى كانت أملا من آمالنا .

وقد كان شوقى فى المرة الثانية ، غيره فى المرة الأولى ، فقد ظهر عدد

المصور ، وفيه الدليل على أن المشروع الذى جئت طالباً باسمه ، القصيدة ، هو مشروع جاد ، وأن الوزراء والكتاب والشعراء احتفلوا به ، احتفالا كبيراً .
وقد أحسست فى كلام شوقى بالغيرة والعتاب . كانت مقابلتنا هذه المرة فى حديقة منزله ، وقد سرنا سويا فيها ، ونحن نتكلم. وقد دار كلامه أول الأمر محلقاً فوق المعنى الذى كان يريده ، والذى كان يشعر بشىء من الحرج ، فى الإفصاح به ، ولكنى أدركت أن احتواء العدد الخاص على قصيدة للعقاد قد ضايقه كثيراً ، فقد كان العقاد والمازنى وشكرى هم ألد خصومه الذين أنكروا عليه الشاعرية الصادقة ، ورموه بالتقليد والمحاكاة للقدماء بغير عاطفة صادقة ، ولا إحساس أصيل .

قال شوقى : يجدر بكم وأنتم شبان وطلاب جامعة ، ألا تفعلوا كغيركم ، فتهمكم الكثرة دون القيمة ، وتضعوا من لا يستحق إلى جانب من يستحق .

وأدركت أنه يعنى العقاد ، ولكنه لم يدع الأمر للاستنتاج ، فقال : هل أعجبك كلام العقاد . ولا أدرى بماذا أجبت يومذاك .

وقد أتاحت هذه المقابلة الثانية فرصة التأمل فى وجه أمير الشعراء فازددت شعوراً بضآلة جسمه ، ولا سيما بصغر يديه وضعفهما ، كما ازددت أحساساً بهذه العيون القلقة المرتجة وبعصبيته ،وبذكائه ، ثم بشىء أكثر من الذكاء ،هل هو خبث أو دهاء ؟ وفى شوقى ما يبعث فى نفسك الشعور بأنه يحذر محدثه ، ولا يطمئن إليه ، ولا يحب أن يعطيه من نفسه إلا أقل القليل . ومع ذلك أن أشهد أننى لم أتبين فى شوقى سمة واحدة من سمات الكبرياء أو التعالى ، فقد استطعت من المقابلة الثانية ، أن أتحدث معه على سجيتى فى غير تكلف ولا احتياط ، وقد علمتنى الأيام أن المشهورين ، الذين يحسب الناس ، أنهم شبعوا من الشهرة ، هم أحرص الناس على ما يوسع من نطاق شهرتهم ، ويجدد دواعيها ، وأن كلمة نقد

صغيرة أو عدم التفات إليهم عن قصد من بعض من لا قيمة لهم ولا شأن ، يغيظهم ويكربهم ، وقد يفسد عليهم يوماً أو ليلة كاملة .

وقد روى مؤرخه الأستاذ أحمد محفوظ أنه كان يجزع من النقد جزعاً شديداً ، ويخاف الصحف الصغيرة (الصفراء) فكان يغدق على أصحابها الأموال الجليلة ، ولا يلقاهم إلا بالتكرمة وخلع الألقاب الضخمة عليهم . وقد علم أولئك عنه ذلك ، فإذا قبض يده عنهم ، غمزوا شعره ، فهرول إليهم مسترضياً باذلاً ماله ، وكان هذا سبيلهم إلى سلبه .

وقال الأستاذ محفوظ أن شوقى غضب عليه غضباً شديداً لأنه أخبره بمقال نشر فى إحدى هذه الصحف الصغيرة ، ملأه كاتبه نقداً فى شعره . فثار وصاح فى وجهه : «يأخى هو لازم تبلغنى شتيمتى. أنا ما أقراش الصحف الساقطة دى» وفى اليوم التالى ، اتصل شوقى بصاحب المقال ، وأجزل له العطاء ، وأسبغ عليه أكبر الألقاب .

ولقد كان حجم شوقى وعصبيته يذكرانى دائماً بصديق له هو الأستاذ إسعاف النشاشيبى الكاتب الفلسطينى ، مع اختلاف فى قسمات الوجه والمزاج إلا أن كل منهما ، كان قصيراً وعصبياً ، ولقد أكد تأملى فى وجه شوقى أنه فعلا بملامحه وتقاطيعه ، غريب عن المصريين وعن العرب ، فقد جمع فى عروقه الدم اليونانى عن طريق جدته لأمه (تمراز) فقد كانت من أهل المورة أسرها إبراهيم باشا ، مع الدم الكردى ، إذ كان جده لأبيه كردياً هو على شوقى مدير الجمارك فى عهد محمد على ، بالدم التركى لأن جده لأمه كان تركيا من الأناضول هو أحمد حليم الذى وصل إلى منصب وكيل بالخاصة الخديوية فى عهد توفيق .

وهكذا يأبى تاريخ الأدب العربى ، وتاريخ مصر ، إلا أن يكون فريق كبير من أعظم المشيدين بهما ، والمتعصبين لهما من غير العرب ومن غير المصريين

ولما رأيتنى أحب شوقى ، بعد أن أحببت شعره ، وجدت أن هناك أكثر من سبب لهذا الحب ، فقد حفظت لشوقى شعراً كثيراً فى مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعرفت من قصيدة رثائه ، أنه كان صديقاً لمصطفى ومحباً له ، ثم أتم تحصيل العلوم القانونية فى مونبلييه وباريس ، فكان ذلك شاهداً جديداً على أن الدراسة القانونية ، تنفع الأديب والسياسى والاقتصادى، وأنها حيث تجد التربة الخصبة ، والطبيعة المواتية ، تثمر خير الثمرات .

ثم أن الإنجليز نفوه خلال الحرب العالميـــة الأولى ، وأنا أحب كل من يكرهه ساسة الإنجليز ، وقد قضى سنى نفيه فى أسبانيا ، وتغنى بأيام العرب فى الأندلس ، وأنا أحب تاريخ العرب فى الفردوس المفقود ، ولـكن لم يكن باقياً على إنشاء صلة باقية تربطنى بشوقى لا إلا أن يكون محدثاً يفتح نفسه وقلبه لزواره إذا لو كان ذلك من صفاته ، لترددت عليه ، ولـكننى لم أجد عنده ما يدعونى إلى الإكثار من زيارته ، فأحسن ما عند شوقى ، أجده فى دواوين شعره ثم بعـــد ذلك فى مسرحياته .

ولم ألحظ على شوقى ما يقوله بعض أصدقائه من إهماله لأناقته ، وأن جوربه يشاهد منسدلا فوق حذائه ، لأنه لا يستعمل فى رفع جواربه ما كان يستعمله الناس من (حمالات الشربات) . وأنه مع أهماله لثيابه ، كان شديد العناية بحلق ذقنه وأن هذه العناية ، أوحت إليه أن يفتح صالوناً للحلاقة فى أسفل عمارة يملـكها ، وهو شىء ظريف ولم أكن قد سمعت به ، وهو يستوقف النظر فعلا ، ويثير الدهشة . فإن يدير شاعر ثرى ، صالونا لحلاقة الشعر (الشعر بالـكسر لا بالفتح) والذقن ويقوم الحلاق بتقديم الحساب يوميا لصاحب الصالون ، ظاهرة تحتاج إلى تفسير محلل نفسانى ، وإن كان مما ييسر عليه المهمة أن يكون حساب ذلك الصالون بالخسارة دائما ، إذ بهذه الخسارة يخرج الباعث على كسب المال من دائرة

البحث ، وقد كان شوقى يرمى بأنه بخيل وأنه كلما تقـدم به السن زاد حرصه على ماله .

وعدت إلى شوقى مرة ثانية وثالثة ، وأخذ يألفنى وأحسست أنه أصبح يرضى عنى ، فقد كان يصفنى بأنى (حراك) ، أى كثير الحركة . وبدأت أتبين ملامح شخصيته ، شيئا فشيئا . وكان أهم سمات هذه الشخصية الملل ، ونفاد الصبر ، والالتفاف الشديد حول ذاته ، وقد بدا ملله ، ونفاد صبره ، من حركة يديه المرتعشتين ، وإن كانت الرعشة التى أصابتهما على رأى بعض مؤرخيه ثمرة إدمانه للشراب إلا أن حركة اليدين فى ذاتهما ، دون رعشتهما ، هى التى كشفت عن حقيقة نفسه ، ثم جاءت نظرات عينيه المرتجتين ، لتؤكدا أن شوقى لا ينظر إلى أحد من الناس ، ولا يستمع إلى حديث متحدث ، إلا ويرتسم على صفحة وجهه ، ما معناه : أرجوك أطلق سراحى . ولا تحاول أن تستبقينى طويلا » .

وقد كنت اراه فى دور الصحف ، يدخل حجرات رؤساء التحرير ، فى الأهرام والسياسة والجهاد ، وكأنه الطيف ، ثم لا ألبث حتى أراه خارجا ، فقد كان يطيب له أن ينتقل من مكان إلى مكان ، ومن منتدى إلى منتدى ، ومن جماعة إلى جماعة ، فيرى فى كل مكان ، طرازا من الناس وأسلوبا فى الحديث ، واجواء تتنوع وتتشكل . وقد رسم لنا الأستاذ أحمد محفوظ مؤرخه ، صورة حية لملله فشوقى إذا عاد إلى حجرته فى الساعات الأولى من الصباح ، خلع ثيابه ، ورمى بكل جزء منها فى ناحية من الحجرة لأنه لا يطيق أن يلتزم نظاما فى التخفف من ثيابه وخلعها ولعل من آثار ملله ، أنه كان دائم التجول ، وقد كانت له ساعتان ، بين السادسة والثامنة مساء كل يوم ، يختفى خلالها عن أعين أقرب الناس إليه ، ويروح خلالها يجوب فى الأحياء البلدية وحيداً ، لا يصحبه أحد ، فيرى ويسمع ويفعل مالا يقع تحت أعين الرقباء ، ولا يرتبط بنظام أو قاعده . وقـد حار صحبه ومؤرخوه فى تعليل اختفائه هاتين الساعتين فى كل يوم ، وذهب كل منهم فى هذا التعليل مذهبا .

وقد أورثه هذا الملل أيضاً ، عادات جميلة ، منها أنه كان يركب الترام ، فى القمد الخلفى من العربة المقطورة ، حيث لا يعرفه ركاب هذا المقعد ، وهم دائما من عامة الناس ، فيسمع لحديثهم ، ويشعر بأنه أقرب ما يكون منهم ، ومن الحياة فى أكثر صورها امتلاء ، دون أن يرتبط بأحد ممن يراهم ويسمعهم ، فقد كان يهبط من الترام ، ويغادر مكانه فيه فى اللحظة التى تروقه ، دون أن يستأذن أحداً أو يعتذر لأحد وقد كان يفعل ذلك مع جلسائه فى ندواته ، ومع ضيوفه وإذ كان ينسل من المجلس ، وقد حمى وطيس الحديث فيه ، فاذا انتبه الحاضرون إلى مكان شوقى الشاغر غضب من كان يرجو من الشاعر أن يلتزم قواعد المجتمع معهم ، وابتسم من كان يعرف للشاعر حقوقا فوق حقوق المجتمع .

ويتصل بهذه الصفة الأساسية من صفات شوقى ، أنه كان يتناول عشاءه دائما خارج منزله ، ولم يكن يلزم مطعما واحداً ، فهو دائم التنقل بين مطاعم كبيرة منها صولت ، وسان جيمس والباريزيانا والحاتى ومطاعم الفول . فإذا فرغ من تناول عشائه ، ذهب إلى السينما ، وأخذ مكانه فى الصف الأول ، كما أخبرنى خالى يوماً ، وكما كان يتناول عشاءه خارج منزله فى أحد المطاعم ، كذلك كان يتناول أفطاره فى جروبى ، وكان إفطاره خفيفاً لا يزيد عن قهوة باللبن ، وقطعة من الفطير .

ولم يكن هذا الملل ، إلا أثرا من آثار الجو الذى نشأ فيه شوقى ، فقد كان مدللا ، منذ أن ولد . فقد كان أكبر أخواته ، أحبته جدته (تمراز) حبا شديداً ولما ظهرت بواكير عبقريته ، شمله الخديو توفيق بعطفه ، وأوفده إلى أوروبا على حسابه . ولما عاد كان شاعر الخديو عباس ، وواحداً من أقرب بطانتـــه إلى نفسه ، فأصبح بسبب مكانه من الحاكم مرموقا ، ومسموع الكلمة ، ولما تزوج من كريمة حسين شاهين باشا ، كانت زوجته تطيعه لاتعصى له أمرا ، وتقبل منه أن يسهر حتى مطلع الفجر ، ويسكر حتى الثمالة دون أن تسأله أو تؤنبه ، وعاش

فى جانب من قصره وحده ، وقد كان له من مال زوجته وماله ما أغناه عن العمل ثم واصلت الأيام تدليله ومحاباته ، فوضعت على رأسه تاج أمارة الشعر ، وأصبح على رأس الشعراء ، فإن نافسه على مكان الصدارة أحد ، فشاعر واحد . فهو على أسوأ الفروض واحد من اثنين يتسابقان إلى الاستئثار بحب الناس وإعجابهم .

وكان يعيش فى حياته كما يعيش الطفل فى كنف أمه وأبيه ، فهو لا يصنع لنفسه شيئا حتى غسل وجهه ويديه ، فقد كان له تابع من أهل السودان ، يتولى غسل وجهه ورأسه ، ثم يديه إلى مرفقيه وقدميه حتى ركبته بالماء الفاتر والصابون ثم يخرج من بيته ليهيم على وجهه ، بغير غاية ولا قصد . وهو حيثما يذهب يجد الذين يتسابقون إلى الترحيب به ، والاحتفاء بمقدمه .

فإذا نظم قصيدة ، تنافست الصحف على نشرها فى الصفحة الأولى ، كأنها خبر الأخبار . وقـــد كان الناس فى أيام شوقى حتى مماته ، من هواة الشعر والأدب العربى ، وكان اللفظ الجميل ، أو التورية الذكية ، أو بيت الشعر ذو الرنين ، أغلى عندهم من الذهب .

ولم تفرض الحياة على شوقى قيداً ، روحياً ، كما لم تفرض عليه قيداً مادياً ، فلم ينتم إلى حزب ، وقد وزع هواه على الأحزاب فى مصر جميعاً ، يرثى مصطفى كامل ومحمد فريد والرافعى والصوفانى من زعماء الحزب الوطنى ، ويرثى سعدا وأقاربه ، ويمدح عدلى ومحمد محمود وثروت وهم أقطاب الأحرار الدستوريين ثم هو — مع فرط إيمانه بالله — لا يصلى ولا يصوم . فما الذى يحمله على أن يفرط فى حريته بقلامة ظفر . ما دامت الناس والدنيا ، قد قبلا منه أن يسير على هواه وأن يتنقل ويتقلب كما يحب ، وأن يأخذ ويدع حين يشاء وكما يشاء .

وقد كانت حياة شوقى محدودة بحدين أولهما المقارنة المستمرة بينه وبين حافظ إبراهيم ، وثانيهما السهر من جانبه على شهرته ومجده ، والدفاع عنها ، والتحيض على خصومه والحط منهم .

كنت معه فى ذات يوم ، فإذا هو يقول لى ، بغير مقدمات : أنا أفضل من حافظ وسكت ، ثم قال بعد صمت قصير : حافظ طلق اللسان ، حلو الحديث ، يحب أن يسمعه الناس ولذلك هو لا يكف منذ الصباح الباكر عن الفيض بما لديه على سامعيه ، فاذا عاد إلى بيته آخر اليوم ، كان قد بدد كل مالديه ، فأصبح خاوياً لا يجد مايودعه شعره .

أما أنا فلا أطيق الكلام ، واحتمل طوال النهار ، وبعض الليل ، سخف الناس ، وثرثرتهم وأعود إلى بيتى ، وأنا أحوج ما أكون إلى ما أفرج به عن نفسى ، فأودع شعرى كل ماضاق به صدرى ، وكل ما امتلأت به نفسى .

ثم قال فى مناسبة أخرى : أنا خير من حافظ ومطران . إنهما يستطيعان أن يكونا معاً شاعراً جيدا . فحافظ عنده فسحة من الوقت ، وفراغ من العمل ، مكناه من صقل ألفاظه ، ولكنه جاهل لم يتعلم ، فجاء شعره ، جذلا بلا معنى .

أما مطران فعنده مايشغله أكثر يومه ، ولكنه متعلم وحسن الاطلاع على ما فى كتب الغرب ، ولذلك جاء شعره جليل المعنى ، فقير اللفظ .

أما أنا فأجمع بين أحسن ما عند الاثنين : اللفظ والمعنى .

* * *

قلت إنى طلبت من شوقى ، قصيدة لمشروع القرش ، فتلكأ حتى صدر العدد الخاص من المصور وليس له فيه قصيدة ، فلما رأى أن مطرانا والعقاد قد نظما لنا شيئاً من شعرهما ، كما أنه قرأ كلمات كبار المسئولين ، أحس أن من حق زعامته عليه ، ألا يتخلف ، فنظم قصيدة جميلة ، فى مشروع القرش ، ولكنه لم يعطها لى ، مع أنه وعدنى بذلك ، وكان قد علم أننا نعد عددا خاصاً من جريدة البلاغ ، فذهب بنفسه إلى مقر الجريدة وسلم القصيدة إلى عبدالقادر حمزة يداً بيد ، وقد علمت فيما بعد أن شوقى حريص على مجاملة أصحاب الصحف ، ورؤساء

التحرير ، وأنه جريا على عادته هذه ، رأى أن من الأفضل أن يحمل قصيدته إلى عبد القادر حمزة ، ليشعره بأنه لا يعطينا نحن القصيدة بل يعطيها لعبدالقادر حمزة وللبلاغ ، وهو واثق أن شيئاً من هذا لن يغضبنا لأن القصيدة كانت ثناء علينا وإطراء لمشروعنا .

ولما اطمئن إلىّ شوقى ، بدأ يعبر أمامى عن بعض آرائه فى الشئون العامة ، وفى الشخصيات المعروفة ، فذكر لى سعد زغلول أكثر من مرة ، وفى كل مرة، نعرض لإسمه ، كان شوقى يقول أن سعد باشا فى نهاية حياته كان قد ضاق (بالأراذل) الذين كانوا يحيطيون به ويضايقونه وأنه كان يتمنى أن يترك القاهرة ويتخذ له مسكناً فى الجيزة على مقربة من قصر شوقى ؛ ولم أستطع أن أعرف من هؤلاء (الأراذل) وإن كان سياق الحديث قد كشف لى أن المقصودين م أنصار الوفد من العامة ، وبعض متصدريهم ، وكان كلام شوقى يدع السامع يفهم أن من بين هؤلاء (الأراذل) العقاد وأمثاله .

وقد جرنا حديث من هذا القبيل إلى مقارنة بين المرحومين الأستاذين مكرم عبيد ومحمود فهمى النقراشى ، وكان أولهما سكرتير حزب الوفد ، وكان جميل الصوت ، يرتل أحيانا بعض آيات القرآن الكريم ، ويؤدى فى أحيان أخرى بعض أغانى عبدالوهاب ، وكانت خطبة مسجوعة ، أشبه ما تكون بمقطوعات شوقى النثرية التى جمعها فى كتاب « أطواق الذهب » ، ومن هنا كان مكرم عبيد قريبا إلى قلب شوقى ، بقدر ما كان النقراشى بعيداً عنه لصلابته ، وبعده عن المجتمعات ، وتعقبه الدكتور محجوب ثابت صديق شوقى بالمعاكسات القاسية . فقال لى شوقى ، فى يوم : ليت الأقباط يأخذون النقراشى ، ويعطوننا بدله مكرم »

* * *

وفى أحد الأيام ذهبت إلى شوقى فى الأصيل ، لأرجوه أن ينظم لمؤتمر الطلبة الشرقيين قصيدة ، وكان المؤتمر فكرة ، ساورتنى ، وطرحتها على بعض أساتذتى ، فتحمس لها بعضهم ، وكان فى مقدمة المتحمسين الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، وكنا قد عرضنا رياسة لجنتها التحضيرية على الدكتور على إبراهيم مدير الجامعة فقبلها ، وكانت الغاية من هذا المؤتمر هى دعوة الطلبة المنتسبين إلى دول غير أوروبية وأمريكية لاجتماع سنوى ، لتوثيق علاقتهم بعضهم ببعض ، ولمناقشة مشكلاتهم ، وتبادل الخبرات فى ميادين النشاط الجامعى ، وكانت الغاية السياسية من وراء هذا ، أن يقوم بين الحركات الوطنية فى هذه البلاد ، تعاون واتصال .

واستمع شوقى إلىّ ملياً ، والفكرة تعجبه ، وكلما زدت شرحاً ، زاد إرتياحاً ، وقد شجعنى إقباله علىّ ، فرجوته أن يحدث عبد الوهاب ، فى أن يساهم فى الحفل الساهر الذى كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر تنوى إقامته فى مسرح الأزبكية ، تنويهاً بفكرتها ، وجمعاً لبعض المال الذى تحتاج لإنفاقه فى تحقيق أغراضها .

فرحب شوقى بهذا كثيراً ، وهتف بأعلى صوته « يامحمد ، يامحمد » فإذا بمحمد عبد الوهاب يلبى النداء ، فقد كان موجوداً فى قصر شوقى فى هذه اللحظة ، فيعرض عليه شوقى الفكرة ، فأرى عبد الوهاب لأول مرة عن قرب ، وأرى تهلل وجه شوقى وهو ينظر إلى صديقه المطرب الشاب . وكان شاباً هادئاً خجولا ، ولما انصرف عبد الوهاب ، إلتفت إلىّ شوقى ، وأخذ يشكو لى منه ، لأنه لا يعتنى بصحته كما يجب ، فهو يقيم الحفلات فى سرادقات غير محكمة ، فيتسرب إليها الهواء البارد فى الشتاء ، فيؤذى صدره . .

ولم أذهب إلى شوقى فى مكتبه بشارع جلال إلا مرة واحدة ، وقد وجدته فى المساء ، وحوله بعض أدباء وقد فهمت أنهم كانوا يناقشون فكرة وخطط إحدى مسرحيات شوقى الشعرية ، وكان فى مقدمة هؤلاء الدكتور سعيد عبده الذى كنت أقرأ له قصصاً جميلة وقطعاً زجلية بديعة ، وكنت أحب أن أراه .

وكان خاتمة زياراتى لشوقى ، فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، فقد أخذت منه آخر مانظم من شعر ، قصيدته التى ألقيت فى الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لمصنع مشروع القرش ، فى شارع برج الظفر ، والتى كان عنوانها « فتية الوادى عرفنا صوتكم » وقد جرت أبياتها الأولى :

لايقيمن على الضيم الأسد	نزع الشبل من الغاب الوتد
كبر الشبل وشبت نابه	وتغطى منكباه باللبد
اتركوه يمشى فى آجامه	ودعوه عن حمى الغاب يذد
واعرضوا الدنيا على أظفاره	وابعثوه فى صحاراها يصد
فتية الوادى عرفنا صوتكم	مرحباً بالطائر الشادى الفرد

تسلمت القصيدة ، مكتوبة على ورقة منزوعة من كراسه أو مايشبه ذلك ، مطوية فى أكثر من موضع ، عبثت بها يد الإهمال ، ولكنها مع ذلك ، ورقة مما كان التاريخ حريصاً على الاحتفاظ به ، ولكن هذه الورقة خرجت من يدى ، ولا أدرى فى يد من استقرت . ولم أكن أدرى ساعة أخذتها منه ، أننى أتلقى الصفحة الأخيرة من كتاب ضخم ، من أضخم ماعرف الأدب العربى ، والشعر العربى ، بعامة ، والأدب والشعر العربى فى العصور الحديثة بخاصة .

وكما أنى لم أكن أعلم أنى إذ أتسلم هذه القصيدة ، سأكون آخر من حمل

شعر شوقى إلى الناس ، لم يكن الذين رأوا شوقى فى مكتب رئيس تحرير جريدة الجهاد وسمعوه يسمر معهم حتى الساعة الحادية عشرة أنهم سيكونون آخر من رأى شوقى . انتابه ليلتها سعال ثقيل فقام إلى داره ، حيث تلقاه تابعه السودانى ، فخلع عنه ثيابه ، ووسده فراشه ، ونام شوقى نوماً متقطعاً حتى إذا كانت الساعة الواحدة والنصف ، أحس بأنفاسه تضيق ، وبألم فى صدره يشتد ، فجمع مابقى من قوته ، ودق الجرس لتابعه ، ليسعفه بالكافور ، وراح التابع الأمين يعدو ، ولكن مالبث شوقى أن ناداه « ارجع ، ارجع » فقد أدرك أنه لانفع من الكافور ، ولا فى غيره ، وأنها النهاية التى لا يردها دواء ولا طبيب ، وطلب من تابعه ، أن يوقظ السيدة زوجته ، فلما استيقظت ، جاءت تتعثر فى خطاها إلى فراش زوجها ، فلما اقتربت منه ، ألهب مسامعها صوت شخير ، عرفت منه ، أنها لن تستطيع أن تسمع من زوجها حتى ولا كلمة الوداع .

* * *

وفى صباح يوم الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، ذاع نبأ وفاة شوقى ، أمير الشعراء ، وكأن المدينة التى فتنت بشعره ، والتى شهدت تجواله فيها ، وتنقله بين نواديها ، قد سهرت إلى جانب فراشه طوال الليل ، فلما طلع النهار ، أصابها مايصيب الساهر المسهد ، من إعياء وفتور ، فإنى لم أحس أن شيئاً ما قد حدث ، وإن كنت لم أمش فى الجنازة ولكن الذين شاركوا فى تشييعها ، قالوا لى أنها لم تكن بالقدر الذى يليق بشوقى . على أن شوقى لم يخسر شيئاً بهذا ، ولم يكن يكسب لاقليلا ولا كثيراً ، إذا خرج كل الناس لتشييع جثمانه ، فإن هذه الجنازة ستنتهى ، ولن يبقى من شوقى ، إلا شعره ، والذين يقرأون شعره ، سيكون أكثرهم ممن يجهلون متى ولد ، أو متى مات ، ولا كيف عاش فى دنياه ولا كيف شيع إلى مثواه . بل إن من منهم من سيستشهد بأبيات من شعره ،

وهو لايعرف صاحبها ، وقديأخذون منه شعره ، وينسبونه إلى غيره ، ويأخذون شعرغيره وينسبونه إليه ، كما حدث فىحياته ،إذ نشرت جريدة عكاظ قصيدة جميلة لمطران ، على أنهـا بعض آثار أمير الشعراء .

* * *

لقد انطوى كتاب الأستاذ أحمد محفوظ (حياة شوقى) الكثير عنه ، ولكن أهم مايستحق أن يستوقف الإنسان من هذا الكثير هو مايتصل بالجو الذى ينتج فيه شوقى أدبه ، وما يعانيه فى هذا الإنتاج ، وسمات وخصائص حياته الروحية والأدبية ، وفى هذا المرجع غير قليل مايتصل بهذا العالم الخاص الذى كان يعيش فيه أمير الشعراء ، ونحن نجمع عنه ، هنا ، أهم ما جاء فى كتابه فى هذا الشأن متفرقاً .

كنت تسمع لشوقى – وهو يتلقى الهامه – همهمة وغمغمة ،وهو فى هذه الحالة يرفع يده إلى جبينه ويمسح هذا الجبين فى تؤدة وحذر ، وإذا حدثه أحد ، لم يسمع له ، ولم يرد عليه ، فهو غائب عن الوجود ، وإذا لم تفطن إلى ما هو فيه ، وألححت عليه فى الكلام ، أجابك بما لا يتصل بكلامك . وإذا عالج معنى ، واستعصى عليه ، أو استعصى عليه اللفظ الذى يضعه فيه ، ضاق بالناس ، فانفلت من مجلسه ، غير ملتفت لجلسائه ، وخرج وكأنه فى أعقاب فريسة ، لايريد أن يدعها ، أو كأنه هو فريسة لخطر يوشك أن يدهمه .

وإذا انقاد له المعنى الذى كان يطلبه ، عاد إلى بيته وأملى على كاتبه مافاض على قريحته من أبيات القصيدة التى كان ينظمها . وكان يملى على الكاتب أبياتاً ثم يعود فيملى هذه الأبيات نفسها ولكن باختلاف فى بعض معانيها ، فإذا كملت القصيدة بين يديه اختار من هذه الأبيات للقصيدة فى صورتها الأخيرة مايروقه .

ولم يكن من عادة شوقى أن يطلع أصدقاءه على شعره ، أو يسمعهم إياه ، على عكس عادة حافظ إبراهيم الذى لم يكن يصبر على شىء نظمه ، فهو يذيعه أولا بأول .

ويروى الأستاذ محفوظ أنه ذهب يوماً إلى مقهى من المقاهى التى كان شوقى يرتادها فألفاه جالساً مع محمد البابلى الظريف المشهور ، وكان البابلى كالممسك بخناق شوقى ، يتلو عليه أبياتاً من قصيدة شوقى السينية الأندلسية ، ويسأله عن تفسير معانيه ، وشوقى يحاول الإفلات من قبضته ، ولكنه لايستطيع فالبابلى مصمم على أن يفهم منه ما استعصى عليه فهمه ، وشوقى لايملك أن يغضب البابلى الذى لاتحمد عواقب إغضابه ، واستمرا على هذه الحال ، حتى وصلا إلى البيت الذى يقول فيه شوقى :

غشيت ســـاحة المحيط وغطت   لجة الروم من شراع وقلس

وطلب البابلى أن يعرف معنى لفظ (قلس) وقال شوقى «شىء فى السفينة» فسأل البابلى :

وماذا يكون هذا الشىء ؟ وضاق خلق شوقى، فأسرع محفوظ إلى انقاذه وقال القلس حبل السفينة .

فشوقى لم يكن يعرف أحياناً معنى بعض ألفاظ فى قصائده . وليس فى هذا شىء غريب ، فقد سألت يوماً فقيهاً كبيراً وأستاذاً فى القانون عن رأيه فى مسألة ، فأفتى بشىء ، فقلت له ولكن ما جاء فى كتابك يناقض رأيك هذا . فاحمر خجلا وقال : إذن ما فى الكتاب هو الأصح .

وكان على سعة إطلاعه بالشعر العربى القديم ، لايستشهد بشىء منه ، وكان إذا نطق بالشعر حاذر واحترس واتخذ لسانه نبرة الخطابة وتلعثم وتعثر فى سبيل النحو . . وإن كان شوقى لم يلق شعره قط ، فلا لأنه كان يتعثر

فى النحو ، بل لأنه لم يخلق ليواجه الجماعات ، ولا ليخاطب الجماهير ، ولو حاول لما أعانه صوته ، ولا شكله ، ولا اضطراب أعصابه على متاعب المواقف الخطابية . ولعل من أكبر فضائل شوقى الشاعر ، مثابرته على القراءة ، وإدامة النظر فى الكتب القديمة والحديثة . وقد رأيت بنفسى فى حجرته بعض الكتب القديمة من أمثال الأغانى ، والكامل ، والعقد الفريد ، ونفح الطيب والأمالى . ويقول الأستاذ محفوظ فى هذا المعنى :

« فما أعرفه عنه أنه كان يقرأ كل كتاب تخرجه المطابع سواء كان مؤلفاً أو مترجماً لكاتب قديم أو حديث . وهذا شغفه بالمعرفة وحبه فى الإطلاع . فهو يقرأ فى كتب الطب والفقه والحديث والعلوم والجغرافيا والأدب ، وكل ضروب المعرفة ، ولكنه لم يقرأ منذ رجوعه من المنفى كتابا بلغة أجنبية » .

كما يقول الأستاذ محفوظ :

« وكان إذا أعوزه لفظ لقافية فى قصيدة ، طلب إلى — إذا كنت جالساً معه فى المكتب — أن أبحث له فى المعاجم اللغوية الموضوعة دائماً هناك عن اشتقاق اللفظ المقصود ، فكنت غالباً ما أعثر على الاشتقاق اللغوى كما استنبطه ، فإن ذوقة اللغوى كان له بمثابة الإلهام » .

ويقول الأستاذ محفوظ أنه لم يسمعه يذكر شاعراً قط إلا المتنبى ، وأنه نال يوماً من الجاحظ ، عندما سمع مدحاً فيه ، فإنه كان لا يطيق أن يمدح أمامه شاعر أو كتاب سواه ، حتى ولو كان من الموتى ، أو من فرق بيننا وبينهم الموت ، قرون طويلة . وكان شاعرنا الكبير يحب السهر كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ فلا يأوى إلى فراشه قبل الثالثة والرابعة صباحاً ، وهو لذلك لا يغادر فراشه فى الصباح التالى قبل العاشرة وهو محب للطعام ، يسره أن يرى على

مائدته الأصناف المتعددة ، وإن كان قليل الأكل . وقد كانت ابنته تجاوره ، فى السكن ، فكان يقترح عليها أن ترسل ما عندها من الأطعمة لبعضها فوق مائدته ، فتكثر أمامه الأصناف ، فيأخذ منها ما يعجبه . وسمع أن الأستاذ عبدالعزيز الثعالبى الزعيم التونسى يحسن طهى الكسكسى ، فطلب إليه أن يعلم طباخه كيف يطهوه ، وذهب الأستاذ إلى مطبخ أمير الشعراء ، وأخذ يلقن الطاهى وأحضروا له نرجيله ، ليتسلى بها وهو يعطى درسه فى صنع الكسكسى ، فلما قدم له هذا الكسكسى لم يأكل منه إلا قليلا . وكان لحبه للطعام ، يطيل الحديث حول أصنافه مع جليسه الذى يأنس له . وكان يعشق الفاكهة ، ويشترى منها بنفسه الأصناف الغالية من محل (لا باس) .

وكان يتناول غداءه خارج منزله كل يوم جمعة فى مطعم يطل عليه الأهرام بالجيزة ، وإن كان هذا الطعام معداً فى منزله ، يحمله إلى هذا المطعم ، وكان ممن يدعى إلى هذا الغداء ، الشيخ عبد العزيز البشرى ، وحافظ إبراهيم . وقد اشترى لهذه الأكلة ، كرسى من كراسى البحر ، ليتمدد عليه بعد تناول الطعام .

وفى ذات جمعة اقترح حافظ أن يحضر الطعام من بيته ، وقبل الاقتراح ، وكان من بين هذا الطعام ، الورق العنب والملوخية ، وكانت زوجة خال حافظ التى تقوم على شئون منزله تحسن صنع هذين الصنفين ، وكان حافظ لفرط حبه لهما يقول : « المحشى والملوخية خربوا بيتى » .

وكان يدخن سجاير رفيعة من صنع شركة (ديمترينو) ، يدخنها فى (مبسم) يغسل دائماً بالكحول خوفاً من عدوى الأمراض . وكان شديد الخوف من العدوى إلى حد الوسوسة ، فكان لا يسمح لأحد يزور مريضاً من أولاده أو أهل بيته إلا إذا غسل يديه ورأسه ، بالكلونيا ، خوفاً على مرضاه من الزائرين

وما يحملونه فى ثيابهم وأيديهم من الجراثيم . وكان لايحب أن يسمع حديث الموت ، لفرط حرصه على الحياة ، بل كان لايحب أن يهول زواره إذا مرض فى الحديث عن مرضه حتى ولو كان ذلك ، من قبيل الجزع له ، والاهتمام به . دخل عليه وهو فى فراش مرضه شاب من ذوى قرباه ، وقال له : مسكين ياعمى .. سلامتك ! فصرخ فى وجهه : اخرج اخرج . لا أنا عمك ولا أعرفك . . اخرج بره ياحمار » .

وكانت وسوسته هـــذه تحمله على أن يتعاطى الدواء وهو غير مريض . وكان لايتناول الطعام إلا إذا شرب ماء وخلطه باليود توهماً منه أن هذا يدفع عنه شر الأمراض .

وكان يملأ حجرة نومه بالأدوية ، وفى ذات يوم أخطأ كاتبه الخاص وكان يملى عليه بعض شعره حين طلب منه دواء خاصاً ، فأعطاه بدلا منه زجاجة البوريك ، فلما شرب منها شوقى قليلا أدرك من طعمها خطأ كاتبه ، فردها إليه ، وهو يلعنه ، وقد بدا عليه الهلع ، فما كان من هذا الـكاتب إلا أن سكبها كلها دفعة واحدة فى حلقه ، تـكفيراً عن ذنبه ، فمـا كان من شوقى إلا أن قال : وأنا حاخد إيه من موتك معايا » وأسرع إلى التليفون فاستدعى الطبيب الذى جاء إليه فطمأنه .

ورجل هذا أعصابه وهذا حرصه على الحياة ، وخوفه من الموت ، لا بد أن يـكون ممن يتفاءلون ويتشاءمون ، فهذه الصفة لازمة من لوازم ذوى الحس المرهف ، الذين تطاردهم مخاوف لاينفع العقل فى ردها ، ولذلك اعتاد أصدقاؤه ، أن يدخلوا إلى قلبه الطمأنينة إذ شكا مرضاً ولو كذباً فقد كان يسره أن يسمع أن وجهه مشرق ، وأن مظاهر الصحة تـكسوه .

ولعل مما يتصل بهذا الجانب الخاص من حياة شوقى ، أن نشير إلى صلة

عبد الوهاب به ، يقول الأستاذ أحمد محفوظ أنه سمع بعبد الوهاب أول ماسمع من صديقه عبد العزيز البشرى ، وكان يتناولان الغداء خارج منزله فى المطعم الذى يجاور الأهرام ، فذكر البشرى عبد الوهاب قائلا : أما ياباشا فيه جدع اسمه عبد الوهاب صوته زى الخص أحب إنك تسمعه » .

فقال شوقى : هاته يوماً إلى البيت .

وسمع شوقى عبد الوهاب ، بعد ذلك فى بيته ، فى حفل ضم عدداً قليلا من الأصدقاء ففتن به . وأصبح يدعو كبار القوم ليسمعوه عنده فى قصره ،وكان ينظم الشعر ، ويكتب المقالات ، ويعطيها لمن يحسن الإلقاء ، لتلقى قبل سماع عبد الوهاب . ومرض عبد الوهاب يوماً و كان يقطن آنذاك فى باب الشعرية ، فأحضره إلى بيته ،وأفرد له حجرة ، ليعالج فيها حتى يشفى . وكان ابنه حسين شوقى ، يضيق بهذا الاهتمام المسرف من أبيه بهذا المطرب الشاب ، وكان شوقى شديد التعلق بابنه حسين ، قبل أن يعرف عبد الوهاب ، فلما عرفه ، كان موزع الخاطر لتعلقه بعبد الوهاب ، وحبه لابنه . وقد ذكر الأستاذ محفوظ أن شوقى كان يقول : اثنان لاأستغنى عنهما . مبسم سجارتى وحسين ابنى . فأصبحا بعد عبد الوهاب ثلاثة وأصبح عبد الوهاب أول الثلاثة .

وكان حرص شوقى على الحياة قد كره إليه سماع اسم الموت ، أو رؤية مظاهره ولهذا فقد أهمل واجبات المجاملة فى بلد شديد الحرص على هذه المجاملات، فلم يكن شوقى ، يشيع ميتاً ، ولا يقف على قبر ، ولو كان الميت من أقرب الناس إليه ، وألصقهم بقلبه ، فقد كان سبيله إلى قضاء حقوق هؤلاء الموتى الأعزاء أن يرثيهم بشعره فقط .

وكان عظيم الإيمان بدينه ، وإن كان لا يصوم ولا يصلى ، كما اعتذر عن السفر

مع الخديو عباس لأداء فريضة الحج ، ويقول صديقه (محفوظ) أنه لم يكن يذكر اسم الله مجرداً ، فهو يتبعه بقوله سبحانه وتعالى ، كما أنه لم يكن يذكر اسم النبي ، إلا مقروناً بالصلاة والسلام عليه ، ولم تكن تمر أمامه جنازة إلا ورفع أصبعه ، وتشهد .

* * *

والآن فما هو قدر شوقي بين شعراء العربية ؟

وما هو دوره الأدبي في تاريخ مصر الحديثة ، وتاريخ العرب المعاصرين ؟

لقد اتهمه خصومه بأنه شاعر بلا شعور ، وأنه ناظم يتقن الصنعة ، ولكنه لا يتلقى إلهاماً من نفسه ، وإنما يتلقاه من مقتضيات المصلحة ، فهو بين ترضي الحاكم وتملق الجماهير ، والجري وراء أسباب الشهرة ، يضيع كشاعر ،ولاتبقى له إلا المحاكاة لفحول الشعراء ، التي يتخلف فيها عنهم في أكثر الأحوال . فشوقي عند هؤلاء ، لم يحدث أحداً قط عن شعور يخالجه ، ولا عن رغبة تساوره ، ولا عن أمل يداعبه ، ولا عن خوف يزعجه ، وإنما هو يتحدث عن شعور الآخرين ، وينقل إحساساتهم ، فيبكي في شعره وهو يضحك في قلبه ، ويمدح ويبالغ في الثناء على من لايحبهم ولا يحترمهم ، ويتطوح مع شطحات الهوى ، وهو جامد ، بارد الشعور ، وينتفض بالوطنية ، ويلتهب بالوجد الديني ، وهو مع خصوم الوطن ، إذا ألزمته بذلك مصلحته أو حرصه على الجاه ، كما أنه أبعد الناس عن الدين ، الذي يلهج لسانه بمدح نبيه وأهل بيته ، والذي يبدو منافحاً عن أمجاده ، وشعائره .

وكان شعر شوقي ، في رأي مدرسة (الديوان) ، (رأي مدرسة العقاد والمازني وشكري) ، كـكل الشعر العربي الذي يسبقه ، تنقصه وحدة القصيدة ، فليس في القصيدة العربية ما في أي عمل فني آخر من التكامل فالقصيدة ليست إلا مجموعة من خواطر متناثرة ، ومعاني متفرقة ، لا ينتظمها سياق واحد . والعيب

الذى يؤخذ على الشعر العربى ، من حيث انتفاء وحدة القصيدة فيه ، ومن استقلال كل بيت تقريبا عما قبله ، وعما بعده ، لا يسأل عنه شوقى ، وأقصى ما يمكن أن يسأل عنه شوقى أنه لم يعمل على تحرير الشعر العربى منه، ولكنه فعل فى الواقع ، ما يكاد يكون مساويا لهذا التحرير المطلوب ، وذلك بانشاء مسرحياته الشعرية ، (كليوباطره ومجنون ليلى وعلى بك الكبير) التى هى أول مسرحيات يعرفها الشعر العربى . وقد كان لها فضل إلهام شوقى بمعان جديدة ، بإدخال هذا البناء الجديد إلى لغة العرب وشعرهم .

وأيا ما كان نصيب شعر شوقى من الصدق او الاصطناع ، فإنه استطاع أن يمس قلوب المصريين ثلث قرن أو يزيد ، فقد كانوا يجتمعون حول قصائده ، كما لم يجتمعوا على شىء آخر طوال هذه المدة الطويلة ، وكان هذا الشعر يطربهم ويمتعهم ، ويرضى فى نفوسهم الشعور الوطنى حينا ، والشعور الدينى حيناً آخر ، ثم كان يرضى عقولهم فى حين ثالث . وكان شعر شوقى ، يتجاوز حدود وطنه ، إلى جميع آفاق الوطن العربى ، فكان وشيجه من وشائج العرب ، وعنصراً من عناصر وحدتهم وتجمعهم ، فى فترة اجتمعت عليهم فيها أسباب الفرقة ودواعيها ، والعاملون على بعثرتهم ، وتفتيت بنائهم ولا أحسب أن أنسانا يعوزه الصدق ، يستطيع أن يستثير فى نفوس الغير عواطف صادقة على المدى الطويل ، فان ذلك مما لا يتفق مع طبائع الأمور . فالمدعى المتصنع ، قد يخدع الناس عن نفسه سنة أو سنتين ، ولكنه لا يستطيع أن يخدعهم العمر كله .

ولننظر ماذا حدث مع شوقى ، وخصومه . بقى شوقى ينشد الشعر ، فتفرد له الصحف صفحاتها الاولى ، ويتخطفها القراء ، ليقرأوا ، ويتغنوا ، ويطربوا . أما خصومه فقد أصلوه نارا لاهبة ، ثم فترت نارهم ، وتفرقوا هم ، وأخذوا يطعنون بعضهم بعضاً ثم أجبل منهم من أجبل ، وسكت عن الشعر من سكت ، وجمع منهم بين النثر والشعر من جمع ، ثم مرت الأيام ، والناس لا تعرف إلا

شعر شوقى ، ولا تنشد غيره حتى مات ، وانفسح الميدان لخصومه ولغيرهم ، فأقفرت ساحة الشعر ، وانصرف عنه الناس ، فلا توجد الآن الصحيفة التى تجرؤ على نشر قصيدة فى صفحة من صفحاتها الهامة دع عنك الصفحة الأولى .
فهل كان اعجاب الشعب فى مصر ، وفى البلادالعربية بالشعر وقفاً علىشعرشوقى ، فلما مات شوقى ، مات هذا الإعجاب ، وانطفأت جذوته ؟ أم أن الذين نازعوا شوقى زعامة الشعر ، واتهموا صدقه وشكوا فى حرارة وجدانه ، هم المتجنون ؟ لقد آل لقب أمير الشعراء إلى العقاد ، إذ تفضل عليه به طه حسين ، فلم يعرف أحد من الناس العقاد بهذا اللقب يوما ، فكأنه مات يوم أن ولد بل أنه مات فعلا فى هذا اليوم .

ولقد تغنى المغنون بشعر شوقى ، وزجله ، كما لم يتغنوا بشىء من الشعر الحديث ، فقام الدليل من هذا ، على أن موسيقية هذا الشعر وحلاوته ، لاتقلان عن جزالته وروعته . ليس معنى هذا ، أن شوقى كان صادقا فى كل مقاله ، لا أن خصومه لم يكونوا كذلك دائما ، وقد تنقلوا بين الأحزاب ، كما تنقل ، واتقوا شر الأقوياء ، وهادنوا ذوى السلطان ، وتملقوا أصحاب الكلمة النافذة ، وداروا مع الزمن ، تماما كما فعل شوقى ، ولكنه تفوق عليهم إذ بقى أمينا للشعر ، حفيا به ، فإنه إلى اللحظة الأخيرة من حياته ، كان ينظم ، وكان يسهر على شاعريته ، ويمدها ويزودها ، بما يوسع آفاقها ، ويقوى جذورها ، ويعمق آمادها .

لقد سمعنا من شعر شوقى ، قرع الطبول ، وعصف الرياح ، وهزيم الرعد ، كما سمعنا وسوسة القبل ، وحفيف أوراق الشجر ، ورأينا طلوع الشمس ، وسطوع البدر ، فقد كان شعره قادراً على أن يبرز الصورة ، نابضة بالحياة ؛ زاهية بالألوان غنية بالألحان ، وليس من حقنا ان نذكر المثل أو الاثنين ، على القمم التى سما

إليه شعر شوقى فإن ذلك ، يعطينا فتاتاً من شوقى ، ولا يعطينا من شوقى كله:
فإذا كان هناك من يرى فى :

أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا الى التاريخ فى محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

دليلا على عبقرية شوقى ، ورأى آخر فى :

وأنا الذى أرثى النجوم اذا هوت فأعيد سيرتها الى الدوران

دليلا آخر على هذه العبقرية :
ورأى ثالث هذا الدليل فى :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مخضبة يدق

فإن آخرين يرون فى بعض أبيات أخرى دليل صدقه ، ومن هذا بيته الذى قاله فى تأبين حافظ إذ يقول :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء

ففى بساطة البيت ، وفى اتصاله بحياة صاحب البيت وخاتمة حياته ، مايفيض بالصدق ، الذى يمس شغاف القلوب .
وقد استعذب حافظ ابراهيم ، أبياتاً من شعو شوقى عدها من عيون الشعر وذكر فى ليالى سطيح هذه الأبيات :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

* * *

وهمت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

فشعره لم يكن صنعه فحسب ، وإنما كان صدى لحياة شاعر ، أعانته ظروف الحياة ليكون خادم الشعر الأمين ، وسادن كعبته الوفى ، وقد كوفىء على ذلك فكانت معاركه مع خصومه ، أو معارك شعره مع هؤلاء الخصوم ، أو معارك

هؤلاء الخصوم معه ، شغلا شاغلا للأدباء معينا للحياة الأدبية فى طول العالم العربى وعرضه ، ولعل هؤلاء أفادوا من عراكهم معه ، شهرة ونباهة ذكر . وقد استحث تألق شوقى وتفرده بعضهم على تجويد الشعر ، والسهر عليه ،وقد هيأ ذلك كله للأدب جوا صالحا ، يورق فيه ويثمر ويزهر .

كتب حافظ كتابه (ليالى سطيح) وقد ضم الحديث عنه سبعة ليال ، فأفرد من هذه الليالى السبع ليلة طويلة ، أوقف الحديث فيها على شوقى وشعر شوقى وعيوبه ومزاياه ، دون غيره من الشعراء فكان ذلك تسليما من حافظ ، منافس شوقى الأول ، بمكانة شوقى ، وصدارته فى دولة الشعر وقد يحسن أن ننقل هنا بعض ما آخذ عليه حافظ شوقى من العيوب ، وبعض ما اعترف له به من المزايا قال :

« فقال إنه لظريف الوزن لطيف القافية ، خاطره طوع لسانه ، وبيانه أسير بنانه ، كأنما يتناول الشعر من كه لسهولة متناوله عليه ، إلا أنه مكثار ، وقل أن يسلم المكثار من العثار ، فشعره كما قال الأصمعى فى شعر أبى العتاهية « كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب » .

ثم قال :

« انه أرقكم طبعا ، وأجملكم صنعا ، فهو إن ركب الغزل والنسيب ، كان كأنه يوحى إليه من قريب ، وإذا سلك سبيل المديح فقد عجز عن وصفه سطيح ، إلا أنه ضيق المجال ، وإن كان واسع الخيال ، يقع له المعنى الجليل ، فى سبحات الفكر الطويل ، فيمسكه خاطره وتحرص عليه سرائره ، والمعانى كالظباء كثيرة النفار ، شديدة الاحضار ، فهى إن لم تجد من نضارة الألفاظ خميلة تسنح فيها أو لم تظفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها ، ذهبت عنها إن لم يضيق بها المذهب ، كذلك حالها فى شعر صاحبكم فهى إما نافرة ، وإما حزينة باسرة ،

ولو أنه منح من دقة المبانى ، مامنح من رقة المعانى ، سلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته ، ولكان شاعركم غير مدافع وواحدكم غير منازع ..

ثم قال :

« إنه لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة ، إلا سلخه ثم مسخه ، فان كان الأسلوب على نحو ماوصفت ، وكانت المعانى لغيره ، فما عسى أن يكون فخره علينا ، وقد ذكر صاحب دلائل الإعجاز ، أن البلاغة لا تقع فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها تقع فى الأسلوب فمن كان أسلوبه يجرى على غير هذا الحد ، كان خليقاً إلا يسمى بليغاً ، وصاحبها لايزال مهزول اللفظ غامض المعنى ، يحتاج الناظر فى كلامه الى تخوت الرمل ، وطوالع التنجيم ، وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ ، لا يعدوها إلى غيرها ، حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره ، وإن كان غفلا من ذكره ، ولقد نظرت فى طريقة شعره ، فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين ... ألا ترنى بربك إلى عظام أبى الطيب ، وهى تئن فى قبرها ، على أبيات شادها صاحبها وخربها صاحب الشوقيات .. ومن نظر فى قول أبى الطيب (نود من الايام ما لا توده) وفى قول صاحبنا (يود من الأرواح ما لاتوده) علم أن الثانى أغار على الأول ، فسلبه مطلعاً أبهى من مطالع الشمس ، ولم يقصر على هذا السلخ ، حتى تخطاه إلى المسخ ، فرفع لفظة الأيام من شطر بيت المتنبي ، ووضع مكانها لفظة الأرواح فى شطر بيته ، ثم جعله مطلعاً من مطالع التهانى ، أنزل فيه ممدوحه منزل عزريل من النفوس ، فانى لا أعرف أحدا (يود من الأرواح ما لاتوده) اللهم إلا ملك الموت ..

ولكنه لم يلبث حتى ختم هذه المحاورة بشهادة لشوقى تجعله سيداً بين شعراء عصره إذ قال :

« فاعلم أنه حقيق بالرئاسة عليكم ، وأنه فى مقدمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدولة الأدبية ، ورفعوها على أسنة الاقلام » .

على أن (حافظ) انتهى به الأمر إلى مبايعة (شوقى) بإمارة الشعر العربى حينما دعى كبار شعراء العروبة وزعماء أدبائهم إلى مهرجان شوقى وذلك ببيت شعره الشهير :

أمير القوافى قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ثم جاءت مسرحيات شوقى ، فرجحت بها كفته ، وثقلت موازينه ، فى عالم الشعر والشعراء ، فقد كان الأدب التمثيلى كله غريباً عن الفكر العربى ، والأدب العربى قاطبة ، لم يعالجه القدماء ، ولم يحاوله المحدثون

حتى الكتاب المعاصرون لشوقى ممن نقدوه ، وأشبعوه ذما ، وممن أعجبوا به، وشادوا بفضله على السواء، لم يخطر على بال أحدهم أن يسهم فى هذا المجال الرحب الفسيح ، المؤثر الجميل ، بشىء إذا استثنينا للمازنى مسرحية واحدة ، أتهم بأنه نقلها بفكرتها وحوارها عن جالسورذى . ولم يعرف الأدب المسرحى النثرى ، ويثبت قدمه، نوعاً ما، إلا بعد وفاة شوقى بسنين ، أما الشعر المسرحى فلا تزال بضاعته بعد أن غيب الثرى شوقى ثلاثين عاماً أو يزيد ، قليلة لا تكمل الخمسة من المسرحيات ، أو العشرة إن شئت .

فشوقى رائد هذا المجال من الأدب العربى ، وحامل لوائه . ولا يزال شعراؤنا مدعوين للحاق به ، وإكمال ما بدأ ، والإضافة إليه .

ومن هنا ، كنا لا نرى أن توزن مسرحيات شوقى بموازين الفن المسرحى، فنأخذ عليه مثلا أن شخصيات مسرحياته لا تنبض بالحياة ، ولا تكتمل لها

خصائص الأحياء ، وأنها تخلو من الصراع ، ولا تختم بما يكتب لها تعاطف السامع ، أو استجابة القارىء فهذا وأكثر منه صحيح ، فهى مسرحيات يتسم بناؤها بالسذاجة ويكشف عن حداثة عهد مؤلفها بالفن المسرحى .

فشوقى ليس كاتب مسرحى ابتداءً ، وإنما هو شاعر عربى ، أراد أن يوسع فى آفاق الشعر ، وأن يخرج به عن مجاله الموروث ، ونطاقه المحدود ، وأن يكسبه الحياة ، بما يحدثه إنشاد الشعر ، الليلة بعد الليلة ، على مسمع من جمهور المسرح والمسرحية الشعرية ، مهما ضؤل حظها من الفن المسرحى ، ومهما بعدت عن أصول المسرح التى وضعها وأقرها المسرحيون الأوربيون فى مدى قرنين أو ثلاثة . فهى عالم مترامى الآفاق ، متنوع الدروب ، متعدد الطرق ، يستدرج الشاعر على الرغم منه ، ليتأمل ويفكر ويحاول أن يعبر عما لم يفكر فيه من قبل ولم يخطر على باله أن يتناوله .

ونحن نرى هذا واضحاً فى مسرحيات شوقى ، ففيها الحوار ، وفيها حديث عن السياسة ، ومعارك البر والبحر ، وصيحات الجماهير ، وآلام الزعماء ، ومخاوف القادة ، إلى جانب الحب والخيانة ، والغيرة والدسيسة . ولا شىء يطوع الشعر ، ويخرج به عن جموده ، مثل محاولة التعبير عن الجديد من المشاعر ، وغير المطروق من الأفكار ، والمجهول من العوالم .

فدين شوقى فى ذمة العربية كبير ، فإذا فرغنا من تسجيل هذا والإقرار به ، جاز لنا أن نقول أن شوقى لم يوفق فى اختيار العهود التى اختارها موضوعاً لثلاثة من مسرحياته ، هى مسرحية مصرع كليوباطرة ، وقمبيز ، وأمير الأندلس ، ولم يكن أكثر توفيقا فى مسرحيته الأولى على بك الكبير . فمصر فى عهدى كليوباطرة وقمبيز ، كانت فى أسوأ حالاتها . وفى عهد كليوباطرة ، كانت تحكم مصر أسرة يونانية طارئة على البلاد ، ولم يشهد التاريخ لهذه الأسرة ، بأنها أحسنت حكم البلاد ، أو كانت مثلا طيبا للحاكمين . ولم تكن كليوباطرة بالأميرة

المصرية ، التى تستحق دون غيرها ، أن تمثل مصر ، وأن يدافع الشاعر المصرى عن حكمها وسياستها ، وقد انتهى حكمها وسياستها بالإخفاق فى الجانبين الخاص والعام . فقد هزم عشيقها (أنطونيو) ، وفاز عدوها أوكتافيوس ، واضطرت هى كما أضطر عشيقها إلى الإنتحار .

أما قمبيز فهو غاز فاتح جاء من بلاد الفرس ، ليفتح مصر ، وقد فتحها بالفعل ، وقد كان هذا الفتح خاتمة الحكم المصرى الأصيل النقى ، وبداية غزوات وفتوح توالى فيها الحاكمون على البلاد ، وشعب مصر ، يحاول جاهداً أن يردم وأن يحتفظ باستقلاله ووجوده وقد أبى شوقى إلا أن يؤيد فيها أكاذيب نسبت إلى مصر زوراً كأكذوبة التضحية كل عام بفتاة مصرية ، استرضاءً للنيل .

أما عهد على بك الكبير ، فقد كان أفضل بلا شك من عهدى كليوباطرة وقمبيز ، فقد استقلت فيه الدولة المصرية عن الحكم العثمانى ، وكان ذلك الإستقلال بداية نشوء الدولة المصرية فى عهد محمد على . ولكنه مع ذلك لا يعدو أن يكون حلقة من سلسلة حكم المماليك ، وهى سلسلة من الفساد والتدهور ، تعاقبت حلقاتها على البلاد ، فأهلكت الحرث والنسل ، وأتت على الأخضر واليابس ، وقضت على ثقافة البلاد ، وامتصت حيويتها .

ولا تفسير عندى لهذا الاختيار غير الموفق ، إلا أن شوقى ، عاش حياته يندب حظ مصر العاثر ، ويرثى قادتها ، ويذكر بأمجادها المندثرة ويندد بحاضرها القبيح ، فأصبح لا يألف إلا الجوانب المهدمة من تاريخنا ، وإلا الأطلال الخربة من آثارنا ، فشعره لم يعتد الحديث عن الجوانب الباهرة من ماضينا ، إلا مقرونة بما يشبه العويل والبكاء ، واعتاد أن يقرن الدعوة إلى البناء والتعمير ، بالتنديد بآفاتنا وعيوبنا ، والحق أن ذلك كان أسلوب أكثر شعرائنا وكتابنا ، استطابوا إيلام الشعب بذكر عيوبه ، وألفوا التنديد بسقطاته وآفاته ، حتى أصبح هذا الذم ، كأبيات الغزل والنسيب التى كان شعراء العرب يستفتحون بها

قصائدهم . وقد قادت خطاه هذه العادة المنكرة ، إلى اختيار عهد المعتمد بن عباد ، الذى انتهى به حكم العرب فى الأندلس ليكون مجالا لروايته النثرية « أميرة الأندلس » ولعل قائلا يقول التماساً للعذر لشوقى ، أنه أراد باختيار عصور الانحلال فى مصر ذريعة لوصف حالها إبان نظمه لمسرحياته ، والكشف عن أسباب انحلالها فى الماضى والحاضر ، وإظهار وحدة الحال ، تنبيها للأذهان ، واستحثاثا للهمم ، وتلميحا إلى الحاضر ، بماجريات الماضى .

أما مسرحيتاه (مجنون ليلى) ، و (عنتره) ، فقد اتخذتا من أسطورتين من أساطير الأمة العربية ، موضوعاً كان خليقاً أن يوحى للشاعر العظيم ، من الصور الشعرية ، والمواقف المثيرة للخيال والعاطفة ، ما يعينه على خلق أثر أدبى عظيم ، ولكن عذر شوقى أنه كان يشق طريقا لم تطرقها قدم ، ويعالج غرضاً ، لم يجد من يمد إليه يداً . وثقافة شوقى عموماً ، ليست ثقافة المتعمق لتاريخ الإنسانية ، ولا المتعقب للآثار الأدبية الكبيرة فى القصة والمسرح ، والتراجم والسير ، أو فى الإجتماع والفلسفة ، وقد ذكر بعض مؤرخيه أنه لم يقرأ كتابا باللغة الأجنبية منذ عاد من منفاه فى أوربا بعد الحرب العالمية الأولى . لذلك كله لم يكن يحق لنا أن نطمع فى أن تأتى مسرحياته الشعرية ، وهى أول الغيث فى الأدب المسرحى العربى ، فى عمق مسرحيات شكسبير ، أو جمال بناء — مسرحيات راسين وكورنى ، أو فى جلال مسرحيات جيته . لقد أفاد هؤلاء جميعا من الأدب اليونانى ، والأدب اللاتينى ، ومن الأساطير الكثيرة التى ملأت الآداب القومية لكل وطن من أوطان أوروبا على حدة .

وقد كان هؤلاء يكتبون لبلاد ، تهيأت لها أسباب النجاح والقوة ، واستقبلت عهداً من المنعة والنهضة ، لا فى الآداب وحدها ، بل وفى العلوم ، وفى تحرير نفسها من سلطة الملك وسلطة الكنيسة . بينما كان شوقى يكتب لعالم العرب الذى تناهبت بلادهم أيدى الطامعين ، وثقل عليهم حكم الغاصب الأجنبى ، واشتدت وطأة الخلافات الحزبية ، والتقاليد والرجعية . وإذا كان (شوقى) لم يجعل للشعب المصرى فى مسرحية قمبيز وكليوباطرة وعلى بك

الكبير ، دوراً له قيمة ، أو لم يجعل له دوراً ، قط وإذا كان قد سب الشعب المصرى فى مصرع كليوباطرة بقول أحد أبطاله مسرحية .

أنظــر الشعب ديون كيف يوحــون إليه
أثر البهتان فيــــه وانطــلى الزور عليه
ياله من ببغاء عقـــله فى أذنيه
مــلأ الجــو هتافا بحيــاتى قاتليــــه

إذا كان قد قال شيئا من هــذا القبيل فى (على بك الكبير) ، فلأنه شاعر نشأ فى رحاب الحاكم ، وليس على بك الكبير ، ببعيد عن (محمد على الكبير) ، فهما من أرومة واحدة ، وكانت اللغة الشعبية شيئاً جديداً على شوقى ، حينما كبر الشعب على يدى ثورة عرابى ، ومصطفى كامل .

حسب شوقى أنه كتب مسرحية على بك الكبير ، وهو فى باريس سنة ١٨٩٣ ، وحسبه أنه جرؤ على إرسالها إلى الخديو توفيق ،فهاتان خطوتان ليستا بحساب ذلك الزمان بالشىء القليل ، وهو بعد ذلك جدير بالشكر لأنه عاود المحاولة التى بدأها سنة ١٨٩٣ ، بعد ثلاثين عاماً ، فقد ولدت مسرحية كليوباطرة سنة ١٩٢٧ . وهو إصرار منه يدل على أن هوى المسرح استبد به فلم يدعه على طول السنين والأيام . ولقد لاحظ الدكتور محمد منــدور بحق فى مسرحيتى شوقى الأخيرتين (أميرة الأندلس و الست هــدى) أمراً يصعب تفسيره فقد كتب الأولى نثراً مع أنها تروى مأساة ملك شاعر وكان الشعر أحق بها ، وكتب الثانية شعراً مع أنها تروى حياة سيدة تعيش فى حى الحنفى بالسيدة زينب بالقاهرة ، وقد كان النثر أولى بها ، لاسيما أن شوقى قصد بها إلى الإضحاك ، ولكن مما يذكر لشوقى أنه استطاع بشعره السهل الخفيف أن يؤدى كل أغراض هــذه (الكوميديا) التى تكشف عن أن (شوقى)

كان قد عقد العزم على أن يهب المسرح البقية الباقية من حياته ، وقد ترك عند صديقه الدكتور سعيد عبده مسرحيتين هما (البخيلة) و (محمد على الكبير) . ولا شك عندنا فى أن موهبة شوقى كشاعر مسرحى كانت ستنضج على نار النقد والتجربة ، ولكن حسبه أنه سلك هذا الطريق الشائق الشائك ، وترك لمن يأتون بعـــده ، أن يفيدوا من تجاربه ، ويبدعوا خيراً منها . . .

* * *

وبعد فهذه ملامح وقسمات من حياة شاعرنا الكبير ، أحمد شوقى ، صاحب أكثر شخصية أدبية فى الفترة التى نؤرخ لها ، عاش بيننا كأنه واحد من شعراء العصر الأموى والعباسى، يتناول أمورنا ، بأسلوبهم ، ويرثى عظماءنا على طريقتهم ، ثم يجدد فى اللغة والشعر ، وينفى عنها جمودها ، وركاكتها ، ورثاثة أساليبها التى أورثنا إياها العهد العثمانى المظلم ، وعهد المماليك المدمر ، وعهد الاستعمار الذى آلى على نفسه أن يقوض أسباب وجودنا ، وأن يقطع صلاتنا بأنفسنا وتاريخنا وآبائنا .

ولو اتسع علم شوقى ، وترامت نظرته إلى الحياة والوجود ولو بالقدر الذى تسامى إليه محمدا إقبال الشاعر الباكستانى، أو عبد الحق حامد الشاعر التركى ، ولم يقنع بهذه العظات المألوفة عن الموت والحيـاة ، لزاد فضله على أدبنا ولغتنا ، ولكنه أعطانا أحسن ماعنده ، وكان عطاء سخياً ، وبذلا كريماً ، وفضلا باقياً على الزمن .

الفصل الثانى

حافظ ابراهيم

لم ألق حافظ إبراهيم إلا مرة واحدة ، لقاء لم يطل لأكثر من عشرة دقائق ، وكان ذلك فى سنة ١٩٣١ ، وكان مكان المقابلة ، قهوة الأنجلو فى شارع شريف ، غير بعيد من البنك الأهلى الآن . .

وكان (حافظ) جالسا على مقعد فى هذا المقهى ، على الأفريز ، وفى يده على ما أظن عصا ، وإلى جانبه شاعر القطرين خليل مطران ، وقد اقتربت منهما ، وأنا بعد شاب صغير نحيل لم أبلغ العشرين ، وكان حيائى ، يظهرنى فى مظهر المقتحم المتحدى ، لما أبذله من جهد فى إخفاء خجلى ، وإظهار نفسى فى صورة الواثق من نفسه الذى لا يهاب الناس .

وما كدت أحى شاعر النيل ، وأقول إنى ألتمس منه قصيدة لمشروع القرش ، حتى صرخ فى وجهى ، وكأنى أطلب منه جنيها من ذهب ، وقال : مشروع إيه ؟

قلت : مشروع القرش . فنظر إلى خليل مطران ، وكأنه يطلب منه أن يعينه على فهم هذا القول غير المفهوم ، فاستفسر منى خليل مطران فى عبارة هادئة مشجعة ، فشرحت له الفكرة وكنت قد شرحتها مراراً ، وألقيت فيها خطبا ، فبدا على خليل مطران الاهتمام ، ثم الارتياح ثم نظر إلى صاحبه حافظ وقال : هذه فكرة جميلة ، وجديرة بالتشجيع ، وقد سبق إليها اليهود فى مصر فقد أنشأوا مؤسسات ، وشادوا مدارس ومستشفيات ، وبنوا ملاجىء ومكتبات

من صدقات صغيرة لا يصعب على الفقراء أن يبذلوها ، وأسموها «قطرة اللبن» .
واستمع حافظ إلى حوارنا هذا ، وكأنه يسمع رطانة غريبة فلم يظهر عليه الاهتمام ، ولم يشارك فى الحديث بحرف ، وقمت ولا أذكر الآن ما إذا كنت قد ظفرت بوعد من حافظ بقصيدة أو لم أظفر ، ولكنى ظفرت من مطران بالوعد ، ثم بالقصيدة بعد ذلك ، والثابت الذى لاشك فيه أن (حافظ) لم يسام فى الدعوة لهذا المشروع بشىء من نظمه أو نثره .

وقد كنت أتوقع هذا منذ تقدمت اليه بهذا الطلب ، فقد أساء الاستماع إلىّ ، وانصرف عنى وأنا أتكلم وكان (حافظ) فى هذه الفترة قد أمسك عن نظم الشعر ، فيما عدا بعض أبيات كان ينشرها فى جرائد الوفد ضد حكومة إسماعيل صدقى ، كانت قليلة الحظ من التوفيق ، فلم تصادف من قلوب الناس هوى ، ولم تجر على لسان ، ولم تحسب فى رصيد الدعوة ضد إسماعيل صدقى وحكومته .

ولكن اسم حافظ ابراهيم صافح أذنى منذ كنت طفلا ، فى وقت لا أعرف فيه ماهو الشعر وماهو النثر ، لاماهو حافظ وماذا يكون .

فقد كانت أمى وأختى معجبتين بقصيدة حافظ فى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت أختى لا تكف عن ترديد أبيات منها بمناسبة وبغير مناسبة ، وهى تعمل ، أو وهى تقفز من جانب فى البيت إلى جانب أخرى . فلما كبرت ، بقى رنين هذه الأبيات فى أذنى ، وأصبحت أردد من حيث لا أدرى . شطر هذا البيت الذى علق فى ذاكرتى أكثر من سواه : « طعنت خاصرة الفاروق منتقما » .

ولما دخلت المدارس الابتدائية علمونا من شعر حافظ قصيدتين كانت أولاهما من البساطة والسذاجة إلى الحد الذى هبطت معه إلى مستوى الزجل ، فقد قال فيها حافظ :

أروني نصف مخترع أروني ربـــع محتسب

ولم أفطن يومذاك إلى أن إيراد هذه الـكسور ، ليس من الشعر الجيد في كثير أو قليل — أما الثانية فكانت رثاؤه لإبنة الوزير أحمد حشمت باشا زوج عبد العزيز فهمي باشا والتي قال فيها :

يادرة نزعت من تاج والدها فأصبحت درة فى تاج رضوان

ولما خطوت فى سنى العمر خطوات ، ووقع نظرى على عدد مجلة المجلات التى كان يخرجها المرحوم محمود حسيب وكان على غلاف هذا العدد من هذه المجلة ، صورة المحامى إبراهيم الهلباوى وتحتها أبيات منها

أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

فقد كان هذا العدد خاصا بمذبحة دنشواى ، وتنفيذ حكم الموت فى الفلاحين الذين حوكموا فى قضيتها ، وشنقوا عدوانا وغدرا .

ولما خطوت خطوة أخرى ، وأصبحت من أنصار مصطفى كامل وأتباع مذهبه ، وأنا بعد طالب فى السنة الثالثة الإبتدائية ولم أتجاوز الثانية عشرة من عمرى ، أصبحت أحفظ من بين ما أحفظ من الشعر قصيدة حافظ على قبر مصطفى التى مطلعها .

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فـكبر وهلل وألق ضيفك جاثيا

ثم شببنا عن الطوق ، وأصبحنا نقرأ الصحف فبات من معالم حياتنا الأدبية الفكرية ، إسمان أحدهما شوقى بك أمير الشعراء ، وثانيهما حافظ بك إبراهيم شاعر النيل ، ولم يكن فى حياتنا ندان كهذين الندين يقارن النـــاس بينهما ولا ينتهيان من هذه المقارنة ، ومع هذه المقارنة المتصلة ، يقرأ الناس شعر هذا ، وشعر ذاك ، ويحتفلان بكل ما يقولانه ، وتعتبر القصيدة لأيهما حدث أدبى ،

يشغل كل من يقرأ ، ، وأحياناً من لا يقرأون أيضاً .

وبقينا زمنا لا نعرف من حياة هذين الـكبيرين إلا أقل القليل ، حتى لـكأنهما ولدا هكذا : رجلان كبيران ناضجان . ففيما عدا أن شوقى نفى خلال الحرب العالمية الأولى لأنه كان شاعر القصر ، وأن الثانى يعمل فى دار الـكتب ، لم يكن يتصل بعلمنا عن حياتهما شيء . وكان أقصى ما نصل إليه فى هذا الشأن هو أن شوقى عيٌّ لا يكاد يبين إذا تكلم ، وأن حافظ خفيف الظل ، سريع البديهة ، حلو النكتة ، وأن حديثه أشهى من شعره . كل ذلك لأن الترجمة للاحياء ، بل للأموات من المعاصرين لم تـكن معروفة فى تلك الأيام .

وقد لا أكون مغاليا إذا قلت أن أول ترجمة كاملة لحياة حافظ إبراهيم ، هى هذه الترجمة التى كتبها الأستاذ أحمد أمين تقديماً لديوان حافظ إبراهيم ، الذى نشرته وزارة المعارف العمومية فى سنة ١٩٣٧ .

* * *

على أن حياة حافظ إبراهيم ، كانت خالية من الحوادث الجسام ، حتى يمكن إجمالها فى سطور قليلة ، دون أن يكون فى هذا الاجمال ، تجن على صاحب تلك الحياة أو هضم لحقة .

فقد ولد محمد حافظ إبراهيم فى سنة تقع بين سنة ١٨٦٩ وسنة ١٨٧٢ ، على ظهر ذهبية كانت راسية على شاطىء النيل عند قناطر ديروط حيث كان يعمل أبوه المهندس ابراهيم فهمى ، ويقال أن إقامته على ظهر هذه الذهبية كانت هدية من صاحب الذهبية محمود سليمان باشا صاحب الأطيان الواسعة فى البدارى وأبو تيج وساحل سليم .

وتوفى والد حافظ وهو بعد فى الرابعة ولم يترك لزوجته وإبنه مالا ، فحملت الأم طفلها ، ولجأت إلى بيت أخيها المهندس محمد نيازى بك . ولما شب حافظ

عن الطوق ، ألحق بمكتب لتعليم الصبيان كان يسمى المدرسة الخيرية ، وكان مقره بالقلعة ، ثم نقل منه إلى مدرسة القربية ، ثم إلى الخديوية ، ولم يحصل فى هذه المدارس جميعاً شيئاً له قيمة . ولما نقل خاله إلى طنطا مهندساً للتنظيم فيها ، صحب معه أخته وابنها حافظ ، ولم يبد أن حافظ قد تهيأ فيها لتحصيل العلم أكثر مما تهيأ لذلك فى القاهرة ، فقد بقى قليل الصبر على الدرس ، ضعيف الإهتمام بالكتاب ، ولكنه كان كثير التردد على المسجد الأحمدى حيث يجلس كبار الشيوخ إلى أعمدة المسجد ، فيتحلق حولهم التلاميذ ، مختارين غير ملزمين بنظام ، ولا مقيدين بقانون يسمعون إلى الأستاذ الذى يختارونه ، فى الوقت الذى يحبونه ثم يدعونه إلى سواه حتى تقوم بينهم وبين أحد الشيوخ صلة إعجاب وتقدير ، فيرتبطون به ، ويلزمونه ويصبحون له لا تلاميذ فحسب ، بل وأتباعا ، وأبناء ، حتى أنهم يترددون عليه فى البيت ، يسمعون منه ، ويقرأون عليه ، ويقضون بعض حوائجه ، ويلتمسون منه النصح والهداية ، فى شئون دنياهم ، كما يلتمسون منه الإرشاد والتوجيه ، فى شئون عقولهم وما يدرسون .

وقد طاب لحافظ ابراهيم ، أن يتنقل هكذا بين الشيوخ ، وأن يسمع من هذا ، ومن ذاك ، وأن يختلط بالتلاميذ ويلتذ بحوارهم ، ويشارك فيما يقولون ، وكانت موهبته الشعرية ، قد بدأت تعلن عن نفسها ، بحبه الشديد لكل ما هو أدب وشعر ، وقد صور هذه الحقبة من حياة حافظ الشيخ عبد الوهاب النجار ، وكان من أصحاب حافظ فيها فقال .

« عندما عدت من القرشية إلى طنطا فى شعبان من تلك السنة ، رأيت إخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الأهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه ، وتقديمه إلىَّ ، باسم الأديب الشاعر محمد حافظ إبراهيم ، ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا إليه بجاذب من الأدب الذى

كان نهمة نفسى ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ، وبديهة مطاوعة ، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة .

« وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشاء والتراويح معا ، ثم نلبث فى سمر ممتع ، ومطارحة للشعر ، ومذاكرة فى نوادر الأدب ، وما كان يطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض ، إلى أن يأتى وقت السحور ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى انبثاق الفجر . فنؤديه ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة . ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع ، فيذهب كل منا إلى بيته »

ولكن خال الشاعر الشاب لم يكن غنياً إلى الحد الذى يدع فيه ابن أخته هائماً فى دنياه : متنقلا بين دواوين الشعر ، مشغول الخاطر بنوادر الأدب ، يقرؤها ثم يرويها ، ويسمعها من غيره ، ويضمها إلى محفوظه ، ولو كان خاله غنياً لما أرضته هـذه الحال ، فلم يكن الشعر ولا الأدب بحرفة مجزية فى ذلك العهد ، بل لم تكن حرفة بحال ، وهى إلى الآن ، لاتؤكل صاحبها طعام يوم واحد ، إلا إذا قامت إلى جانبها حرفة أخرى متصـلة بها ، أو قريبة منها ، كالصحافة ، أو التعليم ، أو الترجمة دع عنك الاستجداء به وأحس حافظ أنه عبء على خاله ، وأن أهل البيت يعدونه خائباً لاأمل فيه ، فعزم على أن يطرق أبواب الرزق بعيداً عنهم فكتب لخاله يقول :

ثقلت عليك مؤونتى   أنى أراهـا واهية

فأفرح فإنى ذاهب   متوجـه فى داهية .

وكأنما كان حافظ يتنبأ ، فقد ذهب فعلا إلى دواه لا داهية واحدة فقد وقع اختياره على مهنة المحاماة ، إذ اتصل لسبب غير معلوم لنا ، بالشيخ محمد الشيمى ، وكان من كبار المحامين فى طنطا ، منح بعد ذلك لقب البكوية ، الأمر الذى يدل على ثرائه ونجاحه فى عمله . وأغلب الظن أن الشيوخ الذين تعرف عليهم

حافظ فى المسجد الأحمدى ، تحدثوا باسم حافظ أمام الشيخ الشيمى ، فعرف منهم أنه حاضر الخاطر ، ذلق اللسان ، حلو الحديث ، فاعتبر هذه من مؤهلات المحاماة فى تلك الأيام التى لم يكن يطلب فيها من الراغبين فى امتهان ذلك العمل شهادة من معهد ، ولا دراسة فى مدرسة . ولكن المحاماة ليست كلاماً فحسب ، فهى قراءة لأوراق المدعين ، وفهم لأسباب منازعاتهم ، وضبط للنفس وقدرة على المناورة والمداورة ، وصبر على القضاة الذين يتأخر بعضهم فى فتح الجلسة ، والذى يضيق صدر الآخرين منهم بكلام المترافعين ، ولو كان حديثاً حلواً كحديث حافظ ، والراجح أن حضور بديهة حافظ ، وانطلاقه على سجيته ، كانا يتخليان عنه فى قاعات المحاكم ، فملكة الفكاهة والسخرية عنده ، لا توافيه بمددها ، إلا إذا اطمأنت نفسه ، ورأى الناس مقبلين عليه محتفين به ، عارفين قدره ، راغبين فى الاستزادة من ظرفه وملحه لا يقاطعونه ولا يتجهمون فى وجهه . ولذلك فإن عهده بمكتب الشيخ الشيمى لم يطل ، فقد تركه ، مسجلا هذا العهد القصير ، ببيتين من شعره قال فيهما :

جراب حظى قد أفرغته طمعاً ... بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء فقلت له ... مما ؟ فقال من الحسرات واحربا

ولكن يبدو أن فشله عند الشيمى ، لم ييؤسه من المحاماة ذاتها ، فقد كانت أقرب المهن إلى مواهبه واستعداده ، ولو منح من فضيلة الصبر ، قليلا ، لبقى من جنود المحاماة ليصبح من قادتها ، ولكسبته إلى النهاية كما كسبت الكثيرين غيره من كبار المفكرين والخطباء لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم بأسره ، و قصد حافظ مكتب محمد أبو شادى بك ، وكان فوق اشتغاله بالمحاماة ، التى بلغ فيها أقصى غايات الشهرة فى أيامه ، مشغول البال بالصحافة ، فقد أصدر جريدة (الظاهر) التى لم تعمر طويلا . ولم يطل صبر

حافظ كالعادة فترك مكتب أبى شادى ، وإن لم يترك المحاماة أيضاً فطرق باب محام ثالث هو عبد الكريم فهيم ، وكأنها الثالثة الثابتة التى نقول عنها فى أمثالنا، فقد تمت فى هذا المكتب القطيعة بين حافظ والمحاماة ، ووجه وجهه إلى مهنة تبدو أنها من المحاماة ، النقيض . ألا وهو العمل فى الجيش . المحاماة ، هى الجدل والكلام والحرية ، والجيش هو النظام والطاعة والقيود . ولكن فى كليهما مجال لمن يود أن يصول ويجول ، ويهاجم ويدافع ، ويضع الخطط ، وينازل الخصوم ، ويكسب المعارك أو يخسرها .

لحق إذن حافظ بالمدرسة الحربية سنة ١٨٩١ ، وتخرج منها بعد بضعة شهور ، وعين عند تخرجه برتبة الملازم الثانى ثم رقى إلى رتبة الملازم أول فى أول أغسطس سنة ١٨٩٣ وبقى ضابطاً بالجيش حتى السادس من مايو سنة ١٨٩٤ ، ثم نقل إلى وزارة الداخلية حيث عمل ملاحظاً لمركز بنى سويف ثم ملاحظاً لمركز الإبراهيمية ، ثم أعيد إلى وزارة الحربية ، فأحيل إلى الاستيداع حتى سنة ١٨٩٦ ، ثم أعيد إلى الخدمة العاملة ثم أحيل ثانية إلى الاستيداع ، وكان راتبه وهو على الإستيداع أربعة جنيهات لم تكف حوائجه ، فطلب إحالته إلى المعاش ، فأجيب إلى طلبه .

ولم تكن أكبر حوادث حياة حافظ إبراهيم ، وأحفلها بالتعاسة والشقاء ، هى سفره إلى السودان فى سنة ١٨٩٦ ، مع الجيش . فقد أعيد إلى الخدمة بعد إحالته إلى الإستيداع ، لحاجة الجيش إلى ضباط يسافرون مع كتشنر القائد الإنجليزى للجيش المصرى ، وكان من نصيب الكتيبة التى كان حافظ من ضباطها أن تعمل فى شرق السودان ، فعمل فى طوكر وسواكن ـ وكانت طوكر فى تلك الأيام منفى ، يعاقب المذنبون بإرسالهم إليه ، حتى لقد جرى على ألسنة المصريين مجرى المثل : « أوديك طوكر » ، « ويعنى أنا رايح طوكر وهكذا . . . » .

وقد عرفنا مما سبق أن (حافظ) كان ملولا لا يطيق أن يصبر على عمل واحد ، ولو كان قراءة كتاب ، أو سماع درس ، أو مطالعة قضية ، ومن هنا نحن قادرون على تصور العذاب الذى اصطلاه حافظ فى تلك البقعة من السودان ، حيث كانت إقامته فى خيام ، ومع ضباط لا يألفونه ، ولا يألفهم . وفى وقت كانت فيه الأمور فى السودان قلقة ، ومخاطر الثورة على المصريين والإنجليز بادية فى الأفق . ولذلك فقد تلقى (حافظ) فى تلك الأيام أول دروس الشكوى من الزمان ، والتبرم بحظه . وبدأت نفسه تميل إلى التشاؤم ، وتمتلىء بدواعيه ، وكانت الأيام تزيد هذا الميل عنده ، كلما أحس بأن قدمه فى دنيا الشعر ثبتت ، واسمه فى عالم الأدب ارتفع وصلته بالعظماء توثقت ، وحظه فى الوظيفة والمرتب ، باق لا يزيد كثيراً ؛ وهو تواق إلى مزيد من الراحة والمال ، والسلطة والنفوذ ، لا حباً فيهما ذاتهما ، بل فيما يجلبان على صاحبهما من المال والراحة .

ولم يكن — حافظ كما يمكن أن نتصور — على صلة طيبة بقائده ، ولذلك لم يتردد فى أن يسخر منه ببيتين من الشعر قال فيهما :

تراه إذ ينفخ فى المزمار   تحسبه فى رتبة السردار
يجتنب العاقل والنبيهـا   ويعشق الجاهل والسفيها .

ولما كان الإنجليز على خوف دائم من أن يتمرد عليهم الجنود السودانيون ، فقد أمر كتشنر ، بأن تجرد الفرق من أسلحتها ، إلا أن فرقة سودانية رفضت أن تسلم أسلحتها ، واستردت ما أخذ منها من السلاح عنوة ، فغاظ ذلك كتشنر وقد وصف حافظ هذا الحادث فى كتابه ليالى سطيح فقال :

« فعظم الأمر على صـــاحب الأمر ، وكادت تخلع شعبة مهجته هلعاً ، ويقطع نياط قلبه جزعاً . وتمثل له شخص واشنجتون ، وفى يده علم الاستقلال ،

وصار به الوم إلى (لادسميث)[1] فانحلت منه الأوصال ، فجمع نفراً من قومه وشاورهم فى الأمر ، فأشاروا عليه بالتماسك وأن يتراءى للجنود فى هيئة المتفقد للشئون، للمستخف بالكوارث .

« فخرج وهو قلق الشخص على جواده لايصحبه حرس ولا يماشيه أحد من قومه ، وكان يكون معه عند جولة يجولها من خاصته من يقوم بتبليغ مشيئته وإمضاء أمره .

« فما زال يستقرىء الوجوه والأبصار ، وهو كلما مر بقوم تراجعت أقدامهم، والتصقت أيديهم بجباههم وانتشرت على وجوههم طبقات من الخشوع . حتى إذا صار بمكان الموقعة وقد طرح عن منكبه رداء الفزع . فإذا جيش من النسوة يموج بعضهن فى بعض ، وفى يد كل واحدة منهن هراوة . فما هو إلا أن طلع عليهن حتى عطفن عليه يعبسن فى وجه جواده . فأشفق أن يصيبه عنت منهن . فلوى رأس جواده وأخذ يحثه هرباً وما زال يركضه ملء فروجه حتى وصل إلى دار حكمه . فلما أمن فى سربه أصدر مشيئته ثانياً بإبقاء الذخيرة فى أيدى الجنود حتى يؤتى لهم بسواها من حديثة العهد بالوجود . »

وقد اتهم الإنجليز بعض الضباط المصريين بأنهم كانوا من وراء هذه الفتنة . وأنزلوا العقاب بثمانية عشر ضابطاً كان حافظ إبراهيم منهم ، فأعيد إلى مصر . وكان كرومر يعتقد أن الخديو عباس كان المحرض على ذلك التمرد ، فألزمه أن يستدعى الضباط المعاقبين وأن يوبخهم على تمردهم ، إذلالا لعباس ، وإيئاساً للثائرين فى مصر والسودان منه . وقد قبل الخديو أن يوبخ هؤلاء الضباط بكلمات كتبها كرومر بنفسه ، وترجمت إلى العربية ، حتى ينفى عن نفسه تهمة التحريض والمشاركة فى هذا التمرد .

(١) مدينة فى جنوب أفريقيا حوصر فيها القائد الإنجليزى وقد ضربت جيوش البوير هذا الحصار .

ويقول الأستاذ أحمد أمين أن هذا الحادث أثار حافظ ، وملأ قلبه يأساً ، ولكنا نحسب أن حافظ كان سعيداً بإعادته إلى مصر ، أيا كان السبب ، فقد كان يطير صوابه ، من فرط ما كان يعانيه من قيظ السودان ، وشظف العيش ، ولا أدل على حالته النفسية من قوله أنه كان يكتب استقالته فى الظهر ، فإذا هبت نسمات الأصيل ، مزقها .

وكان حافظ قد عرف الشيخ محمد عبده قبل سفره ، فكان يرسل إليه مستغيثاً طالباً منه أن يعيده إلى مصر . ويعود إلى مصر ، كما كان يتوق ، ولو أنه يعود مطروداً ، ومعاقباً ، فلا يجد عملا ، ويحاول شوقى الشاعر ، بدافع من نفسه عطفاً على هذا الشاعر الفقير ، والضابط المعزول ، أو بإيحاء من الخديو عباس الذى كان على الراجح من خلف تمرد المتمردين فى السودان ، فيقصد جريدة الأهرام ، ويرجو صاحبها أن يلحق (حافظ) محرراً بجريدته ، ويعد صاحب الأهرام ، ولكنه لا يفى ، إما خوفاً من أن يلحق بجريدته ضابط حكم عليه الإنجليز ، وإما لأنه لم يكن يظن أن جريدته ستفيد شيئاً من هذا الضابط الذى لم تكن مواهبه الأدبية قد أعلنت عن نفسها بعد .

وضاقت الدنيا فى وجه حافظ وراح يشكو زمانه ، ويندب عثار حظه ويقول :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما وعدت وما أعقبت إلا التندما

ثم قال :

فهبى رياح الموت نكباء واطفىء سراج حياتى قبل أن يتحطما .

ولم يكن أمامه إلا أن يغشى مجالس الشيخ محمد عبده ، ملتمساً إزجاء وقت الفراغ ، ومؤملا أن يقيل الشيخ عثرته ، وقد بقى عاطلا بلا عمل ، حتى ألحقه أحمد حشمت وزير المعارف ، بدار الكتب ، رئيساً للقسم الأدبى فى الرابع عشر

من مارس سنة ١٩١١ تحت الاختبار ثم ثبت فى وظيفته هذه فى اليوم الأول من أبريل سنة ١٩١٢ . وبقى فى دار الكتب حتى أحيل إلى المعاش فى الرابع من فبراير سنة ١٩٣٢ ، لم ينقض على إحالته على المعاش سوى أربعة أشهر وبضعة أيام ثم وافاه أجله فى الحادى والعشرين من يوليو سنة ١٩٣٢ فى بيت صغير بضاحية الزيتون ، ولم يكن معه سوى خادمتين عجوزين ، كانتا فى خدمة زوجة خاله . وكان فى ليلة وفاته قد دعا صديقين من أصدقائه ليشاركاه الطعام ولكنه أحس ببعض التعب ، فأكلا دونه ، وقنع بالجلوس معهما على المائدة ، ولما تقدم الليل ، زاد التعب عليه ، وأسرعت إحدى خادمتيه إلى صديقه عبد الحميد البنان التاجر ، فقدم على عجل ، ومعه الطبيب ، ولكنهما حينما وصلا كان حافظ قد أسلم الروح وانتقل إلى رحمة الله .

* * *

فها أنت ذا ترى أن حياة حافظ ، تكاد تكون خطاً مستقيما ، لا يتعرج ، ولا ينثنى فمنذ أن دخل خدمة الحكومة ، بقى فيها ، لا يسأمها ، ولا يسبب للحكومة تعبا ، ولا تسبب له تعبا . وهو فى خدمة الحكومة لا يعنيه إلا الراتب يقبضه ، فى غير مقابل من عمل يؤديه ، فزملاؤه فى العمل ومؤرخوه مجمعون على أنه لم يكن يباشر شيئا من اختصاصات وظيفته ، وأن غيره من الزملاء كانوا يقومون بواجبه عنه ، وأنه لم يكن يحترم موعداً من مواعيد الحكومة ، ولم يكن يطيق أن يبقى فى مكتبه ، فأكثر أوقات العمل يقضيه فى القهوة العثمانية التى تقع فى الجانب الآخر من الشارع الذى يقوم فيه مبنى دار الكتب . فإذا اضطر إلى الذهاب إلى مكتبه لبعض الوقت ، قال لعمال المقهى ، إذا سأل عنى أحد ، قولوا له إنه راح الكتبخانة وراجع حالا . بل أن أحد مؤرخيه يؤكد أنه لم يكن يطيق أن يعد مرتبه الذى يأتى به له فى أول كل شهر أحد سعاة دار الكتب . «فكان يخطفه منه خطفاً ولما استمر على هذه العادة شهراً بعد شهر ، جعل هذا الساعى ، ينتقص من

المرتب جنيها أو جنيهين ، وحافظ ساه عن هذا ، حتى جمع الساعى مع الزمن ثمن فدانين » .

فإذا انتهت ساعات العمل ، انطلق حافظ من المقهى إلى داره أو إحدى دور أصدقائه ، أو أحد المطاعم الشهيرة يأكل أكلا كثيرا ، وشهيا ودسما . ثم يدخن السيجار الفاخر بإسراف ، فيستهلك فى اليوم الواحد ماقيمته جنيه فى وقت كانت فيه قيمة الجنيه أضعاف أضعاف قيمتها بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم هو لاينظم الشعر إلا قليلا ، فقد سكت عن نظمه منذ لحق بالعمل فى دار الكتب ، ففيم كان يصرف إذن كل وقته ، وماعساه يكون لديه من حيوية : الحديث السهل الخفيف ، الضاحك ، المسلى ، الذى يحتوى على قدر كبير من النكت المحفوظة ، والمرتجلة ، يديره فى بيوت أناس أكثرهم من الفارغين الذين أفاء عليهم الحظ المال الكثير ، فأغناهم عن العمل ، وأصبحت حياتهم دعابة مستمرة . هذه هى حياة حافظ ابراهيم اليومية ، التى وصف فيها بأنه بارع النكتة ، وحينما تقرأ هذه (النكت) تحاول أن تتبين وجه البراعة فيها ، فلا تجد ، فهى من هذه النكت المألوفة التى يكررها هواة الدعابات الثقيلة والسوقية ، والتى تعجب ان يكون ارتجالها ، النشاط الأعظم لشاعر كبير كحافظ ابراهيم

روى الأستاذ أحمد محفوظ أنه حضر حواراً بين حافظ وعبد العزيز البشرى فى أيهما أجمل من الآخر فلما احتدم الحوار قال حافظ للبشرى « أنت تبص فى المراية وترمى عضمه » فقال له البشرى « داوش ينفسل ، دا وش ينكنس » فقال حافظ « فى ذمتك أمك باستك كام بوسه » فقال البشرى « دى دايتك كانت من بتوع يارفاعى مدد »

* * *

ودعا حافظ بعض أصدقائه لتناول طعام الافطار معه ، وكان من بين المدعوين الشيخ عبد العزيز البشرى ، الذى قبل الدعوة وحضر فى موعدها ، أما الآخرون

فقد تأخروا ، فجلس حافظ والبشرى يأكلان ثم حضر المدعوون ، فنظر اليهم حافظ وأشار إلى البشرى وقال « لامؤاخذه لما شفتكم اتأخرتم جبت فقى البيت يفطر معاى »

والحق أن حياة حافظ كلها ، كانت نكتة من هذه (النكت) ، فهى حياة تتابع فيها الأيام ، بلا جهد يبذل ، وبلا عمل يؤدى ، وبلا شاغل من هموم الوطن أو أحزانه ، يشغل نفس الشاعر ، أو يحفزه الىٰ قول ، أو يدفعه إلى نظم .

وصفه الأستاذ محفوظ وصفا ترتسم لنا منه صورة أظهر ملامحها إنه ضخم طويل ، عظيم الأنف ، مستهدل جلد العنق ، والوجه ، بعد أن تخلى عنه شحم الشباب خفيف الشارب ، كأنه خيط ملتصق بشفته العليا ، ومن عاداته أن ينتف مقدم ذقنه بأظافره ، ويمشى كأنه مقيد فى انحناءة يسيرة ، ضخم الصوت إذا تحدث فكأنه يتجشأ ، اتسعت عليه ثيابه ، فلاح فيها كأنه (عفريت المقاته) . طويل الأصابع ، طويل الأظافر ، لايستبدل قميصه بآخر إلا بعد الزمن الطويل ، فهو فى اتساخ اكمامه يشبه عاملا فى المطبعة . قميصه منشى ، وياقته منشاة ، وأكمام قميصه كذلك ، لم يرقط إلا (بياقة) مثنية الأطراف احاطتها ربطة عتق ظاهرة كلها للعيون . ربما انثت ربطة عنقه يمينا أو شمالا فيتركها غير عابىء ، فهو بعيد عن الاناقة بعدوجهه عن الوسامة ، يلبس جوربه أياما طوبله ، فإذا كرهه اسنبدل آخر به ولم يغسله ، ولم يلبس إلا الثياب الغالية . ولـكنه يهملها فيفقدها قيمتها . يتوكأ على عصا من الخيزران غليظة ، انثنى رأسها انثناءة واسعة وقد غطى الرأس بالعاج المنقوش بأسلاك نحاسية ، يلبس (صديريته) صيفا وشتاء . يلبس معطفاً أزرق (بياقة) من القطيفة الرقاء ، يعلوها وسخ أحال لونها إلى لون النحاس

كان يضيق بالصيف وحر القاهرة ، فهو يلبس الأبيض الخفيف . وفى ذات يوم من أيام مايو ، وكان قائظ الحر ، كان حافظ جالساً مع صاحبه على

باب مقهى ، فدخل عامل المقهى ، يحمل لوحاً من الثلج ، فنظر الى صاحبه وقال تعرف أنا باتمنى إيه الوقت ؟ أنا عايز أبقى لوح ثلج زى ده . »

كان لا يخلع الطربوش عن رأسه قط ، فإذا كان فى المنزل ، وضع مكانه طاقية . يلبس منظاراً سميكا من الزجاج ، بإطار ذهبى ، وكان من عادته أن ينظر إلى محدثه ، عند الدهشة أو التحمس فى الحديث، أو إذا أراد أن يدقق فى وجد جليسه ، ان ينظر من فوق إطار النظارة بعينين كليلتين

حذاؤه ضخم من الصنف الإنجليزى من غير عنف ؛ مشدود الجوارب بحمالة لم يلبس فى حياته (بيجامة) إنما هو جلباب من الكستور فى الشتاء ومن التيل أو البفتة فى الصيف

يحب الطعام الدسم حبا جما ، وكانت زوجة خاله طباخه ماهرة . وكان يستقبل الكثير من الضيوف فى داره ، ويكرم وفادتهم . كان يحب تدخين السيجار الغالى، ولا يدخن غيره إلا التر جبله. ولكنه يسرف فى تدخين السيجار حتى ليدخن فى نصف يوم كما قلنا بما يساوى جنيها، فى وقت كان مرتبه فيه لا يتجاوز ٤٥ جنيها .

ويقول الأستاذ محفوظ أن (حافظ إبراهيم) حدثه أنه كان فى شبابه يشرب الخمر ، ولكن حينما أدركه الأستاذ محفوظ كان لا يشرب إلا كاسات قليلة من كونياك نابليون ، وكان يزعم أن هذا الشرب ، يخلق القوة والحيوية . وكان لا يضن به على أصحابه إذا زاروه .

ويقول الأستاذ محفوظ أيضاً أن (حافظ) كان ساذجا سذاجة تكاد تلحقه بالبلهاء ، من الأمثلة على سذاجته أن الشاعر أحمد نسيم ، سمع من حافظ قصيدة كان بسبيل نظمها فعلق أ كثر أبياتها برأسه ثم نشرها فى إحدى الصحف مع أبيات له فى قصيدة مدعيا أن القصيدة كلها من نظمه ، فلما رآه حافظ هاج وهم بصفعه لولا أن الشاعر نسيم بادره بقوله : « ياحافظ بك إن ما كنتش آخد الشعر

منك أنت آخذه من مين ، هو فيه اشعر منك فى مصر؟،فتهلل وجه حافظ وقبله وهو يقول : « بارك الله فيك » .

وهـذا تصرف يدل على طيبة القلب لا على السذاجة المفرطة ، ومن مثل ذلك أن أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة ،كان يسب (حافظ) فى جريدته ، ويلوثه بمفتريات لا أصل لها ــ وكان حافظ إذا قرأ هذا الـكلام ، هاج هائجه فإذا لقيه أحمد فؤاد ، أقبل علية معتذراً ، فيقبل عذره وسامحه .

وكان كسولا ضجراً يكاد لا يمد يده للناس للسلام . وكان إذا حل محل المدير الأصلى لدار الـكتب عندغيابه،وقع الأوراق دون أن يقرأها،وإذاعرضت عليه الأوراق ، فى مكتبه أو إذا حملت إليه فى المقهى كان يستعجل الموظف ، فإذا فرغ هذا من العرض ، تنهد تنهدة الراحة وكأنه أفلت من سجن .وكان الوهم يطارده ،ويسود حياته،فقد كان يتوهم أنه مريض،ويتوهم أنه فقير ، وكان يتوقع فى كل مناسبة أنه سيعزل من عمله فـكان بعد الإستقالة فى جيبه ويتهيأ للخروج ويسأل عن الفرق بين المرتب والمعاش ويقول: « الرزق على الله »وكان سبب خوفه من الإستقالة إهماله لعمله ،وانقطاعه عنه أياما طويلة ، فإذا عاد إلى دار الـكتب ، لم يحتمل البقاء فى مكتبه ، جال بابهائها جولة قصيرة ،ووقف يضاحك هذا ويمازح ذاك ثم انصرف . وإذا لبث فى مكتبه بعض الوقت ،كان ذلك شراً من العمل، فهو لا يعمل ، ثم يكون ــ وجوده فى مكتبه داعيا لمرؤسيه من الموظفين لأن يهجروا مكاتبهم ، ويلتفوا حوله ، يسمعون نوادره ، ويضحكون ، ويسمعونه نوادرهم ،ويقول الأستاذ محفوظ أن (حافظ)كان رعديداً يرعبه الخوف من التوافه ، وقد روى قصة طويلة ختامها أن حافظ خرج من دورة المياه أقرب ما مايكون من العارى ، لأن بابها كان مخلوعا ، فأسند صديقه الباب إلى الجدار حتى

يقضى حافظ حاجته ، فتزحزح الباب من مكانه قليلا ، فخرج حافظ ، وهو يحسب أن الباب سيقع عليه ويشج رأسه ، وكانت الدورة فى سطح منزل ، وكان بالسطح غسالات ينشرن غسيلا ، فلما خرج عليهن حافظ بهذه الصورة المفزعة صرخن ، ولما رويت هذه الحكاية لشوقى ، ضحك حتى ألقى طربوشه على ركبتيه .

ولكن هذا الرعديد كان كريما يعطى الناس ، إذ رأى أو سمع أنهم محتاجون ولو لم يسألوه ، وكان يعطى فوق ما يطيق ، أرسل إلى جارة فقيرة له ، وهى تعانى آلام المخاض عشرة جنيهات ، وكان مرتبه آنذاك أربعين جنيها .

ويروى حافظ أنه كان يركب عربة أجرة فرأى فى الطريق الصحفى طانيوس عبده فناداه ودعاه للركوب معه ، فلما ركب طانيوس ، قال لحافظ أنه فى حاجة إلى جنيه ، ولم يكن معه سوى جنيه فأخرجه من جيبه بلا تردد ، دون أن يفكر فى أجرة العربة وكيف يدفعها للحوذى ، على أنه ما كاد يترك طانيوس ، حتى نادى (حافظ) شخص تبين فيما بعد انه وكيل دائرة الأمير كمال الدين حسين واستأذن فى ركوب العربة ، فأذن له حافظ ، فما كاد يأخذ مكانه إلى جواره حتى قال له إنه يبحث عنه منذ أيام لأن الأمير بنى لنفسه مدفنا ، وأراد أن يكتب على شاهد القبر شيئاً من الشعر ، وسأل متى يستطيع حافظ أن يقدم الأبيات ، فطلب حافظ لتوه من الحوذى أن يذهب بهما إلى مقهى متاتيا فلما وصلا إليها ، تظاهر بأنه سيدفع الأجرة ، فأبى وكيل الأمير إلا أن يدفع هو فتركه حافظ يدفع ، ثم جلسا على القهوة ، فأملاه حافظ الأبيات المطلوبة ، فنقد حافظ عشرين جنيها ذهبا .

كما يروى حافظ أنه مرض يوما ولم يكن فى داره مال ، فعاده صديقه سيد باشا خشبه ولما هم بالانصراف قال له « إعدل المخدة دى ياحافظ » فلما انصرف الضيف رفع حافظ الوسادة فوجد تحتها ثلاثين جنيها .

وكان عظيم الإيمان بالله ، ما يشتد فى جدال مع أحد أصدقائه ، فيقول له هذا الصديق ، ربنا موجود ، حتى يذهب غضبه ، وتهدأ نفسه ، وكأنه تذكر شيئا كان قد نسيه .

وقد كان حافظ يعيش فى ظل هذا الإيمان ، ينفق من غير حساب ، يطمئن إلى أن رزقه مكفول ، وإن كان لم يكف عن شكوى الحال ، ووصف البؤس ، مع أنه كان مما يبعث به الحيى الرزاق من أموال ، فى نعيم ومتاع . ولكن الشكوى من البؤس ، والدهر ، أصبحت لازمة من لوازمه ، ومجالا من مجالات شعره .

وقد تزوج حافظ فى سنة ١٩٠٦ زواجا لم يعمر إلا شهوراً ، ثم لم تعاوده فكرة الزواج ، ولم يعرف عنه صلات بالنساء ، ولكنه كان شديد الإعجاب بالوجوه المليحة ، ولو كانت وجوه فتيان .

***

ماهى خصائص هذا الشعر الذى أنتجه حافظ إبراهيم ، وملأ ديوانا من جزئين بلغت عدة صفحاته ستمائة أو يزيد .

أن أصدق مايوصف به شعر حافظ أنه شعر خطابى . ففى هذا الشعر كل مافى الأسلوب الخطابى ، واللغة الخطابية من مزايا وعيوب . فالخطابة الناجحة تستلزم العبارة السهلة الرنانة ، التى تخلو من الفكرة الغامضة ، أو المعنى الجليل فلغة الخطابة هى لغة التعميمات ، التى تنأى عن التفصيلات ، والتى تقرع الأذن قبل أن تطرق القلب ، ثم هى تنأى عن العقل إلا قليلا ، وإذا خاطبت العقل حاولت مااستطاعت أن تستعين عليه بالسمع والقلب ، حتى تخدراه ، وتسلسلا قياده . فالسامعون الذين لايطربون للخطيب ، لاينقادون له ، ولا يطيقونه ، والخطيب الذى لايرضى القلب ، لايجتمع الناس حوله ، فهو لابد أن يثيرهم ،

سواء كانت الإثارة للحب أو للكره ، للخوف أو للمغامرة . ولا بد أن يكون الخطيب خفيف الظل ، حسن الأداء .

كان حافظ ، محدثاً ، تواتيه مواهبه ، عندما يرى الناس حوله ، وتجيش نفسه ، عندما يرى أثر كلامه فيهم ، وكان إلقاؤه لشعره ، عنصراً من أكبر عناصر نجاح هذا الشعر ، ولذلك فقد أصبحت لديه حاسة يدرك بها كيف يقع هذا الشعر من نفوس السامعين ، وأن يجمع فى عبارته وصياغته ، ووزنه وقافيته وبحره وتكوينه ، كل مايجعله خفيفاً على الأسماع ، سهلا على الألسن ، متداولا فى الاجتماعات وبين أفراد الناس .

قال الأستاذ أحمد أمين :

« كان (حافظ) يؤثر فى الجمهور بإلقائه بالقدر الذى يؤثر فيهم بنفس شعره ، لقد كان فى نبرات صوته ، وحسن إجادته فى الإلقاء يلعب بعواطف السامعين . كان يلعب بها بألفاظه ومعانيه . ومن أجل هذا يحسن ألا يقوم شعر حافظ ومقدار أثره فى الجمهور بمقدار مايقيسه قارىء لديوانه فهو بقراءته يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره السحرى الذى كان يتركه فى سامعه . ومن أجل هذا كان يطيل الوقت فى تخير اللفظ الذى يحسن وقعه فى السمع ، كما يتخير الإنسجام فيتغنى بالبيت قبل أن يدخله فى عداد شعره ، وينصت إلى جرسه ووقعه على سمعه قبل أن يبدأ بإيقاعه على أسماع الناس .

ثم قال :

« قد كان يصنع البيت فيردده على أذنه بإنشاده اللطيف حتى يتبين موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس ، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس ، فكان يراعى موسيقى الطول والقصر ، وموسيقى الفخامة والرقة وموسيقى اللين والشدة ، ويوائم بين ذلك وموضوعه ، وبين ذلك

ومعانيه وأغراضه ، فيوفق فى ذلك توفيقاً كبيراً »

فحافظ كان يخطب الناس ، وهو ينظم الشعر ، فالمعنى والعبارة ، والمبنى والصياغة ، كلها فى خدمة أغراض الخطيب ، لا أغراض الشاعر ، فلهذا خلا شعر حافظ من الأخيلة البديعة، ومن المعانى العالية ، وخلا من الوصف، وبعد عن الحكمة ، وعن الشعر القصصى ، ونجح فى كل قصيدة تلقى فى الاجتماعات، حيث يحتشد الناس ، ويصفقون ، وتتعالى أصواتهم بالابتهاج والإعجاب ، فتسكر الشاعر الملقى ، وتجتمع له من ذلك كله نشوة .

ويمكنك أن تسأل ماهو أكثر مايلقى فى المحافل من الشعر : إنه بلا شك شعر التأبين الذى يجتمع له أنصار العظماء الذين وافاهم الأجل ، وشعر التكريم الذى يجتمع له المعجبون بالعظماء الذين واتاهم الحظ ، وشعر افتتاح المبانى الرسمية، ومهرجانات الجمعيات الخيرية . وفى هذا المجال كان أكثر شعر حافظ . وفى هذا المجال ، تفوق حافظ بإلقائه ثم بشعره . بإلقائه أولا ، ثم بشعره الذى يسهل فى الإلقاء ، ويطاوع الخطيب الشاعر .

هذا مجمل الرأى فى شعر حافظ ، وهو رأى تدعمه حقائق حياته ، وقصائد ديوانه ، فأنت تنتقل من قصيدة رثاء ، إلى قصيدة تكريم ، إلى قصيدة دعوة إلى اكتتاب . . . ويؤيد هذا أولا حينما كان يكتب النثر ، كان يتجنب اللفظ السهل ، ويبحث عن اللفظ الذى يراه أصدق تعبيراً عن المعنى الذى يريده ، وقد روى الأستاذ أحمد محفوظ ، أنه استمر أياماً كثيرة يبحث عن اللفظ الذى يسمى به الجمهور الذى يشاهد المسرح أو الملهى عموماً ، وأنه مازال ينقب حتى اهتدى إلى لفظ (نظارة) الذى نقل عنه وذاع بعد ذلك . ولما ترجم البؤساء لفيكتور هيجو ، ملأ هذه الترجمة بألفاظ ثقيلة فقد قال مثلا وهو يصف الحصان بأنه جواد : عظيم السليل ـ سحير ، أدك ، أهنع ، مفتوح اللبان .

وحافظ كان يفضل أن يجدع أنفه على أن يستعمل لفظاً واحداً من هذه الألفاظ فى إحدى قصائده . ولذلك يذهب البعض إلى أن نثر (حافظ) فى كتابه ليالى سطيح وفى ترجمته للبؤساء من الفرنسية ، أعلى مقاماً من شعره. ففى النثر العناية باللفظ والمعنى ، وفى الشعر العناية بالموسيقى والديباجة .

ويتصل بهذا المعنى ، أن ثقافة حافظ ابراهيم أعانته على أن يكون الخطيب الشاعر ، وأن يكون شعره خطابياً . فإنه لم يتعلم فى مدرسة ، ولم يكمل دراسة شىء ما . كان يلتقط ثقافته من أفواه الناس ، من حلقات المسجد الأحمدى ، ثم من مجالس الزعماء الذين كان يتصل بهم ، فقد كان يغشى مجلس مصطفى كامل ، وعلى يوسف ومحمد عبده ويسمع مايقولونه ، وما يقوله الآخرون فى هذا المجلس فى شئون السياسة والاقتصاد ، وأمور الدولة وشواهد التاريخ ، وما يرونه من تجاربهم ووقائعهم ، وقد كان لحافظ نصيب من اسمه ، فقد كانت له ذاكرة قوية ، ولعل مرد قوتها إلى ما أخذ به نفسه من مطالع شبابه من حفظ الشعر . ومواهب الإنسان تقوى بالمرانة والممارسة .

والكتاب الوحيد الذى أدمن حافظ على مطالعته ، المرة بعد المرة ، هو كتاب الأغانى بأجزائه الأحد والعشرين ، فلما توفى حافظ إلى رحمة الله ، لم يجدوا فى بيته من الكتب إلا تذكرة داود ، وكتاب ابن سيرين فى تفسير الأحلام ، والأول يحوى علاجاً للأدواء ، بأعشاب موجودة وغير موجودة إلا فى خيال صاحبها ، والثانى وضع ليفسر الأحلام ، وانقضى على وضعه أكثر من ألف عام .

ولكن إن دل ذلك على ضحالة ما ظفر به حافظ إبراهيم من ثقافة إلا أنه يدل فى الوقت نفسه ، على ما فى الثقافة العربية القديمة من قدرة على مد الموهبة الأصيلة بما يصقلها ويجليها ، فحافظ إبراهيم لم يقرأ إلا كتاب الأغانى قراءة تأمل

ودراسة ، ودواوين الشعراء الكبار كالمتنبي وأبي العلاء وأبي نواس والشريف الرضي والعباس بن الأحنف ، وابن المعتز وابن هانى الأندلسى ، ومع ذلك استطاع أن ينتج هذا الشعر السهل الجميل الذى آنس المصريين فى فترة كانوا فى أشد الحاجة إلى شعر عذب ، يعيدهم إلى اللغة العربية ، ويعيد أساليب اللغة العربية إلى الإتصال بشئون الدنيا ، وبما يجرى فيها .

* * *

ولكن علينا أن نتساءل هل (حافظ ابراهيم) هو شاعر الوطنية حقاً ؟

لقد كان حافظ ابراهيم يسمى شاعر اللواء ، وشاعر الوطنية ، وشاعر الحزب الوطنى ، فهل كان فعلا أهلا لهذه الألقاب جميعاً .

إن التأمل فى ديوان حافظ ابراهيم يجد مثلا رثاء مصطفى كامل ، الذى مطلعه .

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة ... فكبر وهلل وألق ضيفك جاثياً

ورثاء مصطفى كامل أيضاً الذى قال فيه :

نثروا عليك نوادى الأزهار ... وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زين الشباب وزين طلاب العلا ... هل أنت بالمهج الحزينة دارى
غادرتنا والحادثات بمرصد ... والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا ... عاد وصاح الصائحون بدار
أين الخطيب أين خلاب النهى ... طال انتظار السمع والابصار
بالله مالك لا تجيب منادياً ... ماذا أصابك ؟ يا أبا الغوار

ثم رثاء ثالثا لمصطفى كامل فى ذكراه الأولى قال فيه :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا ... واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

هنا جنان تعالى الله بارؤه ضاقت بآماله الأقدار والهمم
هنا فم وبنان لاح بينهما فى الشرق فجر محى ضوءه الأمم
هنا الكمى الذى شادت عزائمه لطالب الحق ، ركناً ليس ينهدم
هنا الشهيد هنا رب اللواء هنا حامى الذمار هنا الشهم الذى علموا

ثم أنك تجد رثاء لمحمد فريد قال فيه .

من اليوم نحن فيه لقد مات ذو العزة والرأى الأسد
حل بالجمعة حزن وأسى مشى الوجد إلى يوم الأحد

إلى أن قال :

قل لصب النيل أن لاقيته فى جوار الدائم الفرد الصمد
إن (مصرا) لا تنى عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئت عنها أحمل البشرى إلى أول البانين فى هذا البلد
فاسترح واهنأ ونم فى غبطة قد بذرت الحب والشعب حصد

ورثاء لأمين الرافعى قال فيه :

أما (أمين) فقد ذقنا لمصرعه وخطبه من صنوف الحزن ألوانا
لم تنسنا ذكراه الدنيا وإن نسجت للراحلين من النسيان أكفانا

ثم قال :

لم يلوه المال عن رأى يدين به ولو حملت إليه الدهر ملآنا
ولم يلن عوده للخطب يرهقه قسا عليه شديد العيش أم لانا

ولكنك تجد فى ديوانه ، مراثى لكل كبير أو مشهور مات ؟ فلم يترك رجلا ذا خطر ، سواء كان من أنصار الوطنية أو من خصومها ، بل أنه مدح

أحياناً رجالا لا نعرف نحن خطرهم ولا دورهم ، فقد أبن ولدين لأحد المديرين تأبيناً طويلا كاد يكمل الخمسين من الأبيات ورثى أناساً لا يعرفهم ، فقد أبن مثلا تولستوى الذى يقول أصدقاء حافظ أنه لا يعرف عنه شيئا .

وقد يغتفر كل هذا ، بأنه جاء بوحى من المجاملة لصديق أو زلفى إلى صاحب سلطان أو منافسة للأنداد فاذا كانت ثمة سقطة ، فهى هينه ، لا تمس الضمير الوطنى ، ولكن كيف يجوز أن يسمى شاعر الوطنية من يؤبن موتى كبار المحتلين، ويستقبل أحياءهم بالتحية والتكريم عند السفر والعودة . كيف يؤبن شاعر الوطنية الملكة فكتوريا ، وينظم رثاء فى إدوارد السابع ، فاذا بلغه أن جورج الخامس مات ، أسرع فنظم بيتين مطلع قصيدة رثاء ، ثم يثبت أن الخبر كاذب فيتوقف عن الرثاء ، فكأنه يسابق القدر حتى لا يفلت منه ملك من ملوك انجلترا ، بغير تأبين حار ، وبكاء مر .

إن هذا لأمر يعيي فى فهمه الإنسان ، كما يعيى فى فهم أن حافظ ابراهيم بقى يحتفظ بلقب شاعر النيل بعد كل هذه السقطات التى لا تغتفر .

لكى تكون على بينة وأنت تحكم على حافظ أوله ، بسبب مسلكه الوطنى يجب أن نقدم لك رأيه فى أهل وطنه مقارناً برأيه فى خصوم هذا الوطن وأعدائه والمعتدين عليه .

قال فى قصيدته المعنونة « غادة اليابان » .

أنا لولا أن لى من أمتى	خاذلا مابت أشكو النوبا
أمة قد فت فى ساعدها	بغضها الأهل وحب الغربا
نعشق الألقاب فى غير العلا	نفدى بالنفوس الرتبا
وهى والأحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعب القوم بها	أم بها صرف الليالى لعبا

ويقول فيها أيضا :

فما أنت يامصر دار الأديب وألا أنت بالبلد الطيب

ويقول أيضاً :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب

ويقول :

وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
أمور تمر وعيش يمر ونحن فى اللهو فى الملعب
وشعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب

وقد يقال فى تبرير هذا السباب الموجة إلى مصر ، أنه من قبيل الإستحثاث والإهابة ، وأنه مثل الكلام القارص الذى يوجه الأب إلى أولاده ، ناعتاً إياهم بالعجز والسوء ، وأنهم غير صالحين ، وقلبه يفيضه حنانا لهم ، وعطفاً عليهم . وإن كان بعض السباب الذى اختاره حافظ قد يكشف عن رأيه فى بلده ، وهو رأى كان شائعاً أيامه بين المصريين ، فوصف مصر بأنه (بلد غير طيب) هو إن جاز أن يكون رأى أمثال المتنبى من المغامرين الباحثين عن الرزق الذين يسوء رأيهم فى البلد ؛ إذا ساء رأيهم فى حاكمه ، أو إذا ساء حظهم فيه ، فإنه لا يجوز مطلقاً من وطنى يحب بلده وأهله ، ويلتمس لهم المعاذير ، ويعرف أسباب نكوصهم وقعودهم عن الاستجابة لدواعى العمل والبذل والكفاح .

ولكن الداهية التى يعز فيها العزاء ، وهو أن الرأى السىء فى مصر ، وأهل مصر ، يقابله رأى حسن غاية الحسن فى الانجليز أعداء مصر وأعداء أهلها . وهو رأى يستقر عليه حافظ ، سواء كان فى معرض المجاملة للانجليز ، أو فى معرض التنديد ببعض أعمالهم . وهذا الرأى الحسن ، يجعل كلام حافظ ، وهو يحاول أن ينعى عليهم بعض أعمالهم ، خفيفا لطيفا ، كأنه نسمات الربيع .

وقد أسلم حافظ هذا الرأى الحسن فى الانجليز من ناحية ، وذلك الرأى السىء فى مصر والمصريين من ناحية أخرى ، أسلمه إلى اليأس من مصر ومستقبلها فقد قال فى القصيدة (المعنونة العلمان المصرى والانجليزى فى مدينة الخرطوم) .

وأكبر ظنى أن يوم جلائهم ... ويوم نشور الخلق مقترنان
إذا غاضت الأمواه من كل مزبد ... وخرت بروج الرجم للحدثان
هناك أذكرا يوم الجلاء ونبها ... نياما عليهم يندب الهرمان

فالجلاء عن مصر ، فى رأى حافظ إبراهيم ، سيكون يوم القيامة ، وهو أسوأ وأقبح ما يقوله شاعر لقومه ، فإذا كان هذا الشاعر موصوفا بأنه شاعر الوطنية والنيل ، كانت المصيبة أعظم ولكنك ستقع فى قصائد حافظ ، على معان أقبح من هذا ، يجمد لها الدم ، أو يفور غضباً . اسمعه يستقبل اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى :

قصر الدوباره[1] هل أتاك حديثنا ... فالشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحبا ... بعد التحية أننى أتعتب
نقلت لنا الأسلاك عنا رسالة ... باتت لها أحشاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل ... عنا ، ولكن السياسة تكذب
علمتنا معنى الحياة فما لنا ... لانشرئب لها ومالك تغضب
أنقمت منا أن نحس ؟ وإنما ... هذا الذى تدعو إليه وتندب

ثم يقول :

قد كان حولك من رجالك نخبة ... ساسوا الأمور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية ... طاش الشباب بهم وطار المنصب

(١) قصر الدوبارة كان مقر مندوب الاحتلال البريطانى فى مصر .

فانظر كيف يعتبر حافظ إبراهيم ديوان الاحتلال البريطانى ، مرفقا من مرافق الأمة المصرية ، فينصح بتنظيمه وإدارته ، ليضم الموظفين الأكفاء المدربين ؛ وليقصى عنه الفتية الطائشون ، فهو لا يطلب أن يجلو الاحتلال كله بموظفيه المدربين وغير المدربين والأكفاء وغير الأكفاء ، لأنه كان قد قرر من قبل أن الجلاء عن مصر ، سيكون يوم القيامة .

ثم انظر إلى حافظ إبراهيم ، وهو يرحب باللورد كرومر بعد حادثة دنشواى ، وكيف يصفه بأنه أصدق ناقل عن المصرين ، ولكن هذا كله يهون إذا قيس بقصيدته التى نظمها فى وداع اللورد كرومر عميد الاحتلال البريطانى وممثله وأعتى من أرسى قواعد الاحتلال ، وأعلى بناءه فى بلادنا فقد قال فى هذه القصيدة :

سنطرى أياديك التى قد أفضتها ... علينا فلسنا أمة تجحد اليدا

أمنا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا ... ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا

وكنت رحيم القلب تحمى ضعيفنا ... وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا

ولولا أسى فى دنشواى ولوعة ... وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا

لذبنا أسى يوم الوداع لأننا ... نرى فيك ذاك المصلح المتوددا

والحق أننا لا ندرى ماذا يمكن أن يبقى لإنسان من الإحساس الوطنى ، والشعور بواجبه نحو بلده وشعبه ، بعد أن يكون رأيه فى ممثل أعداء بلده الذين احتلوها بالقوة والقهر ، مثل هذا الرأى ، وبعد أن يجرؤ على توديع هذا الممثل ، بمثل هذا الكلام . انه لم يقنع بتوديعه ، وهذه وحدها كبيرة ، ولم يقنع فى توديعه بالعتاب الخفيف أو الملام الذى يجرى بين الأصدقاء ، بل جاوز منه ذلك كله إلى سفك الدموع ، والذوبان أسى والإقرار بالفضل ، على وجه يشمئز منه الإنسان مهما ضبط نفسه ، وأراد أن يتجمل بالتسامح والرفق .

فهذا القول من أى وطنى هو الخيانة ، فإذا صدر من شاعر الوطنية ، فماذا يكون ؟

وإن كنت فى شك مما نقول فاقرأ ختام هذه القصيدة المنكرة :

فيا أيها الشيخ الجليل تحية ... ويا أيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة ... لقد لبثت آثاره فيك شهدا

ويواصل شاعر الوطنية جرائمه المنكرة ، على مرأى ومسمع من المصريين ، ولا يناله من أجل ذلك الاصرار العجيب شىء ، حتى ولو كلمة عتاب ، أو لفت نظر ، فقد جاء جورست فى أعقاب كرومر فراح حافظ ينظم فى مقدمه قصيدة تنشر فى ١٠ من أكتوبر سنة ١٩١٧ . يقول فيها :

بنات الشعر بالنفحات جودى ... فهذا يوم شاعرك المجيد
أطلى واسفرى ودعيه يحى ... بما توحين أيام الرشيد

ثم يقول للعميد البريطانى الجديد : —

وول أمورنا الاخيار منا ... نثب بهم إلى الشأو البعيد
واشركنا مع الاخيار منكم ... اذا جلسوا لإيقام الحدود
وأسعدنا بجامعة وشيد ... لنا من مجد دولتك المشيد

لحافظ ابراهيم ، يعد الانجليز منا ، ويعد عميدهم ، رئيس دولتنا ، ويعد نفسه لسان الشعب المصرى فى طلب الاصلاح من بريطانيا والتفضل علينا بشىء من المجد المقتبس من مجدها .

وتفسير كل ذلك كله سهل ميسور ، فقد كان حافظ إبراهيم تلميذاً للشيخ محمد عبده ، وقد كان الشيخ أستاذ مدرسة تؤمن بما عبر عنه حافظ — وكان من أبناء هذه المدرسة سعد زغلول ولطفى السيد هؤلاء كانوا يعتبرون مناهضة

الاحتلال عبثاً من العبث وان الخير لبلادنا ، أن نسلم بالأمر الواقع ، ونحتال على الوصول إلى أحسن ما يمكن فى ظل الاحتلال البريطانى ، بالتودد إلى الاحتلال ونقد اخطائه ، كما ينقد أبناء الوطن ، اخطاء حكامه الذين يخرجون من صفوفه وينحدرون من أصلابه .

وتصوير العلاقة بيننا وبين الاحتلال وممثليه ظاهر فى شعر حافظ حتى وهو يعاتب الاحتلال على حادث دنشواى الفاجع فيقول :

كيف يحلو من القوى التشفى   من ضعيف ألقى إليه القيادا ؟

ويخاطب كرومر فيقول له مرة :

رفقا عميد الدولتين بأمة   ليست بغير ولائها تتعذب

ويقول مرة أخرى :

فأجعل شعارك رحمة ومودة   أن القلوب مع المودة تكسب

فحافظ ابراهيم يرسم لعميد الاحتلال كيف يكسب قلوب المصريين ، ويبدى دهشة لعسف الإنجليز بالمصريين الذين اسلموا للمحتلين القياد وهم ضعفاء ، والذين يدينون لدولة الاحتلال بالولاء ، هذا الولاء الذى تهدده سياسة الشدة ، فيتعذب المصريين لأنهم لا ينعمون بالسعادة إلا فى ظل هذا الولاء . وهو لا يقنع بنصح اللورد بهذا ، إذ أن مسعاه لا يتم إلا إذا نصح المصريين نصيحة تكمل نصيحة اللورد فيقول للسلطان حسين :

ووال القوم أنهم كرام   ميامين النقيبة أين حلوا
وليس كقومهم فى الغرب قوم   من الأخلاق قد نهلوا وعلوا
وإن شاورتهم والأمر جد   ظفرت لهم برأى لا يزل
فمادهم حبال الود وانهض   بنا فقيادنا للخير سهل

وهل وراء هذا الرأى فى الإنجليز ، رأى يزيد عليه حسناً ، ويكشف عن الثقة والاطمئنان . ومع ذلك فهو رأى شاعر الوطنية ؟

وألست ترى أن رأى سعد زغلول فى الإنجليز من أنهم (شرفاء ومعقولون) هو من رأى حافظ كرجع الصدى ؟

ثم ألست ترى بعد ذلك أن من الطبيعى أن يكون حافظ إبراهيم وهـذا هو رأيه ، شاعر الإنجليز فى مصر يهنؤهم ، ويواسيهم ، ويستقبلهم ويودعهم ؟ .

أليس من الطبيعى أن ينظم رثاء فى المليكة فكتوريا يقول فيه :

أعزى القوم لو سمعوا عزائى ... وأعلن فى مليكتهم رثائى

وادعو الإنجليز إلى الرضاء ... بحكم الله جبار السماء

* * *

أشمس الملك أم شمس النهار ... هوت أم تلك مالكة البحار

* * *

أمالكة البحار ولا أبالى ... إذا قالوا تغالى فى المقال

فثل علاك لم أر فى المعالى ... ولا تاجاً كتاجك فى الجلال

ولا قوماً كقومك فى الدهاء

* * *

وكنت إذا عمدت لأخذ ثأر ... أسلت البر بالأسد الضوارى

وسيرت المدائن فى البحار ... وأمطرت العدو شواظ نار

وذريت المعاقل فى الهواء

وقد أراد حافظ أن يدافع عن أستاذه الشيخ محمد عبده ، الذى كان معروفاً أنه كثير التردد على دار الحماية البريطانية ، ودائم التودد للمندوب البريطانى فقال فى كتابه ليالى سطيح :

ولولا أن الإمام (محمد عبده) مادّ (الإنجليز) حبل الوداد ، وجاذبهم فصل النصح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان (جمال الدين) وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فلقد يغدو على الوكالة (دار الحماية البريطانية) ويروح عنها ليدفع عنا شرة القوم ، ويصلح ما تفسده أهل الدسائس ، فكم زحزح عنا حادثاً ، ودفع كارثاً . ولو كان حياً يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى (دنشواى) لرأيت غير ذلك الذى رأيت ، من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد (البريطانى) بذلك التهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير الذى جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور فكان فيه ، كثير جموح اليراع ضعيف جانب الإقناع ، كأنه يكتب مقالة خيالية إلى مجلة سياسية ، وقف فيها وقفة المدافع عن نفسه »

هذا أقصى ما استطاع أن يدفع به حافظ عن امامه الشيخ محمد عبده تهمة التودد إلى الإنجليز أعداء بلاده ، ومفسدى الأمر فيها ، وتهمة الاختلاف على دار الحماية البريطانية ، رمز القهر والإذلال فى نظر كل مصرى عاقل ، على قدر من الوطنية والإدراك فمحمد عبده فى نظر حافظ لا يتودد الى الانجليز ، إلا لينصحهم ، ويسدد خطاهم فى الحكم ، فيجنبهم الوقوع فى المزالق التى كانوا خليقين أن يقعوا فيها لولا هداية الإمام وحسن توجيهه . يرى حافظ أنه لو أن (محمد عبده) كان على قيد الحياة سنة ١٩٠٦ لما وقعت كارثة دنشواى ، لأنه يحول بين الانجليز وبين التورط فى مثل هذه المأساة .

كلام لا ينطلى على طفل . فالسياسة البريطانية تتجه الى غاياتها المرسومة فى لندن ، لا تجامل إماماً ، ولا تترضاه ، وإن أظهرت لبعض أصدقائها ، أنها تنزل نصائحهم منزل الاحترام والرعاية ، لا لتسدى يداً للوطن المحكوم والشعب المقهور ، بل لأنها ترى فى هذا التظاهر ما ينيم غضب الناس عليها ، وما يحقق

أغراضها من أقرب السبل . وإلا لما كان استعمار ولا كانت حروب فتح .
ولحرج فى كل أمة امتحنت بالحكم الأجنبى ، عشرات من أمثال محمد عبده
يتوددون إلى الغاصب ، ويمحضونه النصح ، ولاستحال الاستعمار إلى جهاز
مستأنس وديع ، لا يقتحم على الناس بيوتهم ، إلا ليجلس من حكماء الأمم
والشعوب ، مجلس التلميذ يسمع ويطيع ، ثم ما هى كارثة دنشواى؟ . جريمة من
جرائم الاستعمار ، أفادت منها الحركة الوطنية بقدر ما خسر منها الاستعمار أو
أكثر من ذلك بكثير . ولكن مدرسة الشيخ محمد عبده والتى كان من تلاميذها
حافظ ابراهيم تفهم الأمور فهماً عكسياً ، توحى لهذا الشاعر ، وهو فى معرض
التأنيب والتعنيف بعد حادثة دنشواى أن يبدأ قصيدته بقوله :

أيها القائمون فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا

ولاءنا يالهـــا من كبيرة

ولست أدرى لماذا يشكو حافظ من عسف الانجليز — وإن كانت شكواه
ضعيفة لا تكاد تسمع — وهو شديد الزهو بمليكته فكتوريا التى إذا عمدت
لأخذ ثأر أسالت البر بالأسد الضوارى ؟

وأليس من الطبيعى أن يهنىء حافظ إبراهيم إدوارد السابع ملك بريطانيا
لارتقائه العرش فى قصيدة تنشر فى التاسع من أغسطس سنة ١٩٠٢ يقول فيها :

لمحت من مصر ذاك التاج والقمرا   فقلت للشعر هذا يوم من شعرا
يا دولة فوق أعلام لها أسد   تخشى بوادره الدنيا إذا زأرا

وأليس من الطبيعى أن يستقبل السير غورست العميد البريطانى الجديد
بتهنئة قد أسلفت الإشارة إليها — فى قصيدة نشرت فى العاشر من أكتوبر
سنة ١٩٠٧ ، وأن يستقبل المعتمد البريطانى السر مكمهون فى يناير سنة ١٩١٥
بقصيدة أخرى قال فيها :

أى مكمهون قدمت بالـ ـقصد الحميد وبالرعاية

وقال :

وعدلكم فلكم الـــــــد نيا وفى العدل الكفاية
أن تنصروا المستضعفــــــين فنحن أضعفهم نكاية

وهكذا فإن حافظ إبراهيم لم يدع فى جعبة شعره شيئاً يمكن أن يقدمه للانجليز من شكر وتهنئة وإعجاب بعدلهم ، ومفاخرة بسلطانهم ، وإشادة بنظامهم وحكمهم ، واستقبال للقادمين من رجالهم ، وتوديع للمسافرين منهم ، ورثاء ملكاتهم وملوكهم ، فكيف نفسر أن لقب شاعر الوطنية لم يسقط عن حافظ إبراهيم ، وكيف لم تثر هذه القصائد خواطر الناس ضده ؟ لا تفسير عندى إلا أن قصائد حافظ إبراهيم الوطنية أكسبته رصيداً ضخماً عند الشعب ، فأصبح ـ عندما نفدت طاقته الوطنية وأصبح فى حاجة إلى معين يهىء له أسباب الرزق ، كالتاجر ذى السمعة السوقية الكبيرة ، إذا ما تعثر ، بقى قادراً على أن يقترض من للصارف حاجته من المال ، هذا فضلا عن أن قصائد حافظ إبراهيم غير الوطنية ، تقع فى فترتين فترة ما بين سنة ١٩٠٠و١٩٠٥ عام وفاة الشيخ محمد عبده ثم تنقطع تقريباً ، وتبدأ فترة قصائده الوطنية التى مال فيها إلى الحزب الوطنى ، ثم تأتى الفترة الثانية التى عين فى بدايتها فى وظيفته بدار الكتب ، ثم تبعتها الحرب العالمية الأولى ، وفى هذه الفترة كان بين صامت لا ينطق وبين ناظم يهدى شعره إلى أصحاب السلطة من الإنجليز والمصريين على السواء ، لا يفرق بين وجيه ذى مال ، أو مدير مصلحة السجون أو الحبيبة (لونا) ، إلى آخر هذا الخليط العجيب من أسماء الرجال والنساء المعروفين والمجهولين ، المؤيدين للحركة الوطنية ، والمعارضين لها . فلما اندلعت ثورة سنة ١٩١٩ تخللت بأحداثها هذه الفترة الثانية من حياة حافظ فنظم بعض الشعر ـ كقصيدته فى مظاهرة السيدات ـ ولكنه حرص على ألا يعرف أنه صاحب هذه القصيدة.

ولاذ بالصمت حتى أحيل إلى المعاش فكتب شيئاً من الشعر ، كما نظم قصيدة طويلة ، ضد حكم إسماعيل صدقى باشا ولكنه أخفاها ، ولما استحثه المرحوم الاستاذ أحمد أمين على نشرها قال (أنى أخاف السجن) — ورحم الله امرء عرف قدر نفسه .

وقد كان مطلع هذه القصيدة

لقد مر عــام بإسعـاد وعام   وإبن الكنانة فى حمـاه يضام

ولكنه حتى فى هذه القصيدة التى أراد أن ينضو عن نفسه فيها ثوب المسالمة لم ينس أن يتجه بالشكوى إلى الإنجليز فى قصر الدوبارة فيقول :

صبوا البلاء على العباد فنصفهم   يجبى البـلاد ونصفهم حـكام
أشكو إلى قصر الدوبارة ماجنى   صـدق الوزير وما جنى علام

ثم اشتدت حماسته فقال فى حق إسماعيل صدقى باشا :

ودعا عليــك الله فى محرابه   الشيخ والقسيس والحـــاخام
لاهم أحىّ ضمـيره ليذوقهـا   غصصا وتنسف نفسه الآلام

لقد كانت قصائد حافظ الوطنية ، أى مراثيه لمصطفى كامل ، ومانظمه فى المناسبات الوطنية ، خصوصاً ما اتصل بالباب العالى ، أكثر ذيوعا ، تسامع الناس بها ، حفظوها له ، أما قصائده غير الوطنية ، فقد ماتت ، لأنها لم تنشر فى الصحف الرائجة ، ولم يحرص على حفظها ، أو ترديدها أحد . وقد كان لحافظ أنداد ، وأشباه فى دنيا السياسة فى تلك الأيام يفوقونه نفوذاً وشهرة ، يروجون مثل هذه الآراء المتسمة بالخنوع ، فلم تكن بدعا . ولعل الرأى العام قد طبق على (حافظ ابراهيم) مبدأ الحسنات يذهبن السيئات ، فعاش ومات وهو شاعر النيل .

* * *

ولكن ماذا أسدى حافظ ابراهيم إلى الشعر العربى ، والشعر المصرى المعاصر ؟

يقول الأستاذ احمد أمين أن (حافظ) استجاب للحركة الجديدة التى قامت تعيب على الشعر التقليدى ، اسلوبه وأغراضه ، أوزانه وقوافيه ، وتنقد شوقى وحافظ من النقد لانهما قديمان فى انظارهما ، مقلدان فى أغراضهما ، محافظان فى أوزانها ، وأنه ثار على الشعر القديم ، وأعلن عن ثورته التى مطلعها :

ضعت بين النهى والخيال   ياحكيم النفوس يا بن المعالى

والتى قال فيها :

آن ياشعر أن تفك قيودا   قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا   ودعونا نشم ريح الشمال

ثم يتساءل الأستاذ احمد أمين « فهل جدد حافظ بعد فى شعره ؟ » ويجيب : لم يجدد فى بحوره وأوزانه ، ولم يجدد فى اسلوبه وبيانه ، ولا تفكيره وخياله ، إنما جدد فى شىء هو فوق ذلك كله ، جدد فى موضوعه وأغراضه ، فبدلا من أن ينظم فى موضوعات أمرىء القيس وطرفه أوجرير والفرزدق ، أو بشار وأبى نواس ، نظم فى موضوعات عصره وأمانى قومه ، وساعده على هذا الاتجاه تربيته الحربية ، فإن فشل فى حرب السيف فليحارب بالقلم ، وإن تكسر سن رمحه فليشرع سن قلمه ، وأن اخطأ النجاح فى ثورة الضباط فى السودان ، فليكتب له التوفيق فى إثارة الأمة على الإحتلال .

ميزة حافظ الكبرى أنه تبلورت فى شعره آمال أمته ، وآمال الشعب العربى ثانياً » .

والحق أننا لانجد رأياً أبعد عن الصواب من هذا الرأى ، فأغراض الشعر عند حافظ ، كانت أغراض الشعر التقليدى ، فالمراثى والتهانى ، ومداعبة

الإخوان وشكوى الزمان ، كانت أغراض الشعر عند المتنبىء وأبى العلاء ، وأضرابهما ومعاصريهما ، ومن جاء بعدهما . وسبق إلى تناول هذه الأغراض ذاتها . محمود سامى البارودى . أما إثارة الأمة على الإحتلال . فهأنت ذا قد رأيت كيف أن حافظ عمل على العكس منها . فقد نصح كل ذى سلطان أن يتودد إلى الإنجليز ، وأن يركن إلى رأيهم . وأثنى على حسن صنيعهم فى الحرب والسلم . وفى الإدارة والسياسة . واعتز بأسطولهم وجيشهم وكأن ذلك الأسطول أسطول بلاده . وذلك الجيش جيش أمته . كما قد رأيت أن أى شعر يصور التمرد والغضب . على الإنجليز أو الحكام الذين يعملون بتوجيههم . كان حافظ يخفيه . حتى مات . ولم يقع جامعو شعره إلا على نتف منه . إذا كان هناك شىء آخر من هذا الشعر ومع ذلك فإن إثارة النفوس على الأعداء غرض قديم من أغراض الشعر العربى التقليدى.

فما هى إذن حقيقة دور حافظ فى الشعر المعاصر ؟ دور حافظ أنه عمل أكثر من أى شاعر معاصر سواه ، على إشاعة حب الشعر فى النفوس ، وإثارة الإهتمام به ، فقد كانت المنافسة بينه وبين شوقى ، صاحبة فضل كبير على الشعر المعاصر ، فالمنافسة بين الكبار بطبيعتها تثير اهتمام الجماهير ، فالمعارك الانتخابية ، تستأثر باهتمام الناس ، فيقبلون على الحفلات الانتخابية ، والخطب التى تلقى فيها ، والبرامج التى يتقدم بها المرشحون ، والمعارك القلمية والفكرية تعمل على تقريب وتبسيط الأفكار التى تدور حولها هذه المعارك إلى العامة ، وتشركهم فيها ، ثم أن خصائص حياة حافظ أسلوبه فى تلك الحياة أعانت على إدخال الشعر فى حياة الناس ، فقد كان يقضى أكثر حياته كما قلنا فى المقاهى ، وصالونات كبار القوم ينشدهم الشعر .. شعره وشعر الآخرين ، وسط دعابات ، وفكاهات ونوادر ، ومن حوله وحول شوقى عشرات من صغار الصحفيين الذين يرتزقون وينتفعون من المنافسة بين شوقى وحافظ ، يؤججون نار المعركة ، وينشرون قصائد الشاعرين الكبيرين ، ويتناقلون الأخبار ، والفضائح ، فنشأ من ذلك كله جو أدبى تشوبه شوائب قبيحة ، ومع ذلك

لا يخلو من حركة وحياة . على أن حافظ لتمتعه بموهبة الإلقاء الباهرة ، لعب دوراً آخر فى إثارة حب الشعر فى نفوس المصريين وتحريك كوامنه ، فهو حب قديم ولم يكن فى حاجة إلا لمن يلهب جذوته ، وينفخ فيها ، وقد فعل ذلك حافظ ، بشعره وحسن إلقائه ، وصوته الجهورى ، وكانت جميعاً تستخف السامعين ، وتخرجهم عن طورهم . وكان شعر حافظ سهلا خفيفاً ، حسن الديباجة ، فخم العبارة ، يجرى على الألسن فى يسر ويطرق الأسماع بخفة ، فتتناقله الناس وتغنى به المجالس ، وقد كان يتحرى أسباب الشهرة فمال إلى الحزب الوطنى ، يوم أن كان الحزب الوطنى صاحب القيادة الروحية فى البلد ، فذاع إسمه واقترن بالحركة الوطنية ، وظفر من أجل هذا بألقابه التى جعلته قريبا إلى النفوس وحبيباً إليها ، وبهذا الرصيد وفى ظل هذه السمعة ، تورط فى الأخطاء وقارف المعاصى الأدبية والروحية فغفر له كل ذلك ونسى ..

أما آثار حافظ إبراهيم النثرية فهى لا تعدو كتابة ليالى سطيح ، وترجمته لفصول من رواية (البؤساء) الضخمة لفيكتور هيجو ، واشتراكه مع خليل مطران فى ترجمة كتاب فى الاقتصاد السياسى .

وقد مر بنا كيف كان حافظ إبراهيم حريصاً على اختيار أغرب الألفاظ وأبعدها عن المألوف ، وهو يترجم (البؤساء) ، مع أن من أخص خصائص شعر حافظ الوضوح والسلاسة والبعد عن المهجور من الألفاظ . ويبدو أن (حافظ) وهو ينظم الشعر كان يتخيل نفسه منشداً لما ينظم وأن النبرة الخطابية تغلب على شعره ، وهى نبرة تتطلب السهل الواضح ، ولكنه حين أخذ يترجم البؤساء ، أدرك أن الترجمة ستقرأ فأراد أن يتخذ منها شاهداً على علمه باللغة ، واتساع محفوظه من ألفاظها . إلا أن هذه الآفة لم تصاحب الترجمة كلها ، فإنه بعد الثلث الأول تحرر من الاغراب وجنح إلى البساطة والسلامة .

أما (ليالى سطيح) — فعمل أدبى قليل القيمة من كل ناحية فلا هو (بالمقامة) ولا هو (بالقصة) ولا هو بالـكتاب الذى ينتظم موضوعا معيناً ، أو يضم مقالات سبق نشرها ، أو تحريرها .

ولعل القيمة الوحيدة لهذا الـكتاب هو القيمة التاريخية ، فقد ضمنه حافظ إبراهيم تاريخا للفترة التى قضاها فى السودان مع الجيش المصرى هناك والتى وقعت فيها فتنة عسكرية رؤى معها إعادة بعض ضباط الفرقة المصرية من سواكن إلى مصر وتسريحهم ، وقد شاء الحظ أن يكون حافظ واحدا من هؤلاء الضباط فساءت حاله وعانى الحرمان والتشرد ، وقد وصف ما وقع له ولزملائه فى تفصيل وإسهاب ، وصور هؤلاء الضعفاء الأخساء الذين أقاموا من أنفسهم عيونا وجواسيس على زملائهم المصريين ، ينقلون عنهم ما يدور فى خلواتهم ، إلى الرؤساء الانجليز وقد ينسبون إليهم ، ما لم يصدر عنهم رغبة فى التقرب إلى الحاكم الأجنبى ، وكسبا لما يجود به عليهم مقابل هذه الخدمات الحقيرة الوضيعة .

وقد صور لنا حافظ حياة الضابط الانجليزى فى السودان وأسلوبه فى الاستعلاء على المصريين والسودانيين ، واستمتاعه بالحياة ، والحق أن هذه الصورة كانت غاية فى القوة والإحكام ومرد هذا إلى أن حافظ كتبها وهو منفعل متأثر ، فقد كان ضحية هؤلاء الضباط الانجليز وضحية أسلوبهم فى الاستهانة بالمصريين ، والعبث بمصائرهم .

ويطيب لنا أن ننقل هنا جانبا من هذه الصورة :

«يهب من نومه فيترامى الخدم على خدمته كل فى شأنه الذى نصب له. فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه ، قدم له الجواد ، فاستوى عليه ، ومضى متباطئاً إلى حيث الجنود مصطفة للتدريب غير مبال بانتظار تلك المئات ولا بما

يلحق بهم من السأم والملل إذا تأخر أو أن تجليه عليهم إلى وقت الضحا وهم يرتقبونه والليل والصبح خيطان . فإذا صار بحيث تراه العيون سجدت السيوف وقامت البنادق ، وخفتت الأصوات وجمدت الشخوص وسكنت الأنفاس ، كسكون النسيم إجلالا للقادم، ورهبة للمقبل، وما أسعدهم إذا أجاب على كل هذا بإشارة من رأسه ، أو من يده . ثم يخترق الصفوف بجواده بهيئة المتفقد وخلفه أكبر ضابط مصرى، يكتب عنه ما يملى عليه من ملاحظاته ، ثم يركض جواده ملء فروجه إلى ملعب الكرة ، بعد أن يرسم لمن ينتدبه مكانه ، خطة للتدريب فى غيابه » .

وتعجب لرجل يصف أسلوب الانجليز فى الحكم ، على هذه الصورة،ويبقى على حسن ظنه بالانجليز ، وينصح حكام مصر بالتودد إليهم والاستعانة بحسن رأيهم فى تصريف شئون البلاد ، ويدافع عن أمامه الشيخ عبده ، لأنه لايقطع حبل مودتهم ، سعياً إلى تحقيق الخير لأهل مصر ، ورداً للشر عنهم .

والعنوان الذى إختاره حافظ إبراهيم لكتابه كما ترى،ليس بالعنوان الموفق، فسطيح ليس بالإسم الذى يحسن وقعه فى الأذن ، ولم تكن بحافظ إبراهيم حاجة تلجؤه إلى اختياره فسطيح هو أحد كهان ثلاثة هم شق وطريفه ، ثم سطيح[1] .

وقد كانت طريفه أسبق الثلاثة إلى الحياة ثم إلى الموت ، ولدت قبلهما ، وماتت قبلهما وكانت كاهنة ، تطلع على الغيب ، فلما حضرتها الوفاة ، تفلت فى فمى شق وسطيح ، وكانا ولدى خالة ، فنقلت إليهما بهذه التفلة ، ما اجتمع لديها من علم وكهانة .

وشق وسطيح، كما وصفهما كتاب العرب الأقدمين مسيحيان ، ولدا فى يوم واحد من غير أب ، وقد سمى (شق) هكذا ، لأنه نصف آدمى ، فلم تكن له

(١) مقدمة ليالى سطيح للاستاذ عبد الرحمن صدقى .

سوى يد واحدة ورجل واحدة ، أما ابن خالته سطيح ، فلم يكن له عنق ، فكان وجهه فى صدره ولا عظم فى بدنه ، سوى عظم جمجمته ، وهو عظم غريب إذ لمسته يد ، تركت اللمسة أثراً فى الجمجمة كأنها صنعت من مطاط . ولما كان بدن (سطيح) لحماً بلا عظم ، فقد كان طوال حياته لصيقا بالأرض ، لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك فيه إلا لسانه . فإذا أريد نقله يطوى كما يطوى الحصير . أما إذا أريد استخباره عن شىء مما يضمره الغيب ، فإنه ينتفخ كما تنتفخ أنبوبة أو كرة المطاط .

فسطيح كما ترى ، مسخ يتحدث عن الغيب ، ولم يكن حافظ فى كتابه كاشفاً لحجب ذلك الغيب ، ولا باحثاً عن مفاجآت الغد ، وإنما واعظاً لأهله ، يتذاكر معهم الماضى ، ويستخرج منه ومن الحاضر العظات .

وقد التقى حافظ إبراهيم ، فى كتابه سبع مرات فى سبع ليال متواليات بسطيح ، كانت ليالى تتفاوت طولا وقصرا . وقد تحدث فى الثانية منها عن السفور وأيد قاسم أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة فقال : صاحب مذهب جديد ورأى سديد دعا القوم إلى رفع الحجاب ، وطالبهم بالبحث فى الأسباب ، فألقوا معه نقاب الحياة وتثبتوا من دونه بالنداء . أى ثلاث إذا مضت على كتابك خمسون حجة ، وظهر لذى العين أدلاؤك بالحجة ، تكفل مستقبل الزمان بإقامة الدليل والبرهان » .

أما الموضوعات الأخرى التى أدار حافظ الحديث حولها فى الليالى السبعة ، فليس فيها شىء جليل القيمة ، وقد ضمن الحديث فى الليلة السابعة مقال الشيخ على يوسف المعنون « السياسة الضيقة الضعيفة » فسر فيه استعمال بريطانيا للعنف فى حكم مصر ، بأنه دليل ضعفها ، إذ لا يلجأ الإنسان إلى العنف إلا حيث يشعر بنقص فى قدرته .

فكتاب ليالى سطيح فيما عدا ما وصف به ما جرى للمؤلف فى السودان ، ودفاعه عن الشيخ محمد عبده ووصفه لخصائص شخصيته ، والصورة التى رسمها للموظف الانجليزى فى مصر والسودان ، هو أثر صغير من آثار حافظ ابراهيم، طواه الزمن ، فلم يلتفت إليه أحد ، إلى أن أعيد نشره أخيرا مع غيره من آثار الخمسين سنة الماضية ، كبيرها وصغيرها .

ولكن مهما ضوءلت قيمته الأدبية فهو دلالة من دلالات العصر ، لا يستطيع المؤرخ أن يغمض العين عنه ، وجزء من عقل حافظ إبراهيم ، وقطعة من أدبه لا تكمل معرفتنا به ، إلا بقراءاته والتأمل فيه .

* * *

وبعد فهذه صورة حافظ ابراهيم ، كما استطعت أن أراها . لم أرد أن أظلمه أو أتجنى عليه ، لم أرد أن أظلم التاريخ ولا أن أتجنى عليه ، فلم أبحث عن سقطاته وعيوبه ، ولم أغمض العين عن حسناته وأياديه وإن قسوت على الحكم عليه ، لما قد تورط فيه من مدح الإنجليز ، وإعلان حسن الظن فى احتلالهم ، فهذه قسوة عادلة منصفة فى رأى كل محب لوطنه ، ورأى كل من يقيم للخلق فى أبسط صورة ، وزنا . ولكن الوطنية على الرغم من كل شىء لم تدع حافظ ابراهيم ، ليفلت من يدها ، فالحقته بصفوفها ومحت شعره غير الوطنى ، وأذاعت شعره الوطنى ، وهكذا يغلب الخير على الشر وتعلو القوة على الضعف ، وتنتزع مصر أبناءها من أحضان أعدائها .

الفصل الثالث

ابراهيم عبد القادر المازنى

عرفت اسم المازنى ، وأنا بعد تلميذ فى المدارس الإبتدائية ، فقد كان زوج أختى ، من قراء جريدة الأخبار التى كان يصدرها أمين الرافعى ، وكان المازنى يكتب معه فيها ، ولكنى لم أقرأ له ولا لأمين الرافعى شيئاً فى ذلك الحين . ثم أخذ إلياس أنطون إلياس صاحب المطبعة العصرية يصدر كتباً لبعض كبار كتابنا ، فى طبعات أنيقة وجميلة ، وكان من بين ما أصدره ، كتاب « حصاد الهشيم » للمازنى ، فقرأته وأنا تلميذ فى مدرسة بنى سويف الثانوية ، فأحببته وواظبت على قراءته ثم وقع فى يدى كتاب رومان رولان ، عن المهاتما غاندى ، فبدأت أترجمه إلى العربية ، وأنشره فى جريدة السياسة تباعاً ، وقد أتاحت لى ترجمة هذه الفصول أن أتردد على جريدة السياسة ، كل ليلة تقريباً ، وأن أرى المازنى فى مكتبه القائم فى (حوش) جريدة السياسة على يمين الداخل من الباب الرئيسى للجريدة ، وكان مقرها آنذاك فى شارع الشوار بى ، وكان مكتب المازنى ، بسيطاً ولا أذكر أنى رأيت عنده اثنين يتكلمان معه ، أو يتبادلان الحديث سويا ، فقد كان مكتبا هادئا . كان صاحبه مشغولا بالكتابة غالبا ، وتريد الذاكرة أن توهمنى أنه كان يكتب بالقلم الرصاص ، وكان يكتفى بالتأشير على ما أقدمه له من مقالات أو بيانات ، ويرسلها فوراً إلى المطبعة ، بلا تعليق . والصورة الباقية له فى نفسى أنه كان يحسن الاستقبال ، بلا مبالغة فى الترحيب ، فلم يكن فاترا ، ولا متعاليا ، ولم يكن كذلك مقبلا على زائره ليستثير فيه الرغبة فى الكلام .

ولو حاولت أن أحصى العبارات التى سمعتها منه فى تلك الفترة التى طالت إلى سنتين أو ثلاثة ، لما زادت على أربعة أو خمسة ، ومن ذلك ، أننى قدمت

له يوما قصة بعنوان « ليلة فى تل أبيب » ، فقال وهو يؤشر عليها ، ويرسلها إلى المطبعة كعادته ، أفى هـذه القصة مدح فى اليهود ؟ « قلت أبدا ، هى قصة عاطفية » . قال «لا نريد مدحا فىاليهود، ولا فى نسائهم» وابتسم، وانصرفت.

دخلت عليه ، ذات ليلة ، وهو يطالع ، فى سيرة الشيخ محمد عبده ، التى ألفها تلميذه الشيخ رشيد رضا ، وكان يراجع فيها شيئا ، لأنه كان يكتب عن الثورة العرابية ، فنظر إلى وقال : « الشيخ محمد عبده كان عظيما » ثم تلا شيئا من الـكتاب ، يتضمن اعتراض الشيخ محمد عبده على ما انتهى إليه العرابيون من التطرف فى سياستهم ضد الخديو والأجانب . ولم أكن مشغولا آنذاك بالشيخ محمد عبده ، فلم أعلق على كلامه .

وفى يوم آخر كان النحاس باشا زعيم الوفد فى زيارة لمحمد محمود باشا زعيم الأحرار الدستوريين فى دار جريدة السياسة ، وكنت هناك فى هـذا اليوم ، فأدهشنى أن النحاس باشا قدم إلى هذه الزيارة ، فى غير جلبة، دون أن يصحبه الموكب المألوف من الأتباع ، وأنه دخل إلى الدار من غير أن يرتفع هتاف واحد بحياته ، وعبرت عن دهشتى للمازنى فقال ، وهو مزهو : طبعا . . لأنه لا محل للتهريج عندنا » .

ولـما ألف مسرحية « غريزة المرأة » ، اتهمه أحد النقاد بأنه أخذها من مسرحية (الشاردة) للـكاتب الإنجليزى جالسورذى فأخذ ينشر تباعا فصول مسرحيته ، مع فصول مسرحية جالسورذى فى جدولين متقابلين فى صحيفة واحدة ، ليتيسر للقراء أن يعقدوا مقارنة بين المسرحيتين ، وليحكموا بأنفسهم بما إذا كان للتهمة المنسوبة إليه أساس أم أنه برىء منها ، ولما دخلت إلى مكتبه فى تلك الآونة قال لى : ماذا أعمل . . لقد ترجمت لهم نص المسرحية الإنجليزية ليقرأوا ويحكموا . .

وكنت قد لاحظت أن هناك تشابها واضحا فى كثير من المواقف فى المسرحيتين،

بل أن بعض المعانى ، تــكاد تكون منقولة من المسرحية الإنجليزية ، ولـكنى لم أقل له شيئا ، فقد كنت أكره أن أجرح شعوره ، وكنت فى الوقت نفسه غير معنى كثيرا ، بالحملة عليه لأنى كنت آنذاك قليل الإهتمام بالمسرح ، ولـكنى أذكر أنى زرت العقاد أثناء اشتداد الحملة على المازنى ، وجاء ذكر تلك الحملة فى كلامنا ، فقلت للعقاد ، « إنى لاحظت تشابها بين بعض مشاهد مسرحية المازنى والمسرحية الإنجليزية ، ولـكن لا أظن أنها من الكثرة ، ولا من الأهمية بحيث يصح اتهامه بأنه سطا على عمل سواه ، وانتحله لنفسه » . فقال العقاد : هذا صحيح ، ولـكن ماذا كان على المازنى لو أنه استغنى عن هذا القليل الذى استعاره ، أن الأصل كان قادراً على أن يقوم بنفسه بغير حاجة إلى هذا الذى مكن لأعداء المازنى منه .. لـكن المسألة ، مسألة طبع ، فبعض الأغنياء ، لا يكتفون بما لديهم ، وبشوقهم أن يأخذوا ما عند سواهم ولو كان أقل مما عندهم »

وفى مقابلة ثالثة جاء ذكر المازنى أيضاً فقال العقاد : « لم يعد للمازنى هذه الأيام ، إلا هم واحد ، هو تصوير نفسه فى صورة معشوق الفتيات الصغيرات — الجميلات اللواتى يقعن فى غرامه بلا حساب »

ثم انتقل المازنى بعد ذلك إلى جريدة البلاغ ، وكثر ترددى عليها ، أنشر فيها بيانات اللجنة التحضيرية لمؤتمر الطلبة الشرقيين ، وقبل ذلك بيانات مشروع القرش ، ثم مقالات فى الأدب والاجتماع . ولم تتطور علاقتى به بعد ، فلم يتناول قط حديثا طويلا ، ولم يزد اختلاطى به ، وأذكر أنه رأى معى يوما ، كتابا باللغة الإنجليزية نشرته مكتبة Evryman's . وكان مكتوبا بالحرف الصغير ، فأخذه منى ، وتصفحه ، ثم رده إلى وهو يبتسم : « لا ياعم يفتح الله » وأضاف : « أنت شاب ، وطموح ، فلازم تصبر على قراءة كتاب بالحرف الذى يعذب العين . . . أما أنا فقد برئت من هذا كله » ورد إلىّ الـكتاب .

وأصدرت جريدة البلاغ عدداً خاصاً عن مشروع القرش ، وكان للمازنى مقال فيه ولكنه لم ينشر فى مكان لائق به تماماً ، وفى المساء ، والمطبعة تطبع هذا العدد الخاص ، أخذ عبد القادر حمزه صاحب البلاغ، نسخة من هذا العدد، وبسطها بين يديه ، ثم قال : المازنى ، لم يوضع فى مكانه . . . مكانه ليس هنا « إنه لم يأخذ ما يستحق » .

وفى أثناء إعداد مواد الجريدة ، جاء ذكر المازنى ، وذلك بمناسبة استعماله لفظة « فسح » بدلا من « أفسح » فقال عبد القادر حمزه لقد وقع نظرى على لفظة (فسح) فى مقال بهذا العدد . . ثم حاول أن يتذكر فى أى مقال ثم أسعفته الذاكرة فقال : فى مقال المازنى . . فى مقال المازنى » .

وأذكر فيما أذكره عن المازنى أنه تهيأت للسفر إلى تركيا مع صديق كمال الدين صلاح ، لندعو سوياً لمؤتمر الطلبة الشرقيين ، وأذيع أننا مسافران بالطربوش ، وكان كمال أتاتورك ، قد ألغى لبس الطربوش فى بلاده بالقانون ، وعاقب من يجرءون على العودة إليه بالحبس والغرامة . فلما رآنى المازنى عشية السفر قال لى : أصحيح أنك مسافر إلى استانبول وعلى رأسك طربوش ؟ قلت نعم ، فبدأ عليه الفزع والاشفاق وقال : لا . . . لا . لا تفعل ذلك ، فإن الأتراك لايعرفون المزاح . وارتداء الطربوش سيهيجهم عليك . والعقاب هناك على هذه الجريمة الإعدام ، وأنت مصرى وهم يكرهون المصريين » ولم أناقش المازنى يومذاك فيما قاله ، وسافرنا إلى تركيا بالطربوش ، وقابلنا بعض المسئولين والطربوش على رأسنا ، وسألنا محافظ استانبول ، وكان اسمه محيي الدين بك ، أيضايقه أن يستقبلنا ونحن نلبس الطربوش فقال : مطلقاً ... نحن لم نر فى الطربوش لباس رأس مناسباً لنا ، ولكن لا شأن لنا بالغير وهم أحرار فيما يلبسون » ولما عدت إلى مصر ، وكنت قد أرسلت مقالات إلى الصحف

المصرية عن رحلتنا ، منها مقال بعنوان « طربوش فى تركيا » لم يرد المازنى أن يعلق عليها بشىء .

وكتب المازنى سلسلة مقالات عن مسرحيات شوقى فى السياسة ، وكنت الاحظ أنه يضع فى رأس كل مقال اسم المسرحية التى ينقدها مصحوبة بعبارة «لصاحب العزة أحمد شوقى بك» فاستلفت ذلك نظرى إذ جرت العادة على تسمية شوقى ، بشوقى بك أو بأمير الشعراء ، أو بشوقى بلا لقب ولم يحرص أحد من الكتاب على ذكر لقبه الرسمى كاملا على هذه الصورة وقد افهمنى الأستاذ حسين شوقى نجل شوقى بك غرض المازنى من ذلك ، فقال لى « إن والدى يحمل مرتبة الميرمران ، وهى تعطيه الحق فى أن يلقب بصاحب السعادة وأن ينادى بالباشوية ، والمازنى يريد أن يكايده ، ووالدى تغيظه هذه المكايدة » .

ولما توفى شوقى ، رأيت المازنى ، فى اليوم التالى لوفاته فقال لى : والله كنت أحب أن أشيع جثمانه ولكنى خشيت أن يحمل ذلك منى على محمل الشماتة ، ولا شماتة فى الموت » .

على أن المقادير جعلتنى أكثر اتصالا بالمازنى بسبب أمر حميم يتعلق بنفسه وعاطفته ، فقد أصدرنا مجلة الصرخة الأسبوعية ، التى بدأنا بها نشاطنا السياسى والصحفى .

ورحت أتردد على كبار الكتّاب أطلب منهم أن يعينونا على إصدار هذه المجلة ، وكان من بين من قصدتهم لهذا الغرض الأستاذ المازنى ، فأعطانى للعدد الأول من مجلة الصرخة مقالا بعنوان « فاتح الأقفال » فرحت به ، لا لأنه أعجبنى ، ولا لأن عنوانه استوقفنى ، بل ، لأننى ظفرت بمقال لكاتب كبير كالمازنى ، وبلا مقابل ، ولم أكن أظن أن لهذا المقال سراً أعمق مما يوحى به عنوانه وموضوعه . ولو قرأت المقال ، وكنت على علم ولو قليلا بالظروف التى

أوحت به ، لا ستمتعت به كثيراً ، ولأدركت أنه وثيقة ذات أهمية كبيرة ، فى تاريخ حياة المازنى ، وفى تاريخ حياة الأدب المصرى كله .

ولكن هذا السر لم يلبث أن انكشف لى ، وعلى وجه جعلنى طرفا ـ على صورة من الصور بالقصة التى حكاها هذا المقال ، وبالواقعة التى صورها فيه. وببطلها ـ جاء فى هذا المقال :

« وأعنى أقفال النفوس لا أقفال الحديد ، وعلى كل نفس قفلها ، كما يعرف القراء ، وفى كل نفس زاوية محجوبة عن العيون . وقد خلق هذا الرجل فاتح الأقفال ، شغوفا باستطلاع الخفايا وكشف المحجوب وكلنا ذلك الرجل ، ولكن كل له أسلوبه الخاص ، وطريقته التى ينفرد بها دون خلق الله جميعاً ، فيما أعلم .

« وليس مما يعنيه أن يقف على سر لك تكبحه ، أو أن يستدرجك إلى البوح به ، ثم يذهب يستغل هذا الذى عرف من مكتوم أمرك ، كما يفعل البعض ، ويشترى مفكرة الصون والكتمان بالثمن الذى يفرضه فى كلامه . فما أعرف أنه من هذا الطراز ، وإنما همه أن يدرس نفسك ، ويعرف كيف تكون استجابتها للدواعى وتلقيها لما تجىء به الحياة ، ويعرض لها من الأحوال، وهو يخلق حولك الجو الذى يريده ، ويطلق عليك أصوات الهواتف ثم يقف ينظر ماذا يكون منك . . ولا يزال ينتقل بك من فصل إلى فصل ، ويحاورك ويداورك ، وتسايره أنت مرغماً جاداً . . ولا أحتاج أن أقول أن له ذكاء نادراً، وخيالا خصيباً ، وذاكرة قوية . ولقد عاشرته شهوراً طويلة كانت أحفل أوقات حياتى ببواعث الدهشة وأوفرها محصولا ، وأنضجها ثمرة »

ثم قال :

« وطريقته التى لا يكاد يلحقها التغيير ، أنه يجيئك برسالة من سيدة

لا وجود لها إلا فى خياله ، ولا حياة لها ولا تاريخ إلا ما يخترع هو ، فترد عليه شاكراً ، أو معتذرا ، أو غير ذلك وأنت فى الحالين معجب بأسلوب الرسالة وما يدل عليه ويشى به ، ثم ما أسرع ما تجد نفسك متورطاً فى رسائل متبادلة بينك وبين هذه السيدة أو الفتاة الخيالية .

« وقد فعل معى ذلك . . ومن آياته أن له خطين متميزين ، خطاً يكتب به رسائل هذه الفتاة الخيالية ، وخطاً يكتب به رسائله هو أمامى حين يحتاج أن يكتب شيئا ، وليس بين الخطين شبها فى الظاهر ، وإن كانت المشابهة لا تخفى عن النظر الفاحص » .

« وهو يحسن الكتابة باللغة العامية ، ويجىء فيها بأبدع ما قرأت ، ويعزو ذلك كله إلى مخلوقة خياله ، ولا يدعى لنفسه إلا أنه خادمها الأمين ، وغرس نعمتها المشكورة .

« هذا الرجل أعجوبة الأعاجيب عندى ، ولست أعرف تعليلا لهذا الولع منه بإيثار هذه الطريقة للاتصال بالناس أو المشهورين منهم ، ثم لا مكسب له من ذلك ، لأنه لا يطمع فى مال ، ولا يحاول أن يسلبك شيئا وكل ما يفيده — على قدر ما وسعنى أن أتبين — هو هذه المتعة التى يجدها فى تمثيل دوره ، ثم ضاق كلانا بصاحبه ، ومل هذا التمثيل الذى طال جدا ، فصرفته وأنا معجب به ، ساخط عليه ، مشتاقا أن يكون لى مثل ثروته من الذكاء . . »

وظاهر من هذا المقال أن المازنى يتحدث عن شخص ، نجح فى ايهامه بأنه تابع سيدة جميلة ، وأنه حمل له من هذه السيدة التى لا وجود لها إلا فى خيال هذا الشخص ، رسائل ، ألهمت المازنى وهاجت عواطفه ، فتدفق إنتاجه ، بفضل هذا الحب ، الذى صنع جوه ، وهيأ بواعثه ، هذا الإنسان — الذكى الماكر ، ولم يكد المازنى ينشر هـذا المقال فى جريدة الصرخة ، حتى زارنى شخص بمقر

الجريدة يوحى مظهره بأنه قادم من الريف ، وأنه قليل الحظ من التعليم والثقافة معاً ، حتى ليظن رائيه ومحدثه ، أنه لا يحسن من الكتابة ، سوى خط اسمه ، وقال لى أنه بطل الواقعة التى أشار إليها المازنى فى مقاله المعنون « فاتح الأقفال » واضطررت إلى إعادة قراءة ذلك المقال ، وفهمت ما فيه ، تفصيلاً بعد أن كنت قد أحطت بمجمل معناه ، ولم يكتف هذا الزائر بما قال ، إذ عززه فى التو ، بمجموعة من الخطابات ، كلها بخط المازنى الذى أعرفه ، مرسلة منه ، إلى سيدة اسمها «فاخرة هانم» .

وتناولت هذه الرسائل باهتمام عظيم ، وقرأتها بشغف أعظم ، ورأيت كيف فرح المازنى بهذه المحبة العاشقة ، فراح يبثها لواعج حبه ، ويطلعها على هواجس قلبه ، بأسلوب ، وعلى صورة ، أثارت اشفاقى على المازنى ، وغيظى فى الوقت نفسه من عبد الحميد رضا ، الذى خدع الكاتب الكبير هذه الخديعة المتقنة .

وقد بدأت هذه القصة ، بخطاب ، حمله عبد الحميد رضا إلى المازنى فى سنة ١٩٣٢ ، وفى أعقاب تأليف المازنى مسرحية غريزة المرأة ، التى اتهم المازنى بأنه سرقها من جولسور ذى ، ونص هذا الخطاب :

« سيدى الكريم

« أحييك تحية القلوب الرفيعة يسودها الحياء والوفاء ، وأبعث إليك من أعماق نفسى بآيات الإعجاب بأدبك العالى وثقافتك السامية ، وبعد فلقد شهدت رواية غريزة المرأة ، وأن أعجب لشىء فعجبى من أن أحكم لها بالجمال وهى ناطقة به .

« ومن الغريب أنى أنا أيضاً ، كتبت رواية فى هذا المعنى لم أنشرها على الناس ، وقد تتفق مع روايتك من جهة المحاكم الشرعية ، ولعلك

تأذن بنسخة من روايتك وبعض نسخ من كتبك آنس بها فى تربية ملكة الأدب الذى أتعشقه ، فهل تأذن ؟

« أرجو أن تبعث لى بشىء من آثارك مع تابعى — وقد يكون كتابى هذا ركيكا ، وغير معبر تماماً عن الإعجاب الذى ملك على نفسى ، وأخذ بتلابيب قلبى ، وقد يكون لى خيراً ، يوم أن نتعرف أجساداً .

وأرجو أن أوفق إلى ما يتناسب وقدرك السامى « فاخرة » .

وقد تسلم المازنى هذه الرسالة ، وهو فى بيته ، الذى كان قائماً على طرف مدينة القاهرة ، عند صحراء الإمام الشافعى حيث المقابر وكان مريضاً ، فرد على هذه الرسالة ، بخطاب كتبه بالقلم الرصاص وقال فى هذا الخطاب :

« سيدتى الفاضلة

تحياتى إليك وشكرى على رسالتك الرقيقة الكريمة ، واعتذارى عن الكتابة إليك بالقلم الرصاص ، فأنى أولا مريض ، وثانياً ، ليس فى بيتى حبر . .

« وثقى ياسيدتى أنى أقدر نبل الإحساس الذى دفعك الى كتابة هذه الرسالة ، ولولا أنى مريض متعب ، ويدى ترتعش قليلا من الضعف لحاولت أن أوفيها حقها من الشكر .

ثم قال :

« ولقد شوقتنى الى روايتك ، ولكنى لا أجرؤ أن أطمع فى الإطلاع عليها قبل نشرها . . . إلا إذا شئت أن تغمرينى بفضلك .

« كلا . . ليس فى رسالتك ركاكة ، بل هى سليمة جداً ، ومن أرق ما عرفت من أساليب الرسائل النسوية . . أنها أرقى من رسالتى هذه مثلا . .

« وسلامى إليك وتحياتى ، وشكرى الجزيل ، وأسفى الشديد » .

ولعل المازنى ، قد تصور ، بعد أن قرأ هذه الرسالة ، أن أسبابه ستتصل بأسباب هذه الكاتبة الجميلة ، التى تخطت الحدود التى كانت مفروضة ومرسومة بين عالمى المرأة والرجل فى تلك الأيام ، والتى لم تكن تأذن بأن تخاطب الآنسة أو المرأة المصرية رجلا أيا كان مقامه ، وتبدأ هى بخطب وده ، والتعبير عن اعجابها به . ولذلك انتظر أن تأتى الأيام بما يحقق هذا الأمل سريعاً ، وأن ينعم بسعادة لم يسع لها ، ولم يحلم بها . وقد كانت هذه نقطة الضعف التى استطاع (فاتح الأقفال) أن يستغلها ، وأن يجر بفضلها المازنى وراءه زمناً . وجاء تابع فاخرة هانم إلى المازنى ، فأعطاه المازنى ، نسخاً من مؤلفاته التى طلبتها سيدته والتى لم تكن فى بيته ، ثم جاء التابع ، بعد أيام بخطاب جديد منها ، تشكره فيه على هديته ، وتعبر عن أملها فى أن تراه ، واشتعلت عاطفة المازنى وخياله معا ، فأرسل إليها مع تابعها خطابا يقول فيه :

« لا أدرى كيف أشكر لك هذا العطف الجميل . والإحساس النبيل الذى طوقت بهما عنقى . ولكن الذى أدريه أن القلب الذى يخفق بكل هذا العطف ، لابد أن يكون صاحبه كريما ، واسع الصدر عظيم المغفرة ، هذا ما أعول عليه ، وأعتمد . وإلا فقد ضعت والله . ومن أين أجىء باللسان القادر إذا كان لدى القلب الشاكر »

« على أنى أرجو أن يتيح لى حسن الحظ فرصة أشكرك فيها بلسانى ، وأرجو أن أكون يومئذ موفقا وقد فكرت الآن أن أعد كلاما ولكنى أعلم أن مثل هذا الكلام المحضر يطير ولا يبقى منه حرف واحد وخير الكلام ماخرج من القلب إلى القلب » .

وصدق المازنى أن السيدة التى تراسله ، هى كاتبة ، وأنها وضعت مسرحية ، فقال لها :

« ولكنى أرجو حقيقة أن تسمح له بالاطلاع على روايتك — وعسى أن يكون ذلك قريبا وقد شرعت فى رواية أخرى سأسميها « لولو » ، ولكنى لا أزال فى فاتحتها فلعلك ياسيدتى لا تنسى أن تدعى الله أن يوفقنى ، فقد سمع منك إذا لم يسمع منى ، فما أظنك إلا أقرب إليه جدا من كاتب هذه السطور » .

ولما كان المازنى ، قد أرسل إلى فاخرة مسرحية « غريزة المرأة » ، فقد وجب عليها أن تكتب له لتبدى رأيها فيها ، وقد أرسلت إليه بالفعل رسالة موجزة قالت له فيها :

« أشكرك جم الشكر باعتبارى فتاة على هذا البحث السيكولوجى الفذ الذى كتبته فى روايتك (غريزة المرأة) وهى كما أراها قطعة من الحياة المصرية الحقة. وقد أذكرتنى بشكسبير . ورواياته البديعة. وطبعه الهادىء ـ الحكيم فى معالجة الحياة الإنسانية . لايثور . وإن كانت الثورة فى الفكرة .

« معذرة فإنى لم أكتب من قبل لأحد من الرجال لاصلة لأسرتى به ، وأنت أديب تحس هذا بطبعك . على أنى كتبت رأيى فى روايتك وأعطيته لتابعى . ليقرأه لك إن استطاع . فإن لم يستطع فاقرأه ورده إلىّ ..

« معذرة . وأكرر شكرى مرة أخرى .. وأسفى لإزعاجك »

والحق أن المازنى لمعذور. إن هو فرح بهذه الخطابات .التى تملقت كبرياءه تملقا كاد يسكره . ففى تلك الأيام . كان سطراً من امرأة جديرا بأن يلهب خيال أى رجل . فإذا كان هذا الرجل كاتبا . كان أثر ذلك أعمق . لأن رجال الأدب والفكر فى بلادنا . لايجدون مايجده زملاؤهم فى أوروبا وأمريكا ، من ضروب التشجيع والحفاوة من الرجال والنساء . فقل أن تصل إلى كاتب عندنا ، رسالة من قارىء أو قارئة ، تتضمن تمجيدا لمقال كتبه ، أو لكتاب أصدره ، بينما يتلقى صغار الكتاب ، فضلا عن الكبار ، فى أوروبا عشرات من الرسائل ، تحيى وتشجع ، وتسأل وتستفسر ، وأحيانا تنقد وتوبخ .

وقد بدأ الشك يتسرب إلى نفس المازنى ، لأن عبارة الرسالة السابقة ، أعلى من مستوى فتياتنا ، لذلك أخذ يستفسر من عبد الحميد عن ثقافتها وصلاتها ، ومن يتردد على بيتها من يترددن . وقد كانت كل الظروف ترجح أن هذه الرسائل ، من قلم شاب لاشابة . ولكن إذا سلم المازنى بهذه الفكرة فقد أضاع على نفسه خيالا جميلا . لذلك نفى هذه الفكرة بشدة ، واكتفى بمجرد تسجيل شكه حتى لايتهم إذا ما اتضح فى المستقبل أن الأمر كله خديعة ومعابثة ، بأنه استغفل فقال فى الخطاب التالى الذى سلمه لعبد الحميد رضا :

« أظن أنك حيرتنى إلى حد — لا تضحكى من فضلك — إلى حد أنى بدأت أظن أن الذى يراسلنى ليست آنسة ذكية القلب ، نافذة البصيرة ، بل هو شاب داهية ، يكاتبنى باسم آنسة ليتفكه بى ويسخر منى ..

« فما رأيك فى هذا الخاطر ، أعترف لك أنه خاطر جرى ببالى من أول يوم ، وهذا هو السبب فى التحرز الشديد الذى بدا منى فى رسالتى الأولى — على الأقل — ولكنى تساهلت مع نفسى . وأرسلتها على سجيتها إلى حد محدود ، فهل تدرين السبب فى نشوء خاطر كهذا فى رأسى ؟

« السبب أنى كنت — وما أزال — أعتقد أنه ليس فى هذه الدنيا امرأة يمكن فى أية حال من الأحوال أن يعجبها ابراهيم المازنى ، ولست أقول ذلك تواضعا أو على سبيل المزاح ، ولكنى أقوله لأنه عقيدة راسخة مخامرة لنفسى مع الأسف ، وقد كانت النتيجة إنى تحاشيت أن أحاول التحبب إلى أية امرأة ، ولو كانت روحى ستزهق من فرط حبى لها . وذلك أنى أخشى أن أتلقى صدمة فتكون النتيجة أن تجرح نفسى . وقد أعذبها معى ..

لا أدرى كيف يكون رأيك فى رجل هذه حالته النفسية بلا مبالغة ، وإنى أقسم لك بكل مايحلف به الأبرار أنى لست كاذبا ولا متخيلا ، أنها حالة شاذة .. ولكن ما حيلتى ، وأنا أخسر بسببها كثيرا مما يفوز به الرجال » .

واسترسل المازنى فى التنفيس عن هذا الشعور الذى يعذبه . شعوره بالضعف والنقص أمام النساء ولاشك أنه كان يجد الراحة فى التعبير عن هذا الشعور ، لأنه كان يتوقع أن يكون صدى مثل هذا الاعتراف استنكار هـذا الرأى ، والثناء على المازنى، واستحقاقه للإعجاب والحب، فضلا عن أن الذين يكون مزاجهم كمزاج المازنى، يشعرون بالسرور واللذة حين يبالغون فى الحط من شأن نفوسهم لأنهم فى حقيقة الأمر وفى أعماق نفوسهم، واثقون أنهم على شىء من القدره والقيمة، ولأنهم يجدون فى الحط من أقدارهم، وسيلة من وسائل الانتقام من الناس ومن المجتمع الذى لم يمكنهم من الوصول إلى كل ما كانوا يطمعون فيه.

وقد كرر المازنى المعنى ذاته فى القسم الثانى من خطابه فقال :

« لقد قلت مرة لصاحبة اجتمعت بها على ظهر السفينة :

— ياسيدتى أنت جميلة .. وحرام أن تلقى بجمالك بين يدى حمار مثلى ، لا يعجبه إلا البرسيم، هى مرارة نفس تطفح أحيانا وتقطر من اللسان أو من القلم، ولـكنى ربما كنت معذورا ، ولعلى أسـعد فى حياتى لو عشت فى كهف بعيدا عن الناس .

أى .. نعم، ولقد حاولت هذا مرة فقضيت بضعة أسابيع فى جبل المقطم، على أثر صدمة قوية تلقيتها من يد القدر ، وكنت أشرب الماء من حفنتى من كفى . وآكل من شبه ماجور من الطين، فهل تصدقين . وقد نفعنى ذلك فعدت إلى الحياة بعزم جديد ، ونشاط كان مفقوداً » ولـكن هذا الزاهد فى الحياة الذى لم يتحبب قط إلى امرأة ، ينهى خطابه بقوله :

« فهل صح عزمك على أن تتفرجى على هذا الجاهل الغبى . وتريه بعينك؟ أم عدلت ياترى ؟ أرجو أن يكون عزمك مستمرا » .

فالمازنى أخذ يلح فى أن يرى محبوبته وهو الذى يقول أنه لم يتحبب لامرأة

قط ، وأنه سيء الظن فى نفسه ، مع أن صلته بهذه الفتاة أو السيدة ، لم يكن قد انقضى على ميلادها إلا أيام ، ولم يكن قد تسلم منها رسالة أو رسالتين ، وكان الأليق به أن يؤجل ما استطاع رؤيتها ، وأن يكون لقاؤهما كالقدر الذى يفر منه الإنسان لا الذى يستعجله ، مادامت ثقته بنفسه أمام النساء إلى هذا الحد الذى يزعجه ويؤرق حياته . وقد أدرك عبد الحميد رضا ، أنه قادر على أن يذهب بالمازنى إلى أى مكان ، وهو لم يضيع هذه الفرصة التى كسب منها الأدب كثيرا ، فقد بدأ يخايله بهذا اللقاء ، ثم طلب منه صورة من صوره لسيدته ، فأرسلها فى الحال ، وهو يقول لها أنها صورة قديمة ، ولذلك تعد مزورة ، ولما سألته أيقبل أن تكون ملهمته ، فانطلق فى سذاجة يقول :

« وأنت تسأليني ، هل أحب أن تكون لى وحياً .. سلى النحل ، هل يحب أن يشتار عسله من أكمام الزهر ، وسلى الورود هل تحن إلى سارى الطل يهبط عليها مع الفجر ، ويردها ندية رفافة » .

ولما قالت له — كما كان لابد أن يحدث — أن صورته جميلة قال :

« صورتى جميلة .. يالله .. ! . أفهم بالطبع أن المقصود أنك ترين فى الوجه معنى يروق لك ، معنى مؤلفا من فكرة مكونة فى رأسك البديع الإنتاج ، مما قرأته لى ، ومما استخلصته وأضفته من روحك الفياضة ، ولكنه معنى ولاشك : قد زال الآن ولم يبق منه أثر فى وجهى الحاضر ، فقد نضب معين روحى ، وجفت نفسى ، ولم يبق فى وجهى إلا اصفرار الذبول ؟ » .

ثم عاد يلح عليها فى أن تراه :

« الحمد لله الذى أرضاك عنى .. كانت لى أمنية أن أراك اليوم ، ولكنك شئت غير ذلك ، والأمر لك بالطبع ، ولابد أن يجىء يوم تضفين فيه فضلا إلى أفضالك ، فلأنتظر فيض جودك وإحسانك ، فإنى أعلم أنه غمر كالبحر فإن هذا المعنى يعجبنى ألا يعجبك ؟

« حقيقة رسالتك خير ما قرأت فى اللغتين العربية والإنجليزية ، منذ شهور ولست أجامل ولكنى صادق غير مراء » .

ولكن عاطفته كانت قد فاضت، فختم رسالته بقوله :

« إجلالى وحبى وأشواقى لك يا فاخرة » ووضع إلى جانب إسمها « فاخرة » أربع علامات × باعتبار أن كل علامة من هذه تساوى قبلة ، وهو أمر يفعله صغار الشبان فى مطالع سنى المراهقة .

وأحس عبد الحميد بأن المازنى فريسة لا حول لها، فذهب يعبث به عبثاً لا رحمة فيه، فانتهز فرصة خلو مكتب المازنى فى جريدة السياسة الأسبوعية منه ، فأسرع ومعه صورة لإمرأة جميلة ، مما يباع فى المكتبات الأجنبية لممثلات أو لغيرهن من النساء الجميلات، ووضع هذه الصورة فى مظروف مع خطاب ، تقول فيه فاخرة أنها جاءت لتراه منتهزة فرصة سمحت بها الظروف فلم تجده، فأين ذهب؟ أذهب ليسكر ؟

وجن جنون المازنى ، فقد رأى أن حبيبته ، امرأة على قدر عظيم من الجمال، فوق ما تصور وما ذهب إليه خياله ، ثم رأى فوق ذلك أنها سعت إليه ، وأنه كانت فى متناول يده ، فانطلق يقول فى خطاب كتبه وسلمه لعبد الحميد :

« يا فاخرة ، يا فاخرة ، أنك مسئولة عنى، مسئولة أمام الله وأمام ضميرك، وأمامى ، عن مصيرى وعن جنونى ، وعن التياعى وخبلى .

« لا عذر لك بعد أن أوقدت فى صدرى هذه النار ، وأشعلتها حامية مزغردة ، وأصعدت لهيبها إلى يا فوخى . . إلى شعر رأسى »

« لا عذر لك إذا أنت جنحت إلى الصد ، وملت إلى اهمالى وأطراحى ، نعم فقد صرت أحس بأن قلبى مزدحم بحبك ، كما ازدحم رأسك بهذا الشعر الذهبى الساحر ، فماذا تنوين أن تصنعى بى ؟

« لست أسألك شيئا إلا الرحمة . . . إلا الترفق بفؤاد مصدوع ومهجة مكلومة ، وكبد جريحة » .

ثم قال :

« أن إلى جانبى عبد الحميد أفندى وأنا أكتب ، وقد كان ينظر لى وأنا اتأمل صورتك ولكنه لم ير شيئا . . لأن مصيبتى أن أعمق إحساس لا يبدو على وجهى ، ولأنى مضطر أن أكتم ما فى نفسى وأخفيه إلا عنك أنت » .

ثم راح يندب حظه لأنها جاءت إلى مكتبه ولم تجده . ثم قال كلاما يستحق أن نسجله لأنه يصور حالته بشىء مما وقع له فعلا أثناء شعوره بالألم لحرمانه من رؤيته :

« ومن قسوة الحياة على أنى وأنا أكتب إليك حضر إلى مكتبى هيكل بك وجلس يشرب الويسكى معى . . ولا بد أن أضحك وأمزح ، وأتكلم كلاما فارغا ، وأمازح هذا وألاطف ذاك ، وانكت على السجن والنيابة التى « ستحقق معى ومع دولة محمد محمود باشا ، غدا بعد الظهر . . كل هذا وأنا أكتب إليك . . فبالله كيف أكتب . . ألست مسكينا يافاخرة . . اعترفى أنى مسكين ، وأنى محتاج إليك ، وأنى معذور إذا جننت . ولكنى سأحتفظ ببقية عقلى من أجلك » .

« فاخرة .. لقد اعترفت لك وكشفت عن قلبى ، فهل تغفرين لى هذه الجرأة ؟ سامحينى فإن عقلى ليس معى . . عقلى مع الصورة التى أعيدها إليك ، وقلبى يتمزق ، أعيدها ولا أجرؤ حتى أن أتزود منها بنظرة » .

وكانت قد اشترطت ، أو اشترط تابعها عبد الحميد رضا ، فى الخطاب الذى أرسلت معه الصورة أن يعيدها إليها بعد أن يلقى عليها نظرة ، ولذلك فقد ختم خطابه بقوله :

« ولى رجاء « صغير » أعيدى إلى الصورة مع كل رسالة منك لأنظر فيها وأتزود منها ثم أعيدها، اذا كنت لاتريدين أن تبقيها عندى . . دعى عبدالحميد أفندى يجىء بها لأراها ثم أرجعها إليك ، فإنى محتاج الى النظر إليها ، إلى التملى بها .

« آه . . . لوكانت غرفتى خالية ، إذن لقبلت الصورة ، ولـكننى أخشى أن أفسدها وأفسد ألوانها ، فلابد من الحرمان ، ولا مفر من الصبر » .

وأخطأ عبد الحميد، إذ أرسل — على لسان فاخرة هانم — كلاما أستشهدت فيه فاخرة بأبيات شعر لشوقى ، لتنوب عنها هذه الأبيات فى وصف ما تعانيه وتكابده من لواعج الشوق، فثارت ثائرة المازنى ، لأنه كان يكره شعر شوقى، فراح شوقى يطارده ، حتى وهو ينعم بلذائذ الحب ، ويكشف عن مكنونات قلبه فقال المازنى :

« ارحمينى يرحمك الله ، فلست كفئاً لاحتمال هذه اللغة . . وأقول جاداً أنك كنت ماهرة جداً فى حكاية ذلك الأسلوب المتكلف الذى ليس أبغض إلى نفسى منه وقد كنت فضلا عن ذلك موفقة — فى مكايدتى باقتباس هذه الأبيات من شعر ذلك الرجل الذى يسمونه « أمير الشعراء » . تصورى رجلا لا يحسن أن يقول شعراً إلا إذا كان على غرار شعر سابق ، فكل كلامه حكاية وتقليد ، وليس فى قوله ذرة واحدة من الإخلاص وصدق السريرة . ولا فى نظره شىء من النفاذ ، إلى الأعمال والسرائر ، وهذه الأبيات وحدها تريك ما أعنى ، وهى مثال بارز لما يسخطنى من شعر المقلدين ونظم الببغاوات .

« لم يقل شوقى هذه القصيدة بدافع من نفسه ، ولا لأنه يحس أن فى صدره عاطفة تطلب متنفساً أو فكرة تسكظ ذهنه وتلح عليه فى العبارة عنها . . كلا

وإنما قالها لأنه قرأ قصيدة قديمة أعجبه وزنها وراقته الدقة المتلاحقة فى موسيقاها — إن صح أن تسمى هذه موسيقى — والتوقيع العنيف فى خطوها ، فأراد أن يقلدها وراح يتعلق بمظاهر لا تدل على شىء إلا الضعف وعدم الصلاح لمهمة الحياة ، وقلة الكفاءة بفرائضها وواجباتها » .

وكان مطلع هذه الأبيات : مضناك جفاه مرقده .

ولم ترد فاخرة على هذا الخطاب ، لأنها أو تابعها على الأصح ، رأى نفسه فى مأزق ، فقد ألفى نفسه فى مواجهة مشكلة أدبية لا يعرف لها رأساً من ذنب ، فالشائع على ألسنة الناس ، أن شوقى هو أمير الشعراء ، والاستشهاد بشىء من شعره ، يدل على ثقافة المستشهد وتأدبه ، فإذا هـذا الذى ظنته فاخرة ، أو تابعها على الأصح دليلا على العلم والثقافة ، جريمة فماذا تفعل ؟ آثرت الهرب ولما ظهر عبد الحميد ، بعد فترة ، لأنه صعب عليه الانقطاع عن تعذيب هـذه الفريسة السهلة ، ساق سبباً سخيفاً ، وهو أن فاخره كفت عن الكتابة إليه تقديراً منها لكثرة شواغله . كأن المازنى قد أصبح صحفياً بعد خطابه الأخير إليها . ولكن المازنى الذى أفزعه أن تنقطع رسائل فاخره عنه تشبث بهذا العذر وفرح وقال :

« أنا محتج ، محتج جداً ، وأنى لم أعلم أن الباعث لك على عدم الكتابة إلا يوم الأحد هو الاشفاق علىَّ وعدم رغبتك فيما تعتقدين أنه إتعاب لى ، ولكن عليك أن تبينى لى ماذا أصنع بنفسى كل هذا الزمن حتى يوم الأحد .. (الذى وعدت بأن تكتبى له فيه) .

« أرجو أن تعدلى عن قرارك ، فإن فيه من القسوة مالا أظنك تعنينه ؛ إلا إذا كنت تريدين أن تمتحنى صبرى واعترف بأن لاصبر لى على هذا ؛ فاصنعى معروفاً لخادمك المطيع ، واعدلى عن القرار » .

واستمر عبد الحميد فى استغلال ضعف المازنى ، فدعاه إلى السفر إلى الريف، لزيارة فاخرة وأمها فى قصر لهما بناحية ميت غمر ، وصدق المازنى ، وسافر ، وأشار عبد الحميد ، وهما فى القطار ، إلى قصر ، تحيط به الحقول ، وزعم أن هذا القصر الفاخر ، هو قصر فاخرة ، ولم يصعب عليه — كالعادة — انتحال عذر لكيلا تتم المقابلة الموعود بها ، وتألم المازنى — كالعادة أيضاً — ولكنه لم يشك فى هذا العبث ولم يشك منه ، فلم يوضع له حد ، إلا حينما قفزت فاخرة من مواعيد المقابلة التى لا تتم إلى اقتراح الزواج من المازنى هكذا مباشرة ، بدعوى أن والدتها، لاحظت أن عبد الحميد ، يروح بينها وبين المازنى ويغدو ، بخطابات يتبادلها الطرفان ، ولما كانت والدة فاخرة تركية ، وحفيدة مدحت باشا بطل الدستور العثمانى فى تركيا ، فهى لا تفهم لعلاقة تقوم بين رجل وامرأة — خصوصاً إذا كانت المرأة ابنتها — خاتمة إلا بالزواج . لذلك لم تر فاخرة بداً من اقتراح الزواج على أن يطلق زوجته أم أولاده ، فبدا المازنى على طبيته فقد أزعجه هذا الاقتراح وكان جديراً بأن يفرحه مادام حبه قد برح به على هذه الصورة فقال :

« وأقسم لك أن هذا الحديث ، قد أثر فى قلبى فأضعفه ، وسبب له اضطراباً ، أرجو أن تكون عاقبته سليمة ، مجرد اقتراح التطليق ، كان وحده كافياً لذلك ... وأولادى من يشرف على تربيتهم ؟ وقد قال تابعك ألا يمكن أن يوكل ذلك لأخيك فثرت .

« أولادى ألقى بهم إلى أخى يربيهم وأنا على قيد الحياة أنعم بالحب والسعادة ... أولادى (ألقحهم) على الناس . ولا أبالى كيف ينشئون ولا كيف يبيتون ، ولا ماذا يطعمون ، ولا كيف يعاملون . أيكون رجلا جديراً بأى منزلة من منازل الاحترام والكرامة من يطلب منه مثل هذا ؟ ولو كان

هذا الـكلام لغير أبيهم لما كان فيه شيء ، ولـكنه كلام قيل لوالد ، والوالد يعيش بأعصابه وإحساسه وضميره ، ولرجل لو كان يعرف كيف يمد يده لـكان اليوم غنياً موسراً ، لا يخشى على أبنائه الفاقه ، ولا يحمل همهم بعد موته ..

« واعترف لك أن هذه الأحاديث (أحاديث الزوجة والأولاد) أزعجتنى جداً ، ومزقت أعصابى وأتلفت قلبى ، ونبهتنى إلى مستقبل أولادى ، والحقيقة أنى قصرت إلى الآن فى حقهم ، ولـكن لن أقصر بعد اليوم ، سآكل عيشاً وملحاً ، وأحمد الله عليهما ، وأدخر لهؤلاء الأطفال المساكين الذين ليس لهم بعد الله سواى ، وكم يعيش قلبى فى هذه الدنيا ؟ لا يطول عمر أمثالى ، لأنى كالزوبعة « والزوابع قصيرة العمر » .. لقد صرت بعد هذا الحديث ، إذا داعبت أطفالى أو نظرت إليهم ، وهم يلعبون ، أحس باختناق فى حلقى ، وبالدمع يكاد ينحدر من عينى فأرده بجهد .

« ثم إنك شابة فى العشرين من عمرك وأنا كهل فى الحادية والأربعين وبضع أشهر أيضاً ، أى أن عمرى ضعف عمرك ، أفليس من واجبى حين أحدث نفسى أن أتساءل عن مبلغ استحقاقى لحبك ، وعن التبعات التى أحملها بإزاء نفسى وبازائك يافاخرة ، وبإزاء أولادى وزوجتى .

« فـكرى معى فى هذا ، ولا تسأليني عما أعنى ، فإن ما أعنيه واضح ، وأنا يافاخرة لست حيواناً ، معذرة ، أنا إنسان ، يحس ويدرك ، ويتألم ويستعذب الألم مادام يسعد غيره ، نفسى لا تهمنى .. إنما يهمنى أن لا أكون حيواناً ، ولا مخادعاً ، لهذا رجوت ورجوت أن تقابلينى ، وأنت نفسك كيف تريدين هذا لنتكلم بطريقة جدية ولنتفاهم .. ولـكن هكذا الدنيا .. للثقل بالهموم يحط عليه الدهر كل مايستطيع أن يحط عليه . لا بأس فقد تعودت أن تحط الأيام

على كاهلى ما شاءت ، لقد خلقنى الله منحوساً سيىء الحظ ، فلأبق منحوساً سيىء الحظ » .

« وهكذا تحولت هـذه المعابثة إلى فاجعة ، بكل ما فى الفاجعة من ألم وعبوس، فرجل فى الأربعين يرى نفسه أمام شابة فى العشرين، جميلة وغنية،وهى التى تسعى إليه ، وتعرض نفسها عليه ، وتدعوه إلى الزواج منها . ورأى نفسه أمام هذا الإغراء الشديد ، مدفوعاً إلى خيانة زوجته وأولاده . فينسى الحب والزواج ، ويتكلم كرب أسرة ، وكأنما يترافع عن نفسه أمام محكمة ، وأكثر مايستعطف به المتهم القاضى ، زوجته وأولاده .. إلى من أتركهم ؟ ما ذنبهم ؟ ويتذكر فى هذا الموقف الممض فقره وفقرهم ، ورغبته فى أن يسعدهم ، وعجزه عن أن يحقق هـذه الغاية . ويبدو المازنى فى هذا كله ، كأنبل وأطيب ما يكون الإنسان .

فقد كان فى وحشة مطبقة ، وقد تشبث بأذيال هذا الحب الموهوم ، لا عن رغبة جسدية ، ولا عن غفلة ، ولا حتى عن ضعف عاطفى ، وإنما — كما كررت — عن حاجة نفسية ووجدانية ، مبعثها ثقافته ، وجدب الوسط الذى يعيش فيه الكاتب فى بلادنا : وسط خال من أية نبضة من نبضات العطف والفهم والمشاركة فالكاتب كان يكتب فى بلادنا ، وهو لا يرى وجه إمرأة ، ولا يسمع صوت المرأة ، ولا يصل إليه خطاب واحد من معجب — دع عنك معجبه — أو حتى من ناقد .. صحراء قاحلة ، يسودها الصمت ، ويرين عليها الجمود .

كان المازنى فى حاجة إلى من يؤنسه .. فوجد كل ما لم يخطر على باله فى خطابات هذه الفتاة الجميلة ، ورآها تكتب ، وتتحدث فى الأدب وتحاول أن تنشىء قصة ، ثم هى تعجب به ، وتحبه ، وترسل إليه صورتها . . فأنساه ذلك كل ما يتصل بهـذه الخطابات من أمور ، تتجاوز المعقول ، وتدعو إلى

التريث .. ولـكنه حينما رأى نفسه مدفوعاً إلى ما يحرج ضميره، ضحى بهذا كله، وذكر زوجته وأولاده ، وهى فى معرض مطارحة الهوى ، ومغازلة الحبيب .

فرغت من قراءة هذه الرسائل ، فـكدت أطير فرحاً بها ، فلما اقترح على « عبد الحميد رضا » أن أكلم المازنى فى نشرها فى كتاب ، يقـدم لها بمقدمة ، لم أتردد فى أن أطلب المازنى فى التليفون ، لألقى إليه بالاقتراح جملة واحدة ، وبلا مقدمات ، فما كدت أبدأ أول حرف فى الاقتراح ، حتى أدرك الغاية من الـكلام فانفجر غاضباً ، وقال وهو يهدد ويرعد : « مافيش غير النيابة . . حكام النائب العمومى الوقت . . الوقت حالا » ورددت السماعة إلى مكانها وقد خيل إلى أنها تنتفض انتفاضاً .

* * *

لقد أتاحت لنا قصة فاخرة أن نطل إلى نفس المازنى مباشرة من نافذة متسعة رحيبة فحسبنا هذا القدر الآن من النظر إلى الجانب الشخصى ، ولننتقل إلى جانب موضوعى من شخصية كاتبنا الـكبير .

ماذا قدم المازنى للأدب المصرى ، وما دوره ومكانته .

الأمر الذى لا شك فيه ولا جدال ، أن المازنى ، أبرع كتاب الصف الأول من القرن العشرين ، فى مصر وفى البلاد العربية ، فى السخرية من الدنيا والناس بما فيهم نفسه هو ، بل وفى مقدمتهم نفسه هو .

والساخرون أنواع ، فمنهم الساخر المرور ، الذى تنضح سخريته حقداً على الناس ، وكرهاً لهم ، ورغبة فى تسوىء نظرتهم إلى الوجود ، ونفض يدهم من الحياة ، لأنه هو لم يظفر بالنجاح أو بالصحة أو بالسعادة .ومنهم من يسخر بالناس، ويهزأ بما يقولون وما يفعلون لأنه يرى العيوب ، ويعمى عن الحسنات، ولـكنه فى هـذه السخرية ، يريد الـكمال ، ويصبو إليه ، وإن كان يراه بعيداً

وشاقاً ، وأن النفس الإنسانيـة لا تقوى على السير نحوه، ولا مواصلة الجهاد فى سبيله .

ومنهم من يسخر من الناس، وبالحياة ، لأنه يرى الحياة ، عبثاً لا طائل تحته وإن الناس حسنوا أو فسدوا ، لا يستطيعون أن يقوموا إعوجاجها ، أو يستخرجوا المعقول من سخفها وجنونهـا ، فهم فيما يحاولون وفيما يقولون ، جديرون بالضحك منهم ، والهزء بهم ، وغير جديرين بالمناقشة ، لأنهم أدوات فى يد قوة هائلة لا يفهم لهـا هدف ، ولا يعرف لسيرها منطق ، وهى تبدو قاسية مدمرة ، هوجاء ، أكثر مما تبدو نافعة أو رحيمة . وفى الساخرين ، من يرى متناقضات الحياة : يرى الطبيعة قوية ، والإنسان ضعيفاً ، والغريزة البشرية جامحة ، والإنسان فى تيارها لا حول له . ويرى ــ الظلام محدقاً بأبناء آدم من كل ناحية ، وهو يتخبط ، حاسباً ، أنه يرى ، متصوراً أنه يسير ، واهماً أنه يفعل شيئاً ، والحقيقة أنه لا يرى ، ولا يتحرك ، ولا يحقق خـيراً ، ولا يرد شراً .

فمن أى هؤلاء المازنى ؟

لم يكن المازنى عنيفاً متمرداً ، ولم يدع أحداً إلى عنف أو ثورة ، ولم يكن المازنى سوداوى المزاج ، يملأ نفسك بالهم ، وينفرك من الدنيا ، ويدعوك إلى اليأس . ولم يشتد قط فى نقد الناس ولا فى نقد المجتمع ، ولم يسرف فى الشكوى من سوء حظه ، أو قلة نجاحه ، أو لكثرة مصائبه . فقد كانت تجربته هادئة خفيفة ، تدعو إلى الابتسام اللطيف ، ولا تدعو إلى القهقهة العالية ، ولا إلى الزمجرة الراعدة . لم يكن سعيداً بما وصل إليه فى دنياه ، فقد كان كاتباً موهوباً وشاعراً غنياً بالألفاظ ، والمعانى، وكان من السابقين إلى التعريف بالأدب الغربى، وإلى الدعوة إلى نظرة جديدة فى الأدب المصرى ، وإلى منهج مبتدع فى دراسة

الأدب العربى ، واتصل بالسياسة ، وكتب فى الصحف المقروءة ، واقترب من زعماء الأحزاب والحكام ، ولكنه وجد نفسه دون غيره : فشوقى وحافظ اللذان حمل عليهما ، بقيا زعيمى الشعر المصرى ، أو العربى ، والعقاد زميله ، كان أقرب ما يكون إلى الزعيم منه إلى الكاتب . أما هو فقد كان محدود الرزق ، ثم فقد زوجته الأولى ، وانخلعت ساقه ، ولما عولجت قصرت عن الأخرى ، فأصيب بالعرج ، واضطر أن يطيل كعب حذائه ليتيسر له السير كما يمشى غيره . كل ذلك شاب نفسه بمرارة خفيفة ، جعلته أميل إلى مشاغبة الناس ، ومعاكستهم ، دون رغبة فى إزعاجهم ، بإظهار تفاهتهم ، أو بملائم باليأس من أنفسهم أو من الحياة أو بدعوتهم إلى الكفر بالله .

وقد كانت هذه السخرية ، طابع المازنى تميز به عن غيره من الكتاب ، ولو لم يتسم به أدبه ، لفقد الأدب المصرى العربى كثيراً . فقد كان من أدواء الأدب العربى وأمراضه ، حينما انحدرت اللغة العربية عن مكانها القديم ، فجمدت أساليبها ، وجفت ينابيعها ، أن الأدب أصبح قوالب ، تصب فيها الألفاظ صباً فلا يتميز كاتب عن كاتب إلا بمقدار ما يحفظ من الألفاظ ، ولا يفترق قائل عن قائل ، إلا بحسن ذوقه فى اختيار القوالب . فاللغة استحالت إلى ما يشبه الملابس الجاهزة ، ندخل جميعاً إلى المحال التجارية : فنشترى كلنا أحذية ، متشابهة ، مادمنا ندفع الثمن الواحد ، فإذا اختلفنا اختلفنا بمقدار نقودنا وأذواقنا ، لا بمقدار مواهبنا أو استعدادتنا ، وإذا تقاربت مقادير نقودنا تشابهت ملابسنا ولذلك كانت اللغة العربية والأدب العربى ، فى أشد الحاجة إلى نماذج شخصية وأنماط إنسانية ، تتفاوت قدرة وعجزاً ، وتفاؤلا وتشاؤماً ، كما تتباين فى العلم الذى حصلته ، والبيئة التى خرجت منها ، والمذهب الذى تدعو إليه ، لأن هذا التباين والإختلاف ، يحطم القوالب القديمة الموروثة ويجعل لكل أديب وكاتب ، أثراً خاصا ، على الأدب المصرى أو العربى كله . وقد كان المازنى

أنموذجا فريداً بين الكتاب من أبناء عصره ، فهو وحـــده الذى سخر من نفسه ومن أهله ، ومن الناس : كشف عيوبه ، وتحدث عن عجزه ،وأطلع قراءه على دخائل حياته . وقد أجفل من ذلك وبعد عنه جميع زملائه : فالعقاد كان يتشامخ ، ولا يتحدث إلاعن فضائله ، ولا يكف عن مدح نفسه ، والثناء عليها ، والمباهاة بمواقفه وأياديه . وعبد الرحمن شكرى ، وأن رفع بعض الستر عن نفسه فى كتابه (الاعترافات) إلا أنه لم يصرح بأنه يتحدثعن نفسه، ثم لم يعد إلى الإفضاء بذات نفسه، وهيكل شغلته السياسة عن أدب النفس ، وقد حالت المعارك السياسية التى خاضها ، بينه و بين أدب الإفضاء والمكاشفة .

وقد يتوهم الإنسان ، أن المازنى ضاق بالدنيا ، لأنه اختار لمسكنه موقعاً بعيداً عن مدينة الأحياء ، قريباً من مدينة الأموات ، فسكن داراً وسط المقابر فى مدافن الإمام الشافعى ، ولكن الواقع أن هذه السكنى كانت المظهر الوحيد فى حياته لأسلوب العزلة والبعد عن الناس . فقد كان يعيش سائر يومه معهم ، يضحك ضحكهم ، ويبادلهم الحديث ، ويتعامل معهم ،لا تلمح فى وجهه ، ولا فى أسلوب حديثه ، ولا فى ملبسه ، أو باقى عاداته ، جفوة ولا تجهماً ولا إزوراراً كنت أدخل إليه فى مكتبه فيستقبلنى بوجه ضاحك أو باسم ، باش ، وكثيراً ما رأيت أمامه كأس ويسكى، يرشف منه بين الحين والحين، وإلى جوار الكأس بعض حبات الفول الســودانى المقشور ، يمد يده إليه ، ويأكله فى تريث واستمتاع . وقيل إنه كان عائداً يوماً إلى داره ، فزلت قدمه ، فوقع فى مقبرة مفتوحة ، فارتطم بجثة ميت ، فخرج، وهو يتخبط فى الظلام ، والخوف قد ركبه، فلما عاد إلى منزله بقى مهزوز الأعصاب زمناً ، ولمازالت الصدمة ، تركت بعض آثارها فيه . ولكنى أشهد أنى لم أر فيه سمة واحدة من سمات الأعصاب المتعبة، بل أنى أعده من أحسن الناس مزاجاً ، وأطولهم صبراً ، وأقلهم غضباً ، وإن كان هذا لا ينفى فى قليل أو كثير أن يكون فى داخل نفسه محترقاً مشتعلا ،

وأن يكون برماً بالناس ، وأن يكون برمه أكثر وأشد ، لأنه لا يملك الصفاقة أو الغلظة التى تمكنه من أن يصرفهم عنه بشدة عندما يثقلون عليه بوجودهم أو إلحاحهم .

وإذا أردت مصداقاً لقولى فاسمع المازنى يصف بيته فى صحراء الإمام غير بعيد من القبور ، قال فى مقال نشرته مجلة الفيحاء الدمشقية :

« بيتى على حدود الأبد — لو أنه كان للأبد حدود — وليس هو بيتى وإن كنت ساكنه ، وما أعرف لى شبر أرض فى كل هذه الكرة — ولكن قد كانت لى قصور — ولكن فى الآخرة — بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع — ووقفت معلقاً بين الحياتين ، كما سكنت على تخوم العالمين » ثم قال :

وفى كل يوم أهبط إلى ساحل الحياة وأتريث على حفافيها برهة ، أشهد عبابها المتدفق ينهزم على الرمال ويتكسر على الحصى والصخور ، ويقذف بأشلاء غرقاه ، ثم يرتد ليؤوب بسواهم ، مطوين فى أكفان أثباجه محمولين على نعوش من مربد أمواجه ، وبعد أن أقضى حق العين من التأمل والشهود ، كأنى موكل بعد الموتى ، وحساب البيود أكر راجعاً إلى صحراواتى » .

وينتهى فى القول من رحلته اليومية بين المدينة والصحراء فيقول :

وياعجباً ! اهبط إلى ساحل العيش كل يوم وأعود ولى حاجة أن أميط عن نفسى ما علق بهـا من الأوحال ، فأغشى الصحراء فأصفو من الاختلاط والأوشاب ، وأرجع ولم يعلق حتى بثوبى التراب » . .

فأنت ترى أن نتيجة هذه الرحلة سارة ، فإنه يعود من الصحراء إلى المدينة ، وقد خلت نفسه وصفت من الأوشاب ، صفاء ثوبه من التراب . فالإقامة فى

الصحراء استجمام وراحة ، وليس تزوداً بزاد الثورة ، يعود منها أشد نقمة على الناس ، وأعظم ضراوة فى قتالهم .

* * *

ولد المازنى فى ١٩ من أغسطس سنة ١٨٩٠ وتوفى فى ١٠ من أغسطس سنة ١٩٤٩ ، فهو لم يكمل الستين من عمره ، وكان يحس بأن عمره لن يطول ، وقد قال ذلك صراحة فى إحدى رسائله إلى عاشقته الموهومة (فاخرة) ، وقد كان أبوه محامياً شرعياً ، وكل إليه شئون القصر الملكى الشرعية ، فلما مات أبوه ، تولى أخوه الأكبر — وكان محامياً كذلك منصب أبيه فى القصر ولكنه بدد ثروة أبيه ، فلما شب المازنى عن الطوق ، لم يجد شيئاً مما تركه أبوه فعرف شظف الحياة ، ولكنه استطاع أن يتم تعليمه الثانوى ، ولحق بمدرسة الطب ، فصعب عليه النظر إلى جثث الموتى فى المشرحة ، فأراد أن يلحق بمدرسة الحقوق ، ولكن لم تتح له موارده القليلة أن يدفع مصروفاتها وكانت آنذاك خمسة عشر جنيهاً ، فدخل مدرسة المعلمين وكان التعليم فيها بالمجان . وكان من زملائه فى هذه المدرسة الأخيرة محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء فى سنة ١٩٤٥ . ولما تخرج منها فى سنة ١٩٠٩ عين مدرساً للتاريخ فى مدرسة العبيدية الثانوية ، ثم مدرسة الخديوية ، إلى أن نقله حشمت باشا وزير المعارف إلى مدرسة دار العلوم ليعلم اللغة الإنجليزية للمبتدئين فى تعلم هذه اللغة . وكان يخيل إليه أن حشمت باشا نقله إلى هذه المدرسة نكاية به لأنه نقد الشاعر حافظ إبراهيم نقداً شديداً ، وكان حافظ إبراهيم من المشمولين برعاية الوزير ، بل أن الوزير هو الذى عينه فى دار الكتب ، فقدم المازنى استقالته من العمل الحكومى ، واشتغل بالتدريس بالمدارس الثانوية الحرة كمدرسة الإعدادية ثم مدرسة المصرية ، الثانوية ومدرسة وادى النيل . وفى سنة ١٩١٧ انقطعت صلته

بالتدريس ، واتصلت أسبابه بالصحافة ، فبقى فيها حتى توفاه الله[1] .

ومنذ اشتغل بالصحافة ، أو بعد اشتغاله بها بقليل — وإحساسه بأنه غير قادر على أن يلفت الأنظار إليه إلا على مهل وبطء ، يغلب عليه شيئاً فشيئاً حتى انتهى به إلى هذه الحالة التى هى بين التشاؤم والفتور وعدم المبالاة ولعل عدم استجابة المجتمع الأدبى لحملاته التجـديدية فى الشعر ، والتى كان (الديوان) خلاصتها وجوهرها ، زادت هذا الميل عنده وأكدته ، فآلى على نفسه أن يكون من الحياة مصوراً متجولا ، لا يرتبط بشىء ، ولا يتحمس لشخص ، وينظر إلى الناس نظره إلى صور شاشة (السينما) يراها ويفحصها ويعلق عليها ، ولكن يفعل ذلك كله ، وهو عالم علم اليقين أن ما رآه أشباح زائلة على الشاشة ولا أثر لها فى حياة الناس .

قال يتحدث عن نفسه ودوره فى الصحافة والحياة فى مقدمة كتابه : صندوق الدنيا :

كنا نفرح بصندوق الدنيا ونحن أطفال . . نكون فى لعبنا وصخبنا فيلمح أحدنا الصندوق مقبلا من بعيد فيلقى ما بيده من كرة أو نحوها ويطلقها صيحة مجلجلة ويذهب يعدو متوثباً ونحن فى أثره » .

ثم ينتقل من الحديث على صندوق الدنيا ، إلى الحديث عن الشبه بينه وبين حامل الصندوق :

وقد شببت عن الطوق جداً وخلفت ورائى طفولتى التى لاتعود ، ولكنى مازلت أمت إلى طفولتى بسبب قوى ، وما انفكت أخراى معقودة بأولاتها : كنت أجلس إلى الصندوق وأنظر إلى مافيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال

(١) رسالة الدكتور مندور محاضرات عن المازنى — معهد الدراسات العربية ص ٢١ .

الحياة الكبار فأحط الدكة ، وأضع الصندوق على قوائمه أدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلو ساعة بملاليم قليلة يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر الذى يشبر فيافى الزمان وما له منقلب سوى آماله وهى لوافح ، أو نجم سوى ذكرى ، نورها خافت ، لهذا سميته (أى الكتاب) « صندوق الدنيا » .

« ولا أزال أجمع له وأحشد . وما فتىء السؤال الأبدى عندى منذ حملت صندوقى على ظهرى » ماذا أصور ؟ هذه هى المسألة كما يقول هملت فى روايته الخالدة . والفرق بينى وبين هملت أنه هو معنى بالحياة والموت ، وبأن يكون أو لا يكون ، وبأن يبقى على نفسه أو يبخعها . أما أنا فلا يعنينى شىء من هذا ، ولست أرانى أحفل لا الحياة ولا الموت ، ولا الوجود ولا العدم ، أو لعل الأصح الأشبه بالواقع أن أقول أنى لا أرى وقتى يتسع للتفكير فى هـذا ، ذلك أنى صرت أشبه بالذى كانت له زوجة ترهقه بالتكاليف وتضنيه بالأعمال التى تعهد إليه فيها ، أو تأمره بأدائها ، قالوا فأشفق عليه صاحب ورثى له ، فأشار عليه أن يطلقها لينجو بنفسه من هذا العناء ، فطأطأ الرجل رأسه ثم رفعه وقال ، « ولكنى متى أطلقها ؟ لا أرى وقتى يتسع لهذا » كذلك أنا — أنا زوج الحياة الذى لا يستريح من تكاليفها — أقوم من النوم لأكتب ، وآكل وأنا أفكر فيما أكتب ، فالتهم لقمة وأخطر سطراً ، أو بعض سطر ، وأنام فأحلم أنى اهتديت إلى موضوع ، وافتح عينى فإذا بى قد نسيته فابتسم وأنا كذاك الذى رأى فى منامه أن رجلا جاءه فأنقده تسعة وتسعين جنيهاً فأبى إلا أن تكون مائة ، فلما انتسخ الحلم ورأى كفه فارغة عاد فأطبق جفونه وبسط راحته وقال « رضينا فهات ما معك » .

« واشتاق أن ألاعب أولادى فيصدنى أن الوقت ضيق لا ينفسح للعب والعبث ، وأن على أن أكتب — وأرى الحياة تزخر تحت عينى فأشتهى أن أضرب فى زحمتها وأسوم سرحها ولكن المطبعة كجهنم لا تشبع ولا تمل قولة

هات ، وأكون فى المجلس الحالى بحسان الوجوه ، رقاق القلوب وبكل من كان يتحسر مهيار على مثلها ويقول :

آه على الرقـــة فى خدودها لو أنها تسرى إلى فؤادها

فأشرد عنهن وأذهل عن سحر جفونهن وأرح أفكر فى كلام أكتبه صباح غد » .

الحق أن هذه القطعة تمثل أسلوب المازنى وفلسفته ، وتكشف عن طبيعة سخريته وتشاؤمه معاً فهو يكتب بلا تكلف ، يرسل الألفاظ البسيطة السهلة ، إرسالا ، لا يتحرى له إيقاعاً ولا موسيقية. فالجملة قد تطول أكثر مما يلزم ، وقد يدخل فى الجملة الطويلة جملا اعتراضية بين شرطتين ، وقد يستطرد ، فينتقل من خاطر إلى آخر ، كأنما يتحدث إلى أصدقاء يعرفهم ويألفهم ولا يتكلف معهم ، فهو يجلس على سجيته ، واضعاً رجلا على رجل ، أو مستلقياً على ظهره ، أو مديراً لهم هذا الظهر ، وقد يكلمهم وفى يده سيجارة أو سيجاراً أو وهو يرشف من كأس ويسكى ، ثم قد يقطع الحديث بدندنة . . وعلى الرغم من سهولة ألفاظه ، وقلة العناء الذى يكابده فى الكتابة ، إلا أنه يسره أن يستعمل ألفاظاً غليظة بين الحين والحين ، وكأنه يستملحها وهى قبيحة مثل كلمة (يكظ) ، أو عبارات غير مألوفة كثيراً فيما يكتبه الناس كعبارة (أسوم سرح الحياة) .

وهو حريص على أن يضحك القارىء من نفسه أو من الحياة أو من طرفه ، ولو لم يكن سياق الحديث بطبيعته مؤدياً إلى ما يدعو إلى الضحك ، فهو هنا روى لنا فكاهتين واحدة منهما منطبقة على ما كان بصدده ، وهى واقعة الزوج الذى لا يجد الوقت ليطلق فيه زوجته ، أما قصة جحا الذى رأى فى الحلم إنساناً يعطيه ٩٩ جنيهاً فأبى إلا أن يقبضها منه مائة فلما أفاق من النوم ،

وعرف أنه يحلم أغمض عينيه ، ومد يده وقال : طيب هات .. ، فلا صلة لما بما كان يقوله من أنه كان يحلم بالخاطر فى النوم ، فإذا استيقظ ضاع منه ونسيه .

ثم هو يجرنا إلى بيت (مهيار) جراً ، لأنه يعجب به ، وإن كان استطراداً لا مبرر له ، ثم هو يريد أن يتعالى علينا ، بما يبدو أنه غاية التواضع منه ، فهو يقول إنه لا يفكر فى الحياة أو الموت أو الوجود أو العدم ، أى أنه هو يقول ما يقوله ، ويكتب ما يكتبه لمجرد أكل العيش . فهو أولا ، يعلن أن هذه الموضوعات لا تشغله ، لا لأنها أكبر منه ، بل لأنها هو أكبر منها إذ قد عرف من تجربته أنه لا نفع من ورائها ، ولا خير فى تصديع الرأس فى التفكير فيها ، فهو أحكم من الذين نعرف أنهم سادة الحكمة ، ثم هو على الرغم من أنه لا يجد الوقت ليفكر ، فإنه يكتب هذا الكلام الجميل ، وإن كان لا يقول أنه جميل ، ولكنه يعلم فى يقين ، انك معجب به ، وأنك مأخوذ بطرافته وخفة ظله. ثم هو وإن سخر منك ، ومن الصحافة والأدب ومن نفسه ، إلا أنه لا يعلن مطلقاً أنه زاهد فى الحياة ، أو أن الحياة تخلو من المتع الأخاذة ، بل على النقيض أنه يشكو لأن عمله فى الصحافة ، لا يدع له فرصة ليتملى من حسن الحسان ، ولا من تذوق الطعام أو الشراب ، أو ملاعبة أولاده ، والجلوس بينهم .

ثم هو يشكو — وإن لم يصرح — مما قسم له ، ويكشف بلباقة وخفة عن باعث سخريته من الحياة ، وتشاؤمه اللطيف ، فهو مضطر لأن يحمل صندوقه على ظهره ويلف به ويدور وأطفال الحياة يجرون وراءه ، ذلك لأن الأدب والصحافة ، لم تعطه ما يغنيه عن هذا التجوال المرهق المعذب .

ولقد كان يشوقنى ويمتعنى أن أحلل المازنى ، وأقف أمام آثاره الجميلة « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » و « صـــندوق الدنيا » و « خيوط

العنكبوت » و « إبراهيم الكاتب » و « وإبراهيم الثانى » و « غريزة المرأة » و « بيت الطاعة » و « رحلة إلى الحجاز » و « ديوان شعره » لولا أن هذا كله ليس من شأن هذا الكاتب ، ولا من هدفه إذ حسبنا أننا نلم بحياته إلمامة سريعة ، لتكون عنصراً من عناصر الصورة الكبيرة ، صورة العصر الذى عاش فيه المازنى وتألق .

* * *

والمازنى بغير جدال أحد الذين وجهوا لأدب المصرى العربى الحديث ووضعوا له غايته ورسموا له سياسته ، سواء فى النثر أو الشعر ، وخلاصة هذه السياسة ، أن يكون الأدب ، شعراً أو نثراً ، تعبيراً عن الكاتب ، وتصويراً لما يجول فى نفسه أو عقله هو ، لا نقلا عن الغير ، ولو كان المنقول جميلا ، ولا محاكاة للسابقين ، ولو كان السابقون قد أتوا بالجليل الرائع . فهؤلاء قالوا ماعندهم بطريقتهم ، وعلينا أن نقول ما عندنا بطريقتنا ، نفيد من تجاربهم ، ولكن لا تكون نسخاً منهم ، وإن لم نفعل ، وقفت الحياة عند جيل واحد ، وأصبح الأدب شعراً ونثرا وزجلا وقصة ، اسطوانة قديمة تدار وتدار حتى تبلى . هذا هو الرأى الصحيح فى الفن والأدب ، وهو اليوم بدهية من البدهيات ، وكان كذلك قبل عصور الانحلال ، فى التزام أو تحرر من القدماء ، يتفاوت العصور ، ولكنه فى جملته ، فى جميع الأحوال ، صحيح .

ولقد أجمل هذا المازنى فى مقدمة نقده لحافظ ونحن ننقل بعض سطور عن كتابه حصاد الهشيم فى هذا المعنى لأنه خلاصة ما دعا إليه كل حياته ، وقد ورد شىء من هذا المعنى فى رسالته إلى العاشقة التى لم توجد « فاخرة » قال :

« رأيت عجباً أيام كنت أنشر هذا النقد (لشعر حافظ) من ذلك أنى

كنت اذا قلت أن حافظاً أخطأ فى هــذا المعنى أو ذاك قال بعضهم « لم يخطىء حافظ ، وإنما تابع العرب ، وقد ورد فى شعرهم أشباه ذلك » كأن كل ما قال العرب لا ينبغى أن يأتيه الباطل ولا يجوز إلا أن يكون صحيحاً مبرءاً من كل عيب .. إلى غير ذلك مما يغرى المرء باليأس ويحمله على القنوط من صلاح هذه العقول !

« وإذ فرضنا أن العرب أصابوا فى كل ما قالوا ، أفترى ذلك يستدعى أن نقصد قصدهم ونحتذى مثالهم فى كل شىء ، ونحن لا نحيا حياتهم ألسنا الوارثين لغتهم ، وللوارث حق التصرف فيما يرث ؟ هل تقليدك للعرب ، وجريك على أسلوبهم يشفعان لك فى خطأ نحوى أو منطقى ـ كلا ! إذن فكيف يشفع لك فى غير ذلك مما لا يصح فى العقول ولا يتفق مع الحق ؟ وكيف نتحاكم إلى العقل فى الأولى ولا نستقضيه فى الثانية ؟

«لا ننـكر ما لدراســة الأدب القديم من النفع والفائدة ، وما للخبرة ببراعات العظماء ، قديمهم وحديثهم ، من الفائدة والأثر الجليل فى تربية الروح ، ولـكنه لا يخفى عنا أن ذلك ، ربما كان مدعاة لفناء الشخصية ، والذهول عن الغاية التى يسعى إليهــا الأديب والغرض الذى يعالجه الشاعر ، والأصل فى الـكتابة بوجه عام » .

ثم يقــــول :

« أليس أحدنا بمعذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر « ياضيعة العمر ! » أقص على الناس حديث النفس، وأبثهم وجد القلب ، ونجوى الفؤاد، فيقولون ما أجود لفظه أو أسخفه ، كأنى إلى اللفظ قصدت ، وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم ، لو تأملوها ، نفوسهم بادية فى صقالها ، فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإلى إطارها وهل هو مفضض أو مذهب ، وهل هو مستملح

فى الذوق أم مستهجن ، وأفضى إليهم بما يعين أحدهم التماسه من حقائق الحياة فيقولون لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك ؟ ما لهم لا يعيبون البحر باعوجاج شطئانه وكثرة صخوره ؟ ياضيعة العمر ! » .

أما المازنى الشاعر ، فرأيى فيه ، أنه كان تابعاً لمازنى الكاتب ، فالشاعر كان يعرض النماذج التى يدعو إلى مثلها الكاتب . يريد الشعر صادقاً ، يريد الشعر كما قال « أنه خاطر لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجاً ويصيب متنفساً » فلما انتهت مهمة الكاتب ، وأصبح ما يدعو إليه أمراً مسلماً ، وانحسم من حوله الخلاف ، لم يجد الشاعر ما يدعوه إلى نظم الشعر ، فقد كان قادراً على أن يقول كل ما يريد ، فى نثر أقرب إلى الشعر ، من شعره ، وهو فى الوقت نفسه أيسر على الناس ، وأقرب تناولا .

ولم يجدد المازنى الشاعر ، فقد بقى شعره ، وشعر زميله العقاد — كما يقول الدكتور محمد مندور « شعراً غنائياً ، مشغولا بدنيا النفس ، فلم ينقلاه إلى المجال الموضوعى القائم على شعر الملاحم والقصص والدراما ثم جاء شوقى فاستحدث الشعر التمثيلى فى مسرحياته المعروفة ، بينما ظل شعر المدرسة الجديدة فى جملته شعرا غنائياً شخصياً[1] . »

أما المازنى الروائى ، فلم يكن روائياً ، بقدر ما كان امتدادا للمازنى الكاتب الذى يطيب له أن يتحدث عن نفسه ، وأن يحللها ، وأن ينظر إلى الناس والدنيا من خلالها ، وأن يزرى بها ويصغر من شأنها ، وكأنه ينتقم لنفسه من الناس الذين تجاهلوه ، وغضوا من قدره ، فتولى بنفسه تعذيب نفسه — والانتقاص من مقامها ، وكأنه يقول — بيدى لا بيد عمرو .

---

(١) دراسات فى المازنى للدكتور محمد مندور — معهد الدراسات العربية ص ١٣ .

يقول الدكتور على الراعى فى كتابه «دراسات فى الرواية المصرية» عن قصة «ابراهيم الكاتب» :

« فهدف المازنى من (ابراهيم الكاتب) هو خلق شخصية ابراهيم وإبرازها ، وإيضاحها للناس . ولهذه الشخصية عند الكاتب مفهوم واحد ، ثابت ، مطلق لا يتغير ، وإن تغيرت المواقف التى يجد فيها نفسه والأشخاص الذين يتعامل معهم ، أن لإبراهيم لدى المازنى معنى يعنيه ، لا يتغير ولا يمكن أن يتغير دون أن تنهار الرواية من أساسها ، ذلك المعنى هو الطموح ، والجرى وراء مالا يمكن أن ينال ، هو الحيرة الدائمة والسعى وراء أوهام النفس الجميلة ، التى ما أن ينكشف منها وهم حتى يقوم مكانه وهم آخر يدانيه فتنة وخواء » .

ثم يقـــول :

« إبراهيم فى الرواية هو هو ، لا يتغير وحوادث الرواية القليلة وأفكارها الكثيرة كلها مسخرة لخدمته . المؤلف لا يخلقه ويقدمه لنا إنطباعاً وراء انطباع ، وموقفاً أثر موقف ، وفكرة تصطرع مع فكرة ، ثم نموا لهذا كله وانتفاضاً بالحياة يحمل الشخصية تستوى أمامنا كبيرة كالحياة ، بل هو يقدم لنا منذ البداية لوحة متكاملة تمثل الشخصية ، ثم لا تزال ريشته تتناول الضوء والتفاصيل والخلفية فى اللوحة ، بحيث تتغير هذه جميعاً ، وتبقى الشخصية الرئيسية كما هى » .

وبقدر ما كان المازنى عاجزا عن أن ينتزع نفسه من الكاتب ليكون قصاصاً ، كان عاجزا عن أن يكون مؤلفاً مسرحياً ، بل كان أكثر عجزا . فقارءاته فى المسرح الغربى قليلة إلى أبعد حد وحديثه عن الأدب المسرحى فى كتبه الخمسة أو الستة يكاد يكون معدوماً . فهو إن تحدث عن شكسبير فى مسرحياته ، تحدث عن الشعر ، لا عن المسرحية ، وبنائها وحوارها وتطورها ونمو شخصياتها ، فهذا عالم لم يستوقف نظره ، ولم يغره بالدخول فيه .

ومسرحية غزيرة المرأة الذى اتهم بنقلها عن جالسوردى ، هى بيضة الديك، لم يكتب قبلها ولم يكتب بعدها ، فهو لم يكن قادراً ــ حينما يحاول أن يكتب مسرحية أن ينسى محفوظه الغزير من الألفاظ والترادفات ، وقدرته على أن يقول المعنى الواحد فى الموضع الواحــد ، بأكثر من صيغة ، فهو يكتب فى حواره المسرحى مقالات قصيرة ،ولا تعنيه الحركة،ولا حتى الأسلوب اللائق بالحوار فى مسرحية يشهدها الناس فى اجتماع عام يضم العالم والجاهل ، والصغير والكبير ، وهو يضع على لسان الخادمة معانى ضخمة ، لا تتناسب مــع ثقافتها وبيئتها وعقليتها ، وهى معان لا مقتضى لها من سياق المسرحية إلا أن تكون المسرحية كلها معرضا لبلاغته وفصاحته . فريدة الخادمة التى قتلت ابنها ، تقول : إن الدنيا منذ خروجى (من السجن) تبدو لى جديدة إلا أنها مرعبة ، وكثيراً ماتنازعنى نفس أن أطلق صيحة فى الهواء صيحة طويلة قوية ، وأن أثب وأقفز من فرط سرورى بالخلاص » وحوار فؤاد (وهو رجل مثقف) مع الخادمــة فريدة ، يجعله يشرد ويسمعنا هذا الخاطر الفلسفى المتكرر أو المبتذل« لماذا ينبغى أن يبقى هذا الجنس الإنسانى ؟ ماذا يصنع فى الدنيا ؟ أية غاية يخدمها بوجوده وبقائه؟ ماذا تخسر الدنيا إذا خلت رقعة الأرض من هذا الإنسان ؟ » .

فالمسرحية من بدايتها إلى نهايتها تشعرك بأنها تدور فى بيت من بيوت لندن ، وسواء كان المازنى قد نقلها عن جالسوردى ، أو تأثر بهذا الكاتب المسرحى، فهى نابية عن مجتمعنا ، وهى فى مجموعها ليست عملا مسرحيا ، وإن كان المازنى خليقا بأن يكون كاتبا مسرحيا ممتازاً لبراعته فى إدارة الحوار ولقدرته على تأمل نفوس الناس ولطاقة الدعابة عنده ، وإن كان ذلك يتقاضاه أن يتهيأ لهذا الطراز من الإنتاج الأدبى ، وأن يفكر فى التسلح له ، والتحرر من أسلوب المقالة ، ومن التخلص من ثروته اللفظية الضخمة .

وقــد حاول المازنى فى هذه المسرحية محاولة مضحكة ، هى أن يدع كل

شخصية من شخصيات المسرحية تتحدث باللغة التى تناسبها ، فيتكلم حامد الشاب المثقف بلغة فصحى رفيعة مليئة بغريب الألفاظ ، وتتكلم الحاجة قريبته فى نفس الموقف بلغتها العامية ، ويتبادلان حوارا بهاتين اللغتين فيقول الشاب للحاجة : لا أستطيع أن أشتغل إذا كانت معدتى مكظوظة .

فالمازنى لم يستطع أن يقاوم حبه لكلمة « مكظوظة » ، ومشتقاتها ، ولو قال ممتلئة لهان الخطب . ولكن هذه الألفاظ تختفى فى الفصل الثانى والرابع .

فكلما تقدمت المسرحية ، زاد أسلوب المازنى صفاء ، وسرعة ، وخفة . مما يؤكد أنه لو شغل بالمسرح طويلا ، ولو أفاد مما تكشف عنه للمؤلف المسرحى مواقف الجماهير من استجابة وفتور ، لارتفع قدره بين كتاب المسرح من حيث النص ، وإن كان الشك كبيراً فى أن يكون كاتباً مسرحياً قادراً على إقامة المسرحية على أساس حركى ناجح ، أو حتى على أساس فكرى حى ، فالشكلات التى كانت تشغل المازنى فى كل ما كتب محدودة للغاية ، لاتعدو أن تكون التهوين من الدنيا والناس ، ومداعبة للأفكار والدوران فى فلكها دون الخروج منها بحقيقة جزئية أو باهرة .

* * *

تحدث العقاد عن المازنى فقال :

« صديقى المازنى أحوج الأدباء إلى التعريف بحقيقة فضله ، لأنى ما رأيت أحدا من المعجبين إلا وهو يجهل بعض مزاياه . . . وليس ذلك لخمول فى الذكر . فقد بلغ رحمه الله ، من الشهرة غاية ما يبلغه الأديب فى البلاد العربية .

« وليس ذلك لغموض فى النفس يباعد مابين ظواهرها وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة إلا عرف أنه من أصفى الناس سريرة وأشبههم ظاهراً بباطن وجهراً بخفاء ».

« ولـكنه لم يعرف بحقيقة فضله — أو بكل حقيقة فضله لسبب غير الخمول وغير الغموض — وهو قلة الاكتراث ، والاكتفاء بأيسر ماينال وبعضهم يسميها ملكية السخرية ، ويخيل إليه أنها على مثـال السخرية التى اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين . . ولـكنها فيما أعتقد تشبه السخرية وليست هى . لأنها تخلو فى جوهرها من نكاية السخرية التى تلازمها . فلا تنطوى على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية » .

« وإنما هى، على ماعرفتها واختبرتها، شىء آخر غير السخرية ، وإن كانت شبيهة بها. هى حب المعاكسة البريئة أو هى الدعابة لا ضير فيها على أحد ولافرق بين الدعابة مع النفس والدعابة مع الآخرين » .

« لم يكن يبالى أن يبرز خير ماعنده ، ولم يكن يبالى أن يقدح فى أدبه وفنه بقلمه ولسانه فيسبق للنكر والحاسد إلى القدح والأفكار، ولم الجهد والعناء ».

« لقد كان يرى حقائق الدنيا كالخيال ، لأن غايته إلى أمل أو ذكرى ، وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ، ونصيبه منها خيالا يغير عناء .. »

ولقد روى العقاد من معاكسات صديقه المازنى ، أنه عاد ذات ليلة بعد سهرة طرب ، فى عربة (حنطور) وكان سائقها من غواة الغناء والطرب ،فأخذ يغنى، واسترسل فى الغناء ، والمازنى يبدى إعجابه به حتى قرب من منزله فوثب من العربة بخفة ، والسائق مشغول بغنائه ، معجب بصوته ، فلما لاحظ أن الراكب انقطع عن اظهار الإعجاب ، نظر إلى داخل العربة ، فلم يجد أحداً ، فراح يصرخ ويولول .. ثم عاد إلى الموقف ، وفى اليوم التالى ذهب المازنى ومعه العقاد، فبحثا عن الحوذى فى كل مكان حتى لقياه فأعطاه المازنى وأجزل فى العطاء .

• روى أن تلاميذ المازنى وضعوا فى الفصل مادة ذات رائحة خبيثة

ليما كسوه ، فلما تبين مافعلوا أحكم إغلاق باب الفصل و نوافذه ، والرائحة يشتد مفعولها فى الهواء المحبوس ، والطلبة يكادون يختنقون والمازنى لا يبدى مظهراً واحداً من التأفف أو الضيق . فأدرك التلاميذ أنهم مع مدرس شديد المراس ، لاينفع معه للزاح ، ولا تجدى المماكسة .

ثم يقول العقاد :

« أنه يترجم النثر فى أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان . ويترجم الشعرفى أسلوب كأسلوب البحترى و الشريف، ثم لايخرم فى ترجمته حرفاًمن اللفظ ولالمحة من المعنى ، بل يأتى بالمقاله المترجمة أو القصيدة المترجمة فى طبقة التأليف أو أعلى وأبلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الأوروبى — العالمى — بلغة عربية لايزيد عليها صاحب القصيدة شيئاً لو أنه نظمها فى لغة الضاد » .

وقال :

« كان — المازنى يستطيع أن يفتح المرجع التاريخى الضخم فى اللغة الإنجليزية وأن يلخصه وهو يقرؤه ، وأن يترجمه وهو يلخصه ، وأن يكتبه على ورق الآلة الناسخة فى وقت واحد. وهى أربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة فى لحظة واحدة : جهد القراءة ، وجهد التلخيص، وجهد الترجمة، وجهد التحضير » .

هذا هو المازنى ، أو هذا جانب من صورته ، أو هذه هى صورته ، لاتلمح فيها كل التقاطيع ، ولا تبين كل القسمات ، ولكنك تحس منها الروح ، والأسلوب ، وتعرف بفضلها فضله على أدب أمته ، وعلى نهضة الشعب الذى أحبه ، وأخلص له .

الفصل الرابع

عباس محمود العقاد

ولد عباس العقاد فى ٢٨ من يونية سنة ١٨٨٩ ، فى مدينة أسوان . وكان أبواه — أبوه وأمه — وافدين عليها . فأبوه من دمياط، وأمه كردية الأبوين. وكان أجداده يعملون فى صناعة الحرير ، ثم انتقل جده لأبيه إلى المحلة ، وهناك خلع عليه لقب (العقاد) وهو يطلق على من يعقد الحرير . ولابد أن يكون عقد الحرير هو غزله . ولم يخبرنا العقاد ، لماذا رحل جده إلى أسوان وأقام فيها، ولكنه قال لنا أن والده كان رئيس قلم المحفوظات بمديرية أسوان ، وأنه كان رجلا متديناً ، ذا كفاية فى عمله ، ودراية بترتيب وتنظيم أوراق وسجلات الحكومة ، وهى عادة لا تعرف النظام ، ولا تخضع لتبويب . ومن آيات أمانة هذا الوالد ، أن أسوان تعرضت فى خلال ثورة المهدى، التى قامت فى السودان، وزحف دراويش هذا الزعيم السودانى، على مصر للاضطراب الذى ألجأ كثيراً من أصحاب الأطيان والبيوت ، إلى الهجرة من أسوان نجاة بأنفسهم ، فوضع غيرهم يده على تلك الأطيان والبيوت وزعموا أنهم أصحابها ، ولم يكن هناك سبيل لدحض إدعاءاتهم إلا بالرجوع إلى السجلات المحفوظة عند محمود مصطفى إبراهيم العقاد أفندى ، فلو سولت له نفسه أن يتجر بهذه السجلات ، فيخفى منها أو يظهر مقابل ما يأخذه من مال هؤلاء أو مال أولئك، لأثرى ، ولكنه آثر الأمانة ، فأخرج الأوراق بغير ثمن ، لينصف المظلوم ، وليخزى الظالم .

وقد كان والده — ككل الآباء أو كأكثر الآباء فى تلك الأيام — يأخذ أولاده بالشدة ، ويعامل الصبيان منهم كأنهم رجال كبار ، لا يحسب

حساب الطفولة ، ولا يعترف بحقها فى اللهو واللعب. رأى يوماً (عباس) وهو فى الثامنة أو السابعة فى البيت بين قريباته من خالات وعمات ، فناداه ووبخه لأنه رضى أن يزج بنفسه بين النساء ، وأخذه ليحضر معه ندوته فى (مندرة) البيت التى يشهدها شيوخ يتكلمون فى أمور معقدة ثقيلة لا تروق لطفل . إلا أن هذه الندوات أنضجت رجولة عباس فى وقت مبكر ، فاستطاع أن يتقدم إلى وظيفة كتابيه بديوان مديريه قنا ، وهو بعد فى الخامسة عشرة .

ويروى عباس أن والده كان يصر على أن يلزمه بأداء الفروض فى أوقاتها، ومنها صلاة الفجر ، وهو دون العاشرة ، وأنهم كانوا يوقظونه قبل شروق الشمس ليؤدى هذه الصلاة ، وهو مستغرق فى النوم، « سعيد بدفء الفراش » فاحتمل هذه المشقة يوما ثم يومين وثلاثة فلما كان اليوم الرابع رفض أن يترك الفراش وأعلن التمرد ، فلما علم أبوه بذلك،سأله : أتمتنع عن الصلاة ؟ فلما أجاب الصبى (نعم) هوت عليه عصا الوالد .

ومع ذلك فلم يكن الصبى متمردا على الدين ذاته ، فقد كان يقصد المسجد، ويرقى درجات مأذنته ، وينشد الأناشيد التى تسبق صلاة الجمعة ، بل أنه كان ينظم هذه الأناشيد ويقدمها للمؤذن وهو يخفى عنه أنه هو مؤلفها حتى لا يستصغر شأنها ، فيرفض إنشادها . أما أمه فهى ابنة محمد أغا الشريف بن عمر أغا الشريف . وقد كانا ضابطين فى الفرقة الكردية التى أنفذها محمد على فى سنة ١٨٢١ إلى السودان بعد مقتل ابنه إسماعيل باشا على يد نمر ملك شندى السودانى – ولما انتهت مدة خدمته العسكرية اختار أسوان موطنا له وأخذ مقابل معاشه أطيانا بها .

وكان أبناء محمد أغا وبناته شقر الوجوه ، كأنهم من أهل شمال أوروبا ، فقد كانت (ديار بكر) على الحدود الشمالية بين العراق وتركيا هى مسقط رأسهم .

وقد كان خصوم العقاد ، يعيرونه بأنه ابن (بخيته) السودانية . فلما رأى النقراشى حال العقاد معه يوما ، وسأله من يكون هذا ، أدهشه أن رد العقاد « هذا خالى » فقد كان يتوقع أن يكون خال العقاد رجلا من أهل السودان .

وتحس فى رواية العقاد لهذه الواقعة بأنه كان فخورا بأن أهل أمه كانوا من الأكراد ذوى الوجوه الشقراء .

وقد ورثت أمه عن أجدادها وأبيها سلامة البنيه ، فقد كان من أخوتها من يصرع الثور ، ومن يتصدى للصوص قاطعى الطريق المرهوبين المثيرين للفزع، فيقبض عليهم ، ويقودهم إلى الحكومة ، مقيدين بالحبال . والعهدة فى هذا على العقاد نفسه .

وكانت سيدة صموتة ، مدبرة ، شديدة ، يحسب الناس حسابها ، فأطلقوا عليه لقب (المشدة) والمشد لقب يطلق على الرجال الذين يقودون فرق العمال ويأخذونهم بالشدة . وقد ورث العقاد من أمه طول القامة ، والقدرة على الاعتكاف . وكان يحبها ويترضاها . اعتاد أن يرسل إليها ثلث مرتبه، فكانت تنفق بعض هذا المال، وتدخر الباقى . واستطاعت أن تضيف من المال الذى أدخرته إلى بيت العائلة فى أسوان ، الأرض التى حوله ، فضمت إليه ، وهدم العقاد البيت القديم فى سنة ١٩٤٩ ، وأعاد بناءه ، بعد توسيعه ؛ إلا أن أمه أصرت على أن تبقى حجرتها على رسمها القديم ، وأن تطلى كذلك بطلائها القديم .

وتعلم العقاد فى المدرسة الابتدائية الأميرية بأسوان . وقد كان هذا كل ما تلقاه من العلم المدرسى ثم تعلم فن التلغراف — بمدرسة ناحية الدمرداش بالقاهرة على آلة التلغراف فى السكة الحديدية . ثم اشتغل كاتباً بمديرية الزقازيق ، ولكنه كان موظفاً سيئاً ، يرفض تنفيذ أوامر رؤسائه ويعتدى

عليهم بالسب ، ففى الزقازيق دخل على رئيسه وقال له : حمار (أزعر) مثلك لا يصحح لى ما أكتبه. وهاج الرئيس وجرى إلى مكتب وكيل المديرية وشكا له من اعتداء العقاد عليه ، ودعى وكيل المديرية الموظف الصغير المعتدى ، وسأله عن حقيقة الأمر ، فلم يزد العقاد عن قوله : والله لم أعامل حضرة الباشكاتب إلا بما (يستحقه) من الاحترام . وكان وكيل المديرية رجلا (مجبوحا) فأدرك ما يعنيه العقاد ، فكتم ضحكة ، ثم صرف الباشكاتب ، فلما خلا بالعقاد انفجر فى الضحك ، وحذره من العودة إلى هذه الشيطنة . وفى مديرية الفيوم ، وقع للعقاد مثل ما وقع له فى الشرقية إلا أنه هـذه المرة لم يكتف بالسب الشفوى لرئيسه ، ولم يكتف بسب رئيس واحد ، بل نظم قصيدة سب فيها رئيسه ووكيل الرئيس ، وطبع القصيدة ووزعها، ثم استقال من الوظيفة وسافر إلى أسوان، فرفع المتعدى عليهما الأمر إلى القضاء ، وحضر العقاد من أسوان إلى الفيوم ، وترافع عن نفسه ، وساق الحظ له للمرة الثانية قاضيا واسع الأفق ، أدرك أن العقاد شاب ، وأن قيود الوظيفة ، واستبداد الرؤساء بالمرؤوسين ثقلت عليـه ، ثم أعجبه نسج القصيدة فقنع بإلزامه بغرامة خمسين قرشاً دون — الحبس ، ولمـا ذهب العقاد إلى خزينة المحكمة ليدفع الغرامة ، وجد القاضى قد سبقه إلى دفعها .

ويقول العقاد أنه أول مصرى استقال من وظائف الحكومة ، فقد كانت وظائف الحكومة فى أيامه ، أمنية كل شاب ، فإن تحققت كان التشبث بها ، غاية الغايات ، لذلك كانت حوادث الاستقالة من الوظيفة الحكومية أندر من حوادث الانتحار بكثير .

ثم اشتغل العقاد فى ديوان الأوقاف ، فى قسم التحريرات ، وهو قسم كان يرأسه الكاتب محمد المويلحى صاحب حديث عيسى بن هشام وكان يضم مع العقاد أدباء ومتأدبين آخرين ، ولا شك فى أن العمل فى هـذا القسم ، كان يتفق مع

طبيعة وميول العقاد ، فلم يتوقع فيه سوء المعاملة ، وكانت مصاحبته للأدباء ، مما يسرى عنه وقد اجتمع منهم فى ديوان الأوقاف تحت رياسة المويلحى أكثر من عشرة من الأدباء منهم عبد العزيز البشرى وعبد الحليم المصرى وأحمد الكاشف وحسين الجمل وحسن الدرى ومحمد فكرى والشاعران على شوقى ومحمود عماد .

إلا أنه نفض عنه قيود الوظيفة ، واشتغل بالصحافة ، وكانت أولى الصحف التى عمل بها جريدة (الدستور) التى كان يصدرها الأستاذ محمد فريد وجدى ، وكانت من جرائد الحزب الوطنى ، وقد استطاع فريد وجدى أن يستولى على إعجاب واحترام وتقدير عباس العقاد ، فبقى يذكره بالخير حتى آخر أيام حياته[1] ، ولما خرج العقاد على الوفد ، وأحس بالحاجة إلى مبايعة زعيم جديد ، نفض جعبته بحثاً عن الزعماء ، لم يجد خيراً من فريد وجدى وحاول أن يقنعنا بأنه الرجل المطلوب . وقد تزامل عباس العقاد فى تحرير (الدستور) مع الأستاذ أحمد وجدى المحامى شقيق فريد وجدى ، وقد كان يتولى ترجمة كل البرقيات التى ترد من شركات أنباء الصحف (كرويتر) البريطانية و(هافاس) الفرنسية . ولكن لم يلبث العقاد أن اختلف معه فترك الدستور ، وهو يحمل الحب والاحترام للشقيقين محمد فريد وأحمد وجدى .

وتنقل العقاد بين الصحف فاشتغل فى الأهرام عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، ويذكر له مؤرخوه أنه إبان عمله فى الأهرام وفدت الى مصر لجنة ملنر فى سنة ١٩٢٠ وأذاعت على المصريين بياناً حددت فيه مهمتها فترجمت الصحف هذا البيان على وجه يفهم منه أن اللجنة تسعى إلى الاتفاق مع المصريين على (نظام

(١) قال عنه فى كتاب رجال عرفتهم : هو فريد عصره غير مدافع وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبليت وأصبحت حروفا بغير معنى إلا أننا نقولها اليوم عن محمد فريد وجدى لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفا حرفا .

دستورى) للحكم يحل محل نظام الحماية التى كانت مفروضة على مصر ، ولـكن العقاد تبين أن فى الترجمة خطأ وأن الترجمة الصحيحة للبيان مؤداها أن اللجنة ستحل محل الحماية نظام (حكم ذاتى) . وشتان بين حكم دستورى تـكون السلطة فيه للمصريين ونظام حكم ذاتى ، يمنح فيه المصريون بعض السلطات فى الشئون الداخلية فى إطار من السيادة البريطانية . فلما تأكد المصريون أن أقصى مالدى اللجنة لا يتفق مع أمانيهم الوطنيةواصلوا مقاطعة اللجنة ، وكانوا قد تواصوا بهذه المقاطعه ، فتمت بنجاح عظيم .

واشتغل العقاد بالتدريس مع زميله المازنى فى المدرسة الإعدادية ، وغيرها. ثم عمل مع عبد القادر حمزه فى جريدة البلاغ ابان إنتساب البلاغ إلى محمد سعيد باشا رئيس الوزراء ، ولم يكن هذا الأخير خالص النية للحركة الوطنية . وانفصل عنه العقاد ، ثم عاد إليه عندما أصبح البلاغ من جرائد الوفد . وبقى فى البلاغ زمناً غير قصير ثم انتقل منه إلى (الجهاد) التى كان يصـدرها دياب توفيق ويحرر فيها معه محمود عزمى ، ثم انتقل العقاد ومحمود عزمى إلى جريدة روزا اليوسف اليومية حتى أغلقت أبوابها .

* * *

فى سنى طفولة العقاد وصباه ، ذكريات لم ينسها طوال السنين ، منها ذكريات وباء الـكوليرا الذى عصف بأسوان وبأهلها ، فتساقطوا موتى حتى كاد يخلو الحى الذى كان يقيم فيه من سكانه . ويذكر أنه كان يسمع الحوار يدور بين أصحاب المراكب الشراعية وبين زملائهم من أهل اسوان حول عدد الموتى. فلا يسأل السائل كم عدد الموتى ، بل يقول ، كم السعر اليوم ، فيرد المجيب بقوله: جنيه مصرى ، إذا كان عدد الوفيات مائة . و (بنتو) إذا كان العدد ثمانين ، و (بندقى) أى خمسين ثم الريال والريال المجيدى وأم خمسة ، وانتشار الأوبئة

كان من معالم الحياة فى تلك الفترة ، فكما حدثنا العقاد عن وباء الكوليرا وحصده للأرباح فى أسوان ، حدثنا سلامه موسى عن هذا الوباء وحصده للأرواح فى الزقازيق .

واحتفظت ذاكرته بصورة فتاة أوروبية هيفاء جاءت مع عائلتها سائحة ، وذهبت إلى داخل المدينة على غير عادة السائحين الأجانب ، وكانت تحيط خصرها النحيل بحزام . وقد كانت من نحافة القد إلى الحد الذى لم يعهده الصبى من قبل فى النساء ولكن رشاقتها ، خطفت بصره فراح يتابعها وهو مأخوذ اللب بخطوها الخفيف ، حتى غابت عن عينه فبقى رسمها حيا فى ذاكرته حتى قال بعد خمسين عاماً أو يزيدانه يستطيع أن يرسمها بعد كل هذه السنين من الذاكرة كأنها ماثلة أمامه .

ومن ذكرياته أنه اجتمع فى ليلة القدر مع اثنين من أصحابه، وأهل بلدته، هما صالح حرب ، والحاج عبد المجيد ، فطلب كل منهم طلباً تمنى على الله أن يتحقق فكان رجاء صالح حرب ان يكون قائداً عسكريا ، وكانت أمنية الحاج عبد المجيد أن يحج إلى بيت الله ، وكانت أمنية العقاد ان يكون من اشهر اهل زمانه . فأجاب الله رجاء الجميع ، فقد أصبح اللواء صالح حرب وزيزاً للدفاع ، وحج عبد المجيد إلى بيت الله سبع مرات ، وأصبح العقاد من أوسع الناس شهرة فى مصر والبلاد العربية .

ويروى العقاد فى هذه الذكريات أن الشيخ محمد عبده زار المدرسة الإبتدائية التى كان يتعلم فيها ، فأطلعه مدرس الإنشاء على موضوع كتبه العقاد عن موازنة بين الحرب والسلام ، فأعجب الشيخ بإنشائه وقال « ما أجدر هذا الصبى أن يكون كاتباً بعد » ونطق الدال فى كلمة (بعد) مشكولة بالضم ، فارتسمت هذه الشهادة فى ذاكرته ؛ وكانت من دوافعه الأولى إلى الاهتمام بالإنشاء والكتابة ،

وأحب من يومها الشيخ محمد عبده ، وبقى يضمر له الإعجاب ويعلنه ، ويعده من كبار رجالات مصر ومصلحيها ولكن الأثر الذى تركه مصطفى كامل فى نفسه كان مناقضاً لهذا الأثر ، فقد أصبح العقاد مدرساً متبرعاً بعمله فى المدرسة الإسلامية ، وزار المدرسة الزعيم مصطفى كامل ومعه بعض الضيوف الأجانب وطلب من التلاميذ أن يشرحوا معنى البيت التالى :

والمرء إن لم تفــــد نفعا إقامته

غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يزل

وعجز التلاميذ عن شرح البيت فنظر مصطفى كامل إلى العقاد متسائلا ، فأراد العقاد أن يعتذر عن التلاميذ فقال إن السحاب فى أسوان التى تشتد فيها الشمس ، ويستحب الظل ، ليس بالشىء المكروه ، حتى لو لم يمطر ، ولهذا تعذر على تلاميذ أسوان أن يفهموا قول الشاعر الذى يذم السحاب الذى يحجب الشمس ولا يمطر . وكان العقاد يتوقع أن يبدو على مصطفى كامل الإعجاب بهذا الأعتذار الفكه ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث، فثبت فى نفس العقاد نفور من مصطفى كامل ، تزايد مع الزمن ، وبقى يلازمه إلى آخر العمر ويقول العقاد فى هذه المناسبة :

« حسن تخلص » كنت أقدر من حطيب مثله أن يتقبله بالاستحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ، وبدا لى أن الاستدراك عليه ، ولو من باب الفكاهة — أمر كثير على طاقته الفكرية « النفسية » . ومن الطريف الذى يرينا كيف يتحول التاريخ فى يد المؤرخين أن العقاد نفسه أثبت بقلمه أن مصطفى كامل تجهم حين أبدى ملاحظته ، ولكن صديق العقاد الأستاذ الجبلاوى ، روى نفس الواقعة على وجه مناقض تماما فقال أن مصطفى كامل هش

وبش لهذا الاعتذار وبدا عليه الإعجاب بحسن رد العقاد ، رحم الله التاريخ رحمة واسعة .

ويذكر العقاد بالخير فى هذه المرحلة من حياته اثنين هما مدرس اللغة العربية فخر الدين محمد الدشناوى والقاضى أحمد الجداوى الذى كان يشهد مجلسه مع أبيه، والذى يحصى العقاد مواهبه فإذا منها أنه كان يحفظ مقامات الحريرى والهمذانى، ويطارح خمسة أو ستة من الأدباء فى الشعر ، فيغلبهم جميعاً . والمطارحة فى الشعر معناها أن يبدأ المتسابق ببيت من الشعر ، لايكاد يفرغ منه حتى يرد عليه المتسابق الآخر ببيت يبدأ أول حرف فيه ، بآخر حرف فى البيت الذى رواه منافسه وهكذا . وكان الشيخ الجداوى فوق ذلك يجيد ألعاب الحواة ،ويبتدع الملح والفكاهات .

وقد وجد العقاد فى خزانة كتب والده مجموعة من مجتى الأستاذ ، والطائف التى كان يصدرها عبدالله النديم فأقبل عليها يطالعها بشغف عظيم ،أدى إلى تعلق وإعجاب بعبد الله النديم ، وكان يرى بينه وبين النديم وجوه شبه ، فقد تعلم كل منهما صناعة التلغراف : تعلمها النديم فى الاسكندرية وتعلمها عباس العقاد فى ضاحية الدمرداش قريبا من القاهرة ، واشتغل كلاهما بالتدريس فى مدرسة خيرية إسلامية ، وتعقب البوليس كلا منهما .

وكان لتعقب البوليس للعقاد قصة مردها أيضـــا الحساسية المفرطة عند العقاد ، فقد اشتغل ناظرا بمدرسة ابتدائية فى أسوان ، وأقام للمدرسة حفلا كبيراً ، على عادة المدارس فى نهاية العام الدراسى ، وأرسل دعـوة إلى المدير ليشرف الحفل ، فلم يلب المدير الدعوة ، ولم يعتـذر عن حضورها ، فانتقد العقاد مسلك المدير ، أمام جمع من الناس ، ثم نقل هذا النقد إلى المدير فـكبر

عليه أن ينتقد علنا أمام صغار الناس ، ومن موظف صغير ، فاستدعى العقاد إلى مكتبه ، الذى ما كاد يدخله حتى أخذ مقعداً وجلس أمام المدير ، وثار المدير لأن العقاد لم يستأذنه فى الجلوس ، فرد عليه العقاد « إن الحكومة وضعت الكراسى فى هذه الغرفة لأجلس عليها أنا وأمثالى » . وصرف المدير العقاد ، ولما وصل إلى بيته ، وجد أن أمراً صدر يقضى عليه بملازمته بيته فقد وقعت هذه المشادة خلال الحرب العالمية الأولى ، وكانت الأحكام العرفية معلنه وثقل الأمر على العقاد ، فاتفق مع أحد ذوى قرباه على أن يفتعل شجاراً على مقربة من داره ، يصرف نظر العسكرى المكلف بحراسته ريثما يفر ، ثم انطلق حتى وصل إلى المحطة ، فاستقل القطار المسافر إلى القاهرة ، وهناك عرض الأمر على جعفر والى باشا وكيل وزارة الداخلية وكان على صلة طيبة بالعقاد وبغيره من الأدباء . واستمر المدير لسوء حظه يمطر الداخلية بتقارير تتضمن نسبة أمور عديدة إلى العقاد ، والعقاد فى القاهرة ، وفى مكتب وكيل الداخلية ، يراه كل يوم مفتشها الإنجليزى ، فثبت للحكومة كذب المدير ، فنقل منها وأعفى من عمله ، وعين بدلا منه مقبل باشا ، ففرح العقاد ، وأرسل برقية إلى ذويه يقول فيها : « شر مدبر ، وخير مقبل »

ماذا تعطينا حياة العقاد أيضا ، سواء فى صباه وشبابه ، أو فى رجولته وكهولته وشيخوخته ، من حقائق ممتعة ، أو مؤسفة ، تزيدنا معرفة به ، وبالحياة فى أيامه ، وبالحياة عموماً ؟

معالم حياة العقاد الأساسية يمكن إحصاؤها على الوجه التالى .

فى الحياة الوجدانية ، أحب العقاد شابة لبنانية تعرف عليها فى (بنسيون) فى مصر الجديدة ، وبعد حديث غزل معها ، خيل إليه أنها تحاول الإفلات منه ، فإذا بها تحاصره ، وتريد الانقضاض عليه ، وفعلا استولت عليه زمناً ، بقى فى قبضتها ، وهى تسلم نفسها لشاب أصغر منه سناً كان ضابطا برتبة الملازم أول .

فى نفس الوقت الذى كانت فيه هذه الشابة المليئة بالحيوية الأنثوية ، تخون العقاد ، كان العقاد يخون الآنسة (مى) معها ، وكما عرف العقاد أن حبيبته التى اسماها (سارة) ليست وفية له ، ولا أمينة على حبه لها ، كشفت (مى) أنه ليس خالصا لهـا ، وقد كان ذلك مستحيلا لأن (مى) لم تستطع أن تمنح نفسها له ، وكان أقصى ما تستطيع أن تعطيه للعقاد هو أطراف أصابعها ، أو كل يدها ، يقبلها ، وعبارات غزل تؤجج عواطفه ، ولا تشفيها . فبكت وانسحبت من حياته ولقد فشل الحبان ، ولـكنهما أثمرا قصة (سارة) التى لم تكن سوى تسجيل هذه التجربة المزدوجة ، فلم تكن قصة ، بالمعايير المعروفة للقصص ، ولعل كاتبها لم يقصد أن يكتب قصة .

ولما بلغ العقاد الخمسين أو تجاوزها وقع من جديد فى حب شابة فى العشرين ، سمراء جميلة ، جددت شبابه ، وجملت حياته ، وأطلقت الدم حاراً فى عروقه وألهمته وأوهمته ، وأسعدته وأفرحته فقال :

نفض النعاس فؤاده وصبـــا

وصحـــا فـــال فهام فاضطربا

ونفى السآمة بعدما بلغت

منه المشاش وعاود اللعبـــا

وجرى الذى ما كان يحسبه

يوما يكون وطالما حبا

فى توبة الخمسـين يشغله

وجه ويملأ صدره رغبـــا

ويظل يسأله ، وإن رهبـــا

ويبيت يسمعه وإن كذبا

ويعد منـــه الزور مأثرة

أو لا يريد يزوره سـببا

ولـكن هذه العلاقة لم تـكن حبـاً ، وإنما كانت وهما من أوهام الشيخوخة . كانت من جانب العقاد ، فرحاً بعودة الشباب ممثلا فى هـذا الحب الذى جاء على غير انتظار ، وجاءت معه كل متع الشباب ولذائذ خيـالاته ، وجموح شطحاته . وكان من جانب الفتاة ، استسلاما لصاحب الشهرة والمركز والمال . ولم يلبث هذا الخيال الجميل ، خيال فتاة صغيرة ، قليلة الحظ من الثقافة والتعليم ، تحب كاتباً كبيرا أن تبدد بعد أن استمد منه العقاد حرارة وأملا ، واستمدت الفتاة منه نصوجاً وفهما فترك الحسرة عند العقاد ، وترك عند الفتـاة مثلما يترك الجرح الصغير فى يد الطفل ، مجرد خيط رفيع لا يرى . والعقاد لم يكن من ذوى العواطف المتوهجة ، ولا الخيال الجموح ، ولم يكن قادراً أن يحب حباً عنيفاً عميقاً ، فقد كان مشغول النفس بذاته ، وقد امتص هـــذا الحب أكـثر عاطفته . أحب العقاد هذه المرات الثلاث ، فأثمر الحب كما قلنا قصة سارة فلم تلامس قلباً .

ولـكن كان فى حياة العقاد (حب) آخر ، هو حب كلبه (بيجو) الذى رثاه ، رثاء لعله يساوى كل شعره العاطفى — قال فى (بيجو) هذا :

وكلما ناديته ناسيـــــا　　بيجو ولم أبصر به آتيا

مداعبا مبتهجا صـــافياً　　قد أصبح البيت إذن خاويا

لامن صدى فيه ولا من سميع

نسيت ؟ بل ليتنى قد نسيت　　أحسبنى ذاكره ما حييت

لوجاء نســيانه ما رضيت　　بيجو معزى إذا ما أسيت

بيجو مناجى الأمين الوديع

أما حب مى ، فقد انتهى ، لا كما ينتهى الحب ، بل كما تنفصم العلاقة بين اثنين تلاقيا صدفة ، ثم وهم كل منهما أنه أحب الآخر ثم افترقا جاء فى قصة سارة: لما شعرت (مى) بأنه يحب فتاة أخرى ، وقد كان هذا الحب قبل أن تقع هى فى حبه ، زارته على حين غرة فى مكتب عمله ، وهى الزيارة الأولى والأخيرة ، فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارته المفاجئة وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقبا ، فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج ؟

— لست زائرة ولا سائلة ..

فقال : إذن ؟

« ولم يتمها لأنها نظرت إليه ، كمن تستحلفه ألا يتكلم وانحدرت من عينيها دمعتان فما تمالك نفسه وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها فمانعته ولم تكف عن النظر إليه ، ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسه : دع يدى ودعنى » .

ويقول العقاد : لو جاءت هذه الزيارة فى بداية علاقته بسارة ، لما كان بعيدا أن تقضى على تلك العلاقة وأن اترد إسم سارة عنده اسما مغموراً فى عامة عنوان النساء. بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينه وبين سارة الايغال الذى لا تراجع فيه — وصعدت على طريقها تعدو إلى الأمام عدوا لا تنظر فيه إلى الوراء .

وأنت تحس فى هذا الكلام أن العقاد يحسب عواطفه حساب الأرقام ويستخرج نتائج الحساب بعد عمليات طرح وضرب فهذا التعليق أخلق به أن يكون تعليقا على قضية كسبها أو خسرها ، لا تعليق شاعر على حب خائب ، وإذا كان العقاد قد استطاع أن يكون أكثر شاعرية وهو يرثى كلبه ، وأن

يتخفف من وقاره وتزمته الذى يلازمه حتى فى مواقف الحب وهو يتفجع لغياب (بيجو) ، فذلك لأن (الكاب) يرضى أنانية الإنسان إلى أقصى الغاية .

هذه إذن حصيلة الحياة الوجدانية للعقاد .

أما حياة العقاد الصحفية ، ففيها مرحلتان أساسيتان ولنا مع هاتين المرحلتين وقفتان كبيرتان :

أولى الوقفتين حينما اشترك العقاد فى جريدة روزا اليوسف اليومية ، وبدأ حملة عنيفة على الوزارة النسيمية بصفة عامة — وعلى نجيب الهلالى وزير المعارف فى تلك الوزارة بصفة خاصة . والثانية عندما أقفلت هذه الجريدة أبوابها ، وقد كان خروج العقاد من جريدة الجهاد وانضمامه إلى جريدة روزا اليوسف ، هو وزميله محمود عزمى بداية الانشقاق فى الوفد ، الذى انتهى بخروج ماهر والنقراشى منه ثم تكوين الحزب الجديد « الحزب السعدى » .

أيهما السبب وأيهما النتيجة ؟

هل كان خروج العقاد وإصدار جريدة روزا اليوسف اليومية ، سبباً للانشقاق الذى وقع فى صفوف الوفد ، والذى خرج بسببه بعد ذلك ماهر والنقراشى ، أم أن الانشقاق ، هو الذى أوحى بإصدار جريدة لا تخضع للتوجيه المباشر لزعامة الوفد ، وتتمتع بشىء من الاستقلال فى وضع سياستها وتنفيذها .

الذى نرجحه أن الدوائر ذات النفوذ التى ترسم سياسة مصر ، وتحرك الخيوط المتصلة بالزعامات والزعماء ، كانت قد فرغت من إصدار قرار يقضى بأن تقوم هيئة سياسة جديدة ، تنتمى لسعد زغلول ، وتعمل فى السياسة الحزبية ، تحت اسمه ، ولا تخضع فى الوقت نفسه للنحاس ، ولا تدين له بالولاء . وقد

وقعت هذه المحاولة عقب وفاة سعد بقليل ، وبعد فشل فتح الله بركات فى الوصول إلى زعامة الوفد ، بفضل مساعى مكرم عبيد الذى كان يخشى من سطوة شخصية فتح الله بركات ، وبراعته فى المناورة السياسية ، وقوة صلاته بزعماء الريف وأعيانهم . فقد قامت الهيئة التى عرفت بالوفديين السعديين ، والتى ذهبت فى التاريخ الحزبى لبلادنا ، باسم (السبعة ونصف) والتى كانت تضم فتح الله بركات ، وحمد الباسل ، وعلى الشمسى ، ونخرى عبد النور ، ونجيب الغرابلى .

ولم تيأس الدوائر ذات النفوذ من إمكان تنفيذ هذه الفكرة ذاتها ، بعد فشل محاولة إنشاء حزب الوفديين السعديين ، فقد كان واضحاً أن النقراشى وماهر ، لن يطول صبرهما على استئثار مكرم والنحاس بالسلطة فى الوفد ، وأن التصدع بسبب ذلك آت لا ريب فيه ، فلم يبق إلا أن تحضر له الظروف ، وترتب له النتائج .

وفى هذا الجو نبتت فكرة إصدار جريدة يومية فى رأس روزا اليوسف ، التى كانت قد أصدرت مجلة أسبوعية بدأت أدبية ثم تحولت إلى سياسية ، تحمست للوفد وأيدته ، وكانت من أقوى أدوات دعايته ، وأحد أسلحة الهجوم على خصومه .

وفكرت السيدة « روزا » فى أن تسند رياسة تحرير جريدتها إلى فكرى أباظه الذى اعتذر لأن ولاءه لدار الهلال ولصاحبى الدار ، ألزمه ألا يعمل فى غير صحف هذه الدار وقد بقى وفياً لهذه الدار حتى اليوم . وفكرت فى أن تسند رياسة التحرير إلى محمود عزمى ، وكان يكتب وقتذاك فى جريدة الجهاد الوفدية التى كان يصدرها توفيق دياب ، وقبل عزمى أن يترك الجهاد ، وأن يعمل فى الصحيفة اليومية الجديدة ، وحرر العقد بين السيدة روزا اليوسف وبين

محمود عزمى ، إبراهيم عبد الهادى المحامى ، الذى أصبح من زعمـــاء الهيئة السعدية ثم وصل بعد ذلك إلى رياستـــها ، بعد مقتل ماهر والنقراشى .
ثم فكرت السيدة فى ضم العقاد إلى هيئة تحرير الجريدة الجديدة ، فقبل العقاد ، بعد أن رفض أول الأمر ، بحجة أنه لا يعمل فى جريدة تحمل اسم (ست) ، ولـكن السيدة روزا عرفت كيف تعالج هـذا الرفض ، فقد رفعت مرتبه من ٧٠ جنيهاً كان يتقاضاها من جريدة الجهاد إلى ثمانين جنيهاً ، ثم قبلت أن تعجل له مرتب أربعة شهور يقبضها دفعة واحدة ، وكان لابد أن يضاف إلى هـذين الشرطين الماديين شرطاً أدبياً ، كان من قبيل تحصيل الحاصل ، هو أن تـكون الجريدة وفدية .

وقـد اشترطت صاحبة الجريدة على العقاد أن يـكتب كل يوم مقالا سياسياً ، وأن يكتب كل أسبوع مقالا أدبياً ، ولمـا انتهى الطرفان إلى الاتفاق على الشروط جميعاً ، تولى الأستاذ إبراهيم عبد الهادى تحرير العقد ، ولما عاتبت السيدة روزا العقاد على رفضه العمل فى جريدة تحمل اسم ست ، خفف أثر هذا الرفض ، بقوله أن اعتراضه كان ينصب أصـــلا على العمل فى جريدة تحمل اسم شخص أيا كان هذا الشخص ، يتساوى عنده أن يكون سيدة أو رجلا .

وقد توجس مكرم من إصدار الجريدة اليومية الجديدة ، ومن خروج العقاد وعزمى من جريدة الجهاد للتحرير فيها ، فقد كانت الجهاد ، جريدة مكرم تأتمر بأمره ، وتتلقى منه الوحى ، ولما هاجمت الجريدة الجديدة ، وزارة نسيم ، التى جاءت بعد سقوط وزارة إسماعيل صدقى ، ثم عبد الفتاح يحيى ، وكان واضحاً أن نسيم على ما سنرى فى فصول هذا الـكتاب — جاء ليلعب دوراً جديداً فى السياسة ، هو خلق دستور جديد ، تتخذ الإجراءات لوضعه ، وتطول هذه الإجراءات ، فتبقى البلاد فترة بلا دستور ، فى انتظار دستور جديد ، تشغل

الأذهان بوضعه وبالمناقشات التى ستدور حوله ، وبالانقسامات والفرقة التى تخلقها هـــذه المناقشات فتتسـع الفرصة للانجليز لمزيد من العبث فى البلاد ، ولمزيد من الخوض فى أحشاء السياســة المصرية وإفسادها وتفتيت وحدة الأمة .

وقد كان الشبان فى تلك الفترة ، قد وصلوا إلى شىء من النضوج السياسى، أعانهم على الاستقلال عن الأحزاب ، وتـكوين رأى خاص بهم ، فرأوا فى تأييد الوفد ، لوزارة نسيم ، وفى تلـكؤ نسيم فى إعادة دستور سنة ١٩٢٣ وفى التحكك فى فـكرة وضع دستور جديد عن طريق جمعية وطنية منتخبة ، اخطاراً وطنية ، لا يستطيعون السكوت عليها ، وأن الموقف لم يعد يحتمل أن يختلف زعماء الأحزاب على غير شىء مفهوم ، وأن الساعة حانت لأن يتحدوا ليقفوا صفاً واحداً ضد بريطانيا ، ليطلبوا معاهدة تنهى الوضع القائم . وقد أثبتت الأيام أن هؤلاء الشبان الذين كانوا حسنى النية بلا جدال ، والذين كانوا أكثر نضوجاً من زعمائهم ، قد حققوا أملا قديماً لبريطانيا ، فقد كانت بريطانيا منذ أخفقت ثورة سـنة ١٩١٩ تتمنى أن تتحد الأحزاب ، لتنتزع منهم جميعاً ، معاهدة تلزمهم كافة ، وتحول بين المزايدات السياسية التى يخافها الإنجليز ويكرهونها .

فى هذا الجو ، خرجت جريدة العقاد وعزمى اليومية السياسية ، وقد كان لـكل من العقاد وعزمى سبب يدعوه إلى مهاجمة وزارة نسيم ، وألا يلتزم بالخط السياسى الذى يرسمه الوفد لمهادنة تلك الوزارة .

كان للعقاد صديق هو الأسـتاذ طاهر الجبلاوى ، نقل فى عهد الوزارة السابقة على الوزارة النسيمية ، تنـكيلا به لوفديته ، ولصلته بالعقاد ، فلما جاءت الوزارة النسيمية ، انتظر العقاد أن يعاد صديقه إلى القاهرة ، ولـكن

نجيب الهلالى وزير المعارف فى تلك الوزارة — لأمر ما — لم يعده إليها ، فاستشاط العقاد غيظاً ، وأطلق على الوزارة عموما — وعلى نجيب الهلالى خصوصا — حملة عنيفة .

أما محمود عزمى ، فقد كان خصما لوزير المالية فى تلك الوزارة ، المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا — والظاهر أنهما كانا زميلى دراسة ، وكانت بينهما ما بين الزملاء الأنداد ، من منافسات . وغضب الوفد من حملات الجريدة على الوزارة ، وانزعج الإنجليز منها ، وتقول السيدة روزا فى كتاب (ذكريات) أن دار المندوب السامى البريطانى ، أوفـدت إليها رسولين عرضا عليها خمسة آلاف جنيه كدفعة أولى مقابل وقفها للحملة على وزارة نسيم ، على ان تقبض شهريا ألفى جنيه وكان أحد الرسولين تاجز ورق والثانى صحفياً وهذه الرواية ، تزيح طرفا من الستار عما كان يجرى فى دنيا السياسة والصحافة فى تلك الآونه ، فقد كانت الدوائر السياسية كلها تنفق عن سعة على دور الصحف ، وعلى الصحفيين ذوى التأثير ، وإذا كانت دار المندوب السامى قد عرضت كل هذه المبالغ على جريدة يومية ناشئة كانت لا تزال فى مهب الريح ، وكان فى وسع الوفد أن يقضى عليها ، كما ثبت بعد ذلك ، فـكم كانت تدفع للجرائد الـكبرى الراسخة القدم ، الطويلة العمر .

وقد استدعى النحاس ، الأستاذ العقاد ، ليبلغه عدم رضاء حزب الوفد عن حملات الجريدة على وزارة نسيم ، وكان النحاس آنذاك فى الاسكندرية فسافر العقاد وقابله هناك ، فأظهر النحاس استياءه من الحملة على الوزارة فقال العقاد أنه يحمل عليها لأنها انحرفت فهـى تماطل فى إعادة الدستور وتعمل لصالح الإنجليز ووزير معارفها نجيب الهلالى يضطهد الوطنيين .

فقال له النحاس ، ولـكنى أؤيدها ، وأنا زعيم الأمة فماذا أنت صانع ؟

ويقال أن الأستاذ العقاد نظر حواليه فوجد فى الحجرة بضعة أشخاص ، فقال له أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك ، ولكنى كاتب الشرق بالحق الإلهى .

ولو صحت هذه الرواية ، لكانت جديرة بأن تضحك ، فزعيم حزب لايناقش أكبر كتاب هذا الحزب ، وإنما يدخل معه فيما يشبه المناطحة ، فالزعيم يتحدى بسلطة الزعامة ، والكاتب يقول أنه كاتب الشرق ، بالحق الإلهى ولست أدرى ماهو هذا الشرق الذى يعنيه الكاتب الكبير ، أهو الشرق الأدنى ، أم شرق إيران والهند والصين واليابان الذين لا يقرأون للعقاد ، ولم يسمعوا عنه . ثم ما هو الحق الإلهى ، الذى يجعل من الكاتب كاتباً للشرق أو الغرب .

ويقال أيضا أن العقاد ، أخرج قلما صغيرا من جيبه وقال إنه لن تنتهى برية هذا القلم ، إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة .

وقد صاحبت هذه التجربة الصحفية ، ملابسات فكاهية ، ترينا جانبا من خلق العقاد . من ذلك أن الجريدة استعانت بمصور كاريكاتورى ، وكان المصور يتلقى أفكار رسومه وصوره من المحررين ، وقد طاب للعقاد يوما أن يشارك فى هذا العمل ، فاستدعى المصور ، وأخذ يشرح له فكرة الصورة الكاريكاتورية ، فإذا هى أقرب أن تكون مقالا من أن تكون فكرة كاريكاتورية ، سريعة وقصيرة ومباشرة . وأخذ المصور يستمع للشرح محاولا أن يقتنص من هذا الشرح الفكرة الفكاهية فلم يستطع ، ودخل أحد الصحفيين الذين اشتهروا بمداعباتهم ، وبرواية الفكاهات ، فروى له العقاد فكرته ، وانتهى منها والصحفى يظن أنها لم تنته بعد ، فإذا العقاد يثور ويهيج هياجاً شديدا ، لأنه توهم أن هذا الصحفى يحاول أن يشعره ببرود فكرته ثم يقول له :

— أنت مش راضى تضحك ليه .. ؟

عاوز تقول أن نكتتى بايخه ؟ أنا بقـالى عشرين سنة بقول نكت .. أنا نكتى أحسن نكت فى البلد ».

ومن فـكاهات العقاد فى تلك الفترة أيضا أنه لما صدر العدد الأول من الجريدة ، لاحظ العقـاد أنه كتب فى الصفحة الأولى (ابدأ بالصفحة الثانية) وكانت مقالة محمود عزمى ، منشورة فى تلك الصفحة . وكانت مقالة العقاد فى الصفحة الأولى ، ففهم من تلك العبارة أن الجريدة تريد أن تقول لقرائها أن الجانب المهم من الجريدة يبدأ بالصفحة الثانية ، فلا تهتموا بالصفحة الأولى ، وهو تصور لا ندرى كيف خطر على بال العقاد ، ولـكن العقاد ثار ثورة مصرية وأيقظ صاحبة الجريدة بمكالمة تليفونية فى الصباح المبكر ، وكانت قد قضت الليل كله ساهرة بجانب العدد الأول ، وأخذ صوته يتفجر فى سماعة التليفون وكأنه شظايا قنبلة ولـكنه هدأ ، وفهم واستمر فى العمل ..

غير أن الوفد نجح فى آخر الأمر فى إسقاط جريدة روزا اليوسف ، ثم فى إغلاقها ، ومرت على العقاد أسوأ فترات حياته ، فقد كانت الجرائد إما وفدية وإما غير حزبيـة ، لا تستطيع أن تستكتب كاتبا حزبيا له كل الخصومات والعداوات التى كانت للعقاد . فرأى العقاد نفسه بلا عمل ، وبلا أمل فى عمل ، ومرت عليه الأيام بطيئة ثقيلة ، والأزمة لا تريد أن تنفرج والخوف من الفضيحة ، ومن التشرد ، يزداد يوما بعد يوم ، على أعصاب العقاد ، وفى هذه الأيام زدت معرفة بالعقاد ، فقد كان يكثر من تردده على مكتبى ، وفى مكتبى حررت له عقد بيع جميع النسخ التى كانت باقية عنده ، من كتابه عن سعد زغلول ، وكانت تعد بالآلاف ، اشتراها دفعة واحدة مصطفى محمـد ، صاحب المـكتبة التجارية الـكائنة فى أول شارع محمد على ، ودفع له مائة جنيه ، أبعدت عنه شبح اليأس قليلا ، ومنحته فترة يتنفس فيها فوق سطح الماء ، وفى هذه الفترة فرغ الإنجليز

من مفاوضة جبهة الزعماء على معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وكانت جمعية مصر الفتاة تصدر مجلة أسبوعية ، فاستكتبته مقالين أو ثلاثة ، ضد هذه المعاهدة ، وكانت تدفع له عن المقال عشرة جنيهات قبلها على مضض . فى تلك الأيام ، كان العقاد يتجلد وهو يعانى أشد الآلام ، بسبب مخاوفه السوداء القائمة التى لم تطلقه من أسارها ، حتى انتهت الأزمة ، وعاد إلى العمل ..

وقد عرفت يومذاك أن العقاد ، كان يحمل معه فى الغدو والرواح ، زجاجة ، صغيرة ملأها سما زعافا ، أعده ، لساعة تستحكم حلقات الأزمة ، ويعز العزاء .

ولكن الله سلم ، وعاش العقاد بعد ذلك سنين طويلة ، زاد فيه اسمه ذيوعا ، وزاد فيه عمله نجاحا ، وتوالت آثاره الأدبية ، ولم يعرف من الضيق ما عرف فى تلك الأيام .

* * *

هذه الحقبة من حياة العقاد الصحفية ، كانت أغنى الحقب وأحفلها بالحركة ، وأبعدها أثرا فى تاريخ مصر الحزبى .

فقد انتهت الملاطفات التى صاحبت ميلاد هذه الجريدة اليومية الوفدية إلى معركة سافرة بين الوفد ممثلا فى شخص مكرم عبيد ، وبين الجريدة ، ممثلة أساسا فى شخص العقاد . حمل العقاد على مكرم ، وحمل مكرم على العقاد ، وكانت حملات ذات دوى ضخم ، أمتعت القراء الذين تطيب لهم هذه المعارك الحامية ومتابعة القذائف الكلامية المتبادلة . ولا يزال إلى اليوم عنوانا مقالين من مقالات العقاد ، عالقين بأذهان الذين شهدوا هذه المعارك وقرأوا تلك المقالات وقد كان أحدهما « مكر العبيد » والثانى « لسنا عبيدا يا عبيد » وقد رمى مكرم عبيد فى هذه المقالات العقاد ، بأنه عمل مع الإنجليز فى الرقابة على الصحف إبان

الحرب العالمية الأولى ، وهو أمر صحيح ، لم يذكره العقاد ، وسنعود إليه حالا
وفى هذه الفترة أصبح العقاد ، إلى جانب كونه كاتبا من أكبر الكتاب ، أشبه شىء بالزعيم ، لأنه خرج على الوفد ، أقوى الأحزاب فى عصره ، ولأنه دخل فى معركة مع مكرم ، وقد كان أقوى رجال الوفد ، ومصدر القوة فيه .

وفى هذه الفترة فكر حزب مصر الفتاة أن يقيم اجتماعا سياسيا فى يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ ، على أن يكون العقاد من خطبائه ، ولكن وزارة نسيم منعت الاجتماع فى نفس اليوم وكنا قد اجتمعنا فى منزل العقاد فى مصر الجديدة ، فبدا ان هناك رأيين ، رأى يقول بإذاعة امر المنع قبل موعد الاجتماع وآخر يقول باخفاء امر المنع ، حتى يذهب المدعوون إلى الاجتماع فى موعده ومكانه ، فيكون من تجمعهم ، ثم عودتهم ، مظاهرة تعوض عن الخسارة الناجمة عن منع الاجتماع ، وأذكر إنى ذهبت إلى مكان الاجتماع وكان فى قصر آل لطف الله بالزمالك ، واستطعت أن أدخل إلى القصر ، وفطن البوليس إلى وجودى ، فدخل وألقى بى ضابط طويل ضخم ، من نافذة الدور الأرضى مستعينا بعدد غير قليل من العساكر حاملى الهراوات ولابسى الخوذات .

* * *

رأيت العقاد ، أول ما رأيته فى بيته بمصر الجديدة وهو البيت الذى عاش فيه أكثر من ربع قرن ، والذى مات فيه . وكانت مناسبة الزيارة ، طلب مقال لعدد خاص من مجلة المصور ، اعتزمت لجنة مشروع القرش إصداره ، وكنت قد عرفت العقاد من مقال نشر فى صدر جريدة البلاغ سنة ١٩٢٩ عن أحمد لطفى السيد . ولم أكن من قراء البلاغ .

ولكن لا أكتم القارىء أن المقال الذى قرأته عن أحمد لطفى السيد

أعجبنى من كل جانب ، فقد كتبه العقاد مهاجما للطفى السيد وزير المعارف ، فى وزارة محمد محمود باشا التى اشتهرت بوزارة اليد الحديدية ، فهمت أن هذا المقال كان حلقة فى سلسلة ، يكتبها العقاد عن وزراء محمد محمود ، واحدا بعد واحد ، يحللهم فيها ، ويكشف عن سقطاتهم ، ولم أقرأ شيئا من هذه السلسلة ، لا ما سبق منها المقال المكتوب عن لطفى السيد ، ولا ما لحقه . وما أعجبنى فى مقال العقاد ، أنه لم يكن هجوا صرفا ، فقد أيد كل تهمة أسندها للطفى السيد .

والذى أذكره الآن أننى دخلت إلى مكتب العقاد وكان فى آخر الشقة فى الناحية الشرقية القبلية منها ، ولست أذكر الآن ما إذا كان قد استقبلنى ببذلة أم فى (روب دى شامبر) كما لقينى بعد ذلك كثيرا وإن كان الأغلب عندى الآن أنه كان مرتديا (الروب) . ولست أذكر كذلك ماذا دار بيننا يومها ، ولكن لابد أن يكون حديثى معه حول مشروع القرش والغاية منه ، لعله فى ذلك اليوم لم يطل فى السؤال والتقصى ، إذ الراجح أنه سمع بالمشروع مما كتب عنه فى الصحف ، فلم يكن فى حاجة إلى مزيد من البيانات والحقائق عنه ، ولم يبق فى ذاكرتى من هذه الزيارة ، سوى أنه أهدى إلىّ كتيبا صغيرا ، ضمنه مقالا نقديا لمسرحية شوقى الشعرية (قمبيز) ، وكنت على علم سلفا بموقف العقاد من شعر شوقى ، ومدرسته الشعرية عموما ، ولا يبعد أن يكون قد تناوله فى هذه الزيارة ، ببعض الهجوم ، وخرجت من عنده ، وأنا أحمل أول كتاب يهدى إلى من كاتب من كتابنا المشهورين .

ولقد واظب العقاد بعد ذلك على إهداء كتبه إلىّ واحداً بعد واحد وكلها تحمل عبارات من التحية ، تنم عن مودة وحسن ظن .

والحق أنه لم تقم بينى وبين أحد من كبار كتابنا ، مثلما قام بينى وبين

العقاد من حب ، ومع ذلك كانت علاقتى به ، تتراوح بين الحب الشديد له ، والنقمة الشديدة عليه .

كنت أحب فيه ، بلا شك أسلوب حياته ، وسمته ، وطلمته ، فقد كان العقاد بين جميع من مارسوا الكتابة الأدبية وعاشوا منها، وعاشوا لها ، الأعزب، الذى لم يتزوج ، ومع ذلك لم تكن عزوبته ، تخففاً من قيود الزواج ، والتماسا لأسباب المتعة الجسدية ، بل كانت على العكس حياة جادة مضبوطة ، بقواعد من النظام والرتابة ، ما أحسب أن كثيرين من كتابنا المتزوجين نعموا أو شقوا بها حسبما أردت . كان العقاد يبدو لخيالنا نحن الشبان ، الممثل الأول ، لمملكة الفكر والأدب ، فقد جمع فى نفسه ، وحياته ، ما كنا نعتقد أنها صفات أهل الفكر ، والرأى . فقد كان منقطعا للكتاب والكتابة . وكان يكتب فى الأدب والفن ، ويشتغل فى الوقت نفسه ، بالسياسة ، وكان معروفا عنه أنه أقوى كتاب المعسكر السياسى الذى ينتمى إليه ، ويدافع عنه ، وكان يلقى المحاضرات ، ثم ينظم الشعر ويخطب ، ويستقبل العشرات من الشبان فى داره وكنت قد طالعت كتابين أو ثلاثة من كتبه التى جمع فيها ما سبق أن نشره من مقالات . فراقنى منه أنه كان يطوف بنا على الكثيرين من كتاب أوروبا ، وليس هناك أكثر إرضاء لكبرياء الشاب المحب للأدب ولذوقه وفهمه للأدب ، من أن يرى نفسه قادراً على أن يسمع أسماء كبار الكتاب ، وأن يعرف شيئا عن حياتهم وأن يحفظ اسماء كتبهم وأن يكون قادراً على ترديد بعض آرائهم وكأنه قرأهم فى لغتهم وقد كانت هذه وظيفة العقاد ، والمازنى ، وسلامه موسى وهيكل وزملائهم فى حياتنا الأدبية ، أو دينهم فى أعناق الجيل الذى جاء بعدهم . لقد فتح هؤلاء لنا نافذة المعرفة على أوربا ، ووضعونا فى قطار ، أشبه شىء بالقطار الذى تعده (مدينة الملاهى) وساحات (اللونابارك) لروادها ، فتنقلهم به فى انفاق ، وترفعهم إلى جبال متوجة هاماتها بالثلج ، وتنزلهم إلى وديان خضراء يانعة مصنوعة كلها

من خشب (الأبلا كاش) ، والورق القوى ، الملون والمرسوم بريشات الرسامين والمصورين . فيحسب الركاب ، أنهم طافوا بكل هذه الأقاليم ، ورأوها رأى العين وهم لم يبرحوا مكانهم فى القطار الصغير ، الذى يشبه اللعبة إذا قورن بالقطار الأصيل. لقد أسمعنا العقاد والمازنى وهيكل أسماء « نيتشه »و «دوركايم» « وأناتول فرانس » « وديكنز » ، وحدثونا عن مدارس الفكر ، وأساتذة الرأى ، ولكن فى عجالات قصيرة ، وإشارات سريعة ، فأثاروا فى نفوسنا الرغبة فى الاستزادة من المعرفة والعلم بهؤلاء ، وأزالوا الحاجز الذى كان قائماً عجالات قبل بين حركات الفكر والرأى فى بلادنا وفى بلاد أوروبا . وإن كانت المدرسة السابقة على هؤلاء ، بدأت تترجم كتباً كاملة لبعض كبار كتاب أوروبا مثل جوستاف لوبون ، وجون ستوارت مل ، وغيرهم ولكنها كانت كتباً قليلة العدد من ناحية ، ولم يكن الأدب ولا الفن من موضوعاتها من ناحية أخرى .

ومضت الأيام ، فازداد مع مضيها ، اقتراباً من العقاد ، ويزداد منى اقتراباً ، حتى جاءت أيام ، كان العقاد يكثر التردد فيها على مكتبى للمحاماة فى شارع الساحة (رشدى الآن) ، وقد كنت أقيم فى ناحية منه ، وأزاول عملى فى ناحية ثانية ، وفى ذات يوم دخل العقاد فلم يجد ساعى المكتب فى مكانه عند الباب ، فدفع باب حجرة فإذا به وجهاً لوجه ، أمام بعض قريباتى ، ففزعن ، وعاد وهو يتعثر فى خجله .

ولما مر العقاد فى المحنة الكبرى من محن حياته التى تحدث عنها هو كثيراً ، والتى حدثتك الآن عنها ، كنت أراه تقريباً كل يوم .

وقد ترافعت عن العقاد فى إحدى قضاياه الصحفية مع نخبة من كبار المحامين وشبابهم ، ولكنى استأثرت دونهم بالكلام مع واحد من كبار المحامين

ولما خرجنا من لدن القاضى ، شكرنى وهو يقول : يا مولانا انت كنت معمر زى المدفع » وأفرج عنه . وضمنا سجن الاستئناف سوياً ، وإن كان كل منا قد نزل هذا السجن لسبب، فقد دخل السجن متهماً فى قضية صحيفة ، وكنت آنذاك متهماً فى قضية شروع فى قتل رئيس الوزراء .

وضمنا معسكر سياسى واحد — لفترة — تلك هى فترة معارضة معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وزرت العقاد فى بيته صباحاً ومساءاً ، واستكتبته فى الصحف ، وكتبنا معاً فى مجلة الضياء ، التى كان يملكها المرحوم عبد الحميد حمدى .

فى مطلع صلاته به ، حدث أن الأستاذم . ن ، وكان زميلا لبعض أصدقائى فى الدراسة ، ثم سبقنا إلى الاشتغال بالصحافة ، ونحن لا نزال فى دور التحصيل فى الجامعة — أخبرنى بأن الأستاذ العقاد ، ثائر علىّ ثورة جامحة ، وأنه يقول: «لا فتحى رضوان ولا أجعص منه يستطيع أن ينال من العقاد قلامة ظفر؛ أو يهز فيه شعرة » ولم أكن قد قلت فى حق العقاد شيئا مطلقا ، أو شيئا يستوجب هذه الثورة على وجه خاص ، فأرسلت إليه خطابا — وكنت إذ ذاك مريضاً مرضاً خطيراً — أبدى فيه دهشتى مما بلغنى وأنفى له أننى هاجمته أو ذكرته بسوء وقد سرنى أعظم السرور ، إنه ما كاد يتسلم خطابى ، حتى بادر بالرد على مصدقاً لدفاعى ، ومعتذراً عما قال . ويجرنا هذا إلى الحديث عن الشعور بالاضطهاد الذى كان يلازم العقاد ، فالعقاد كان يتصور أن له خصوماً يأتمرون به ، ويفسر كثيراً من الأمور التى تبدو لغيره عادية ، فى ضوء يقينه بأنه هدف مؤامرة وقد رماه أحد خصومه السياسيين فعلا — وكان طبيباً — فى مقال ، بأنه مريض (بالبرانويا) وهو مرض عقلى . وقد كان شعور العقاد بالاضطهاد ، يشتد أحيانا ، فيتوهم الإهانة فى أى شىء ، ويفسر أكثر ما يقال

عنه أو له ؛ بأن الباعث من ورائه النيل منه . وقد حدثنى أحد أصدقائى أنه كان يتحدث مع العقاد عن الآنسة (مى) ، وكانت فى أخريات أيامها ، رحمها الله ، تشكو مرضا عصبياً ، فأخذ العقاد يصف أعراض هـذا المرض ، وهى أعراض مرض الاضطهاد ، وفجأة توقف العقاد عن الكلام ونهض من مكانه ، ودخل إلى حجرة نومه ؛ دون أن يستأذن محدثه أو يعتذر له .

وقد رأيت العقادفى إحدى انفجارات غضبه ، فى دار جريدة البلاغ ، فى سنة ١٩٣٨ ، فى أعقاب إقالة الوزارة الوفدية النحاسية ، التى وليت الحكم بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ ، وكان الظن عند الوفديين أنه لم يعد بعد هـذه المعاهدة ، للملك من السلطان ما كان له من قبل ، وأن الإنجليز عظيمو الشعور بجميل الوفد ، لأنه هو الذى احتمل أكبر المسئولية فى إبرام هذه المعاهدة بحكم كونه صاحب الأغلبية فى البلاد ، وأنهم لذلك سيطلقون يد الوفد فى البلاد ويؤيدونه ضد الملك . ولكن الملك فاروق ، بتأثير من حوله من مستشاريه وفى مقدمتهم على ماهر ، تخلص من النحاس ، بعد حملة صحفية حامية قامت بها جريدة البلاغ ، وجريدة مصر الفتاة ، تعقبتا بها مفاسد حكم الوفد ومحسوبياته واعتدائه على الحريات ، ورأى الملك أن يعبر عن تقديره للذين ساهموا فى هذه الحملة فمنح عبد القادر حمزه صاحب جريدة البلاغ رتبة الباشوية ، ولم يظفر العقاد بشىء . ولو لم يكن العقاد شديد الحساسية ، لأدرك بالضبط دافع الملك ومن وراء الملك على هذا التصرف . فالعقاد ، وقف فى مجلس النواب ـ وكان أحد أعضائه ـ يقول أن البلاد مستعدة لسحق أكبر رأس تفكر فى المساس بالدستور ، وكان واضحاً أن المقصود من هذه العبارة هو الملك فؤاد ، وقد حفظها الملك له ، حتى حل برلمان سنة ١٩٣٠ ، ثم قدمه إلى التحقيق فى الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٠ ، بتهمة العيب فى الذات الملكية فى مقالات نشرت تباعاً فى إحدى الصحف اليومية ، وقد حكم عليه فيما بعد بالحبس تسعة أشهر انتهت فى الثامن من يوليو سنة ١٩٣١ .

وإذا كان هذا كله يدل على سوء العلاقة بين العقاد وبين الملك ، فقد حدث فى خلال حبس العقاد ، مازاد فساد علاقته مع على ماهر رئيس ديوان الملك سنة ١٩٣٧ ، فقد كان على ماهر أثناء حبس العقاد وزيراً للعدل فزار العقاد فى زنزانته ، وحياه ، فلم يرد عليه العقاد التحية ، ولم يلتفت إليه مبالغة فى تجاهله .

وقد سمعت رواية هذه الحادثة من كل من العقاد وعلى ماهر . أما على ماهر فيقول إنه قصد من زيارة العقاد فى السجن ، أن يشعر المسئولين فى مصلحة السجون ، وفى سجن مصر بالذات حيث كان العقاد محبوساً ، بأن الحكومة توصى بحسن معاملته ، دون أن تقول ذلك صراحة ، أما العقاد فيقول أن زيارة على ماهر له كانت من قبيل الشماتة به ، والانتقام منه ، لأن على ماهر كان قد رشح نفسه فى انتخابات سابقة ، فى دائرة الخليفة ، حيث يقع سجن مصر الشهير بسجن (قره ميدان) ، وكان للوفد مرشح فى هذه الدائرة وذهب العقاد يزكى مرشح الوفد فى خطبة انتخابية فقال مهاجماً لعلى ماهر ، لقد أحسن على ماهر اختيار دائرة الخليفة ، لأن سجن قره ميدان بها ، وليس هناك من يطمع فى الحصول على أصوات نزلاء سجن «قره ميدان» قاطبة سوى على ماهر . فأسرها على ماهر فى نفسه ، ولما زج بالعقاد فى سجن قره ميدان ، اكتفى على ماهر بزيارته ، وكأن لسان حاله يقول : من مناياصاحبى نزيل سجن قره ميدان ، وزميل سكانه ؟

ولا ندرى أين الحقيقة فى هاتين الروايتين ، ولعلها فى الروايتين معاً فعلى ماهر ، أراد أن يبدو فى ظاهر الأمر ، فى ثوب التسامح ، والحاكم واسع الأفق الذى ينسى الاساءة ، ويزور خصمه فى محنته ، متناسياً الماضى ، وفى هذا مافيه ، من إيلام لنفس خصمه ، سواء حملها على محمل التسامح ، أو حملها على محمل الشماتة .

ولـكن العقاد كان جديرا بأن يعرف أن الملك وقد سب هو أباه ، وأن مستشار الملك وقد سبه كـذلك ، لا يحبان أن ينسيا له إساءته لهما ،وأن يمنحاه رتبة الباشوية أو البـكوية ، وكان اليق به أن يتجمل بضبط النفس ولا يثور ثورة مضرية لحرمانه من اللقب ، وهو الأديب الذى يزهو بمكانته الأدبية بين مواطنيه ، وبعزة القلم ، وسلطان أهل الفـكر ، ولـكن العقاد لم يبذل جهدا فى إخفاء غضبه بل إنه أسرف فى إظهاره إلى حد بلغ معه صوته إلى آخر الدار ، وكان عبد القادر حمزة فى حجرته غير بعيد منـــه وكان من الذين أنعم عليهم بالباشوية كما قلنـا . ولست انسى منظر العقاد وهـو يقول : قـد تقولون إن الأديب فى غنى عن الألقاب ولـكن أما وقد منحت الدولة للأدباء ألقابا ، ففيم حرمان العقاد وحده ؟ إذا كان اللقب قد منح للمكانة فمن هو الذى يفضلنى مكانة ، وإذا كان للمساهمة فى محاربة الطغيان الوفدى فأى قلم حارب هذا الطغيان محاربتى ؟

ولم نستطع يومها ان نهدىء من ثورة غضبه .

والعقاد إذا خلا لنفسه ، شملت وجهه ، تقطيبه ، فهو لا يشاهد وحيدا ، إلا عابسا ، ومع ذلك فهو من أكـثر الناس ميلا إلى المداعبة وإلى الضحك وإذا ضحك قهقه وسمع له صوت فيه جهامة لا تحس معه بمرح صاحبه بل يقع فى روعك منه أنه يصطنع الضحك ولا يضحك . ولـكنه فى حقيقة الأمر يضحك من قلبه ، ويحب أن يروى المفارقات ويكرر روايتها. وقد سمعت منه كـثيرا نوادر من تابعه الحاج أحمد حمزه ومنها أن خدوشا أصابت تمثالا نصفيا للعقاد ،أهداه إليه بعض طلبة الفنون فقد ضبط العقاد تابعه وهو يحمل فى يده فرشاة معتزما أن يعالج تلك الخدوش وكأنه فنان أصيل فقد وقف يتأمل التمثال متهيئا لإصلاح ما اصابه من عطب .

كما روى من فكاهات هذا التابع ما حدث منه حينما طلب إليه أن يخبره بأسماء من سألوا عنه فى التليفون ، فلما عجزت ذاكرة الحاج أحمد أن تعى الأسماء طلب إليه الأستاذ العقاد أن يقيد فى ورقة كلما خاطبه أحد ، فجاء العقاد من الخارج فوجد ورقة مكتوبا عليها « واحد تكلم ، واحد تكلم ، واحد تكلم » ففهم العقاد من ذلك أن ثلاثة سألوا عنه فى التليفون دون أن يعرف من هم ، فكتم العقاد ضحكه ، وغيظه معا ، وأفهم الحاج أحمد أن المطلوب كتابة أسماء الذين يسألون عنه ، ولبى الحاج أحمد الأمر ، وقدم للعقاد كشفا خلط فيه الأسماء خلطاً فالنقراشى هو المراشى ، وطاهر راشد هو طاهر منشه وهكذا .

والعقاد ممن ينامون بعد وجبة الغداء صيفا وشتاء ، وقد رأيته مرار ، وقد استيقظ من نومة الظهر ، جالسا فى حجرة الاستقبال بمنزله فى بيجامته دون الروب ، وقد انتفش شعره قليلا وبدت على وجهه علائم اعتلال المزاج ، فى انتظار فنجان قهوة فإذا جاءه الفنجان احتساه صامتا . ثم يعتدل مزاجه شيئا فشيئا حتى يصفو وينطلق فى الكلام .

والعقاد إذا جلس منصتا ، أو شرد ذهنه طرق رأس إبهامه بالأصبع السبابة وراح يطرقها هكذا زمناً طويلا .

وهو يكثر من استعمال كلمة مولانا ، فأصدقاؤه القريبون إلى قلبه ، ومن يحب التودد إليهم يخاطبهم بـ (يا مولانا) . وأحيانا يقول لمحدثه يامولانا على سبيل السخرية أو الاستخفاف .

وقد كان العقاد فى أول الأمر يكثر من توبلة كلامه بالكفريات ، فقد كان يشير إلى الله بقوله (صاحبنا اللى فوق) وفى يوم كنا نتكلم عن القرآن ثم طال بيننا الحديث حتى وصلنا إلى باب مكتبى فوقفنا فيه على عتبة الباب ،

فقال تعليقا على سورة الناس : لو نسبوا إلى هذه السورة لتبرأت منها » ثم راح يتلوها مكررا كلمة الناس فى ختام كل آية هازا رأسه علامة الاستهجان .

وفى ذات يوم جاءنى العقاد يقول أن الناشر مصطفى محمد ، قال له أن الدكتور هيكل قد اقتنى بيتا من ربحه من كتاب محمد عليه السلام ثم ضحك وقال: والله لأكتبن لهم عن السيد البدوى ، لا عن سيدنا محمد ولنبنين لنا عمارة» ثم ينطلق ضاحكا ولكن الإنصاف يقتضينى أن أقول أنك كنت تحس وأنت تسمع العقاد وهو يقول هذا الكلام أنه يقوله من طرف لسانه وأن قلبه يفيض حبا للرسول ولكبار صحابته وأنه من أكثر الناس إيمانا بالإسلام وبالفعل نضح هذا فى كتب العبقريات التى بدأت بكتابه عن الرسول ثم انتظمت الخلفاء الراشدين وبعض أهل البيت وختم حياته بسلسلة متماثلة من الكتب والرسائل عن الإسلام حقائقه وأباطيل خصومه، والفلسفة القرآنية والإنسان فى الإسلام . والعقاد هو ثالث مفكر فى مصر عرفته بدأ حياته وكأن العقيدة الدينية لا تشغل مكانا فى قلبه ثم ينتهى بهم الأمر إلى الدفاع عن الإسلام فى حماسة وحرارة ، وإلى الكتابة عنه فى مثابرة ومواظبة .

وقد روى سعيد العريان عن صادق الرافعى شيئا يتصل بهذا الشأن قال الرافعى : سعيت لدار المقتطف لأمر فوافقت العقاد هناك ، ولكنه لقينى بوجه غير الذى كان يلقانى به فاعتذرت من ذلك إلى نفسى بما ألهمتنى به نفسى وجلسنا نتحدث وسألته الرأى فى « إعجاز القرآن » (١) فكأنما ألقيت حجرا فى ماء آسن فمضى يتحدث فى حماسة وغضب وانفعال كأن ثأر ابينه وبين إعجاز القرآن ،ولو كان طعنه وتجريحه فى الكتاب نفسه لهان على ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه » .

---

(١) كان لمصطفى الرافعى كتاب عن « إعجاز القرآن » .

والعقاد وفىّ للأشياء والأماكن وفاءه لأصدقائه ، أقام فى منزله الكائن بشارع السلطان سليم فى مدخل مصر الجديدة ، وكان كل ما حول هذا البيت عند بدء سكناه خلاء ، فكان يرى الصحراء حيثما امتد البصر ثم تزايد العمران فى المنطقة واحدقت به المنازل من كل جانب فحجبت عنه منظر الصحراء ، واشتدت حوله الجلبة ، وهبط مستوى النظافة ، فامتلأ الشارع بفضلات مما يرميه المارة من قشر الفاكهة من برتقال إلى جزر إلى قصب . ومع ذلك لم يفرط العقاد فى هذا المنزل ، ولم يتركه وبقى صامدا حتى توفاه الله فيه بعد زمن قرب من الأربعين عاماً . وكان يقص شعره ويحلق ذقنه عند حلاق بشارع محمد على من ناحية العتبة الخضراء وكان لا يذهب إلى الحلاق فى حانوته بل يذهب إلى المكتبة التجارية التى يملكها ناشر كتبه مصطفى محمد ويأتى الحلاق إلى المكتبة فيدير حول عنق العقاد وعلى صدره (الفوطة) البيضاء ، ويضرب فرشاته فى إناء الصابون ، حتى تصبح فقاقيع الصابون كاللبن المضروب ثم يغطى ذقن العقاد بها ، والناس رائحة وغادية ، تنظر الى الكاتب الكبير وهو فى هذه الحالة ، وكأنه يستمتع بما يراه مطبوعا على وجوههم من علامات الدهشة والاستغراب .

وقد كان طاهر الجبلاوى صديقاً له ، فلم تفسد علاقته به ، على مدى السنين والحقب مع شدة حساسية العقاد وتوهمه للاهانة وشكه فيمن حوله ومع تقلب الزمن وماطرأ على العقاد ، من صعود وهبوط ، ومع تغير الظروف السياسية ، خلال فترة الحرب وما بعدها .

وقد حدثنا الأستاذ طاهر الجبلاوى عن حياة العقاد الشخصية بما لم يحدثنا به أحد غيره من أصدقائه وأصحابه ، الذين اختلطوا به وكتبوا عنه عند وفاته .

ومما رواه الأستاذ طاهر الجبلاوى ، تكتمل لنا صورة حميمة لحياة العقاد الداخلية .

ولعل أول ما يصح أن ننقله عن الصديق ، وهو يتحدث عن صديقه الكاتب الكبير ، ما يتعلق بالصداقة ، ومن هذا الكتاب ، نرى العقاد ، مشغول النفس ، بصديقه طاهر ، يسعى لتعيينه فى وظيفة حكومية ، فلما لم يسترح فيها ، ويتركها ، يفسح العقاد داره للصديق ، ويشركه معه فى حياته ، ولما يعين فى وظيفة أخرى فى الصعيد ، يبادله الرسائل ، ويكتب هذه الرسائل فى كثير من المناسبات أزجالا ، ويدور بعض هذه الأزجال حول (ديك) يرسله الأستاذ طاهر هدية من الصعيد ، أو كلب يموت أو يختفى ، من بيته ، فيستحق التعزية ، والمشاركة فى المصاب .

ويصف الأستاذ طاهر بيت العقاد فيقول أنه يتألف من أربع حجر واحدة أعدها للنوم ، وقد توخى أن تحيط بها الشمس من سائر الجهات .. وحجرة الصالون يسميها وادى الظلال » حين ترخى عليها الشمايس الخشبية فلا يتسلل إليها الضوء إلا خطوطاً صغيرة أو رقما ينطبق عليها قول المتنبىء « دنانير تفر من البنان » .

وحجرة نوم ثانية يسميها حجرة الجبلاوى وتشتمل على سرير نحاس وخزائن تحتوى مجموعة من الكتب العربية . ثم حجرة المكتبة وبها مكتب قل أن يجلس إليه العقاد فقد كان يكتب مقالاته وهو مستلق على ظهره بحجرة نومه .

وفى ذات يوم قال صديق العقاد له أن مقالاته أثارت ضجة فى الدوائر الوزارية فالتفت إليه باسما وقال : « ألا يعلمون أنى أكتبها وأنا نائم » وعدل عن هذه الطريقة فى كتابة المقالات فى أخريات أيامه ، فأصبح يكتب مقالاته ومؤلفاته على منضدة فى حجرة الجلوس .

ويقول الأستاذ طاهر كذلك أن العقاد كان ينفق أحياناً على شراء الكتب ستين جنيهاً فى الشهر الواحد ، وأنه كان يقتنى فى مكتبته دوائر المعارف فى مختلف العلوم والفنون حتى رقص الباليه ، وعدداً كبيراً من القواميس تحتوى أكثر اللغات وترجمة لها باللغة الإنجليزية كما أن مكتبته تحتوى اسطوانات لأصوات الحيوانات جمعها للدراسة . كما تضم مكتبته مجموعة كبيرة من الكتب العلمية فى الطب والفلك وعلوم الذرة وما إلى ذلك .

ويؤشر العقاد على هوامش الكتب التى يقرؤها تأشيرات تعينه عند الكتابة على الرجوع إلى المواضع التى يحتاج إليها ، دون الحاجة إلى استعمال القصاصات والبطاقات التى يستعملها بعض المؤلفين لتعجيل الموضوعات وتحديد مراجعها فى الكتب .

والعقاد لا يستخدم الورق المسطور فى الكتابة ، وكان يستعمل الحبر الأحمر فى كتابة مقالاته ، ويقول أن هذا اللون يريح نظره .

وفى بيت العقاد عدد غير قليل من الصور الفنية من عمل فنانين مصريين كأحمد صبرى ، وصلاح طاهر ، ومحمد حسن ، وهدايت ، وشعبان زكى ، ولبيب تادرس ، كما كان يحتوى على عدد من الاسطوانات الموسيقية تزيد عن أربعمائة اسطوانة ، وقد جمعها بمساعدة صديقه حسن الشجاعى ، وكان يطرب لصوت سيد درويش ، وكان يحب إسطوانة أم كلثوم فى قصيدة إسماعيل باشا صبرى التى قال فيها :

يا آسى الحى هل فتشت فى كبدى وهل تبينت داء فى زواياها

* * *

أما غذاء العقاد فكان خفيفاً فهو يتكون من ثمرة أو ثمرتين من الفاكهة فى الصباح ، والحساء مع قطعة صغيرة من الكبد أو السمك أو الدجاج ، وقليل

من الخضر فى الظهر . وفى العشاء يقتصر طعامه على الفاكهة ، ولا يأكل الخبز ويستعيض عنه بأصابع « الباتون ساليه » .

وكان العقاد يجتمع بأصدقائه كل يوم جمعة فى جزيرة الشاى بحديقة الحيوان ، ثم نقل الاجتماع إلى منزله بمصر الجديدة، ولكل صديق من أصدقاء العقاد فى هذه الندوة ، اسم حيوان يشبهه ، فكان العقاد هو (الزرافة) وعبد الرحمن صدقى (البنجوين) ، والشجاعى (سـيد قشطه) وأحمد علام الممثل (الضبع) والدكتور أبو طايلة (القنفذ) . وكان هؤلاء جميعاً يتناولون الغداء على مائدة العقاد وكان مقرر الندوة هو الفنان أحمد صبرى ، ثم مات ؛ وتفرقت الندوة ثم عادت على صورة أخرى إذ أصبحت تضم الشبان ، من طلاب وخريجى الجامعات ، وكانت تبدأ من الساعة العاشره وتنتهى فى الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الجمعة إذ عندها ينصرف الحاضرون ، ويتناول بعضهم الطعام مع أولاد أخيه فى الشقة المقابلة لشقته — وقد ذاع صيت هـذه الندوة ، وتحدثت الصحف عنها كثيراً . ولما وقع العقاد فى الحب ، وبدأت الوساوس والشكوك تساوره ، كان يفضى بآلامه وأوجاعه لصديقه الجبلاوى فى ساعات الليل المتأخرة ويستشيره فى خواطره وأوهامه التى يبعثها الشك فى الحبيب ، وكانت له طريقة خاصة يوقظ بها صديقه ، فقد كان إلى جوار منزله معسكر الجيش الإنجليزى فكان يسمع منه البورى يردد النوبة، فيقلد هو صوت البورى ويهتف: ياجبلاوى ! ياجبلاوى ! وإذا صفا خاطره ، وهدأت نفسه ، يأخذ فى معاكسة أصدقائه فيطلب مثلا صديقه الدكتور محمد صبرى فى التليفون ، فى الليل ، فيسأله هل قرأت كتاب صهاريج اللؤلؤ فيجيب الدكتور صبرى : نعم وماذا تريد منه ؟ فيرد عليه صديق العقاد بإيعاز من العقاد نفسه: اقرأه مرة ثانية .ويعيد السماعة إلى موضعها . ويلقاه الدكتور صبرى فى اليوم التالى ، وهو يسـخط على الحياة

والبلد ومن فيه ، ويروى ماحدث له ، والعقاد يكتم الضحك فإذا جاءت الليلة التالية ، عاكساه ثانية .

وفى بعض الليالى ، يطيب للعقاد ، أن يخرج وصاحبه بالبيجامة والطاقية ، يجوسان فى الطرقات ، وقد يمران ببيت صديق ، فينظم العقاد زجلا يهجوه فيه ، ويضعه فى صندوق بريده ، وينصرف ، وقد يضع فى صندوق بريد صديق آخر ، كسرة خبز فى ظرف ثم يتقابل مع هؤلاء الأصدقاء ، ويسمع منهم رواية ما حدث لهم ، . وهو يخفى سروره وضحكه والظاهر أنه كان يفعل هذا كله التماساً للعزاء والسلوى ، فى فترة محنته العاطفية التى ضاقت لها الدنيا أمامه ، حتى إذا ما مر يوماً فى الطريق فوقف له الناس إحتراماً ، أو أشاروا إليه إعجاباً ، قال لصاحبه « إن هؤلاء لا يدرون أننى أشقى الناس جميعاً » .

ولما تأكد للعقاد أن صاحبته تخونه ، طلب من أحد أصدقائه الفنانين أن يرسم له صورة ، تنفره من الحب ، كلما رآها ، وكانت صورة فطيرة حلوى ، وعليها صرصور ، وذباب يحوم ، وإلى جانبها كوب ملىء بالعسل يحوم ، حوله الذباب ، ويغط فيه ويموت . وكان العقاد يرى فى هذه الصورة علاجا له من آلام هذا الحب الخائب .

وبعد فإنى لا أعدو الحق إذ أنا قلت أن العقـاد كان من أقرب كتابنا الكبار إلى قلبى ، وأننى كنت استخف ظله ، وأن الحديث معه كان يطيب لى ، وأنه لم أحس مايوأنه متعال ، أو فظ ، أو أنه يحب الأذى أو يفكر فيه .

ومع ذلك فما أكثر ما نقمت على العقاد . وأبادر فأقول أن تشيعه لسعد زغلول ، وانتماءه إلى حزب الوفد ، لم يفسد علاقتى به ، ولم يعكر مودتى له . بل أنى لا أذكر أن حديثا ما ، دار بينى وبين العقاد حول سعد زغلول ومصطفى كامل على كثرة ما تكلمنا فى القديم والحديث ، وفى شئون الأدب والسياسة

ولم يتحرج هو فى أن يهدى إلىّ كتاب سعد زغلول ، كما أهدى إلىّ أكثر كتبه ولم أتحرج فى أن أحرر عقد بيع كتاب سعد زغلول هذا إلى ناشره مصطفى محمد كما سبق أن قلت .

فما الذى كنت أنقمه إذن على العقاد ؟

يجدر بى أن أقول أولا أن طول اتصالى به على مدى الأعوام ، وفى أكثر من حالة ، لأكثر من سبب ، كشف لى فى العقاد ســـذاجة تدنيه فى شئون السياسة ، وفى شئون الدنيا كافة إلى ما يشبه بساطة الأطفال ، ومن الأمثلة على تصرفاته التى تشى بهذه السذاجة ، أنه حينما خرج على الوفد ، ذهب يبحث عن زعيم ، وكأنه يبحث عن شقة للايجار بل إنه مضى فى هذا السبيل إلى حد أنه كتب مقالا افتتاحياً فى جريدة صباحية ، ذكر فيه شرائط الزعيم المطلوب ، ومواصفاته ، ولم يكن باقيا إلا أن يعلن أن طالبى شغل الزعامة يمكنهم تقديم طلباتهم إليه على ورقة « دمغة ».

وكانت مقالته هذه فرصة ممتعة انتهزناها ، لنعرض عليه المرشحين لهذه الزعامة ، ليبدى فى كل منهم رأيه ، وذكر له بعضهم اسم الفريق عزيز المصرى فأخذ يسأل عن صفات فيه ، ولما قال له أحدهم أنه لن يتلقى منك وحيا ، وأنه على العكس سيسعى لأن يفرض عليك رأيه ، قام العقاد وهو يرفع يده إلى أعلى احتجاجا : يفتح الله يا مولانا ولا صاحبك اللى فوق يفرض على رأيه » .. وانفضت الجلسة على ضحك من هنا ، واحتجاج من هناك .

ثم جاء العقاد إلينا ، وقال وما رأيكم فى (محمد فريد وجدى) وكان العقاد قد اشتغل معه فى تحرير جريدة الدستور ، وكانت جريدة من جرائد الحزب الوطنى ، وكان الأستاذ فريد وجدى ، قد ترك حياة الصحافة السياسية ولم يباشر عملا سياسيا منذ سنة ١٩٠٨ ، ولم يحضر اجتماعا يضم اثنين . ولذلك كان هذا الترشيح من جانب العقاد مفاجئا لنا وهو فى الوقت نفسه صورة من

صورسذاجته التى لا تفهم من رجل اشتغل بالسياسية والصحافة منذ بلغ السادسة عشرة من عمره ، بعد أن ترك عمله فى ديوان مديرية الشرقية .

وبساطة العقاد هذه تكشف عن حقيقة شخصيته ، فلم يكن كل ما يصدر عنه من عنف وشدة ثمرة لشدته وعنفه ، بل أثرا من آثار شعوره بضعف . وكانت سماحته وكرمه وحبه لإخوانه ، وانقطاعه للكتابة والتأمل والقراءة هى مواطن قوته .

فالعقاد لا يهيج ولا يغضب ، ولا يبدو متعاليا إلا حينما يحس بضعفه وبقوة من يناجزونه أو يناظرونه .

وقد يعجب القارىء إذا عرف أن أكبر ما كان ينقص العقاد — فى نظرى — هو ثقته بنفسه ، فقد كان كل كبريائه الظاهر غطاء لهذا الإحساس ، وثمرة له . وقد كان كلفه الشديد بالشهرة — الأمر الذى لم ينكره أحد — وغرامة المتقد بشخصه ، والتغزل فى صفاته ومناقبه ، والإدلال بمواقفه من قبيل الحكة التى تصيب الإنسان فى موضع من مواضع جسمه ، فتحمله على كثرة تمرير اليد عليها ، وشدة الانشغال بها ، واتصال حديثه عنها .

ولو راجعت حياة العقاد لما وجدته قد أقدم على مهاجمة قوى ، إلا وهو مستند إلى من هو أقوى منه ، خاصم عدلى وثروت ، وهو معتمد على سعد وحزب الوفد ، وهاجم النحاس معتمدا على ماهر والنقراشى ، وهاجم هتلر وهو فى حمى الإنجليز ، ولما أحس أنه لن يجد من يحميه انقطع عن الكتابة السياسية تماماً ، مكتفيا بمهاجمة دعاة الشعر الحديث .

ولقد هاجم الملك فؤاد مرة واحدة ولكنه لم يقل شيئا فى حق فاروق حتى بعد أن لم يعد لفاروق من يلتمس لأخطائه المعاذير ، ذلك لأنه كان يكتب فى جريدة حزب لم ير من مصلحته أن يشارك فى الحملة على فاروق .

بل أنه مدح فاروق شعرا ونثرا فقال فى قصيدة :

وما اتخذت غير فاروقهـــا عمادا يحاط وركنا يؤم
ولا عرفت مثـــله فى العلا صديقا يشاركها فى القسم
فدته البلاد وفدى البـــلا د بعالى التراث وغالى القيم
مليك يلوذ به عرشـــه وكم ملك بالعرش اعتصم
وذو عـــلم تستظل الملو ك بأعلامها ويظل العلم
وراع رعيـــته عزه إذا أعز الصخر بانى الهرم
أبى الملك إلا كما شاءه منيع الجوار رفيع الدعم

وقال فى وصف لقاء تم بينه وبين الملك فاروق :

« إننى لم أسعد من قبل كهذه الفرصة الواسعة لاستجلاء طلعة المليك عن كثب والإصغاء إلى جلالته على انفراد فى جوّ لا مثيل له بين أجـــواء اللقاء والحديث لأنه جو الملك والديمقراطية ممثلين فى شخصه الكريم أجل تمثيل ، مجتمعين فى سماعه وكلماته وإرشاداته أحسن اجتماع ، لقد سمعت فى هذا الحديث الواحد كلام فيلسوف وكلام وطنى غيور ، وكلام محـدث ظريف ، وطاف بخاطرى ذكر الإيمان وذكر الوطن » ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن القصيدة التى نظمها فى مدح الملك ، كانت بمناسبة عودة النقراشى باشا من أمريكا بعد عرض قضية مصر على مجلس الأمن ، وكان الملك قد أرسل عربته الملكية لنقل النقراشى من المطار إلى القصر ، وكان هذا المسلك من الملك ، بعد أن هاجم رئيس وزرائه الإنجليز وسمى استعمارهم بالسرطان ، وامبراطوريتهم بالقرصنة جدير بالتشجيع ، وإن كانت القصيدة قد احتوت على معان لا تليق أن تصـــدر عن العقاد وهى زلة من زلاته بلا جدال .

ولـكن وصف الملك فاروق بأنه فيلسوف ، والقول بأن الجلوس إليه ،

يحرك ذكرى الإيمان فأمر لا يمكن الدفاع عنه ، فهو لا يعدو أن يكون من قبيل مدائح الشعراء والأدباء المتكسبين بأدبهم .

وقد روى العقاد فى كتابه عن سعد زغلول أن سعداً كان يغتبط بطول الجلسات التى يقضيها فى الحديث مع الملك فؤاد بقصر عابدين وأن سعدا أخرج الساعة مرة وهو عائد من هناك فقال : لقد طال الحديث خمسين دقيقة !

وفى مرة أخرى قال سعد ، بعد مقابلة مع الملك فؤاد : لقد طوانى الرجل ، وأنه لقدير .

وتحس فى الموضعين من الكتاب ، أن العقاد كان يود أن يقول ، أن سعدا استخفه السرور بمقابلة طالت مع الملك ، إلى حد أنه اعتبر خمسين دقيقة فى حديث مع جلالته وهو رئيس وزرائه ، أمراً يستحق أن يسجل ويشار إليه ، ويستعان بالساعة لبيان الوقت الذى استغرقه الحديث بالدقيقة والثانية ، ومثل هذا التعليق ، لا يليق أن يصدر عن رجل يقابل ابن الملك فؤاد وهو دون أبيه قوة وشخصية ، ورجاحة عقل ، واتساع تجربة ، فيسبغ عليه صفات الفيلسوف والديمقراطية ، والمحدث الظريف ويتدفق سروره بهذه المقابلة فى مديح مسرف للملك . على أن الانحياز للملك والرغبة فى الاجتماع به ، والاستظلال بجاهه — نزعة قديمة عند العقاد أنظر إليه يكتب فى عدد البلاغ الصادر فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٣٧ «الملك حقيقة فاعرفوها طائعين أو مكرهين» من نصر الملك فقد نصر الحق ونصر الأمة ومن تولى فعليه لعنة الحق ولعنة الأمة » .

ولقد بزغ نجم هتلر سنة ١٩٣٣ ، وشاعت الدعوة النازية فى كثير من بلاد العالم حتى وصلت إلى بريطانيا معقل الديمقراطية ، عدوة الأنظمة الملكية والديكتاتورية . وقد كانت مهاجمة هذا المذهب ، وهو فى البداية أولى لأن الناس فى حاجة إلى من يبصرهم بخطر المذهب الضار أول سماعهم به ، لكيلا يقعوا

فريسة له ، ولـكن العقاد لم يقل فى حق هتلر شيئا أو شيئا ذا قيمة ، حتى إذا قامت الحرب ، وانعقدت الخصومة بين ألمانيا بلد هتلر ، وبريطانيا سارع العقاد بتأليف كتابه (هتلر فى الميزان) وراح يعدد عيوبه ، وعيوب مذهبه فأقام على نفسه الحجة ، بأن الـكتاب كان خدمة لجهاز الدعاية البريطانية ، فبعد اندلاع الحرب بين ألمانيا وبريطانيا ، لم يعد كـتاب العقاد مطلوبا إلا لتجميع الناس حول بريطانيا وحلفائها بعد أن بات الأمر للمدفع والطيارة ، ولقد عزز العقاد كـتابه بأحاديثه فى الإذاعة التى كان يشرف عليها بدورها الإنجليز خلال فترة الحرب وما بعدها ، وقد فهم بعض شباب العرب موقف العقاد هذا الفهم فلما زار فلسطين فى سنى الحرب حاولوا اغتياله بإطلاق الرصاص عليه . ولما خيل إليه أن الألمـان سيقتحمون مصر بعد أن وصل جيشهم إلى العلمين هاجر إلى السودان .

وقد كان العقاد عنيفا غاية العنف مع خصومه من المصريين ، ولـكن لم يؤثر عنه طوال حياته السياسـية شىء عنيف فى حق الإنجليز واحتلالهم إلا ما عسى أن يكون قد قاله إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، حينما كان أسـلوب جميع الـكاتبين والناظمين والخطباء والمتـكلمين، هوأسلوب العنف والحدة فى مقاومة الاحتلال والتنديد به .

وقد كـتب العقاد سبعين كـتابا أو يزيد ليس فيها ما يعد من كـتب الوطنية إلا كـتاب غير مشهور لم يثر التفاتا هو كـتاب ١١ يوليه . وهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة ، فالعقاد تلميذ أمين لحزب الأمة عن طريق تلمذته للشيخ محمد عبده ولسعد زغلول ، وقد كان كلاهما يضمر إعجابا وتقديراً للانجليز ، بل للاحتلال البريطانى ذاته ، وكانا يؤمنان بأن هذا الاحتلال أسدى إلى مصر خيرا ولعل القول المأثور عن سعد ، والذى شهد فيه للانجليز بأنهم (خصوم شرفاء

معقولون) هو خلاصة فلسفة سعد السياسية ، وقد بدت هذه الفلسفة واضحة فى الحديث الذى دار بين سعد وبحث مندوب بريطانيا فى سنة ١٩١٨ فى المقابلة التى اشترك فيها مع سعد ، عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى فقد قال سعد ما نصه: نحن نعترف لبريطانيا بالأعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر ، فنطلب باسم هذه المبادىء أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر . ثم قال : لا نلتجىء هنا لسواك ، ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانجليزية .

وسعد زغلول كان صادقا فى كل كلمة قالها للمعتمد البريطانى يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، فقد كان — كما قلت — شاعرا بدين مصر لبريطانيا للاعمال التى يقول عنها جليلة والتى قامت بها بريطانيا ، كما كان منتويا أن يرفع الشكوى إلى بريطانيا نفسها فى الخارج فلا عراك ولا إثارة ضد بريطانيا فلم يكن يكرهها ، وإنما كان غاية سعيه أن توسع على المصريين ، وتمنحهم مزيدا من الحرية لتصريف شئون بلادهم، وأن تتفضل فتجعلهم أصدقاءها وحلفاءها ..

كل ذلك لا يقع من نفس العقاد موقع الاستنكار بل أنه يفهمه ، ويبرره ويدافع عنه ، أما أن مصطفى كامل لا يستطيب حسن تخلص العقاد ، أو حسن دفاعه، حينما طلب مصطفى من تلاميذ العقاد أن يشرحوا بيت الشعر « والمرء إن لم تفد نفعا إقامته » فعجزوا فهذه هى الخطيئة التى لا تغتفر لمصطفى كامل إلى آخر العمر .

أما أن يكون الانجليز شرفاء ومعقولين فى رأى الزعيم سعد ، فأمر هين جداً ، لا يغضب العقاد ولا يرى فيه مانعا يمنعه من العمل معه وتحت قيادته ، وأما أن يحتفل سعد بكرومر بعد أن سقط فى أثر حملات مصطفى كامل عليه بسبب حادثة دنشواى ، وأما أن يثنى كرومر على سعد فى خطبة الوداع

مقرنا اسمه بأسماء أعوان الانجليز الاقحاح وأتباعهم من أمثال مصطفى فهمى ، فشىء يمكن أن يغتفر .

ولم يحوجنا العقاد إلى دليل ، نستدل به على أسلوبه فى السياسية ، فقد اعترف فى شجاعة يحمد عليها ، إن الإنجليز كانوا يحسنون الظن به وأنهم كانوا لا يجدون مانعاً من إسناد الأمور التى تهمهم وتخصهم، إليه بل انهم فكروا فى الاستعانة به فعلا أكثر من مرة خلال الحرب العالمية الأولى وقبلها فى وقت كان الشبان المصريون الذين يقلون عن العقاد شهرة ومكانة قد أبعدوا إلى المنفى ، فى الخارج ، أو إلى المعتقل فى الداخل ، ولم يقف تفكير الانجليز فى الاستعانة بالعقاد عند حد إسناد المناصب الإدارية إليه ، بل تجاوزوا ذلك إلى ترشيحه للمهام السياسية ايضا .

ذكر العقاد بنفسه أن صحفيا إيرانيا يدعى (حسين روحى زاده) زار العقاد فى سكرتارية مجلس الأوقاف الأعلى ، ومجلس إدارة الأوقاف ، إبان عمله بهذه الوزارة ، وأنهى إليه أن (رونالد ستورس) السكرتير الشرقى بدار الحماية البريطانية يريد أن يراه فذهب إليه العقاد فى مكتبه بدار الحماية ، فدار الحديث بينهما حول شئون الأوقاف مما يتصل بعمل العقاد وتحرى ستورس من العقاد عن صفقات نما إلى علم الإنجليز أن الخديو عباس يضغط على الموظفين المختصين بديوان الأوقاف ، للموافقة عليها ، وهى عمليات تبادل بين أعيان تابعة للاوقاف وأعيان مملوكة للخديو ، أو للأوقاف الخصوصية الخديوية ، وفى التبادل نفع ظاهر للخديو ، وغبن بين للأوقاف . وأجاب العقاد بما بدا له يومذاك ولما خرج العقاد وصاحبه (حسين روحى زاده) من لدن رونالد ستورس ، فهم العقاد ، أن حديث ستورس عن الأوقاف لم يكن سوى ذريعة ، تذرع بها ليسمع العقاد ، فيحكم مما يقول مدى لياقته وصلاحيته للقيام بأعباء رياسة تحرير جريدة المؤيد التى كان يمالكها الشيخ على يوسف وكانت هذه الرياسة قد خلت آنذاك بوفاة الشيخ .

ولعلنا لسنا فى حاجة إلى أن نقول إن الإنجليز لا يتجهون إلى ترشيح كاتب كالعقاد لشغل هـذا المنصب السياسى الهام ، إلا وقد علموا سلفاً ، باتجاهاته السياسية ، وبشعوره نحوهم ، فقد كانت الغاية من إسناد رياسة تحرير المؤيد إليه ، أن يكون المؤيد لساناً من ألسنتهم .

وعاد الإنجليز — فى شخص يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف — يلتمسون العون عند العقاد إذا رشحه يعقوب صروف للسـفر إلى شبه جزيرة سـيناء ، ليكتب تقريراً صحفياً عن الوضع العسكرى هناك ، إبان الحديث عن حملة تركية تتهيأ لغزو مصر خلال سنى الحرب العالمية الأولى، وقد كان الإنجليز فى حاجة إلى من يبدد آمال المصريين فى هذه الحملة ، وكان بعض الوطنيين يعقد عليها الآمال . صحيح أن العقاد قد اعتذر رافضاً الأخذ بنصيحة الشيخ التفتازانى ، أحد مشايخ الطرق الصوفية فى تلك الأيام ولكن الدلالة فى الترشيح ، وليس فى القبول أو الاعتذار ، ولو سافر العقاد وكتب شيئاً فيه ممالأة للانجليز ، لسقط نهائيا ، ولدخل فى زمرة رجال الدعاية البريطانية والعاملين معها جهرة ، ولم يكن فى ذلك الحين ، من يقبل لنفسه هـذا الدور إلا أولاد المقطم وأصحابه وغيرهم من أعوان الإنجليز المفضوحين .

على أن العقاد لم يلبث حتى قبل أن يعين رقيبا على الصحف المصرية ، إبان الحرب العالمية الأولى أيضا — وكان مدير الرقابة بريطانيا يدعى هورنبلور وقد اختلف معه العقاد فيما يجب حذفه ، وفيما يجب تركه ، فترك العمل فى الرقابة بعد أسبوع . والاختلاف بين البريطانيين أنفسهم يقع ، فوقوعه بين العقاد وبين هورنبلور ، لا يزكى العقاد كثيراً ولا ينفى عنه أن الإنجليز لم يكونوا يتوجسون منه ، بل على العكس كانوا يطمئنون إليه ، ويودون أن يصلوا

أسبابهم بأسبابه .

لذلك ليس غريباً من العقاد أن يأخذ على الشاعر (على الغاياتى) بيتيه اللذين نشرهما فى ديوان وطنيتى ، ضمن ما انطوى عليه الديوان من قصائد ، واللذين قال فيهما :

هل سـال فى مصر الدم ؟
أم هل أفاق النـوم ؟
ومضوا إلى أهل الضـلا
ل فأعدموا من أعـدموا ؟

وقد علق على هذين البيتين بقوله :

« ولـكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت إلى الأقلام التى لا تحسن شيئاً ، كما تحسن أن تسقط معاذيرها ، وأن تمهد العذر لمن يتطلون العلل لهـا ، ولا نخال حاكما حراً ، أو مستبداً ، كان يعييه أن يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة إلى القتل وإهدار الدماء » .

ثم قال وأنه « لمن سخافة القول أن يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض فإن تـكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها عـلى منع هذا التحريض وتحريمه » .

وهو هنا يدافع عن سعد زغلول لأن القوانين التى ضيقت على الصحافة ، صدرت وسعد زغلول وزير للعدل (الحقانية) ، وفات العقاد ، أنه هدد بتحطيم أكبر رأس فى البلاد إذا مس الدستور ، وأن خصومه وخصوم الوفد ، اتخذوا من قولته هذه التى دفعت إليها حماسته لحظة ، مبررا لحل البرلمان ولوقف الحياة النيابية ، فهل يستطيع عاقل أو منصف ، أن يتهم العقاد بأنه المسئول عن

ذلك الحل ، والتعطيل . إن القائمين بشئون السياسة يدركون أن القيد على حرية الصحافة ، أو الحد من سلطة الشعب ، هما سياسة مقررة عند الملك والإنجليز ، فلا يغير فى الأمر ، أن يتطرف متطرف ، أو يعتدل ، ففى الحالين ، سيجد الملك والإنجليز ، المبرر للقيد من حرية الصحافة ، ولتعطيل البرلمان ، فضلا عن أن الصحافة التى تتلفت يميناً وشمالا ، قبل أن تقول كلمة الحق ، والبرلمان الذى يبتعـــد عن مواطن الاصطدام بالملك ، كلاهما لا يستأهل البكاء عليه ، أو الحزن له .

وأبيات الشعر التى ملأ بها الغاياتى ديوانه ، كانت مرحلة من مراحل الحركة الوطنية ، لم تخل منها حركة وطنية أخرى فالغليان ، الذى يشبه الهذيان حيناً ، والحمى حيناً ، هو رد فعل للضغط والكبت ، واليأس — والعنف ليس هو وحده الحركة الوطنية ، ولكنه صورة من صورها ، وسلاح من أسلحتها وسمة من سماتها . ولكن العقاد ، كان من مدرسة العقليين الذين يظنون أنهم قادرين على أن يستخلصوا من الإنجليز حقوق البلد ، بمثل هذا الكلام اللطيف الذى قاله سعد زغلول للسيرونجت فى يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ . والذى أثنى فيه على الإنجليز ، وشكر خدماتهم للبلاد ، وأطرى عدالتهم ووعدهم بأن يدافع عنهم ، وأن يمنحهم نقطة عسكرية على القناة ، ليحمى مواصلاتهم إلى الهند كأن مصر لا يكفيها أن تكون محتلة ، فتأبى إلا أن تعين على تثبيت الاحتلال فى بلاد غيرها .

ولو كنا ممن يفعلون فعل العقاد ، وينهجون نهجه ، لأهدرنا كل ما فعل كما أهدر هو كل جهاد مصطفى كامل الباهر العظيم وآثاره الباقية الخالده ، لأن مصطفى كامل لم يستملح (حسن تخلص) العقاد وإحدى نكاته البارعة .

فالعقاد آخر أمر ، كاتب انقطع للحياة الفكرية ، وواظب أكثر من

نصف قرن ، على الكتابة والتأليف ، والترجمة والتلخيص ، والتعليق والتعقيب ، والمحاضرة والحديث ، وقد أدخلته مواقفه الفكرية والسياسية ، السجن ، المرة بعد المرة ، وحسبت الدوائر الرجعية والأجنبية حساب مقالاته وأفكاره وقد بشر بآراء فى الشعر ، فتحت الأبواب لجيل جديد من الشعراء ، اتخذ من الشعر أداة ووسيلة للتعبير عن مشاعر النفس ، ودنياها الفسيحة ، وجاس به فى مناطق من التفكير والإحساس كانت مغلقـــة فى وجه أدبنا ولغتنا .

والعقاد بعد كل شىء ، لم يكف يوماً من التعريف برجال الفكر والأدب والسياسة ، وأبطال الفن ، وزعماء الثورات ، ومحررى الشعوب ، فى الشرق والغرب ، فى مقالات ، وكتب ، ورسائل ، فقد كان يسرف فى القراءة ، ويحشد فى بيته مئات الكتب ، يشتريها من حر ماله ، فلا يكاد يقع على فكرة أو تتحرك بنفسه ، خفقة ، إلا ويفضى بها إلى قرائه ، وكأنه يضن عليهم بشىء مما عنده ، كبر أو صغر ، عظم أو حقر . ولعل هنا موطن ضعفه ، وقوته معاً . كان يقرأ ، وكان ذهنه قد تمرس بفهم ما يقرأ والإحاطة به ، فى سرعة وسهولة ويسر ، ولكن ليست القراءة ، فهماً فقط ، إذ وراء الفهم ، التمثل ، والهضم ، والاجترار ، والأخذ والرفض ، والمزج والخلط ، والتذوق ، والتقرز ، وهــذه عمليات لم يكن العقاد يصبر عليها ، أو كان لا يعطيها الوقت الكافى ، والفرصة المواتية ، فكان فى كثير من الأحوال الوسيط الأمين النشيط بين من يقرأ لهم وينقل عنهم ، وبين قرائه العديدين . فأصبحت مؤلفاته موسوعية ، ينتقل فيها من سن يات سن إلى جيته ، ومن باكون إلى غاندى . أشتات من كل صنف وجنس ومذهب . وقد يكتب عن الواحد منهم كتاباً كاملا ثم لا يعود إليه ثانية ، كأنه ماشغل به ، أو كتب عنه .

ولعل هذا كان ضريبة فرضها العهد عليه ، فقد كانت مصر والبلاد العربية

شديدة النهم لمعرفة ما يجرى عند غيرها من بلدان أوروبا وأمريكا وآسيا .
كانت تعيد النظر فى حاضرها ، وتتهيأ لبناء وتكييف مستقبلها ، وكان الكثير قد فاتها فأصبحت فى حاجة إلى من ينقل إليها من كل واد أثراً . ولم تكن الجامعات قد أخرجت بعد ، المتخصصين ، ولم تكن الصحافة قد خرجت من دورها البدائى الذى يبيح للكاتب الواحد أن يكتب فى السياسة والاقتصاد والفن والتاريخ والدين ، وحوادث البوليس والشعر والنثر ، وكل شىء يخطر على البال . فقد كان الكتاب قلة وحاجة الناس إلى السماع والقراءة والإطلاع والتثقف والفهم لاتنفد ، وجوعهم لايسد ، وإلحاحهم لا يقف عند حد ..

ولقد لبى العقاد دعوة المجتمع الأدبية كأنشط ما يكون صاحب المتجر الذى يعرض فى محله ألف صنف وصنف ، فإذا دخلت عنده ، وجدت ما يؤكل وما يشرب وما يشم ، وما يلبس ، وما يسمع .

ومن هنا صعب على العقاد أن يكون صاحب مذهب واضح المعالم فى الحياة والأدب إلا أن يقال أنه من دعاة الحرية ، أو من حماة الكرامة الإنسانية ، وهو كلام يتسع لكل شىء ، ويضيق عن كل شىء لأن الحرية لم تعد كلمة ذات مفهوم واضح ، لا يختلف فى شأنه الناس ، ولم تعد الطرائق المؤدية إليها واحدة ولا النتائج المترتبة على كل طراز منها واحد . فقد كان هناك ثورة ١٧٨٩ فى فرنسا وكانت الحرية التى يتحدث عنها الناس ، فيفهمها الآخرون هى الحرية التى دعت إليها هذه الثورة وقامت من أجلها ولكن منذ سنة ١٧٨٩ ، جرت مياه كثيرة فى جميع الأنهار ، وولدت أفكار جديدة ، ودنيا جديدة ، واشتد الصراع بين أجزاء الفكرة الواحدة وداخل الوطن الواحد ، بل داخل الشخص الواحد . وكان عسيراً على العقاد أن يصف هذا العالم الجديد ، أو أن يعكس صداه .

لقد كان منسوبا إلى عالم آخر ، أكثر استقرارا ، وأطول بالا وأقل

حركة وقد كان العقاد مترجم هذا العالم الأمين ، والملخص لأفكاره والمقدم لأشخاصه ، والدليل لمن ينتقلون فى أرجائه . يعرف من كل شىء شيئا ، وعن كل شخص قليلا أو كثيرا ولا يتغير إذا تكلم ولكن ليس ضروريا أن يكون ما يقوله هو كلامه أو أن يكون الكلام فى ذاته جديدا وإن كان لا يسف عادة إلا إذا اشتبك فى معاركه الصغيرة أو الكبيرة وهى غالبا معارك لا تترك جروحا ولا ندوبا ..

لقد بقى العقاد ، وفيا للقلم والكتاب ، عاش فيهما ، وعاش لهما ، وقد سمعته قبل أن يموت بليلة أو ليلتين يذيع حديثا ، فكأنه الديدبان الساهر الذى يبقى فى موضعه حتى يطلع النهار ، سواء كان معه بندقية أو سيف من صلب ، أو من خشب ، فهو لم يم ولم يلتمس السبيل للراحة .

وحسب العقاد أن يكون له كل هذا فى تاريخ أمته وتاريخ لغته ، فإن هذا لو تعلمون عظيم .

الفصل الخامس

سلامه موسى

كان لسلامه موسى دور فريد فى حياتنا الأدبية فقد كان الكاتب القبطى الوحيد ، بين كبار كتابنا ،وبهذا وقع على عاتقه واجب مزدوج ، أحدهما وأولهما التعبير عن المجتمع المصرى كله، وثانيهما وأصعبهما أن يعبر عن هموم وهواجس وآلام وآمال المجتمع القبطى .

وكان واقع الحال يقتضيه أن يوازن جيداً بين هذين الواجبين حتى لا يتهمه المسلمون بأنه متعصب يريد أن يقوض دعائم الإسلام ، باسم التقدم والتطور ، الذى لم يكف عن الدعوة لهما ، ثم كان عليه أن يصور ما يشغل بال القبطى العادى والمثقف ، وأن يطلع الأغلبية من المسلمين على ما يساور المواطنين الأقباط ، وإلا اعتبر مفرطا فى حقهم .

وأستطيع أن أقول أنه نجح إلى حد كبير فى أداء واجبه المزدوج الشاق نجاحا يهنىء عليه ، فان مقدار ما رمى به من بعض الناس من أنه متعصب وأنه يعمل بدوافع يخفيها ، أقل بكثير مما ظفر به من إعجاب شباب القراء المسلمين، وتأثرهم به ، وإقبالهم على ما يكتب . واتهامه بالتعصب ، ليس صادراً دائماً عن اقتناع من رماه بهذه التهمة ، فإن المعارك الأدبية تسوغ فى كل عهد ، للمتعاركين المتصارعين أن يستعملوا كل سلاح ، وأن يسلكوا فى سبيل القضاء على خصومهم كل وسيلة ، فالكتاب المسلمون أمثال العقاد وطه حسين والدكتور هيكل قيل فى حقهم ، وعلى وجه التحديد فى عقيدتهم الدينية ، أكثر مما قيل فى سلامه موسى المسيحى .

وقد عرفت اسم سلامه موسى ، وأنا بعد طالب فى السنة الأولى بمدرسة أسيوط الثانوية ، وذلك لأن المطبعة العصرية شرعت فى نشر عدد من الكتب فى طبعات أنيقة ، كان منها حصاد الهشيم للمازنى ، ومختارات سلامه موسى ، قد دأبت على الإعلان عن مطبوعاتها فى العمود الأول فى الصفحة الوسطى من جريدة الأهرام ، وكان القسم الأول من هـــذا الإعلان ، عن كتاب لم أقرأه إلى اليوم بعنوان «خواطر حمار» ، وتحته مباشرة الإعلان عن كتاب «مختارات سلامه موسى» ، وكأن هذا الترتيب من المعلن ، كان محل التعليق داخل بيتنا وخارجه ، فقد كان أقرب التعليقات على لسان من يحبون أو يتخذوا كل شيء مادة للدعابة ، إن هذه المطبعة لا تنشر إلا خواطر الحمير وقد كان هذا حافزاً لى لأن أشترى كتاب خواطر لسلامه موسى فى أول رحلة لى للقاهرة ، وعدت بالكتاب فرحاً به وبأناقته وبكتاب حصاد الهشيم ، وقصة تاييس التى ترجمها إلى العربية الأستاذ أحمد الصاوى محمد .

وكان معنا زميل فى الفصل ، رأى فى يدى كتاب مختـــارات سلامه موسى فقال لى أن المؤلف عمه ، ثم علمت فيما بعد أن والد زميلى هذا يعمل فى هندسة الرى التى كان يعمل فيها والدى آنذاك وكيلا لها . وبهـذا كان سلامه موسى ، قريباً منا كأننا نعرفه شخصياً ، فلما علمت من زميلى أنهم من مديرية الشرقية ، خيل إلى أنى زدت منه قربا ، لأن والدى كان من هـذه المديرية مع أن صلتى أنا بالشرقية ، ومن فيها ، كانت إلى هذا التاريخ كأوهى ما تكون صلة الإنسان بموطن عائلته الأصلى .

ولما قرأت كتاب سلامه موسى الأول أعجبنى منه أنه سهل ، وأن المعانى فيه تطفو على سطح ألفاظه فالقارىء لا يحتاج إلى كد ذهنه ليفهم ماذا يريد أن يقول ، ولما بدأت أقرأ مجلة الهلال ، كان سلامه موسى يشرف على تحريرها

فاستطعت أن أعرف كل الذى يريد أن يقول بعد قراءة أربع أو خمس مقالات من مقالاته ، فقد كان يكرر نفسه ، ويعرض الفكرة الواحدة فى أكثر من مقال ، ولم تكن لديه أكثر من ست أو سبع أفكار ، وقد كان إلحاحه فى الدعوة إليها ، وإصراره على الدوران حولها يجعله داعياً صاحب رسالة .

وقد كان يقربنى منه أكثر من سبب ، فقد كان يكتب عن نظرية داروين ، وكنت قد قرأت عنها فى دائرة معارف فريد وجدى ثم فى كتاب إسماعيل مظهر أصل الأنواع ، وألفيت وأنا بعد تلميذ فى السنة الأولى الثانوية وألقيت على زملائى فى حى السيدة زينب محاضرة عنها وكانوا مجموعة من الأطفال والبنات والصبيان ، وكان يبدى حماسة للحضارة الفرعونية وكنت من أشد المعجبين بها ، هذا إلى أنه من المديرية التى ينتسب إليها والدى .

وبقيت من قراءه حتى أتممت الدراسة الثانوية وسافرت إلى القاهرة ، فوقع فى يدى كتاب رومان رولان عن غاندى ، فأخذت أترجمه فصولا متتابعة فى جريدة السياسة اليومية ، وكان اسم غاندى قد سطع فى سماء السياسة الدولية وأصبح له ولنشاطه الوطنى قوة جذب هائلة . وفى هذه الفترة أضاف سلامه موسى اسم غاندى وحركته ومبادئه إلى الأفكار القليلة ، التى كان يكررها ويلح فى الدعوة إليها ، وقد انتهى الأمر بكلينا إلى تأليف كتاب عن « غاندى » وكان كتابى أسبق فى الظهور من كتاب سلامه موسى .

وقد كان طبع هذا الكتاب سبباً جديداً لاقترابى من سلامه موسى ، كما سيأتى عنه فى حديثى حالا ولست أدرى متى قابلت أو رأيت سلامه موسى

لأول مرة ، وقــــد اعتصرت ذاكرتى اعتصاراً لأتذكر مكان وزمان المقابلة الأولى بينى وبينه ، فلم تجد على بشىء أطمئن إليه وأثق به . فلا مفر إذن من أن آخذ ماتصمم ذاكرتى على أنه اللقاء الأولى بينى وبين سلامه موسى وكان ذلك فى إدارة مجلة المصرى التى أخذ يصدرها عقب انفصاله من (دار الهلال) بعد سنوات من العمل فى هذه الدار .

وكان مقر مجلة (المصرى) فى شارع الفجالة ، هو شارع (حبيب شلبى) ، وقد ذهبت ومعى قصة قصيرة دخلت دار المجلة وكان فى الدور الأول من منزل قديم أو فى (البدرون) . وكانت حجرات هذه الدور شبه عارية من الأثاث الذى ينزل الإنسان إليه بعض درجات على سلم قديم . ولم أجد أحداً يسألنى عن اسمى ، ولا عن غايتى من الزيارة ، وجست فى حجرات الشقة ، حتى رأيت سلامه موسى وكان قد أنشأ جمعية (المصرى للمصرى) وأصبح رئيساً لها ، ومعه شخص آخر يتحدث معه ، عرفت فيما بعد أنه أحد الاساتذة المحامين، وأنه وكيل تلك الجمعية . وأردت أن أتحدث إليه فأستمهلنى بقوله « لحظــــة من فضلك » وكان استمهاله اياى جافا ، ولــكنى كنت أدخر للاستاذ سـلامه ولمحـــدثه، مفاجأة صغيرة تنطوى على انتقام عاجل لى منهما ، إذ أنهما ما كادا يفرغان من الحديث التافه الذى كانا يتبادلانه معاً على مسمع منى ، حتى التفتا إلىّ فقدمت نفسى إليهما بقولى — أنا فلان الطالب بكلية الحقوق وصاحب مقالات « المنديل الحلاوى ينتصر » و « النفس المصرية تنتشى » كانا هذان عنوانين لمقالتين نشرتا فى مجلة « المصرى »، رد علىّ سلامة موسى مسروراً وقال « كده » أما محدثه المحامى، فقد انطلق يهنىء على هاتين المقالتين وقال فى حماسة « انت من قادة هذه الحركة .. انت من ضباطها » واستمعت إلى هذه التهنئة وأنا أبتسم فى داخل نفسى فقد أحسست أننى انتقمت لنفسى من إهمالهما إياى حتى يفــــرغا من حديثهما الذى لم يكن شيئاً ذا بال .

ولم يكن فى شكل سلامه موسى ، ولا فى أسلوبه فى الحديث مايستوقف النظر، أو يصدم الرائى فقد كان عاديا فيما عدا عينان مفتوحتان ، كأنما صاحبهما فى دهشة حقيقية من شىء مع بعض الخوف ، وصوت من الطراز الذى يسميه الناس بالصوت الأقرع أى الذى لا قرار له أما السمة البارزة فى شخصية سلامه موسى فهو خلوها من الحرارة ، فقد يكون لطيفاً ، وحسن اللقاء ، ولكنه لا يستطيع أن يكون متدفقاً ، ولا دافئاً . لا أدرى متى رأيت الأستاذ سلامه بعد ذلك ، ولكننى شهدته يخطب فى أحد مسارح شارع عماد الدين بمناسبة إعلان تشكيل جمعية (المصرى للمصرى) ، وكانت خطبته فى ختام الاجتماع بعد أن خطب وكيلا الجمعية ، وكان أحدهما صديقى وزميل الطفولة حافظ محمود ، وكان الآخر الأستاذ المحامى الذى رأيته يتكلم مع الأستاذ سلامه موسى عندما زرت مقر مجلة المصرى . وقبل أن يلقى سلامه موسى كلمته ، وقف أحد زملائه واسمه عزمى الدويرى يعلن اسمه مسبوقاً بنعوت وصفات لا حصر لها فهو الكاتب والمفكر والثائر والمجدد ، والجرىء والصريح ، والملهم المبدع، وظهر على أثر ذلك سلامه موسى ، كأنه إنسان ضل طريقه إلى المسرح ، فقد دخل فى خطوات عادية هويتلفت ، كأنما يسير فى الشارع ،إلى غير هدف ولا غاية ثم قال كلمة فاترة ، ولكنى حسدته عليها ، فقد ألقاها بغير اضطراب ولا انفعال وكأنما يقرؤها من ورقة ، فكانت أشبه شىء بمقالة من مقالاته ، وأنا أفضل الخطيب الفاتر ، الذى تفهم ماذا يريدأن يقول ، لأن أفكاره تتسلسل وتتابع ، على الخطيب الذى يقع فى حيرة فتوقعه حيرته فى حماسة تسلمه بدورها إلى صراخ يؤذى الآذان ، لا يفهم معه السامعون شيئاً مما يقول .

وقد اعترف سلامه موسى فى ترجمة حياته ، أنه لا يحسن الخطابة ، فقد قال وهو يصف نفسه « وما زلت أفر من المجتمعات فى استحياء أو كراهة ، ومع

أنى أحسن الكتابة ، فانى أسيء الخطابة لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع » وإنى أذكر أنى قرأت له مقالا كان يشرح فيه نظرية فرويد ويطبقها على بعض ما يجرى للناس فى حياتهم فقال أنه رأى نفسه فى أحد الأحلام عارياً من ملابسه أو كالعارى ، وهو يحاول أن يغطى نفسه أمام الناس فلا يستطيع ، وفسر هذا الحلم ، بأنه جاء فى عقب حفلة خطب فيها فأخفق فى خطبته فخرج من الاجتماع ، وهو شاعر بما يقرب من الفضيحة ، وأن شعوره هذا عبر عن نفسه ، فى حلمه بحاله تعريه من ملابسه ففى الحالين انكشف الستر عنه ولكنه انكشف معنوياً فى الحفلة ، وانكشف مادياً فى الحلم .

وما كانت تبديه عينا سلامه موسى من الدهشة والخوف ، كان دهشة حقيقية وخوف حقيقين فقد كان بحكم مزاجه الأدبى ورقة إحساسه ، شاعرا بالإضطهاد الذى يلازم أبناء الأقليات ، وقد كانت الأقلية القبطية تعيش فى ظل الحكم العثمانى وحكم المماليك من قبل كجزء من جماعة مضطهدة ، فقد كان حكم الأتراك ، وأتباعهم من حثالة الحكام ، قائما على العسف بالمصريين جميعاً مسلمهم قبل مسيحيهم وقد يخفف عن الأغلبية شعور بالاضطهاد وإن كان لا يعدمه — الإحساس بالأنس الذى تبعثه الكثرة ووحدة الحال فى الجماعة ، ولكن لم يكن للأقباط مثل هذا الحظ . وكان سلامه موسى فوق ذلك يعانى منذ طفولته من مخاوف الطفولة التقليدية ووساوسها ، وقد كان انتماؤه إلى عائلة منطوية ، مما يوفر لهذه الوساوس فى نفس سلامة الطفل أرضاً خصيبه ، وقد وصف هو عائلته بقوله :

وجميع أفراد عائلتنا يعدون انطوائيين يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط — وأحيانا يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى أنى أعرف أشخاصا فى أسرة العفى عاشوا كأنهم رهبان

يتوقون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط وقد لا يجدى الضغط » .

وقد وصف سلامة بعض وساوس ومخاوف طفولته فقال — ورأيت أحد المجرمين يشنق فى ميدان الزقازيق وبقيت نحو عام أفزع من إسمه وكان يدعى « سيد أهله » ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق بعنق أمى — ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم لأن رسم المشنقة بقى حيا فى مخيلتى الصغيرة » .

وقد كانت طفولة سلامة سعيدة عموما ، فقد كان طفلا صحيح البدن ، وكان محبوباً من عائلته ، عزيزا عند أمه واخواته وبل وخادمه عطيه ، وقد استمتع فى طفولته بكل نشاط الأطفال وهو النشاط الذى يبعث فى حياة الطفل السعادة ويجعله يستقبل الدنيا ، مخلوقاً سليما بريئا من النقائص النفسية وقد وصف سلامه موسى جانبا من طفولته وصفاً يؤكد لنا أنه كان طفلا سعيدا فقد قال : « كنا نهنأ بالأجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف ، وهى لا تزال تبرز فى ذهنى كأجمل وأنصع ذكرياتى — فى هذا الريف اكتسبت كثيرا من الاختبارات التى لا تتحقق لأطفال المدن » .

« وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار ، وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح ، وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقل للخيار أو البطيخ ، ولا يزال عالقاً بذاكراتى بعض الإقتحامات والصبوات » ،

لقد فهمنا من ترجمة حياته أنه كان من عائلة لم تعرف الفقر ولا الحاجة إن لم تكن غنية فقد كانت ميسورة الحال ، وقد استطاع بفضل تركة أبيه من المال ،

أن ينقطع للقراءة والكتابة ، وأن يسافر إلى لندن وباريس ، وغيرهما وأن يقيم فيهما ، ويفيد مما كان فيهما من فكر وحركة بل أن بسطة حال الأسرة أعانتها على أن يكون عندها جاريتان . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن طفولة سلامه موسى كان يظللها غير قليل من القتامة والتعاسة التى ترسبت فى نفسه ، وصاحبته إلى آخر العمر ، فقد فقد أباه وهو طفل فى السنة الثانية من عمره فنشأ على حد قوله هو — فى بيت لا يزوره ضيف إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال—فزاده هذا الظرف انزواء على ما ورث من المزاج الإنطوائى . وقد كانت العائلة القبطية فى تلك الأيام شديدة المبالغة فى التزام الحداد ، فهى تسرف فى التمسك بمقتضياته فتلبس السواد لسنين — وقد ذكر سلامه موسى أن والدته بقيت محتفظة ببذلة أبيه السوداء وداخلها قميصه الأفرنجى وياقته وكأنه على قيد الحياة ، وأنه موشك على الخروج من داره فهى معدة له ليلبسها . وقد كانت هذه الصورة كافية لأن ترسم فى نفس الطفل صورة أقرب ما تكون لجثة مشنوق معلقة فى داره يراها أولاده ليل نهار ويعيشون فى ظلها ، ولاشك أن صورة كهذه تلقى لونا كئيباً على حياة طفل ؛ تتأثر نفسه الغضة بالألوان وما يتصل بها من ملابسات . وقد كانت بذلة أبيه سوداء وكانت وحدهاتقول أنها بذلة ميت ، وأن الموت معناه الفقد ومعناه عند الأحياء الحزن ويقول سلامه موسى أنه قضى طفولته وهو يرتدى ثيابا سوداء ويحمل عبئاً من التعاويذ يعوق الحركة الحرة ولكن لم يكن هذا وحده هو عامل الحزن والكآبة فى حياة الطفل سلامه ، فقد روى لنا أن وباء الكوليرا عصف بالزقازيق فى طفولته وأن الأحياء كانوا يتساقطون كالذباب ، وأن أياما مضت لم يكن يرى فيها سوى جنازات هؤلاء الذين سقطوا فلما كثر الموت لم يكن أحد يعنى بتشييع الذين ماتوا — فكانت الجنازة تخرج من البيت وخلفها اثنـــان أو ثلاثة يهرولون وكأنهم يودون أن يفرغوا من مهمة ثقيلة على أى وجه . وكان بعض زملاء

سلامه يصاب بيتهم بهذا الوباء فيستأذنون فى لزوم البيت ، فيأذن لهم اخوانهم ثم فقد الموت وقاره فأصبح فى نظر الأطفال مهزلة ، فقد كانوا يختبئون عند قوارع الطريق ، فإذا أهلت الجنازة — وخلفها مشيعوها — خرج الأطفال وهم يقولون « هيه » ولـكن هذا لم يـكن يمنع النسوة من أن يشيعوا كل ميت بصراخهن المعهود ، وهو صراخ قبيح تنقبض له النفس .

وقد كان سبب هذا الوباء انتشار المستنقعات حول مدينة الزقازيق ولاشك أن المستنقعات ورائحتها وما يجتمــع عليها وبسببها من حشرات ، ليس بالمنظر الممتع ، فإذا اضفنا إلى هذا كله أن سلامه موسى لما دخل المدرسة الإبتدائية ثم الثانوية أحس أنه دخل ثـكنة يحكمها نظام عسكرى يقوم على إذلال التلاميذ وإخضاعهم ، وكان التعليم محكوما بالانجليز الذين كانوا يبـــدون من صور الغطرسة ما يقذف فى نفوس الأطفال تلك الأيام الرعب والخوف ويهدم ثقتهم بأنفسهم عرفنا كيف اجتمعت للطفل أسباب التشاوم .

ولذلك أستطيع أن أقول أن مزاج سلامه موسى الإنطوائى كان قوامه الحزن واستعداب الألم والجنوح إلى التشاؤم . ولم تظهر آثار هذا المزاج فيما يكتب ، لأنه لم يكتبه أدباذاتياً — وإنما كتب بحوثا ومقالات موضوعية — لم تمنحه الفرصة ليعبر عن إحساساته ومشاعره ، ولو فعل لقرأنا قصصا تفيض بالحزن وهو الحزن الذى يحمل أحيانا صاحبه على أن يظهر بمظهر التفاؤل — لا لأنه موجود، بل لأنه يود أن يغالب التشاؤم الذى يقهره ولأنه يجد الراحة فى التعبير عنه ؛ بالتحدث عن نقيضه ، والتطلع إلى حياة بلا حزن ولعلنا لا نجد دليلا على هذا المزاج أفضل من هذه القطعة التى كتبها سلامه موسى وهو يصف موت أخته التى كان يحبها فقال :

« فى صرخة الموت عذوبة تغنى النفس ، وفى الموت نفسه فتنة كأنها

صحوة الوجدان ، حتى لتحس أن يقظتنا إنما هو حلم نصحو منه عندما نقف إزاء من نحب وهو فى النزع الأخير . وقفت إلى جانبها وهى أختى ، وكانت فى عذاب الذبحة الصدرية تصرخ صرخات الموت ، لم أكن مخدوعا أو واهما فى المصير المحتوم الوشيك ، وعاد (الفلم) ينبسط أمامى مبتدئا بما حدث منذ أكثر من ٥٠ سنة وأخذت صوره تتعاقب الواحدة بعد الأخرى فى لحظات خاطفة — وفى نصوع ووضوح ، حتى كأنى أسمع كلماتها وهى تشترى لى الحلوى ، وتغسل لى وجهى أيام الطفولة . . ثم انتبه من هذه الذكريات إلى صرختها العذبة الأليمة ... وكانت فى عذوبتها تجعلنى أنتفض كأنى فى لذة أليمة ، أو كأنى فى طرب حزين ثم جاءت النهاية ، وساد السكون » .

« وخرجت وإذا بى أنظر إلى السماء فلم أترك سحابة إلا وأنا أتأملها كأنها شأن خطير يجب ألا أنسى شيئا من تفاصيله ، وكأنى أقرأ حروفها الفضية واطلع من ورائها على سر خطير فلما انطبعت هذه السحب فى نفسى نظرت إلى الأرض ، ولكنى عدت فى لهفة أنظر إلى هذه السحب كأن شيئا يوشك أن يفلت منى ، ثم ترن فجأة تلك الصرخات العذبة الأليمة فأرتاح إليها وأسكن وأستكين .. »

« وهذه الذكريات ، أو هذه (الأفلام) على إيلامها فى الحياة ، هى كنز يجمع المر والحلو واللذة والألم . . . وحياة تخلو منها هى حياة تخلو من كنوزها .. »

وفى قصة حياة سلامه موسى التى أسماها تربية سلامه موسى ، دلائل كثيرة على أن الحزن والتشاؤم بقيا مترسبين فى نفسه — وإنه ما كانا يحتاجان إلا أدنى ملابسة ليطفوا على السطح ، فقد قال فى موضوع من هذه القصة « وظنى أنى لن أرى انتصارا للديموقراطية فى السنين العشر القادمة ، لأن الرجعية والاستبداد

فى استقرار واستحكام والديمقراطية عزلاء من كل سلاح ، بل إن الصراع القائم فى أيامنا بين أمريكا وروسيا سوف يعزز الرجعية والاستبداد فى مصر ... »

ثم قال . . ولا أظن أنى مسرف هنا فى التشاؤم » ولا ينفى الإنسان عن نفسه شبهة شىء إلا عندما يحس أنها عالقة به ، وقائمة ضده . ثم قال فى موضع آخر .

« وذات مساء فى ١٢ يوليو من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائما على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت — وأخذت ذاكرتى تعرض « فلم » حياتى الماضية، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى سنة ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى المستقبل لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت الصفاء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف (وعدد نحو عشرين كتابا) ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها الفكر وبذلت المجهود كى أثير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثاليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجد التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل « بقفة » بها عيش فناولنى رغيفا للفطور وضعه فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتخلفان » .

وهذا الكلام ناضح بتشاؤم سلامه موسى لأنه خلط فيه إحساسه بالمرارة

لأنه نام على الأسفلت ، ولأن عشاءه كان نصف رغيف ، وإفطاره كان رغيفا وزع عليه من قفه ، باحساسه بالأسى ، لأنه لم يجمع مالا ، ولم يصل إلى شىء ذى قيمة ، بعد طول جهاده . ويعنى هنا بلاشك الوظيفة الحكومية أو اللقب أو الشهرة التى كان يرى نفسه جديراً بها جدارة غيره من الكتاب الذين وصلوا إليها . والحق أن الخلط بين هذه الإحساسات المتضاربة لا تفسير له إلا أنه ثمرة تشاؤم مترسب ، كان ينتظر المناسبة ليطفو . فإن الخدمات التى قدمها للشعب المصرى لا تتعارض فى قليل أو كثير مع حبسه وإلقائه على الأسفلت وحرمانه من النوم المهنىء، والمعاملة اللائقة، بل أن هذه المعاملة الجافة القاسية هى النتيجة الطبيعية بل الحتمية لما قدمه لبلاده . لأن الذين حبسوه وأساءوا إليه ليسوا الشعب المصرى ولا ممثليه، بل هم أعداؤه ، وما قاله وما فعله كان ضد هؤلاء يقصد تأليب الناس عليهم وإثارة الشعور الوطنى ضدهم فكيف يسوغ له أن ينتظر منهم أن يثنوا عليه ، ويشكروه ، لأنه عمل ضدهم ، وسعى إلى خلعهم من أماكنهم فى الحكم — وسلبهم ما ظفروا به من سلطة ونفوذ. ثم قضاء ليلة فى السجن أو ليال متتالية ، لا يصح أن يؤدى إلى كل هذه الشكوى ومراجعة حساب حياة حافلة كحياة سلامه موسى — فإن معاصريه من الكتاب والزعماء والشبان دخلوا السجن مراراً لمدد طويلة ، ولم يندبوا حظهم لهذا الحبس ، وإن جاز لهم أن يندبوه لأمور أخرى .

ولسنا هنا بسبيل مؤاخذه الأستاذ سلامه موسى لأنه لم يظهر تجلدا فى مناسبه القبض عليه وزوجه إلى السجن ليلة أو ليلتين . فإن سرعة شكواه ، لم تحل بينه وبين أن يواصل بعد السجن ما بدأه قبل السجن من دعوة ورأى ، وإنما الذى نبغيه أن نبين ما فى مزاج سلامه موسى من استعداد كبير للتشاؤم كان يخفيه تظاهر بالتفاؤل .

والطريف أنني بعد أن كتبت هذه السطور أعدت النظر فى صفحة من صفحات الكتاب الذى وردت فيه تلك السطور . بقصد نقل فقرة منه عن (مى) فاذا بى أقرأ العبارة الآتية : ـ

« وقد صدمتنى (مى) ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر فى قولها — أن مبالغتك فى التفاؤل هى فى صميم أصلها مبالغة فى التشاؤم ، وأحيانا أظن أنها كانت صادقة كما أنها هى أيضا كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضمره » .

والعجيب أنى مررت على هذه العبارة من قبل ، كأنها لم تأخذ موضعها من الكتاب حتى قرأتها للمرة الثانية، وهذه العبارة تثبت أن ثلاثتنا ـ سلامه ومى وأنا ـ متفقون أولا على أن الإسراف فى التفاؤل يخفى أحيانا تشاؤما ، وثانيا على أن سلامه موسى متشائم فى الواقع متفائل فى الظاهر .

ولا أظن أن هناك إنسانا يدعو إلى الإصلاح وتغيير الحال ،أى إنسان يكره ما يراه فى الدنيا ، أو فى مجتمعه الخاص ، أو فى وطنه ، ويعمل على إزالته ، واستبدال حال آخر به، إلا ويكون على شىء من التشاؤم ، لأن ضيقه بما يرى، والصعوبات والمتاعب التى يكابدها وهو يسعى لإحداث التغيير والتطوير ، فضلا عن الخيانات والنذالات ، والمفاجآت غير السارة التى تأتى بها الأيام على غير حساب أو توقع ، كلها كفيلة بأن تملأ نفسه انقباضا وضيقاً ، فتميل به إلى التشاؤم .

وقد يكون الإنسان متشائماً بعقله ، مرحا ، مبتهجا ، مقبلا على الحياة بقلبه ووجدانه .

واشهد إنى رأيت سلامه موسى كثيراً — ولست أذكر إنى رأيته يضحك

مرة واحدة، أما الشيء المؤكد بلا تردد فهو أنى لم أسمعه يقهقه، ولكنى لم أره قط مقطبا أو عاقدا ما بين حاجبيه أو عصبيا .

وقد أثبت سلامه موسى أنة داعيه ممتاز ، حينما شن حملة عنيفة على دار الهلال واتهم أصحابها اللبنانيين بأنهم أدوات استعمارية ، وطلب تطهير الصحافة المصرية من الدخلاء — فقد استجاب المصريون لدعوته وتأثرت صحف دار الهلال كثيرا بهذه الحملة — ولكن أصحاب الدار بقوا صامتين حتى ساقت لهم المقادير سلاحا فسددوه إلى قلب حملة سلامة موسى فأخمدوها وخرج سلامه نفسه بجروح بليغة ، فقد حصل أصحاب دار الهلال على خطاب أرسله سلامه موسى إلى لطفى السيد — وكان أحد أعضاء وزارة محمد محمود باشا — يقترح عليه أن تصدر الوزارة جريدة يومية سياسية تروج لمشروع معاهدة محمد محمود — هندرسن وتسند رياسة تحريرها إليه وهو مشروع كانت حكومة العمال عرضته على الوزارة المصرية آنذاك سنة ١٩٢٩ ، وكان الوفد قد قرر ألا يلتفت هذا المشروع باعتبار أن الوزارة المصرية التى تلقت العرض ، وزارة انقلابية لا تمثل الشعب ، وكانت المقاطعة الوفدية محكمة وناجحة ، فقد كانت الأغلبية العامة فى البلاد فى تلك الأيام وفديه فكان اقتراحه الترويج لهذا المشروع طعنة للأغلبية الوفدية وخيانة لها ، وتحالف مع الحكومة الانقلابية وهو الذى كان يهاجم هذه الحكومات الانقلابية . وقد آثر سلامة موسى الصمت ، فلم يعد إلى هذه الواقعة فى جميع ما كتبه ، ولم يشر إليها فى قصة حياته ، وكف عن مهاجمة دار الهلال ، واللبنانيين عموماً ، وأشار بعد ذلك إلى جورجى زيدان مؤسس الهلال أشارات تنطوى على مودة ورأى حسن .

وقد أحزننا نحن الذين كنا نحسن الظن فى سلامه موسى أن يضبط متلبسا بهذه السقطة ، والتى تجعل كل ما كتبه بعد ذلك عن اسماعيل صدقى

وقمه للحريات هراء لا معنى له ، لأنه مد يده لحكومة كحكومة اسماعيل صدقى وتمنى أن يخدمها ولكن هذه الواقعة ترينا كيف أن الجروح ولو كانت بليغة، لا تؤذى الجسم السليم ، فهى لا تلبث حتى تندمل ، وقد لا تخلف وراءها حتى مجرد الندوب ويواصل البدن الصحيح سعيه ونشاطه، كأنه لم يجرح من قبل ، فإن سلامه موسى انقطع تماما عن النشاط السياسى فيما عدا فترة أخرى كتب فيها فى جريدة مصر ، مدافعاً عن حقوق الأقباط فى التعيين فى الوظائف الحكومية ولكنه حينما كان ينشر هذه المقالات ، كأن أبعد ما يكون عن سمع المصريين وخاطرهم — فقد كانت الجريدة التى تنشر مقالاته هذه أشبه بشىء بالنشرة السرية ، يقرأها عدد محدود .

وغفر الرأى العام للأمة موسى سقطته وبقيت صورته فى أذهان القراء صورة الكاتب المجدد الداعى إلى سبل جديدة فى الحياة والفكر .

* * *

جادت الأيام بفرصة ازددت فيها قربا من سلامه موسى واختلاطا به ، كنت أراه فيها فى ملابس المنزل ، وأتحدث إليه فى أكثر من شأن ، وهو على سجيته ، وكنت أعلم أن أحاديثى كانت تضايقه ، فقد كنت أراه فى فترة ما بعد الظهيرة ، وهى فترة يجب القراءة فيهـا ، وكان كتابى عن غاندى هو الذى أتاح لى هذه الفرصة ، فقد طبعت هذا الكتاب فى مطبعة المجلة الجديدة، التى يملكها سلامه موسى وكان قد اتخذ لها مقرا فى منزل قديم بشارع نوبار وهو شارع يصل ما بين ميدان لاظوغلى — وشارع المبتديان ولما عرضت على سلامه موسى طبع أول كتبى فى مطبعته ، طلب منى أن أعد اتفاقا كتابيا بسعر الطبع ومواعيده وحجم الكتاب ، ولما كنت محاميا مبتدئا لم يتم تمرينه بعد، إذ لم يكن قد انقضى على تخرجى سوى أقل من عام ، فقد فرحت بهذه المناسبة

وأعددت عقدا مفصلا ملآنه بالمواد والبنود ، وكأنه اتفاق بين دولتين
فلما رأى سلامه موسى ذلك هاله العقد وشروطه الجزائية، وقال « ما هذا كله ؟»
وخجلت من نفسى ، وقلت له لتحذف ما تشاء من الشروط وانتهى الأمر
بكتابة عقد من ثلاث أو أربع شروط بسيطة ولم نكن فى الواقع فى
حاجة إليه فقد كانت تحت يدى نفقات الطبع — وكنت أدفع له أولا بأول
ولما كنت أرابط أكثر اليوم فى المطبعة فقد كان بوسعى أن أرى الأستاذ
سلامة ساعات طويلة— فإذا جاءت الظهيرة تناول غداءه وخلع بدلته ، وارتدى
جلبابا أبيض ، ونزل إلى مكتبه بالمطبعة ، وبيده كتاب باللغة الإنجليزية يطالعه ،
وأذكر انه كان يقرأ فى بعض مسرحيات (برناردشو)— وأنا امطره بالأسئلة،
وهو لايظهر التأفف حياء ، وأنا أسىء استغلال حيائه ، ولست أذكر الآن
الكثير مما كان يدور بيننا فى هذه الجلسات ، إلا ما دار بينى وبينه يوما عن
الإسلام والمسيحية فقال لى عن السيد المسيح أن النظرية المسيحية فى تفسير
حياته أقرب إلى المقبول ، فالمسيح كان ثائراً على زعماء اليهود والذين اتخذوا
من الدين تجارة ، وأنهم كادوا له عند مندوب امبراطور الرومان فى فلسطين ،
وما زالوا يلحون عليه حتى تخلصوا منه بصلبه . . ثم تكلمنا
عن الإسلام، فقال إن محمدا عليه السلام فى رأيه إنسان عظيم قاد طبقة الفقراء
والضعفاء فى مكة ، وأن ارستقراطية قريش كانت تثير ارستقراطية العرب كلهم
عليه ، لأنه يهدد حكمهم، بنقل السلطة إلى عامة العرب وفقرائهم وقال أيضا
أن مصر القديمة هى التى انشأت الثقافة الدينية ثم أذاعتها عن طريق اليهودية
التى انتقلت أسسها إلى المسيحية ثم إلى الإسلام . ففكرة الحساب والنار
والعقاب ، والقيامة والصراط والميزان ، والخير والنار هى ابتكارات العقلية
الدينية والحضارة المصرية القديمة كاملة ، وقد انتقلت إلى الأديان الأخرى
فى الشرق الأدنى كما هى تقريباً وما أدخل إليها من إضافات كان تعديلا طفيفا

لا يتناول الأساس . وقال إن لفظ (الله) هو تحريف للفظ (هليو) وهو اسم الشمس إله الفراعنة وقد انتقل إلى اليهودية حتى أن السيد المسيح — على حد رواية الإنجيل — صاح وهو على الصليب ايليا .. ايليا .. لماذا تركتنى . و (ايليا) هو هليو الذى أصبح فى العربية (الله) .

ولما فرغ طبع كتابى (غاندى) أصبحت لا أرى سلامه موسى إلا فى مناسبات عابرة، وكان أكثر لقائى به فى جريدة البلاغ التى اشتغل محرراً بها وكان يجلس فى حجرة واحدة مع الأستاذ حامد المليجى الذى كان فى شبابه من أنصار الحزب الوطنى — وقد نفى إلى مالطة خلال الحرب العالمية الأولى . وكان يرهق سلامه موسى بمعارضة أفكاره فى عنف وأحيانا بالهزء بها ، وفى ذات يوم عبر لى سلامه موسى عن ضيقه بهذه الزمالة بقوله — الأستاذ حامد.. زعيم ويمارس زعامته فى " أنا "وفى أحد الأيام دخلت عليهما فسألنى الأستاذ سلامه — أنت رأيك أن غاندى خائن وعميل للإنجليز ؟ فهمت من السؤال أن حامد المليجى كان يتناقش سلامه موسى فى هذا الموضوع وأن رأيه فى غاندى أنه صنيعة بريطانية وأنه تعلم فى بلاد الإنجليز وتطوع للخدمة الطبية فى جيشهم . فانحزت فى الحال إلى صف سلامه موسى ، وطيبت خاطر الأستاذ حامد بأن تسامح غاندى ، ولينه فى مخاصمة المستعمرين دون الاستعمار نفسه كان يجعله غير مفهوم حتى لأقرب أنصاره ، لذلك كان هدفا لحملة الكثيرين منهم فى أحيان غير قليلة ، بل إن بعضهم اعتدى عليه بالضرب وكادوا يفتكون به . فطاب خاطر الأستاذ المليجى موجها الكلام للأستاذ سلامه — جالك كلامى... إن الهنود أعرف بغاندى منك يا أستاذ.

ولست أنسى يوما ذهبت به بمقال إلى جريدة البلاغ عن غاندى وطاغور وطبيعة العلاقة بينهما، فان الأستاذ سـلامه موسى قرأ بعض المقال ، فسر به

سرورا عظيما ، فقام مسرعا يهرول إلى مكتب الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب البلاغ وهو يقول لى — «إياك تحصل نفشرها افتتاحية» ، وقد شعرت ساعتها بامتنان شديد للأستاذ سلامه ، وأحسست أن هذه الهرولة إلى مكتب رئيس التحرير هى تعبير عفوى عن إخلاصه العميق لأفكاره. فقد كان يحب غاندى ، وكان يسره أن يكتب عنه الكتّاب فى مصر وأن تحتل المقالات التى تتناول حياته صدر الصحف .

وترك الأستاذ سلامة جريدة البلاغ ، وقد يكون ذلك فى الفترة اللاحقة لوفاة الأستاذ عبد القادر حمزة ، وأصبحت مقابلاتى له متباعدة ولم تعد صلتى به كما كانت ولكنى لم أنقطع عن قراءة ما كان يقع نظرى عليه من مقالاته أو كتبه ولم يكن يهم أن اقرأ له شيئا جديدا فقد توطدت صداقتى الفعلية به — وثبتت ولم تعد فى حاجة إلى ما يقويها، ولم يكن انقطاع صلتى به قادرا على أن يضعفها فسلامه موسى كما قلت من الكتّاب الذين تستطيع أن تعرف كل أفكارهم من كتاب أو كتابين لهما ،فهو يكرر نفسه ، وإن كان الإنسان لا يمل تكراره ، لأنه يقول الفكرة الواحدة بأكثر من أسلوب ، ولأنه يقول شيئا جديدا فى كل مرة وإن كان لا يضيف إلى جوهر الفكرة جديداً وإن غيّر من فروعها وقوالبها .

رأيته يوما فى ميدان الأوبرا فقلت له — وكانت انتخابات البطريرك الجديد محل الحديث وقتذاك —أن بعض خصومك يقولون إنك سترشح نفسك بطريركا فقال على الفور وهو يعلم أنى امازحه — ياريت ... » وقابلنى يوما فى شارع ابراهيم المازنى المتفرع من شارع الألفى ، فبادرنى بالقول — هل يصح أن تهاجم عرابى ... أن عرابى أصبح رجلا مقدسا لمجرد قيامه فى وجه الخديو.. فى وجه هذه العائلة الدنسة » وكان كلامه هذا تعليقاً منه على مقال نشرته أحد

الصحف السورية أو اللبنانية لى بعنوان ثلاثة أساءوا إلى مصر — وقد أعجبنى من سلامه موسى تحمسه لعرابى ووصفه إياه بالقداسة وعددت حملته على العائلة المالكة دليلا على شجاعته .

ولم أعد أرى سلامه موسى حتى اجتمعنا فى جمعية الشبان المسيحية بعد ثورة سنة ١٩٥٢ وكنت ألقى محاضرة هناك عن قانون تنظيم الأحزاب الذى صدر فى الأيام الأولى لحكومة الثورة فطلب منى موعداً ، فحددته له على الفور ، ولكنه لم يحضر فى الموعد وحاولت أن أتصل به فلم استطع ، فلم يكن فى دفتر التليفونات رقم تليفون له ، ولم أعثر له على عنوان ، وقد حرت فى تفسير عدم حضوره فى الموعد ، وقد ظننت أول الأمر ان الأفكار التى قيلت فى المحاضرة لم تعجبه ، ولكنى لم ألبث حتى استبعدت هذا التفسير لأنه طلب منى الموعد بعد أن ألقيت المحاضرة لاقبلها . ولم يبق تفسير لعدم حضوره إلا أنه طلب الميعاد كان من وحى اللحظة وأنه لم يكن لديه شىء يود الإفضاء به ، فلما خرج من جو المكان نسى الموعد .

ثم رأيته بعد عودتى من رحلة رسمية فى الاتحاد السوفيتى ، فقال لى أنه أرسل إلىّ معلنا أنه يريد أن يصحبنى فى هذه الرحلة فقلت له إنى على وجه اليقين لم أتلق منه طلبا كهذا ولما عدت إلى مكتبى عجبت كثيرا لأنى وجدت فعلا ضمن البريد الذى وصل إلى مكتبى بعد مغادرتى القاهرة وسفرى إلى موسكو » خطابا من الأستاذ سلامه موسى يحمل تاريخا لاحقا ليوم سفرى بأيام ولم أوفق إلى تعليل هذا التصرف من جانبه فإن افتراضى إرساله الخطاب إلى وهو لايدرى أنى

سافرت يكاد يكون مستحيلا لأن نبأ سفرى إلى موسكو كان منشورا فى كل الصحف وفى مكان ظاهر منها .

ورأيته لآخر مرة فى مقر مجلة كتابى حيث قضينا سويا ومعنا بعض الكتّاب والمحررين وقتا ممتعاً وكان الأستاذ سلامه فى هذه المرة كعادته دائما خجولا متواضعا فقد كان يحرجه كثيرا أن أقدمه على نفسى .

وبلغنى نبأ وفاته وأنا فى الأسكندرية وآلمنى أنى لم أكن مع مشيعيه إلى مقره الأخير ، وإن كنت فى واقع الأمر من أكثر الذين تأثروا لوفاته على أنى شيعته بخاطرى ، معترفا بفضله . ولعل فى هذا بعض العزاء .

* * *

ما هو مكان سلامة موسى فى تاريخ الأدب المصرى والحركة الفكرية العربية ؟

هذا هو السؤال الذى يجب أن نتصدى له بالجواب ، لأن سلامه موسى لم يظفر بما ظفر به غيره من العناية فى حياته أو بعد وفاته .

ولكن قد يكون من الأفضل أن نلم بالصورة الكلية لحياته ، قبل أن نجيب على هذا السؤال . ولد سلامه موسى فى سنة ١٨٨٧ — بعد الاحتلال البريطانى بخمس سنوات — وكانت عائلته أصلا من قرية البياضة فى أسيوط ، ويعتقد أنها هاجرت من الصعيد إلى الزقازيق فى نهاية الحكم الفرنسى وقبيل حكم محمد على ، انتفاعا بالحرية التى منحها الحكم الفرنسى للأقلية القبطية التى كان أبناؤها فى ظلم حكم المماليك يلبسون على وجه الإلزام عمائم سوداء تميزهم عن المسلمين الذين يلبسون العمائم البيضاء وكانوا بحكم هذا الشعار ، لا يستطيعون التنقل بحرية ، إذ كانوا يؤثرون الالتصاق بالقرية التى ولدوا فيها ، اتقاء المخاطر التى تجرها مغامرة الهجرة إلى مجتمعات لا يعرفونها . وتعرف عائلته بلقب العفى ،

وكان أبوه كاتبا بمديرية الشرقية وكانت وظيفة تعرف وقتها « برئيس تحريرات للمديرية » وكان يتقاضى مرتبا لم يرد عن سبعة جنيهات ونصف جنيه ومع ذلك استطاع أن يشترى مما ادخره من هذا المرتب الضئيل مائة فدان إذ لم يكن سعر الفدان ليزيد عن عشرة جنيهات أو عشرين جنيها ، ولما كان محظورا على موظفى الحكومة أن يشتروا من أطيان المديرية التى يعملون فيها شيئا ، فقد سجل الأطيان التى كان يشتريها باسم بنتيه الكبيرتين ، فلما توفى أبوه حاول زوجا البنتين — وكانا شقيقين — أن ينكرا على سلامه موسى وأخوته ملكية أطيان أبيهم ، ولولا أن والد هذين الزوجين واسمه غبريال سعد بك ، أبى أن يسرق ولداه الأطيان من أصحابها ، وأكرههما على أن يتنازلا إلى سلامه وأخيه الذى يكبره عن نصيبهما الذى يستحقانه أصلا فى تلك الأطيان ، لنشأ سلامه موسى وشقيقه فقيرين معدمين . ودخل سلامه فى كتاب للمسلمين ، وآخر للأقباط ، ولم يفد منهما شيئا ، ودخل المدرسة الابتدائية وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وهو سن يبدو الآن كبيراً ، ولكن زملاءه كان أكبر من ذلك بكثير ، فقد كان من زملائه فى السنة الأولى الإبتدائية من بلغ العشرين ، إذ كان إلحاق الأولاد فى تلك الحقبة بالمدارس يأتى متأخرا كثيرا ، ولم يكن غريبا أن يكون للتلميذ فى المدرسة الإبتدائية أولاد فى الثالثة أو الرابعة من أعمارهم وأن ينتظر هؤلاء أباهم مع الخدم على باب المدرسة . وقد نشأ سلامه موسى فى بيئة أثقلتها الخرافات ، ويقول إن أذنه بقيت تحمل الثقب الذى علق به ، وهو طفل ، قرط إيهاما للحساد بأنه بنت ، وقد كانت أمه لاتدعه يخطو عتبة الباب كلماهم بالسفر إلى القــاهرة حيث المدرسة الثانوية حتى تناديه ليعود إليها ثانية رمزا إلى عودته سالما بعد السفر ، ويقول إن أولى ذكريات طفولته العالقة هى منظره وهو طريح الفراش ، وبجانبه أمه تقرأ التعاويذ ليشفى ، وأن من ذكريات هذه الطفولة أن شابا اسمه (زغبان) غرق فى ترعة قريبة من بيتهم ،

وأن الأمهات كن يخفن أولادهن بشبح (زغبان) هذا ، فلما رجع إلى بلدته بعد ذلك بعشرين سنة ، وجد اسم (زغبان) حيا فى الناحية ، ووجد أن الأمهات لازلن يخوفن أولادهن بشبحه ، فعرف من ذلك كيف تتوارث الأجيال أساطيرها الشعبية ، وكيف تحفظها ، وتحرص عليها من الضياع . ومن ذكرياته ذات الدلالة على عقلية ذلك العهد ، إن صغرى اخواته كانت تصحبه إلى (الكتاب) ثم تأتى إليه عند موعد العودة إلى البيت فتصحبه إليه ، وفى ذات يوم وقف أمام باب داره ، ونادى أخته هذ باسمها ، لتفتح له الباب ، ففتحت وانهالت عليه ضربا لأنه ناداها باسمها ، إذ لم يكن جائزا أن ينادى على البنات باسمائهن حتى ولو كن صغيرات ، فقد كانت البنت تحجز فى البيت عند العاشرة ، وتعتبر من حريم المنزل ، وقد كان (على الشمسى باشا) من زملاء سلامه فى طفولته وصباه ويذكر أن على الشمسى ألف عصابة ، وإن شقيق سـلامه الذى يكبره ألف عصابة أخرى كان سلامه من أعضائها ، وقد وقعت الواقعة بين العصابتين ، فأثخنت عصابة الشمسى ، عصابة سلامه وشقيقه ضربا وإيلاما ، ولكن مالبثت أن ثارت العصابة المهزومة لنفسها إذ استدرجت على الشمسى إلى مكان ناء ، وانهالوا عليه بالعصى والأحجار حتى عاد مريضا .

وقد كان فى بيت سلامة موسى أثناء طفولته جاريتان اسم إحداهما كعب الخير ، واسم الثانية زهراء ، وقد حررهما قانون تحرير العبيد ، ولكنهما لم يتركا منزل عائلة سلامه ، وبقيتا كالصديقتين لأمه حتى بعد أن تزوجتا فقد كانتا تأتيان لزيارتهما ، وكانت الزيارة تمتد أحيانا لبضعة شهور ، إذ قام خلاف بين الجارية وزوجها .

وقد حصل سلامه موسى على شهادة الدراسة الإبتدائية فى سنة ١٩٠٣ ، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية من مدرسة الخديوية سنة ١٩٠٧ ، بعد أن

قضى بعض الوقت فى المدرسة التوفيقية وقد كانت المدرسة التوفيقية فى مبناها الحالى بشبرا ، ولكنها كانت فى أيام سلامه موسى وسط حقول تمتد منها إلى الشرق والغرب والشمال . ولم تكن سنو الدراسة الثانوية هنيئة ، بل كانت فى رأى سلامه سلسلة من العذاب الذى لا يطاق . وقد اعترف سلامه موسى بشجاعة يحمد عليها أنه تخلف فى هذه الدراسة لثلاثة أمور ، منها شعوره بالشقاء فى ظل النظام المدرسى القاسى الذى كان يعدم العلاقة الإنسـانية بين التلميذ والمدرس إلى حد أن التلاميذ كانوا يجهلون أحيانا أسماء مدرسيهم خصوصا المدرسين الانجليز ، والأمر الثانى أنه انغمس فى ممارسة العادة السرية للتفريج عن الكرب الذى كان يعانيه وقد قال فى هذا الصدد ما نصه : كما انى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العربدة الجنسية الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى، وإزالة الكمد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة » والأمر الثالث أنه مرض بعينيه واحتاج إلى إجراء عمليتين جراحيتين تركا أثرا مشوها فيه

وقد كانت سنو الدراسة الثانوية فترة تحول ، فقد رأى فيها السيارة لأول مرة ، فى الوقت الذى كان فيه السقاء يحضر إلى بيته الماء ، كما كان يستعمل الحمير فى الانتقال من مكان إلى مكان لأن الترام لم يكن يمر فى جميع الشوارع الرئيسية .

ويقول سلامه موسى أنه شرع يقرأ الصحف ، منذ دخل المدرسة الثانوية فى سنة ١٩٠٣ وكانت الجرائد المقروءة فى تلك الأيام هى « اللواء » التى يحررها مصطفى كامل والمؤيد الذى يحرره الشيخ على يوسف ، والجريدة التى يصدرها لطفى السيد، أما الأهرام فى رأى سلامه موسى فكانت جريدة فاترة ، بينما كانت المقطم جريدة الإنجليز صراحة . ولكن سلامه وفق إلى الثقافة التى كونته فى المقتطف التى كان يحررها يعقوب صروف « والجامعة » التى كان يحررها

« فرح انطون » ومن المقتطف عرف لأول مرة نظرية داروين فى التطور ،التى كان يعبرها عنها يعقوب صروف « بالنشوء والارتقاء » — وكان يلح فى عرضها إلحاحا ترك أثره فى عقل سلامه موسى ووجدانه معا .

أما فرح انطون فقد عرفه بأدب فولتير وروسو وديدرو وبرناردين دوسان بيير ، واشعل نارا فى وجدانه عندما قرأ له ترجمة لقصة الثـورة الفرنسية كما كتبها الكسندر دوماس وفيما بين سنة ١٩٠٧ و ١٩١٠ ، وقع سلامه موسى تحت تأثير « الجريدة » التى كان يصدرها أحمد لطفى السيد ، ويجمل فضله فى « انه دعا إلى وطنية شعارها مصر للمصريين ، تقابل الوطنيات الأخرى التى كانت تؤمن بالجامعة الإسلامية ، أو تدعو إلى الولاء إلى دولة تركيا » وكان لطفى السيد فى رأى سلامه موسى وزميلاه عبد العزيز فهمى وقاسم أمين الجيل التالى لجيل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وهو جيل أكثر شجاعة لأنه دعى إلى السفور وإلى إلغاء الإعراب فى اللغة ، وإلى لغة مبسطة تقارب العامية .

وفى سنة ١٩٠٧ جد فى حياة سلامة موسى جديد زاد من ضيقة بالحياة فى مصر ، فإلى جانب تخلفه فى الدراسة الضارمة ، قامت منازعات عائلية نكدت عليه حياته ، فرأى أن ينجو من هذا الجو المعتم بالسفر الى الخارج ، وكان نصيبه فى تركة أبيه يدر عليه دخلا يتراوح بين ٢٥ أو ٣٠ جنيها شهريا ، وهو دخل كان بمقياس تلك الأيام غير قليل ، فسافر الى باريس عن طريق استامبول ، وهو لا يقصد دراسة معينة . وقد رأى فى استامبول السلطان عبد الحميد ، فى موكبه ، من قصره الى المسجد ليؤدى صلاة الجمعـة ، والناس مصطفة على على الجانبين والمدافع تطلق قنابلها ، والمساجد تدق على غير العادة فى بلادنا نواقيس ، ولكن السلطان عبد الحميد نفسه فى تلك الأيام كان شيخا هرما ، كادت رأسه تلامس ركبته . ولما سمع سلامه الجماهير تهتف (بادى شاة شوك يشا)

اهتزت أعطافه لهذا المتاف التاريخى على الرغم منه . وعاد إلى مصر بعد أن قضى سنة فى باريس . وقد حاول فى أثناء إقامته هناك أن يتقن اللغة الفرنسية وكان أكبر تأثراته الذهنية اثناء إقامته فى فرنسا ما رآه من حرية للمرأة الفرنسية وقراءاته لمسرحيات هنريك ابسن الذى كان نصيرا متحمساً لحرية المرأة ، كما رأى سلامه موسى نظافة الريف الفرنسى ، ورقى المجتمع فيه فقد وجد فى كل قرية — مهما ضؤلت — مطعما وحانة وفندقا وسوقا أسبوعية . ولما قرأ جريدة (الأومانتيه) الاشتراكية ، تم تلقيحه بأول البذور الاشتراكية التى صاحبته لآخر العمر .

وقد جنى سلامه موسى من إقامته فى فرنسا — على حد تعبيره — أنه أصبح أوربى التفكير والنزعة .

وقد كبدته علاقاته بالنساء فى فرنسا عناء شديداً ، وألما فادحا ، فقد كان يحس بالارتباك أو « بالوكس » العاطفى على حد تعبيره ، فقد كانت أية محاولة من جانبه للتعارف الحميم بآنسة تنتهى بخيبة تشكوى العقل والبدن معاً ، ولم أستطع أن أتبين حدود التعارف الحميم الذى عناه سلامه موسى بهذه العبارة الجديدة ، أهو الصداقة الحية ، أم هو الاتصال البدنى ، ولاما إذا كان يعنى بالخيبة والوكسة عند اقترابه من النساء فى فرنسا ، أهو الارتباك والخجل الذى يعقد لسانه ، ويعوقه عند محاولة التلطف إليهم ، أم هو العجز العضوى الذى نشأ عن العربدة الجنسية الذاتية ، التى أسرف فيها فى مصر ، قبل رحيله إلى الخارج . وسلامه موسى معذور إذ هو التزم الغموض فى التحدث عن هذه الناحية الخاصة التى لم يجرؤ كاتب مصرى أو عربى من قبل على الخوض فيها ، أو الاقتراب منها . وقد زاد غموضاً عندما تحدث عن أول تجربة حب له فى انجلترا . ففى هذه التجربة استطاع أن يجتاز عقبة هذا العالم الشائق والشائك معاً ولكن الخيبة لازمته ،

فقد تعرف على فتاة وهى تصطاف فى إحدى المدن الصغيرة على الشاطىء الشرقى لإنجلترا ، وكانت إرلندية تكبره فى السن ، وقد جمعهما أول الأمر غضبهما المشترك على السياسية الاستعمارية البريطانية فى كل من مصر وإرلندا ثم استحالت صداقتهما إلى حب والتهب الحب فأصبح غراما ، فاستسلمت له ، واستسلم لها ، ولكنه ينسب إلى جمالها أنه من النوع الذى يحدث فيمن يحبها المركب الذى يجد نفسه يسميه فرويد بمركب أوديب . وأوديب قد أحب أمه وتزوجها ، والرجل الذى مع امرأة توهمه أم يتوهم أنها امه لا يستطيع أن يقترب منها كزوجة ولا كعشيقة فهل هذا ما أصاب سلامه موسى بالضبط ؟ الراجح أن هذا ما أصابه فقد قال إنه « تأكد لى عندئذ إن الزواج غير مستطاع لأنى لن أبرأ » ثم قال « وقد ملأ هذا الاختبار نفسى غما ومرارة ولكنه بعثنى على الاستطلاع والدراسة للشئون الجنسية ، فعرفت هافلوك أليس واوجست فوريل قبل ان أعرف فرويد ، بل إن هذا الاستطلاع الجنسى كان سبباً فى استطلاعات ثقافية أخرى عديدة » .

وفى بريطانيا اختلط بالجمعية (الفابية) ، وهى الجمعيـــة الرائدة فى ميدان الاشتراكية فى بريطانيا ، وقد عرف عن طريقها برناردشو ، وويلز ، كما عرف الأدب الروسى ، وزاد معرفته لابسن ، وقد تحدث إليه (شو) فى إحدى المناسبات ، فلما عرف أنه قبطى سأله أأنت (مونوفيزيت) ؟ أى أأنت من المسيحيين الذين يؤمنون بان للمسيح طبيعة واحدة فى الأرض والسماء ، وهى عقيدة الأقباط ، ولكن سلامه موسى لم يكن يعرف معنى كلمة (مونوفيزيت) فتصور أن معناها « نباتى » فقال له : لا . نحن نأكل اللحم فى مصر » فانفجر برناردشو ضاحكا . وقد أجمل سلامه موسى أثر اتصاله بالجمعية الفابية والثقافة البريطانية بعامة فى أنه (الشك فى القيم الأخلاقية والروحية) وكان من أثر هذا الشك أنه راح يسير فى شوارع لندن بلا قبعة ، كمتحد للأوضاع التى كانت سائدة وقتذاك فى عاصمة البريطانيين والتى لم تكن تسمح للناس بأن يسيروا عراة

الروس. وقد قادته هذه التأثرات جميعا إلى تأليف أول رسـالة له بعنوان (مقدمة السبرمان)وأرسلها إلى جورجى زيدان فى سنة ١٩٠٩ ، فطبعها له بعد أن حذف منها بعض فقرات جريئة . وقد أعاد طبع هذه الرسالة كفصل من فصول كتابه « اليوم والغد » .

وقد تردد سلامه موسى على المتحف البريطانى الذى يضم قدرا عظيما من الآثار القديمة من بينها الآثار الفرعونية ،ومكتبة كان بهاوقتذاك اربعة ملايين مجلد، وقد قرا فى هذه المكتبة كثيرا من الكتب منها بعض الكتب العربية ، وفى الراجح أن تكون هذه الكتب العربية من الكتب النادرة أو المخطوطات .

اما ريف بريطانيا فيراه سلامه موسى اجمل ريف فى العالم كله لأن الإنجليز لا يعنون بالزراعة ، فبقى الجبل والسهل والبحيرة والغابة بكرا لم تمسها يد الإصلاح الصناعية ، ولقد ذكره هذا الريف الجميل ، بريف بلاده الكالح الحزين .

ولم يمض عام على سلامه موسى فى لندن حتى اتجه الى اليسار فأصبح اشتراكيا قبل أن يقرأ ماركس وكان يرى فى الاشتراكيين طليعة مجددة لا فى الاقتصاد وحده بل فى العلم والأدب فهم يدعون الى (اليوجنيه) أى إصلاح النسل ، ويعجبون بالأدب الروسى ، كما يعجبون بنتشه وأبسن، وقد كان الأدب الروسى فى تلك الفترة ، هوسا اصاب البريطانيين ، ويذكر سلامه موسى انه سمع محاضرة عن تلستوى فى لندن ، رأى فيها الناس خاشعين كأنهم فى معبد. وكما احب عمالقة الأدب الروسى « دوستيفسكى وتولستوى وجوركى » هام بنتشه الذى وصفه بأنه لم يكن يخطو ولا يعدو ، بل يقتحم ويثب .

ولكن استاذ اساتذته هو برناردشو ويقول عنه : « لقد امضيت من

حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدى هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نورا ونارا لجميع الذين يعرفونه ، ولا أظن أنه فاتنى شىء مما كتب ، وكتاباته هى إلى الآن هورمونات ذهنية توقظنى وتحركنى » ثم قال :

« ولم أر رؤيا واحدة فى برناردشو بل رأيت ثلاثة أو اربعة ، والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الإنسانية ، وهى بالطبع تختلف عن اشتراكية ماركس العلمية .

والرؤيا الثانيةهى ديانة برناردشو ، فإن مشاجراته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل بالسلوك العلمى لكن مع الدين ، وعلم بلادين هو القنبلة الذرية،وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح تجار منشستر ونيويورك ، ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشريةوالتطور إلى السبرمان » .

وقد تأثر سلامه موسى أيضابولز وهو يقارن بينه وبين شو فيقول :

« فإن شو يتجاوز الأعمال والآفاق إلى ما وراءهما . وويلز يتعمق ولكنه لاينظر إلى ما وراء الآفاق ، يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ويلز أننا نختنق بهواء المدينة ، ولو أننا نتحدث مع رجل يعرف كل ما فيها ولكنا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم » .

« والمغزى فى شو أن الانسان سيتغير ، جسما ونفسا ، لأن التطور « يقضى بذلك والمغزى فى ويلز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ،

لأن الآلات قد احدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانا هو هو أن هذا العالم هو قريتنا الكبرى .

وويلز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديدة فإنه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة » .

ولقد لخص سلامه موسى نفسه فقال :

« صرت أوصف بأنى كاتب اجتماعى ، وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع ، ولكنى مع ذلك أجد فرقا اســـــــاسياً آخر بينى وبين الأدباء فى مصر ، وهو أنى أمارس طرازاً من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أو روبى وطرازهم عربى » .

وقد أضاف سلامه موسى إلى قائمة الذين اثروا فيه ، وكونوه كارل ماركس الذى جاء بعد هربرت سبنسر ، فهو يعد إن كان معجبا بهربرت سبنسر ، حول إعجابه إلى ماركس الذى وصفه بأنه يزداد بمرور السنين قوة بل حياة ، والذى تحيا نظرياته فى كل مكان فى العالم ثم قال إنه لا يمكن لأحد أن يصف نفسهُ بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها .

فأساتذة سلامه موسى إذن هم : داروين ، وماركس، فرويد ،وبرناردشو ، وويلز . والأدباء المفضلون عنده هم تولستوى ودوستيفسكى وجوركى ، ونيتشه والمفكرون الذين أحبهم يوما ثم حول نظره عنهم هم هربرت سبنسر وكارليل

وروى سلامه موسى حياته الصحفية فقال أنه أخرج مجلة المستقبل فى سنة ١٩١٤ ، وأنه استمر يصدرها حتى أتمت ستة عشر أسبوعا ، ثم توقفت لما

فرضت الرقابة على الصحف بمناسبة إعلان الحرب ، وكان شبلى شميل من كتاب المستقبل ثم عمل سلامه بالهلال من سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٢٩ وكان من شروط عمله فيه أن يؤلف كل عام لقرائه كتابا جديدا ، فألف كتاب أشهر قصص الحب التاريخية ، وهو كتاب يصفه مؤلفه بأنه أصدره للتسلية ، ثم أصدر كتاب حرية الفكر وتاريخ أبطالها ، والعقل الباطن .

وكان قد اشتغل فى سنة ١٩٠٩ فى جريدة اللواء لمدة أربعة أشهر ، وكان يعمل معه فى نفس الجريدة فرح انطون ، وقد بقى فرح انطون معتقداً طوال هذه المدة أن سلامه موسى مسلم .

ثم أخرج المجلة الجديدة سنة ١٩٢٩ وكانت شهرية ، ثم أصدر مجلة المصرى فى سنة ١٩٣٠ وكانت أسبوعية ، حتى ألغيت فى هذه السنة فى عهد إسماعيل صدقى ويقول سلامه موسى أنه انغمس فى السياسة عند تحريره فى جريدة البلاغ. وأعاد سلامه مجلة (المجلة الجديدة) بضمان عامل من عمال مطبعة بدون أن يدفع تأميناً نقدياً .

وفى بداية الحرب الثانية أنشئت وزارة الشئون الاجتماعية ، وأصدرت هذه الوزارة مجلة ، فأسند إليه تحريرهـــا ، وكان يتقاضى عن ذلك العمل عشرين جنيها فى الشهر وكان بعض كبار الموظفين إذا أعجبهم مقال من إنشاء سلامه موسى ، وضع عليه إمضاءه كأنه كاتبه . ثم أصبح يدفع له عن الصفحة الواحدة أربعون قرشا فهبط دخله من تحرير مجلة الوزارة إلى جنيهين ، فترك العمل بها . وكان طوال عمله فيها ، يصدر مجلة المجلة الجديدة وكان يتولى تحريرها بعض أصدقائه الذين تطرفوا فى الدعـــوة الديمقراطية فعطلها أمر عسكرى فى سنة ١٩٤٢ .

وكان ينوى إصدار جريدة يومية ، واستعد أن يدفع ضماناً نقدياً قدره

٣٠٠ جنيها حسب أحكام قانون المطبوعات ولكن وزارة الوفد سقطت فى ٨ من أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، فأخطر فى اليوم التالى أن الجريدة التى يؤذن له بإصدارها هى شهرية .

وكان سلامه موسى قد اشتغل فى سنة ١٩١٩ فترة بالتعليم فى المدارس ، فأصبح واحداً من كبار أدبائنا العديدين الذين اشتغلوا بالتعليم وفى مقدمة هؤلاء المازنى والعقاد وشكرى وصادق عنبر .

وقد لخص سلامه موسى أهدافه فى الصحافة والعمل الأدبى فقال إنه كان يسعى جهده ليكون للمصريين أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم ، وأن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره مع مداعبة مستحيية للغة العامية ، أن يأخذ الأدباء المصريون بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الأثير أو ابن رشيق ، وأن نجعل الأدب متصلا بالمجتمع ويعالج شئونه ويندغم فى مشكلاته ، وأن توجد القصة والروايه المصريتين ، وأن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالى المشكلات .

فلننظر ماذا فعل الأستاذ سلامه فى سبيل هذه الأهداف ، وماذا كانت همومه الحقيقية ، وما هى المركبات الذهنية التى كونته ، وحوافزه الثابتة فى أكثر ما قال وما دعا إليه .

* * *

كان سلامه موسى ، من بين جميع كتابنا ، هو الكاتب الذى استطاع أن ينهج منهجاً فكريا واضح المعالم . وقد كون هذا النهج وأعلنه منذ بدأ يكتب ، وقد قال كثيراً إن ما كتبه وقاله وهو بعد فى مراحله الأولى يدرج إلى الشهرة ، هو ما دأب على الكتابة فيه حتى آخر أيامه . وما قاله صحيح تمام الصحة ،

مطابق للواقع لا يبعد عنه قيد أنملة ، وإذا قلنا أيضا أن سلامه موسى ، هو الداعية الوحيد بين كبار كتابنا ، كنا صادقين — فقد كنت تحس أنه كأنما يشكو من حكة ذهنية ، وأنه لا يطيب له بال ، ولا يهدأ له خاطر ، إلا إذ استمر يمرر قلمه فوقها وحولها بل إذا أغمس سن قلمه فيها . فالآخرون ابتعدوا عن خطوطهم التى رسموها لأنفسهم ، واصطنعوا لأنفسهم أهدافا جديدة المرة بعد المرة . فالذين قرأوا العقاد وطه حسين فى أول حياتهما ، لم يكونوا قادرين على التنبوء بأنهما سيكتبان عن الإسلام ما كتبوه . وأنت إذا أردت أن تستخلص لأكثر كتابنا فلسفة واضحة المعالم فى الأدب أو فى الحياة ، لم تجد شيئا ذا بال إلا مع التسامح والاغضاء .

وقد كان أكثر كتابنا وسائط لنقل الثقافة الغربية إلى بلادنا ، لذلك ترجموا لنا ، ولخصوا وعلقوا على ما كان يقع فى أيديهم من كتب وآثار مفكرى الغرب . وقد يترجم الواحد منهم لواحد من مفكرى الغرب كجان جاك روسو مثلا — كما فعل هيكل — أو لبيكون — كما فعل العقاد — ثم لا تجد لهذا الكاتب الأوروبى أثرا ثابتاً فيما انتجه هيكل أو العقاد ، بل لعلك لا تقع على مجرد إسم ايهما فيما كتباه بعد ذلك .

ونقل الفكر الغربى الحديث والمعاصر إلى لغتنا بالترجمة الكاملة أو بالتلخيص بالتعليق ، عمل نافع ومفيد لأنه فتح لنا طاقات أطللنا منها على ما وصل إليه الغربيون ، مما كان لابد لنهضتنا أن تتصل به ، وتسمع عنه وتفكر فيه ، لتراجع أساليبها القديمة وتطورها وتغيراتها . وقد كان الأفضل أن يتم نقل الفكر الغربى بناء على خطة ومنهج ، حتى ينتقل إلينا أكثر الآثار الغربية مقدمين الأهم على المهم ، ومستكملين بناء عقليا يقوم على قاعدة ، ويرتفع دورا بعد دور ، وطابقا فوق طابق ، على هذه القاعدة . ولكن هذا النقل الاعتباطى كان لحساب بعض الاتجاهات الفكرية الغربية على حساب البعض الآخر .

فعرفنا مثلا الفكر الفرنسى فى مرحلة أكثر مما عرفنا الفكر الانجليزى، وعرفنا الأدب الفرنسى فى ناحية واحدة منه دون سائر نواحيه ، وعرفناه فى حقبة دون باقى حقبة ، ولم نعرف الأدب الألمانى تقريبا ، فيما عدا قصة لجيته ومسرحية لشيلر ــ ترجمتا فى فترة متأخرة ، ولم نتصل بالأدب الروسى تقريباً ، أما الأدب الإيطالى والأسبانى ، وأدب الشمال كله ، والمسرح عموماً فيما خلا شكسبير ، فقد جهلناه جميعا ، كما جهلنا الأدب الأمريكى .

ولهذا كان سلامه موسى كاتبا متميزاً عن غيره لأنه لم يكتب إلا عن مفكرين آمن بما يروجونه من فكر ، وما يدعون إليه من رأى ، وثابر على الدعوة لهم ، بل الح فى هذه الدعوى إلحاحا جعله بحق ــ كما قلت ــ من طائفة الدعاة ، لا الكتاب فقط .

* * *

ومن مزايا سلامه موسى أنه تصدى للعلاقة بين المسلمين والاقباط ، فقال كلاما غير قليل فى هذا الصدد ، وصور لنا موقف الأقباط من المجتمع المصرى ، ومن مشكلاته الوطنية ، والاجتماعية . وقد بدأ كلامه بالمراحل الأولى للحركة الوطنية المصرية المعاصرة عقب الاحتلال البريطانى . وهو كلام جدير بالناقشة .

وأول سمات تحليله للمشكلة القبطية ، أنه يتأرجح بين الإعجاب بمصطفى كامل ودوره فى الحركة الوطنية ، وانتقاصه لقدره ،وهو يتوهم أن الاقباط لم ينخرطوا فى سلك الحركة الوطنية المصرية لأن الحزب الوطنى كان يدعو إلى الولاء للدولة العثمانية . ونحن نقول أنه يتوهم ، لأن الاقباط لم يشتركوا فى الحركه الوطنية فى عهد مصطفى كامل وحزب الأمة الذى كان يتحدث باسمه أحمد لطفى السيد.

وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية الذى كان يرأسه ويتحدث باسمه الشيخ على يوسف لهذا السبب ، بل لأسباب أخرى نفصلها حالا .

قال سلامه موسى فى كتابه عن تربية نفسه فى الصفحة ٤٣ عن الحزب الوطنى وجريدة اللواء :

« كان اللواء جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس ، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينية فى الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية ، وكان منطقهم يقول :

« إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحكومة العثمانية فى مصر ، مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب بل أن تاريخهم يحفل بالمظالم فى مصر ، فان لنا الحق فى الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى » .

« وقد انتهى موقفهم إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينياً ساءت عواقبه واستغله الانجليز أيام كرومر وجورست » .

ولكنه بعد أن يقول هذا الكلام الذى ينطوى على خطأ تاريخى فادح بنسبة الحملة على الأقباط إلى مصطفى كامل ، قال فى نفس الكتاب فى الصفحة السادسة والأربعين :

« وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزيد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها، فحمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الإجرامى فانتهز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين فى دنشواى إحدى القرى فى المنوفية،

وكانوا يصيدون الحمام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه ، فاشتبك الريفيون مع الإنجليز فى مشاجرة انتهت بقتل بعض الانجليز أو بالأخرى وفاته . وعندئذ عينت محكمة مخصوصة كان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول . وكان المحامى عن الإنجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذلك عضوا فى حزب الأحرار الدستوريين ، وشرع فى محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب المقطم بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة فخجلت الحكومة وكذبت الخبر ، ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً » .

ثم قال :

« وقد وجدت تعزيتى فى شىء واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاما وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم . فكنت أجد بعض الشبان يشترون المقطم ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد ، وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية أصبحوا وطنيين يكرهون الإنجليز ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الإسلامية من ناحية وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية » .

ثم عاد فقال عن مصطفى كامل فى صفحة ٤٩ :

« أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الألوف لسماعه ، وكان فى شبابه وحماسته إغراء للشبان » .

وقال فى صفحة ٥٠ :

« وكان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ ، يجد فيه الشباب رمزا للكفاح وكانت شراسة كرومر الذى كان يرغب فى معاملته كما لو كان أحد

مهراجات الهند ، تنبه فيه هذا الكفاح ، وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقف وطنية ، ومما سمعناه فى تلك السنين أن ويصا واصف ومرقس حنا وعددا آخر معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته فأصروا على أن يحلوا خيولها ، ويجروها هم » .

ثم تحدث عن سياسة الوفاق التى جاء دون جورست يمثلها فى مصر ، ساعيا إلى كسب الخديو لصف الانجليز ، وإبعاده عن الحركه الوطنية بدلا من سياسة المشاكسة والتضييق التى كان يتبعها كرومر مع عباس وقال :

« وكانت ساسية الوفاق هذه سبباً فى انقلاب مصطفى كامل ، إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح » .

وخلاصة هذه المقتطفات التى نقلناها بأمانة عن كتاب سلامه موسى نفسه أنه كان يحاول يؤول التاريخ ، بغير أسلوب المؤرخ العالم ، إلى حد أنه قال أن حادثة دنشواى وقعت نحو سنة ١٩٠٧ مع أن تلاميذ المدارس يعلمون أن تلاميذ المدارس يعلمون أنها وقعت قبل ذلك بسنة ، وهو أمر يبدو تافها ، ولكنه يدل على أن الأستاذ بلغ كسله إلى حد أنه صعب عليه أن يمد يده إلى كتاب عن تاريخ مصر الحديثة ، يحقق معه تاريخ هذه الواقعة الهامة التى لا يجوز لكاتب كبير مثله إلا أن يذكره على وجه التحقيق لا التقريب .

ومع ذلك فقد ارتكب خطأ أكبر اذ زعم أن مصطفى كامل هاجم الأقباط، وهو خطأ يلام عليه أعظم اللوم ، إذ أن إلقاء مثل هذا القول على عواهنة فى حق رجل لعب الدور الخطير الذى لعبه مصطفى كامل فى حياة أمته الوطنية الأدبية والصحفية والسياسية ، يشكك فى أمانة سلامه موسى الذى نميل إلى الاعتراف له بها . فان مصطفى كامل لم يقل حرفا واحداً يمكن تفسيره بأنه

يحمل الإساءة ، إلى الأقباط أو الغض منهم ، أو إثارة الكراهية ضدهم .
وكانت مبادىء الحزب الوطنى داعية إلى الحرص على الوحدة الوطنية .

فقد جاء فى برنامج الحزب أن من أهدافه : تقارب عنصرى الأمة المسلمين والمسيحيين ، وقد سبق الحزب الوطنى إلى الوجود أحزاب وهيئات تشبه الأحزاب تجوزا ، وبمراجعة برامج تلك الأحزاب والهيئات كحزب الأمة ، والحزب الوطنى الحر ، وحزب حافظ عوض الذى اندمج هو وحزبه فى حزب الإصلاح برياسة على يوسف ، لانجد إشارة إلى وحدة عنصرى الأمة كما نجد تلك الاشارة الواضحة الصريحة فى برنامج الحزب الوطنى ، الذى انشأه مصطفى كامل — مضطرا — بعد نشوء تلك الأحزاب جميعاً .

بل إن حزب الوفد الذى أعلن برنامجه فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩١٨ خلا من النص على وحدة عنصرى الأمة . ولو راجعنا أسماء أعضاء مجالس إدارات حزب الأمة وحزب الاصلاح ، لما وجدنا بينها أحدا من كبار الأقباط ، بينما كان الأستاذ ويصا واصف عضوا فى مجلس إدارة أول لجنة إدارية للحزب الوطنى الذى أذيع برنامجه وتشكيل لجنته هذه فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧.
وقد كان الأستاذ ويصا واصف رجلا حصيفا ورصينا ، فلو علم عن اتجاهات الحزب ما نسب إليه زورا لما قبل أن يجلس مع زعماء هذا الحزب وأن يحتمل معهم تبعة سياستهم .

ولقد كانت فى حياة مصطفى كامل الزعيم وحياة حزبه أكثر من قرينة تنفى عنه هذه التهمة الجائرة ، فقد كان مصطفى كامل الزعيم السياسى الوحيد بين جميع المشتغلين بالسياسة فى عهده ، والذين سبقوه إلى تأليف الأحزاب ليسدوا فى وجهه باب التقدم والاتساع ، الذى تعلم فى أوروبا ، الذى اتسعت صداقاته واتصالاته بعدد غير قليل من رجال السياسة والأدب فى أوروبا عموما ، وفرنسا

خصوصاً ، وكان دائم الكتابة إليهم ، وتحرير المقالات الضافية فى صحفهم ومجلاتهم ، وإقامة الدعوات لهم فى بلادهم ، وتوجيه الدعوة إليهم ايزوروا بلادنا . وهذا وحده كان يدعوه إلى أن يلتزم — ولو فى الظاهر — البعد عما يلصق به تهمة التعصب . ولو لاحظ هؤلاء شيئامن ذلك — وهم من ذوى المكانة فى أوطانهم كالكاتب بيرلوتى ، والكاتبة جوليت آدم ، والنائب ديلونكل — لبعدوا عنه ، أو للفتوا نظره إلى سوء مغبة هذا المسلك من جانبه .

وقد كان كافيا أن تكون علاقته بمدام جولييت آدم إلى الحد الذى نعرفه ، والذى قالت معه أنها اعتبرت نفسها الأم الروحية لمصطفى كامل ، وأنه اعتبر نفسه إبنا لها ، حتى يبعد عن كل موطن من مواطن التعصب ، لأن الجو الذى تنمو فيه هذه العلاقة ، ليس هو الجو الذى يصلح لأن تفرخ فيه جراثيم التعصب الذميم .

وقد استوقفنى أمر فى خطب ومقالات مصطفى كامل غاب عنى زمنا طويلا ذلك هو خلو تلك الخطب والمقالات من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام ، على كثرة ما كان يستشهد الخطباء والكتاب فى ذلك العهد ، بل وبعده بسنين طويلة بآيات القرآن وأحاديث النبى ، ولو فعل مصطفى كامل كما فعل سواه من كتاب وخطباء أيامه ، واستعان بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، لما كان ذلك دليلا على تعصبه ، وما صلح بحال من الأحوال كمطعن فيه ، ولكن عدم استشهاده بالقرآن والأحاديث قرينة على أن ذهنه كان ملتفتا إلى استقراء الحوادث الجارية ، واستنباط الحجج منها ذاتها ، وتزيد الغاية منه وضوحا .

وقد تناول مصطفى كامل فى خطبته التى ألقاها فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ التى كانت بمثابة خطبة الوداع جميع ما نسب إليه وإلى الحزب الوطنى

من بهم ، ومن بينها تهمة التعصب الدينى ، فقال : قال أعـــداؤنا أننا نخلط الإسلام بالوطنية ، ونتـكلم دائما عن المسلمين ونطلب إدخال الدين فى التعليم ، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم » .

ومن هذه العبارة تتضح عناصر التهمة التى أقيمت ضد مصطفى كامل ، وليس منها تهجمه على الأقباط أو طعنه فيهم . بل إن التهمة اقتصرت على اهتمامه بالمسلمين وبالدعوة إلى إدخال الدين فى مناهج التعليم ولذلك كانت حجة مصطفى كامل فى الرد على هذه التهمة هى : « كيف لا تـكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الدينى ».

ثم قـــــال :

على أن بث الحقيقة الاسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجبة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصب مع علم ، ولا نفرة مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات بينهم » .

وعلينا أن نسأل ما إذا كان الأقباط الذين أخافتهم ميول الحزب الوطنى الاسلامية وتعلقه بتركيا ، هل دخلوا فى حزب آخر كحزب الأمة الذى كان يدعو إلى المصرية الخالصة ، الواقع أنهم لم ينضموا فى تلك الآونة إلى أى حرب من الأحزاب ، ولم يشاركوا بنصيب كبير فى السياسة والحركة الوطنية . ذلك لأن الشعور الوطنى كان عند المصريين كافة راكداً بعد كارثة الاحتلال . وكان مظهر ركوده عند المسلمين ، اتقاء مخاطر المشاركة فى العمل العام وعواقبه . أما مظهره عند الأقباط ، فهو الاخلاد إلى شـــعور الطمأنينة إلى الاحتلال البريطانى ، الذى حاول أن يبدو فى ثوب حامى حمى الاقباط والأقليات .ولـكن

هذه المحاولة لم تلبث أن انكشف طلاؤها الكاذب ، وأدرك الأقباط ، بعد أن تدفقت وتتابعت تيارات الحركة الوطنية ، أن الأمن الوحيد هو الأمن فى ظل الوطن الذى يشمل الجميع بظله الظليل .

هذا هو التفسير الصحيح لارتباك سلامه موسى واضطرابه فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخه وتاريخ البلاد ، ولذلك يبدو غريباً أنه يحمل حملات شديدة جدا على كرومر فى كتابه الذى روى فيه قصة حياته ، ثم يبدى إعجابا بسعد زغلول صديق كرومر هذا .

ويبدو هذا التناقض على أوضح صورة حينما ينقل سلامه موسى فقرة من خطبة كرومر التى ألقاها فى حفلة تكريمه بمناسبة مغادرته لمصر [1] ، وهى فقرة قال فيها كرومر للمصريين إن الاحتلال البريطانى دائم ، وينسى أن هذه الفقرة ألقى بها فى وجه زعيمه المحبوب سعد زغلول ، وأن سعد زغلول خطب فى الحفلة التى ألقى فيها كرومر هذه الخطبة القبيحة ، وأنه أثنى على كرومر ، فرد كرومر على هذا المديح والثناء بمثله . أى أن سعد زغلول وكرومر وقفا يتقارضان الثناء ، مع أن كرومر كان قد تورط فى الحماقة الوحشية التى وصفها سلامه موسى ، وهى مذبحة دنشواى . لكن استحق سعد زغلول أن ينال احترامه وإعجابه ، فى حين يتهم مصطفى كامل بالتفريط فى حق مصر ، لأنه يستغل علاقة قديمة ضعيفة بتركيا لإحراج الاحتلال البريطانى الجاثم فوق صدر مصر .

أن هذه نقطة ضعف فى موقف كل الذين تقضى عليهم اعتبارات عاطفية

---

(١) قال كرومر : ما هى حقائق الحال المصرية الآن ؟ أولها أن الإحتلال البريطانى سيدوم إلى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة صاحب الجلالة الملك ذلك رسميا ، والثانى أنه مادام الإحتلال البريطانى باقيا فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الحكومة المصرية — ولايكونن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة — والنتيجة التى استخلصها من هذه المقدمة أن نظام الحكم الحاضر دائم » .

أو مصلحية بالوقوف مع سعد وضد مصطفى كامل ، سواء فى ذلك العقاد وسلامه موسى .

ولكنى أعود فأكرر أن سلامه موسى جدير بالثناء لأنه ناقش هذه المسائل بصراحة ، فلم يلف ولم يدر ، فأعان على تأريخ حقبة من حقب تاريخنا الحديث ، كان يجب أن نعرف فيها رأى كاتب قبطى كبير ، وقد قرأنا هذا الرأى وناقشناه ، ونحن نحمد الله أن هذه الفتنة قد انتهت ، وأن وحدة الأمة خرجت منها أقوى وأسلم مما كانت .

* * *

وقد نقلنا فيما سبق الأهداف الستة التى جعلها سلامه موسى غاياته الفكرية فلنر ماذا حقق منها . كانت اللغة البسيطة العصرية التى لا تلتزم أسلوب اللغة العربية القديمة وقوالبها التقليدية ، هى هدفه الأول ، فهل حقق سلامه موسى شيئا فى اصطناع هذه اللغة أكثر مما حقق مثلا الدكتور محمد حسين هيكل أو محمود عزمى أو العقاد أو المازنى .

الواقع أنه لم يضف شيئا إلى اللغة العربية التى كانت قد تحررت من السجع ومن المحسنات اللفظية على يد كتاب وخطباء سبقوه وعاصروه . فخطب مصطفى كامل ومقالاته كانت سهلا ممتنعا ، فلم يكن القارىء أو السامع فى حاجة إلى أن يكد ذهنه ليفهم شيئا مما يقوله ، وما كانت هذه الخطب والمقالات لتدع شيئاً مما يتصل بحياة المصريين فى مجالات السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد ، إلا وتخوض فيه ، وتبدأ القول وتعيد ، ولم يكن أسلوب على يوسف وأحمد لطفى السيد من أساليب الكتابة البائدة التى تحاكى أسلوب المقامات ، ثم جاءت مقالات وخطب محمد فريد ، فكانت مثلا عاليا فى الكتابة التى لا يزيد حرف فيها على

غرض الـكاتب . فحمد فريد كان يتجه إلى ما يريده فى يسر وبساطة ،وبأقل الألفاظ. وجاء كتاب بعد ذلك كعبد القادر حمزه ، فذهبوا فى الإقتصاد فى اللفظ والإيجاز فى العرض بما لا مزيد عليه ولقد بقى سلامه موسى إلى آخر حياته يتحدث عن اللغة التلغرافية ، دون أن نتبين مقصوده منها ، لأنه كان يكتب كما يكتب سواه من معاصريه ، وقال أنه كان يغازل اللغة العامية فى استحياء ،والواقع أن ما من أحد ممن دعوا إلى اللغة العامية استطاع أن يكتب مقالا أو كتابا باللغة العامية لا لخوفه من الجماهير بل لأن اللغة العامة بطبيعتها لا تصلح لمناقشة المشـكلات الـكبيرة ، والموضوعات الجدية ، ومع ذلك وجد كتاب ممتازون استطاعوا أن يطوعوا اللغة العامية فيما تصلح له كالدكتور سعيد عبده ، وبيرم التونسى ، وبديع خيرى ، فقد كتبوا أزجالا رائعة لمخاطبة عواطف الجماهير ،ولإضحاكهم وللسخرية من شخصيات المجتمع أو عيوب فيه — كما كتب آخرون للمسرح باللغة العامية فنجحوا أى نجاح — ولم يشارك سلامه موسى فى شىء من هـذا ، فقد كان معجبا باللغة العربية الفصحى ، يتذوقها ،وإن لم ينقطع عن إيهامنا بأنه يريد أن يستبدل بها اللغة العامية ، ليرضى فى نفسه نزعة المجدد أو الثائر .

وفى كتاب « تربية سلامه موسى » يجد القارىء محاولة ظاهرة بالعناية بأسلوبه ، واختيار ألفاظه ، فجاءت بعض قطع فى هذا الـكتاب أدنى إلى الشعر المنثور ، بما فيها من موسيقى وطلاوة .

أما الأخذ بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى ، فقد تم بالفعل دون أن يشارك فيها سلامه موسى فـكان من أسبق الذين اصطنعوا هذه الأوزان والقيم عبدالرحمن شكرى ،ولم تلبث المدرسة الحديثة فى النقد أن نشأت باتجاهاتها المختلفة فوجد من أقام نقده للعمل الأدبى ، على أساس من قيمه الجمالية ، ومن

أقامها على أسس نفسية ، ومن أقامها على أسس مذهبية ، ووجد دعاة الشكل ، ودعاة المضمون .

أما الدعوة إلى إنشاء القصة والدرامة ، فلا نذكر أن سلامه موسى بذل فى سبيلها شيئا يذكر ، وها هو ذا الهلال تحت أيدينا فى الفترة التى أشرف فيها على تحريره سلامه موسى فانه لا يقع نظرنا على أكثر من قصة واحدة لسلامه ولا نكاد نجد لغيره من الكتاب المصريين قصصاً ، كذلك بين أيدينا المجلة الجديدة والمصرى ، فقد خلت تقريباً من بحث فى أصول القصة أو الدراما ولم ينشأ فى حجرها قصاص ولا مؤلف مسرحى وإن لم ننكر أن نجيب محفوظ وجد من سلامه موسى احتفالا ومعاونه . فقد نشأت القصة المصرية الكبيرة والقصة الصغيرة والمسرح كله بعيدا عن سلامه موسى الذى لا نجد فى كل ما خلفه نقدا لقصة أو مسرحية . وعلى كثرة ما قرأ لبرناردشو ولأبسن ، لم يتفضل على الأدب المصرى بترجمة بل حتى بتلخيص مسرحية من مسرحياتهما ، وبيان السمات المميزة لمسرح أى منهما . فقد قنع بنقل أفكارهما بعيدة عن شكلها المسرحى . كأن االمسرح ليس هما من هموم سلامه موسى ولا شعبة من شعب غرامه . ولو كان حقا مؤمنا بأسلوب القصة والمسرح كما ادعى لنفسه ، لأغرقنا فى طوفان من الحديث عنهما وعن كبار الكتاب فيهما ، ولأسمعنا الكثير عن أصول الكتابة فيهما . بل إنه بقى مصرا على كرهه لشوقى مع أن شوقى كان أول شاعر عربى يكتب للمسرح ولقد أخبرنا سلامه موسى أنه مشغول بالريف المصرى ، ولكن لا نجد صدى هذا الحب فى كل ما كتب ، مثلما نجد فى كتابات هيكل مثلا فسلامه ابن المدينة عاش فيها ، وتحدث عن مشكلاتها ، ولم يعرض بإلحاحه المعهود صورا لحياة الفلاح المصرى ، ومشكلات حياته ، ثم يمكن أن نقول أن اشتراكية سلامة موسى ، كانت اشتراكية

إرهاصات ، اكتفى منها بالتعميم دون التخصيص ، وبالإشارات العابرة ، دون الخوض فى التفاصيل ، وإظهار التحمس لها دون تحمل مشقة رسم الخطة ، ولا بيان المنهج .

ولكن سلامه موسى ، كان مرحلة هامـــة من مراحل التفكير المصرى بلا جدال ، وكان واحداً من معالم الطريق المباشر ، ومقدمة للحياة الجديدة التى تطالع إليها المصريون ، وعملوا لها ، وشقوا فى سبيلها .

هو لم يعلمنا شيئا ولكنه شوقنا لأن نتعلم ، لم يعننا على أن نحيط ببرناردشو ولا بويلز ولا بنيتشه ، ولا بعمالقة الأدب الروسى ، ولكنه نجح فى أن يجعلنا نشعر بوجودهم ، وبعظم الدور الذى لعبوه فى حياة الإنسانية والفكر البشرى ، وبالفائدة التى سنجنيها حينما نقرؤهم ونستمع بما خلفوه لنا ، ولم يدعنا إلى منهج واضح من مناهج الاشتراكية ، ولكنه حببنا فيها ، وأغرانا بها . وهذا كله ليس بالقليل .

* * *

على أن سلامه موسى أضاف إلى أياديه الأدبية يدا إذ أنه أورد فى الفصل الأخير أو قبل الأخير المعنون « الأدب للشعب » آراء الكتاب المعاصرين فيه ، وقد كانت هذه الآراء كلهاقدحافى أدبه،وذما عنيفا،فقد أثار هؤلاء عليه لأنه أفضى إلى سكرتير تحرير مجلة الرسالة الجديدة بحديث قال فيه : أنه لا يوجد بين أدباء مصر ، أديب واحد يستحق أن يحمل التاريخ آثاره إلى الأجيال القادمة ، ولم أجد من أدبائنا من يستحق أن يقرأ له أولادنا وأحفادنابعد عشرة أعوام .

فلما سئل العقاد عن هذا الرأى قال : إنى لا أستطيع أن أبدى رأيى فى غير رأى ، وما قاله سلامه موسى ليس تعبيرا عن رأى ، ولكنه تعبير عن حقد وضغينة وشعور بالفشل والتقهقر ، وكل ما يهدف إليه سلامه موسى من حملاته على الأدب العربى هو تشويه للأدب العربى عامة ، ورميه بالقصور والجهل

والانحلال والذنب الأكبر للأدب العربى عند سلامه موسى ، هو أن هذا الأدب عربى ، وسلامه موسى ليس بعربى .

ولما سئل العقاد عن مكان سلامه موسى بين أدباء العصر الحديث وعلمائه قال :

إن الأدباء يحسبون سلامه موسى على العلماء ، والعلماء يحسبونه على الأدباء والواقع أنه ليس أديبا ولا عالما ، ولكنه قارىء لبعض العلم ، وبعض الأدب ، فى بعض الأوقات ، وما يفهمه أتفه مما لا يفهمه .

أما الأستاذ توفيق الحكيم فقال : إن سلامه موسى يتصدى للحكم على قضايا لا يملك أسباب التصدى لها ، ويخيل إلى أنه قد انقطع عن القراءة منذ ربع جيل على الأقل . فإنى كلما قرأت له لمحت أثر تفكير القرن التاسع عشر فى اتجاهات فكره ، والتفاتات ذهنه . أنه لا يزال يقيم فلسفته إن كانت له فلسفة ، على الاعتراف بالمادة وإنكار الروح ، ويحسب أن هذا أقصى ما وصل إليه الفكر الحديث . كان ابنشتين يقول أن الكون فى إطار ، وأن (الله) خارج هذا الإطار ، وقد قرأت له أخيرا كلاما عن الله جنح فيه إلى الاعتراف بالله ، وتحدث عنه فى حذر وتهيب خشية ، وماقرأته لسلامه موسى منذ ثلاثين عاما لا يختلف عما أقرؤه اليوم نزعة وأسلوبا ، واتجاها حادا إلى إنكار كل شىء والاستخفاف بكل شىء .

ثم أورد سلامه موسى آراء كتاب آخرين فنقل عن أحدهم أن طه حسين قال له « إن جريمة شوقى فى نظر سلامه موسى فى هذه القصائد التى تغنيها أم كلثوم ، أى قصائد شوقى فى مدح الرسول . وقال أن سلامه موسى يعبر بسهولة عن آراء غيره ، ولو كانت له آراء ذاتية لاستطاع أن يعبر عنها بسهولة أيضا .

ثم نقل سلامه موسى ما قاله عنه الأستاذ حبيب زحلاوى فى كتابه شيوخ الأدب ، ونص هذا الهجوم .

« من الذرائع التى تذرع بها ولكوكس إلى تعميم اللهجة العامية ونشرها بين أبناء الطائفة أن استعان بالأستاذين سلامه موسى ونصيف المنقبادى على وضع تسابيح وأدعية وابتهالات وتضرعات يتضرع بها أبناء الطائفة القبطية إلى الله ، وقد وضع أبونا سلامه كما قال لى زميله نصيف المنقبادى الأدعية التالية وهذا بعضها :

« يارب أنت الوابور وحنا العربيات جرنا بقـــــــدرتك الإلهية إلى ملكوت السماء .

« يارب أنت الحنفية وحنا الجرادل املأنا من نعمتك » .

وقد رأى سلامه خير رد على هذه الحملات التى جرها على نفسه باتهام كبار الأدباء ، بأنه لن يبقى من آثارهم شىء بعد موتهم ، وأن أبناء الجيل القادم لن يقرأوا بعد عشر سنوات ، حرفا ممــــا كتبوه ، أن ينشر محاضرة ألقاها الدكتور ابراهيم ناجى فى جمعية الشبان المسيحيين عن سلامه موسى . والحق أن سلامه موسى كان خليقا أن يفهم ويتوقع أن مثل هذا الهجوم ، سيقابل بمثله أو بأعنف منه ، فإن الإنسان حساس إلى أقصى الحد ، فى كل ما يتصل به وهو أكثر حساسية ، لما يتصل بتاريخه ، وذكراه بعد الموت ، ولعله قادر على أن يحتمل ويصبر عن نقد عمل من أعماله ، أو بعض أعماله ، أما إصدار الحكم على عمله كله ، من ألفه إلى يائه ، بأنه لاشىء ، وبأنه صائر إلى العدم ،فأمر يهول كل آدمى ، دع عنك الأدباء الذين يعملون فى ظل شعور دائم ، بأنهم يتركون أعمالهم للأجيال القادمة ، وأن نصيبهم من الشهرة والذيوع إن قل فى حياتهم فإن المستقبل سينصفهم ، كما أنصف غيرهم من المغمورين أثناء الحياة ، المشهورين

بعد الموت . ونحن لانرى بأسا من أن ننهى هذا الفصل عن سلامه موسى بنقل فقرات من هذه المحاضرة :

قـــال :

« إنى لو صورت سلامه موسى على حقيقته، وأعتقدأنى أستطيع .فـكأنى أصور رجلا يدور حول نفسه يبحث عن شيئين :

« الأول عن عيب فيما صنع لعله يستطيع تلافيه فى المستقبل .

والثانى الذى يبحث عنه ، عن ناقد عالم مخلص يستطيع أن يستزيد منه علما ومعرفة » .

ثم قـــال :

هذا هو سلامه موسى فى صورة مجملة ، أما التفاصيل فتذكرنى بتفاصيل ج ولز قطعة قطعة . حتى لقد قلت حين علمت أن سلامه موسى فى بدء حياته تتلمذ على عالم من علماء إنجلترا ، وكان يلازمه ملازمة الظل أن هـذا العالم ليس إلا ولز . ولز بدأ حياته عالما فى البيولوجية وهكذا فعل سلامه ولز أخذ يوجه نفسه شطر التاريخ . وهكذا فعل سلامه . ويلز أخذ يبنى الـكوارث على أسباب اقتصادية ، كما يتضح لنا من كتاب سعادة البشر وماهم ورخاؤهم . وسلامه موسى هو أول مصرى تـكلم عن أهمية الأرقام الاقتصادية فى تاريخ مصر والمصريين .

« أجل يا سادتى . لقد كنت أقرأ له بعض الأحايين مقالات عن القطن المصرى أو العامل المصرى ، والتعطل المصرى ، فيعترينى دوار ، يعترينى شىء كمن عاش فى حلم فأفاق على حقيقة ، فأقطع المقال وقد خيل إلىّ أن عليه أثر العرق والتعب والدموع . أقطع المقال وأحتفظ به كما أحتفظ بقصيدة جميلة سأعود إليها مرة واثنتين .

ثم قـــال :

أما أسلوب الحياة ، فهو أول من جاء بهذا التعبير العجيب ، أن الإنسان عليه أن يمارس حياته .

والواقع أن سلامه مارس حياته كما مارسها سقراط من قديم وأكاد أتخيله فى الأزمنة الطاحنة التى يجتازها بهدوئه الممتاز ، يتذوق كاسا مريرة ولكنها عذبة لنفسه مستساغة فى يقينه » .

الفصل السادس

على الغـــاياتى

اسم على الغاياتى وتاريخة جزء من تاريخ مصر الحديثة ، ومن هنا عرفت اسمه ، منذ شببت عن الطوق . فقد كان الغاياتى صاحب ديوان « وطنيتى » و « ديوان وطنيتى » لم يكن مجرد ديوان شعر ، بل كان وثيقة من وثائق الحركة الوطنية ، فقد ضمنه ناظمه قصائد قالها فى المناسبات السياسية الكبرى التى وقعت والحزب الوطنى فى أوجه ، وتأييد المصريين له ، فى أعلى مراتبه . وقد كان الديوان بهذا وحده خليقا أن يثير من الاهتمام الشىء الكثير ، ولكن محمد فريد رئيس الحزب الوطنى وخليفة مصطفى كامل كتب له مقدمة ، كما قدم له الشيخ عبد العزيز شاويش بكلمة فزادت قيمته السياسية ، ثم رأت النيابة العامة أن فى المقدمتين تحسينا لما فى الديوان من الشعر ، وأن فى شعر الديوان تحسينا لجرائم يعاقب عليها القانون ، فقدمت مؤلف الديوان ، وكاتبى المقدمتين إلى المحاكمة ، فحكم على محمد فريد فى ٢٣ من يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر وحكم على الشيخ عبد العزيز شاويش بالحبس ثلاثة أشهر ، أما الغاياتى ، فقد قرر أن يهاجر من مصر ، فحوكم غيابياً وقضى عليه بالحبس سنة .

ولما اتهم محمد فريد بعد ذلك فى قضية سياسية ثانية ، أدرك أصدقاؤه أن سلطات الاحتلال قررت أن تتعقبه بالأحكام : حكم وراء حكم ، حتى تحرمه من حريته وتحول بينه وبين الحياة السياسية ، فقرر أن يهاجر كذلك من بلاده . وتغير مجرى الأمور فى مصر بسبب هذه الهجرة تغيرا كاملا .

ولكنى لم أعرف على الغاياتى حتى عاد إلى مصر بعد أن اغترب عنها سبعة وعشرين عاما قضاها فى سويسرا وتزوج خلالها بسيدة سويسرية فاضلة ورزق منها بولد، وخمس بنات، وقد عادوا جميعاً إلى بلاده، بعد أن قبلت مصر فى عصبة الأمم فى يوم الأربعاء ٢٦ من مايو سنة ١٩٣٧، إذ خيل للغاياتى أن دوره فى أوروبا قد انتهى، وأن بلاده قد تكون فى حاجة إليه بعد تجربة طويلة شاقة فى الصحافة والسياسة، وبعد صلات واسعة مع زعماء العرب وزعماء الغرب، وبعد أن شهد أحداث الحرب العظمى الأولى العسكرية والسياسية، ثم ما تلاها من مؤتمرات ومعاهدات، كما رأى نشوء عصبة الأمم وحضر مداولاتها، وسمع بأذنى رأسه أشهر خطبائها.

وفى هذه الأيام — أى فى سنة ١٩٣٨ — فقط عرفت الغاياتى فأدهشنى أنى رأيت مصريا لحماً، أو قل أزهريا نقياً خالصا، لم تمح إقامته ربع قرن من الزمان بعيدا عن مصر فى وسط أوربى، ومع زوجة أجنبية، شيئاً من سماته أو خصاله المصرية. فلا هو لوى لسانه بلكنة أجنبية، ولا هو حرص على أن يدس فى حديثه كلمة فرنسية واحدة، ولا هو انقطع عن الاستشهاد بالشعر العربى القديم والحديث، حينما يقضى سياق الكلام. ولم يكن ذلك عن جمود أو تحجر، فالغاياتى قبل أن يهاجر من وطنه، كان شابا متقدما هاجم الرجعيين من الأزهريين هجوما شديدا، ودعا إلى تطوير الشعر، وأظهر إعجابه بالأدب الفرنسى وترجم المارسييز النشيد الوطنى لفرنسا فى مقدمة ديوانه، كما ترجم شعرا وطنيا لفيكتور هيجو وعلق على هذا كله تعليقات ملؤها الإعجاب بالأدب الوطنى الفرنسى. وملأ هوامش هذا الديوان بكثير من الحقائق التاريخية التى تدل على سعة اطلاعه على التاريخ الأوربى، ولكنه كان مواطنا نموذجيا، يحب وطنه، ويتعصب له، ولكن لا يتعصب ضد غيره من الأوطان، ويحرص

على تقاليد أمته حرصا لا يحول بينه وبين أن يفتح عقله وقلبه ، لثقافات الأمم الأخرى ، يغترف منها وينهل ، ولكن دون أن يفنى فيها ، أو يذوب .

وقد حدثنا الأستاذ أحمد حسين الذى مر فى سنة ١٩٣٥ بجنيف عن مكانة الأستاذ على الغاياتى فى هذه المدينة التى كانت بحق عاصمة العالم الدولية فقد كانت مقر عصبة الأمم ، وكانت مدينة المؤتمرات العالمية ، لا ينفض فيها مؤتمر حتى ينعقد مؤتمر ، ولا يغادرها عظيم من رؤساء الحكومات أو وزراء الخارجية أو كبار الكتاب الدوليين ، حتى يفد عليها عشرات من هذا الطراز .

وكان الأستاذ أحمد قد أعد رسالة ليقدمها إلى سكرتارية عصبة الأمم ، فصحبه الأستاذ الغاياتى إلى مقر العصبة . فكان الغاياتى موضع الترحيب والإجلال من كل موظف كبير هناك ، وكان الناس يحيونه فى الطريق تحية الحب والتقدير ... وما أن سلم الأستاذ الغاياتى هذه الرسالة إلى مندوبى وكالات الأنباء حتى نشرت فى عشرات الصحف والمجلات .

وقد حدثنا الكثيرون عن الغاياتى كيف كان يلقى المصريين فى داره فى جنيف ، فيحتفى بهم ، ويسرف فى الحفاوة ، ويخدمهم ويتفانى فى الخدمة ، ثم لا ينفك يتحدث معهم عن مصر ، ونيل مصر ، وجو مصر ، فإذا سمع غناء مصريا هطلت الدموع من عينيه على خديه كأنه طفل ذكر أمه ، فاجتاحته نوبات الحنين .

وقد بدأ الغاياتى فى ٢٣ من مايو سنة ١٩٥٢ ينشر ذكرياته فى جريدة (منبر الشرق) التى أصدرها بعد عودته إلى مصر ، فى حلقات أسبوعية بلغت ستا وعشرين حلقة . وقارىء هذه الحلقات يحس كيف أن الغاياتى كاتب

خفيف الظل ، تسرى فى أسلوبه روح دعابة رقيقة ، قد تبدو للناس غريبة من رجل كان ديوانه يتفجر نارا وحمما ، وهو يتحدث عن الاحتلال وأعوان الاحتلال وقد تبدو أغرب ، فى أدب رجل كابد من الحياة ، أشد ما كابده الرجال فى حياتهم العامة من وحشة الغربة ، وضيق الرزق ، وتجدد الأخطار ، وخيبة الأمل فى الرجال والزمان وتقلب الصحب والإخوان .

والحق أنك كنت تلمح الحزن العميق فى قسمات وجه على الغاياتى ، وتحس أنه يكظم ألمه ، ويخفى ضيقه وبرمه بالأيام ، ولكن ما يكاد يتكلم حتى ترى هذا الوجه الريفى بتقاطيعه الغليظة نوعا ، قد تكسرت جهامته إلى رقة ، فإذا سمعت قهقهاته القصيرة المتوالية ، أدركت أن وجهه لا يحسن التعبير عن إيمـــان صاحبه ، وبعده عن اليأس ، وامتلاء قلبه بالأمل . وأنى لأشهد أنى رأيت الغاياتى ، بعد أن فقد ابنه الوحيد ، بعد إصابته برصاصة من بندقية طاشت من أحد زملائه فى رحلة صيد فى ناحية السويس ، فوجدته صابرا هادئا لا تدمع له عين ولا تصدر عنه آهة ، أو حركة واحدة من حركات الألم الذى لابد أنه كان يعتصره اعتصاراً ، ومضت الأيام تجمعنا سويا ونتحدث فى الصغير والكبير من الأمور ، ونتبادل الشكوى من الصحب والزمان ، فلا يذكر ابنه لأنه لا يحب أن يظهر بمظهر الضعف ، ولا أن يجرح نفس صاحبه وصديقه ، بكلمة شكوى لا يحتملها أو بدمعة لا يقوى على رؤيتها .

* * *

قال الغاياتى فى ذكرياته ، أنه ترك (دمياط) مسقط رأسه ، فى أبريل سنة ١٠٧ بعد أن بلغ الثانية والعشرين فقد ولد سنة ١٨٨٥ ، فاشتغل فى جريدة أو مجلة الجوائب المصرية التى كان يصدرها الشاعر خليل مطران .

ولم ينقض على عمله فى (الجوائب) إلا شهر أو بعض شهر حتى قامت فتنة

دينية فى دمياط ، فلم يتردد الغاياتى الأزهرى الشاب، وهو بعد فى مطلع شبابه ، وفى المرحلة الأولى لعمله فى الصحافة ، فى أن يقف إلى جانب الرأى الحر ، الذى رآه على صواب ، دون أن يحفل أو يقيم وزنا لسلطان خصوم هذا الرأى .

وكان محور هذه الفتنة ، أن عالما أزهريا فى دمياط ، لعله كان مدرسا فى معهدها الدينى أعلن رأيه فى صناديق النذور ، والتوسل بأرباب القبور ، ونفى قول القائلين بالخطوة للأولياء ، أى نفى أن يكون ولى الله ، قادرا على أن يقطع المسافات فى ثوان أو لحظات ، بين أقصى الدنيا وأدناها ، بلا طائرة أو صاروخ ويقول الغاياتى فى هامش إحدى صفحات ديوان وطنيتى ، أن هذه الفتنة كاد يستفحل خطبها لتحريض العلماء الذين يصفهم هو (بذوى الأفكار العتيقة البالية الجهلة ، والسفلة) والذين يقول عنهم أنهم كانوا يعملون لإيذاء مخالفيهم من المصلحين . وأن هذه الفتنة رفع أمرها إلى مشيخة الأزهر ، وإلى الخديو ، فاستدعى العالم الحر من دمياط ، وحوكم أمام مجلس إدارة الأزهر ، وأصدر المجلس حكما وصفه الغاياتى بأنه (من عمل الشيطان) إذ قضى بمنع العالم المتحرر من التدريس وبقطع مرتبه وجرايته سنة كاملة يقدم شيخ علماء دمياط فى آخرها شهادة المشيخة بحسن سلوكه .

ثم يقول الغاياتى :

« وقد كنت إذ ذاك محرراً بجريدة الجوائب المصرية ، فقد تتبعت هذه الفتنة الشعواء ، وأخذت أكتب ، واستكتب غيرى من الكتاب منتصرين للحق محاربين الباطل فكان قولى ثقيلا على المبطلين فدبروا لى مكيدة تريحهم من سماع صوتى ، وتكون انتقاما منى ، وعقابا لى على حملتى التى شاركنى فيها كثيرون من مصلحى الأمة وفضلائها وأيدونى فى موقفى تأييدا عظيما ، أما هذه المكيدة فهى إدخالى الجيش بدعوى أننى عوفيت من القرعة العسكرية

لطلب العلم ولم أقض المدة القانونية بعد المعافاة بدون اشتغالى بحرفة سواه ، فقدموا إلى الحربيــة مطاعنهم وأمطروا على إدارة القرعة رسائلهم ، وأخذ التحقيق دوراً يعرفه من يعرف قانون القرعة واستبداد رجالها وغلظتهم فكانت النتيجة أنى سجنت بقشلاق العباسية (القشلاق الأحمر) اثنى عشر يوماً من ١٨ إلى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٧ تحت التحقيق ثم أطلق سراحى لأسباب قانونية بعد أن عرفت سوء الإقامة فى الجيش المصرى وأسباب الفرار من وجهه ».

وقد نظم قصيدة فى هذه الفتنة لا تخلو من خفة روح على الغاياتى وميله إلى الدعابة ، فقد تحدث عن نفسه ، إذ سجن فى قشلاق العباسية ، بوصفه بطلا من أبطال الحرب فقال :

أصبحت (رب السيف والقلم) الذى

هزم العمــائم يوم أضحت لا تعى

ولكن روح الدعابة لم تحل بينه وبين أن يكون جريئاً وقاسياً على دعاة الرجعية وإن كانوا من علماء الأزهر فى ذلك الحين الذى عمل الاحتلال والملكية ، على عزله عن سير الحياة ، وعن أداء رسالة الدين الإسلامى الصحيحة فقد قال فى موضع من قصيدته :

ياويل من عبدوا القبور وأشركوا	بالله بين توسل وتضرع
ورأوا من العلماء تأييدا لهم	فمضوا وما فطنوا لغى مبدع
يا قوم إن أولئك العلمــاء	قد جعلوا الشريعة سلما للمطمع
فإذا أرادوا فالحلال ممنع	أما المحرم فهو غير ممنع
فهلم ننبذ رأيهم ونرى لنا	رأياً تنزه عن فساد المنزع
ونشن غارتنا عليهم كلما	شنوا علينا غارة المتجشع

حتى نردهمو إلى الإسلام أو نذر العمائم بالمقام الأشنع
وهناك يصبح دين أحمد خالصاً لله لا للأولياء الأربع

ويشرح الغاياتى المقصود من (الأولياء الأربع) فى الهامش فيقول مانصه :

« الأولياء الأربع هم السيد أحمد الرفاعى ، والسيد عبد القادر الجيلانى ، والسيد أحمد البدوى ، والسيد ابراهيم الدسوقى رضى الله عنهم ، وهم الأربعة الأقطاب الذى يرجع إليهم السكون والتصرف فيه وكل ولى يستظل بلوائهم ، كذلك قال الجهلاء » .

وبهذه الصفحة المبكرة فى حياة على الغاياتى ، يطالعنا على حقيقته ، ثائراً صادقاً لا تتفجر ثورته حيث تكسبه عطف العامة أو تأييدهم ، أو حيث يكون الصدام والصراع مع جهة حكم ، أو سلطان مكروه ، لا سند له إلا سلاحه وماله وهيلمانه . فليس أقسى على المجددين والثوار ، من أن ينازلوا قوة كساها الزمن وانحلال الخلق ، وفساد العقيدة قدسية زائفة عند عامة الناس . ففى معركة كهذه، لايضيع صوت الثائر فحسب ، بل يعتبر مارقا خارجاً على الأمة ، ويستباح دمه ، دون أن يظفر بكلمة إشفاق واحدة ، فيجتمع عليه ظلم صاحب السلطة ، وظلم العامة والشعب . ولذلك كان من الطبيعى ، أن يكون الحزب الوطنى ،هو الحزب الذى يكسب ثقة على الغاياتى الشاب ، فلم يكن ممكناً لشاب فى مثل حماسته التى أغرته بدخول معركة مخوفة ، كمعركة فتنة دمياط الدينية ، أن يجد فى أحزاب مصر فى تلك الأيام ، ما يشبع ميله الثورى ، وطاقته الإنفعالية الفتية ، إلا حزب متطرف غاية التطرف ، ولم يكن بين الأحزاب المصرية ما يفوق الحزب الوطنى فى تطرفه ، بل إن العيب الذى كان يؤخذ عليه عند خصومه ، أنه يبالغ فى التطرف إلى حد يعمى معه عن حقائق الحياة ، والواقع الذى لا سبيل إلى الفرار منه .

وقد عجل مزاج الغاياتى الثورى بالنتيجة الحتمية التى يقود إليها هـذا المزاج . فقد بدأ ينشر فى اللواء ـ جريدة الحزب الوطنى ـ ثم فى العلم بعد أن طوى اللواء ، قصائد نارية ، لا يهاب فيها لا جانب الاحتلال ، ولا يقيم وزناً لمقام الحاكم أو القضاة . ولا يجامل فيها أصحاب المقامات الأدبية كشوقى شاعر الأمير فى ذلك الحين ، قبل أن تعقد له إمامة الشعر ، ولا شيوخ الأزهر وهو منهم .

والأشعار والأقوال حينما تأتى متفرقة ، يخف وقعها أما إذا جمعت فى كتاب ، أيدت بعضها بعضا ، وخرجت منها جميعاً صورة أقوى فى النفس ، ولذلك ما كادت قصائد الغاياتى تجمع فى ديوان (وطنيتى) حتى بدا للحكومة أنها أمام قذيفة مركزة من التحريض على الاحتلال ، وأنها حملة إثارة وإهاجة ، إن لم تعالج فى بدايتها استشرى خطرها ، واستحال القضاء عليها ، ولذلك بدأت الحملة على ديوان وطنيتى وكل ما اتصل بهذا الديوان كأعنف ما تكون الحملة لحكم على محمد فريد والشيخ شاويش وعلى الغاياتى بالحبس مددا تتراوح بين السنة وثلاثة شهور ، ولعل هذا أول كتاب فى مصر يجر ثلاثة إلى السجن ، ويؤدى إلى هجرة اثنين منهما ، عن الوطن ، هجرة طالت حتى مات خلالها أحد الإثنين المهاجرين ، دون أن يرى وطنه ولا أهله ، وبنى فيها الثانى حياة جديدة كاملة خارج بلده ، تكلم فيها لغة غير لغته ، وتزوج سيدة من غير جنسه ودينه ، ونشأ أولاده وكبروا ، دون أن يتكلموا لغة آبائهم ، حتى إذا عادوا إليها عادوا كبارا ، فتعلموها كما يتعلم الأجانب لغة غريبة عنهم مستعصية على ألسنتهم .

ويروى الغاياتى قصة ديوان وطنيتى فيقول أنه فرغ من آخر قصائد هذا الديوان فى يوم الجمعة ٢٤ من يونية سنة ١٩١٠ ـ ولما كان طبع هذا الديوان

فى مطبعة مصرية ، يعرضه للمصادرة ، وهو بعد أصولا لم تجمع حروفها ، فقد قصد مطبعة يملكها فرنسى اسمه (كستيولا) . وقد كان الأجانب يومذاك غير خاضعين لتفتيش البوليس المصرى ، إلا إذا أذنت القنصلية التى يتبعها هؤلاء الأجانب ، وكان استصدار الأذن من القنصلية يسمح باخفاء جسم الجريمة وآثرها وتم طبع الديوان دون أن يصادر ، وكان عدد النسخ المطبوعة ألف نسخة .

وقد حدث أن رأى الأستاذ سليمان فوزى الذى أصدر مجلة الكشكول ، بعد ثورة ١٩١٩ ، الديوان فى يد الغاياتى ، فسأله لماذا لم يهد نسخة منه إلى الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ليقرظه ويعلق عليه ، وكان الأستاذ سليمان يعمل فى المؤيد ، ثم صحبه إلى مكتب الشيخ على يوسف ، حيث أهدى الغاياتى إليه نسخة ، ولكن ما كاد الشيخ يطلع على الديوان حتى جرد عليه حملة ضارية وكأنه كان يكتب قرار الاتهام ضد الديوان وصاحبه . وكانت المؤيد ، تنافس اللواء جريدة الحزب الوطنى ، وتتهم الحزب والجريدة بالتطرف المجنون ، وتلقت الحكومة هذه الحملة بصدر رحب ، فأخذت تبحث عن الديوان فى كل مكان تعلم أنه موجود فيه وعلم الغاياتى أن أمرا باعتقاله قد صدر ، ونصحه بعض الأصدقاء ، بان يفر إلى تركيا ، فاستمع إلى نصيحتهم ، وهاجر هذه الهجرة الطويلة التى حدثتك عنها . عقد الغاياتى عزمه على السفر إلى تركيا ، ولم يكن يحمل جواز سفر يأذن له بمغادرة مصر ، ولا بدخول تركيا ، ولكن لم يكن مثل هذا الجواز ضروريا فى تلك الأيام . وساقت الأيام للغاياتى ضابطا تركيا ، كان فى رحلة صيد فى السودان ، عاد منها ، بعدد من النسانيس ، فلزم صحبته حتى وصل إلى استنابول ، ودخلها فى حمايته .

وصف أحد أصدقاء الغاياتى اليوم الأخير له فى القاهرة قبل الهجرة وهو يوم ٥ من يولية سنة ١٩١٠ فقال أن الغاياتى ذهب إلى شقته بالمنزل رقم ٨ بحارة

سليم بك المتفرعة من شارع الشيخ ريحان بعابدين ، فجمع أثاثه منها ، وأخذ ما يلزمه من ملابس ، وكتب ، ولكنه بدل أن يأخذ الخفيف من المتاع الذى لاغنى عنه أخذ يكوم كل ما فيها من أشياء لا قيمة لها ، متمهلا متأنيا وكأنه ذاهب إلى رحلة للاستجمام والترويح ، وكانت نفسه تنازعه فى أن يحمل معه كل ما فى الشقة حتى الحصيرة والمرتبة ، وصديقه يستحثه ، ويحذره من الخطر الذى ينتظره إن لم يسرع بالنزول والفاياتى لا يلتفت إلى هذا التحذير إذ لم يخرجه من هذا التلكؤ ، إلا أن صديقه لمح مأمور قسم عابدين قادما من بعيد فى عربة (حنطور) ، متجهاً إلى حيث منزل الفاياتى ، فأسرع الفاياتى يحمل فى يده (صرة) ثقيلة حوت من الملابس والكتب ما فوق الحاجة ، ورأتهما صاحبة المنزل ، وهما يهرولان ، فسألت عن الخبر ، فقالا لها ، أنهما مسافران الى دمياط فأخذت تشيعهما بالدعوات الصالحات .

وقطع أحد أصدقاء الفاياتى تذكرة سفر الى الأسكندرية ودخل بها الى القطار ، بينما دخل الفاياتى بتذكرة مقابلة ، وركب الفاياتى القطار فإذا به يجد فى نفس الديوان الضابط التركى الذى تحدثنا عنه ، وقد نزل معه فى فندق واحد بالأسكندرية قبل أن تقلع الباخرة ، وركباها سويا ، ولما وصلت الى استانبول هبط منها الضابط التركى والفاياتى فى أعقابه ، فلم يعترضهما الموظفون المكلفون بحراسة الميناء ، وكان الفاياتى قد قال للضابط التركى أن اسمه (على محمود) ولكن هذا الأخير كان يناديه طوال الرحلة بمحمود صالح أفندى ، فلما وصلا الى استانبول قال الفاياتى للضابط ، أنه أخفى عنه حقيقة أسمه لأنه كان فاراً من وجه السلطات البريطانية ، وأن أسمه هو على الفاياتى فضحك الضابط طويلا وأخذ يتجاذب معه اطراف الحديث فلما استأذن منه للانصراف وقف يودع الفاياتى وهو يقول له : « مع السلامة محمود صالح افندى ! ».

ترك الغاياتى مصر ، والحكومة لاتدع مكانا تظن أن فيه نسخة من ديوان وطنيتى ألا وتقلبه رأساً على عقب ، فارتفع لذلك ثمن النسخة من خمسة قروش الى مائة قرش ، ومع ذلك لم يصل الى يد الغاياتى الا ستة جنيهات حملها إليه فى استانبول أحد أصدقائه الذين وفدوا إليها من القاهرة .

ولما استقر به المقام فى استانبول سمع أن محكمة الجنايات حددت لمحاكمته ومحاكمة زميليه محمد فريد وشاويش يوم ٢٠ من يونيه سنة ١٩١١ ، وكانت جنح النشر والصحافة تنظر أمام محكمة الجنح ، إلا أن الحكومة عدلت القانون وجعلت الاختصاص فى نظر قضايا الصحف جميعا ولوكانت جنحا لمحكمة الجنايات ، وكان أول تطبيق لهذا التعديل فى قضية ديوان وطنيتى . ولما كان فريد بك غائباً فى أوروبا أثناء نظر الدعوى ، فقد قرر أن يعود إلى مصر ليواجه المحاكمة ، فمر باستانبول فى طريقه إليها ، فذهب الغاياتى لمقابلته ، وعرض عليه أن يعود معه ، لو رأى أن حضوره المحاكمة مما يحسن مركزه ، أو يخفف مسئوليته ولكن فريد رفض هذه الفكرة ، فبقى الغاياتى فى استانبول . ويذكر أنه كان فى زيارة لفريد بك بفندق (تا كوتليان) الشهير باستانبول فدخل بعض الضباط الشبان فى الجيش التركى ، فقدم فريد بك أحدهم إلى الغاياتى وهو يقول : « عزيز على المصرى » . وكانت هذه أول مرة يرى فيها الغاياتى الضابط المصرى عزيز المصرى ، الذى عاد إلى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وأسند إليه قبيل الحرب العالمية الثانية منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى .

ومن ذكريات الغاياتى فى استانبول أن أحد نواب البرلمان التركى كان يصدر جريدة يملؤها بالطعن المر على العرب، وقد كان الشاعر العربى العراقى معروف الرصافى من كتاب هذه الجريدة ، وقد وقع نظر الغاياتى على قصيدة لمعروف

فى هجاء العرب يقول فيها عنهم : « فما يبالون إن قالوا ، وإن ضرطوا » وأغلب الظن أن الرصافى حينما عاد إلى العراق ، كتب القصائد الطوال فى مدح العرب وهجاء الترك .

وقد طابت الاقامة للغاياتى فى استانبول واشتغل فى احدى صحفها العربية ، ولكنه اعتزم السفر الى جنيف ، لأنه سمع من محمد فريد ، أن بها عدداً غير قليل من شباب العرب وفدوا اليها من أقطار عربية مختلفة وأنهم فى حاجة الى من يدرس لهم اللغة العربية ، ولما تهيأ للسفر الى جنيف اهتم بتعلم اللغة الفرنسية وكان قد بدأ يتلقى بعض دروس فيها فى مصر ، فى مدرسة أنشأها الشيخ شاويش ليتعلم فيها الشبان الأزهريون هذه اللغة ويلموا بشىء من الثقافة الحديثة فلما هاجر الغاياتى إلى استانبول استأنف دروسه فى الفرنسية على يد مدرس يهودى بها ، وكان يعلم نفسه بقراءة اسماء المحال التجارية المكتوبة على اللافتات . وفى هذه الفتره وصل محمود عزمى الصحفى المصرى المعروف إلى استانبول والتقى بالغاياتى وغيره من الشبان المصريين اللاجئين إلى استانبول ويذكر الغاياتى أن عزمى — وكان إذ ذاك طالباً فى باريس — أطلعه واخوانه فى قهوة مسرة باستانبول على خطاب بالفرنسية ورد له من خطيبته التى تزوج منها فيما بعد ، واعتبر الغاياتى الاستماع إلى هذا الخطاب درساً فى الفرنسية .

وفى يوم ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩١١ غادر الغاياتى استانبول إلى جنيف ، مارا بفيينا .

ومن طريف ذكرياته الأولى فى جنيف أنه بعد أن خلع الزى العربى ، وارتدى القبعة والبذلة ، أراد أن يسجل لنفسه صورة بالعمامة والجبة والقفطان توديعاً لزيه ، فذهب إلى أحد المصورين بهذا الزى ، وتصادف أن السويسريين كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم القومية ، ويسمى عيد التسلق ، وهو عيد يلبس

فيه السويسريون ملابس تنكرية ، فظن أطفال جنيف ، أن الفاياتى يشارك فى هذا العيد بهذا الزى الغريب، فالتفوا حوله ، وأخذوا يشيرون إليه مبتهجين ضاحكين ، وهو يحسب أنهم يضحكون من عمامته ، وجبته ، وهم فى واقع الأمر ، معجبين باختياره زيا لم يفطن أحد إلى ارتدائه .

وكان أول ما اتجه إليه اهتمام الفاياتى هو البحث عن الشبان العرب الذين قال عنهم فريد أنهم كثيرون فى جنيف وأنهم فى حاجة إلى مدرس فى اللغة العربية ، فلم يجد لهم أثرا ، فاضطر إلى عرض نفسه على إدارة معهد (لانس) لتعليم اللغات ليعلم به العربية لمن يحب أن يتعلمها من السويسريين والأوربيين الآخرين . وفى هذا الوقت ، كان الخديو عباس قد عزل عن عرش مصر ، ونشر فى الصحف أن ولديه عبد المنعم وعبد القادر سيفدان إلى جنيف وسيلحقان بمعهد (لانس) فيها . وفى ذات يوم كان الفاياتى فى أحد أبهاء هذا المعهد ، فلقى شابين مصريين فوقف يتجاذب معهما الحديث فقال أنه سمع أن ولدى الخديو سينخرطان فى سلك هذا المعهد . فأمن الشابان على هذا القول فتساءل : متى ياترى سيحضران ؟ فقال أحدهما ، : أنهما حضرا إلى المعهد بالفعل . فقال الفاياتى وأين هما الآن لأراهما ؟ فقال الشاب « أنهما معك ، يتحدثان إليك » .

* * *

بدأ الفاياتى منذ إقامته فى جنيف فى مراسلة جريدة الحزب الوطنى منها ، مقابل ثلاثة جنيهات فى الشهر كانت تعينه ـ لو استمرت ـ على تكاليف الحياة هناك حتى يجد عملا ، ولكنه لم يتلق سوى مرتب شهرين اثنين ، انقطع بعدهما وروده إليه . فلما علم سبب ذلك ، حزن حزناً شديدا فقد عرف فيما بعد أن أحد الأشخاص اقترح للدفاع عن محمد فريد أن يقال أن الفاياتى كان مدسوساً عليه

من الحكومة . والظاهر أن هذا الاقتراح الطائش ، وإن كان قد رفض إلا أن الألسن تداولته ، وفى ظل هذه البلبلة التى أحدثها ، رؤى أن يقطع صلة جريدة الحزب الوطنى بالغاياتى . وهكذا يساء إلى الأبرياء ، برعونة البلهاء .

إلا أن الغاياتى استطاع أن يحصل على قوت يومه بتدريس اللغة العربية لبعض الشبان المصريين والعرب القليلين الذين كانوا يطلبون العلم فى جنيف ، ثم بدأ يعمل فى الصحف السويسرية مترجما ثم كاتبا . فعمل فى أكبر صحفها مثل (تربيون دى جنيف) و (جورنال دى جنيف) و (لا سويس) ثم راسل جريدة (جازيت دى لوزان) وقد انتهى به الأمر إلى أنه أصبح يتقاضى من التربيون دى جنيف مرتباً شهرياً قدره ٣٠٠ فرنكا ، بعد أن كان يتقاضى مكافآت عن القطع التى يقدمها

ولكن لما قامت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩، وأخذ الغاياتى يدافع عنها ويدعو لها ، قل ما كانت تنشره الصحف السويسرية له ، فاضطر إلى إصدار جريدة لحسابه الخاص اسماها (لا تربيون دوريان) أى (منبر الشرق)، وكان المرحوم رياض الصلح رئيس وزراء لبنان بعد الحرب العالمية الثانية قد اقترح عليه أن يسميها (التربيون آراب) أى (منبر العرب) ، ولكن الغاياتى آثر أن تكون جريدته لسان حال حركات التحرر فى الشرق كله .

وقد كانت جريدة (تربيون دوريان) تجربة فريدة فى تاريخ الصحافة ، فكانت تصدر فى أربع صفحات : ثلاث منها باللغة الفرنسية ، والرابعة بالعربية ولما لم تكن هناك فى جنيف مطبعة عربية فقد كان الغاياتى يكتب هذه الصفحة من أولها إلى آخرها بخطه ثم تحفر على الزنكوغراف ، فاذا وقع فيها خطأ واحد ، لم يشطبه بل يعيد كتابه الصفحة من أولها إلى آخرها ثانية ، ولكن هذا المجهود أضناه ، فاشترى حروف مطبعة عربية ، وتعلم صف الحروف ،

وتولى بنفسه جمع حروف هذه الصفحة ، ولكنه لم يجد لهذه الصفحة العربية التى كانت تتقاضاه من الجهد ، مالا تتقاضاه الصفحات الثلاث الأخرى ، صدى عند العرب ، فعدل عن تضمين جريدته هذه الصفحة العربية ، وأخذت الجريدة تصدر بالفرنسية كلها .

وقد صدرت جريدة (تريبون دو دوريان) فى يوم الأحد ٢٥ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، واستمرت تصدر فى انتظام عجيب حتى يوم الأربعاء ٢٦ من مايو سنة ١٩٣٧ ، وسط صعوبات مالية وسياسية فوق كل تصور ، صمد لها الغاياتى فى استبسال وصبر جديرين بكل إعجاب ، وإن لم يظفر من مواطنيه بالتأييد والمعونة ، فى وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الجريدة التى سما بها صاحبها فوق الخلافات الحزبية ، لتبقى خالصة للوطن ، لا تعرف إلا مصر ، ومصلحة مصر .

ولما انقضت ثلاث سنوات على الحكم الصادر ضد الغاياتى وسقط بانقضائها ، بدا له أنه يستطيع أن يسافر إلى مصر ، فعرض على بعض الصحف السويسرية أن يكتب لها تحقيقا صحفياً عن الحالة فى منطقة قناة السويس ، وكانت ميدانا هاما من ميادين القتال فى الحرب العالمى الأولى ، فرحبت تلك الصحف بذلك الاقتراح، فاستأذن الغاياتى فى الدخول إلى مصر، فأذنت له السلطات بذلك . فسافر إليها فى ١٥ من يوليو سنة ١٩١٥ ولما وصلها ، زار من يعرف من كبار الشخصيات وكانوا آنذاك يقضون الصيف فى الاسكندرية ومن هؤلاء محمود باشا شكرى رئيس ديوان السلطان حسين كامل الذى ارتقى عرش مصر ، بعد عزل الخديو عباس ، كما زار أحمد زكى باشا الذى عرف فيما بعد باسم (شيخ العروبة) وكان سكرتيرا عاماً لمجلس الوزراء ، ولكن الغاياتى بعد أن استمتع بالحرية سبعة أيام ، ملأ خلالها صدره من هواء بلاده ، ورأى

مواطنيه ، صدر أمر باعتقاله وإرساله مقبوضا عليه من الأسكندرية إلى القاهرة ليقابل رئيس الوزراء حسين رشدى باشا ووضعوه فى حراسة مخبر من رجال البوليس السرى ، لم يكن يعرف القاهرة ، فتولى الفاياتى ارشاده الى ديوان المحافظة . ولما قابل رئيس الحكومة فهم منه أن المعلومات التى وصلت إليه تؤكد أن الفاياتى جاء الى مصر ليدبر دسائس لحساب الخديو ، فأخرج من مصر ، وهو لا يدرى لماذا سمحت له السلطات البريطانية بدخول مصر اذا كانت تشك فى نواياه ، ولماذا أبقته طليقاً سبعة أيام ، ثم اعتقلته ، ثم رحلته الى الخارج . والطريف أنه حينما أعيد الى الأسكندرية توطئة لترحيله منها ، أودع أيضاً فى حراسة بوليس سرى لم يكن قد عرف الأسكندرية من قبل ، فتولى الفاياتى مهمة ارشاده فيها، كما تولى ارشاد زميلا له من قبل عندما أرسل الى القاهرة وقد كانت سلطات البوليس المصرى تقع فى أيامنا فى مثل هذه الحماقات العجيبة ، وكنا نظنها وقفا على أيامنا ، فاذا ذكريات الفاياتى تثبت أن البوليس فى مصر كان هو هو فى كل عهد . ولما عاد الفاياتى الى جنيف حمل على حسين رشدى رئيس الحكومة حملات شديدة، فأرسل اليه يقول له : « ان صدرى معرض للرصاص ، فلا تهمنى حملات الأقلام » .

ولما قابل الفاياتى حسين رشدى قال له أن المصريين يتهمونه بأنه خان ولى نعمته الخديو عباس ، فقد تعاون مع الإنجليز الذين خلعوا هذا الخديو ، وهو غائب عن البلاد ، بينما كان هو قائمقام هذا الخديو ، أى نائبه ووكيله ، وأنه أوعز للخديو بعدم العودة الى مصر من مصيفه فى استانبول حتى يضع فى يد الإنجليز سبباً لعزله باتهامه بأنه انحاز للاتراك خصوم الإنجليز ، فنفى حسين رشدى عن نفسه هذا الاتهام ، وقال أن الخديو رفض من تلقاء نفسه العودة الى مصر بغير ايعاز منه فقال له الفاياتى : ها أنت ذا ترى أنك تتهم بالباطل ، فتغضب لهذا الاتهام ، وأنت تصدق ماينسب الى من تهم بلا سند ولا دليل .

* * *

عاد الغاياتى إلى مصر ، فاتصلت بينى وبينه الأسباب ، وقد كانت أولى المناسبات لاتصالى به،أنه احتاج إلى مشورتى ومعونتى كمحام فى شأن نزاع قضائى، قام بينه وبين تاجر الأثاث الذى اشترى منه ما احتاج إليه ليؤسس به شقته فى عمارة بحرى الكائنة فى ميدان الاسماعيلية (التحرير) . ولست أنسى أن محامى تاجر الموبيليات ، كان بقلبه مع الغاياتى ، وفعل كل ما يستطيع ليريحه ويطيب خاطره ، وبدا الغاياتى فى الجلسة التى أتممنا فيها الصلح فى هذا النزاع البسيط ، كأطيب ما يكون الرجل ، وكأكثر ما يكون سذاجة ، فقد أخرجه الغضب لحظة فهدد التاجر بأنه سيتجه إلى الله ، ويدعو عليه ، لأنه لا يراعى ظروفه . وقد نظرت ساعتها إلى وجه الغاياتى ، وأنا أعجب أن يكون هذا كلام رجل عاش كل هذه السنين فى أوربا ، وأن تعجز تجاربه السياسية والأدبية أكثر من ربع قرن عن أن تخرج من إهابه الفلاح المصرى العريق بكل خصائصه وصفاته . نظرت إلى وجهه ، فكأنى أمام طالب أزهرى قادم لتوه من الريف . ولما استقر به المقام فى وطنه ، وأخرج جريدة (منبر الشرق) بالعربية فى السادس من مايو سنة ١٩٣٨ ، كانت هذه الجريدة نموذجا فريدا بين الصحف كزميلتها «لاتربيون دو وريان الفرنسية». فقد احتلت شقة رطبة معتمة نوعاً ، وكانت أرضيتها من البلاط الذى يبعث فى الشتاء برودة قارصة تسرى فى جسم الإنسان فيتثلج لها . ولكن مع ذلك كانت هذه الشقة نظيفة منظمة ، فقلم الغاياتى على المحبرة فى وضع ثابت ، والمحبرة فوق المكتب الصغير فى مكان محدد ، والكرسى من المكتب على مسافة لا تتغير . والمكتب مرتب ، لا تجد فيه ورقة ، ولا حتى رماد سيجارة ، ولا تراب تخلف من حذاء إلا أن يكون من حذاء ضيف لم يتأدب بأدب ندوة الغاياتى ، فينظف نعليه على المسحة الموضوعة على العتبة. فى هذا المكتب الصغير، استقبل الغاياتى عدداً كبيراً من زعماء الشرق: عرب ومسلمين ، من الهند والمغرب ، من أندونيسيا

والصين ، وكان سكرتير الغاياتى الذى يعينه فى عمله ، ويفتح له بريده ، ويرد على مكالمات التليفون ، ويفتح الباب للضيوف ، ويقفل الباب وراءهم هو الغاياتى نفسه . فلم يعنه فى كل مهام الصحيفة إلا شاب سودانى اسمه (ميرغنى) أخلص للغاياتى ولكن كان أكثر عمله خارج المكتب فى تحصيل الاشتراكات وإرسال البريد .

أما جريدة منبر الشرق فقد كانت آية من آيات الصحافة . لم تتأخر عن الصدور يوماً ، ظهرت فى موعدها من كل أسبوع ، وكان هذا معجزة من معجزات الغاياتى . فقد كانت ضائقته المالية منذ عاد إلى مصر ، مستحكمة متصلة ، لم تنفرج يوماً . وكان يتوقع فى كل أسبوع ، بل كل يوم من كل أسبوع أن تتوقف الجريدة عن الصدور ، وكان يعلن عن ذلك فى أكثر الأعداد ، ولكن رحمة الله لم تتخل عنه قط ، فواصلت منبر الشرق حياتها حتى أنهت حياة صاحبها .

فإذا تصفحت الجريدة راعك أنها لم تحو خطأ مطبعياً واحداً ، أو خطأ نحوياً واحداً ، أو خطأ خلقياً واحداً : لم تسب أحداً ، ولم تتهجم على أحد ، ثم لم تنحز إلى زعيم ولا إلى حزب ، ولا إلى جماعة وقد كان الضيق المالى الذى تعيش فيه ، يدفع صاحبها دفعا إلى أحضان ذوى النفوذ وأصحاب الأموال ولكنه لم يفعل .

وضع الغاياتى تحت اسم الجريدة هذين البيتين :

باسم الكنانة واسم شعب ناهض ... لا باسم أحزاب ولا زعماء

كل يزول وينقضى إلا الحمى ... فوديعة الآباء للأبناء

وقد التزم معنى هذين البيتين نصاً وحرفاً ، روحا ومعنى .

فاذا ذهبت الى الغاياتى فى بيته ، وجدت شقة أنيقة نظيفة ، بسيطة الأثاث ووجدت الغاياتى هو الذى يفتح الباب ، وهو الذى يحضر اليك القهوة أو المرطبات بيده . وقد حدث أن اتصلت به تليفونيا فى ثلاثة آحاد متوالية بطريق الصدفة ، فلما انتبهت إلى تلك المصادفة ، آليت على نفسى أن يكون الأحد من كل أسبوع موعدا لحديث معه فى التليفون أو زيارة فى البيت ، وكثيرا ماتناولت طعام الغداء عنده على مائدته فى أيام الآحاد ، وقل أن تناول عندى غداء ، أو شرب كوبة ماء .

لا أذكر أنى رأيت الغاياتى ثائرا يوماً ، ولا غاضبا ، ولا متـــذمراً ، ولامتجهما ، ولا أذكر أنى سمعت منه كلمة نابية ، وعلى كثرة ما اجتمعت عليه أزمات البيت والجريدة ، وهى أزمات كانت خليقة بأن تتحدى حلم الحليم وتفسد طبعه .

وفى أخريات أيامه ، أراد ان يصل ما انقطع ، وأن ينتهى من حيث بدأ فعاد الى العمامة ، وعاد يتشدد مع زوجته السويسرية تشددا فات أوانه ، فاضطر الى الزواج من سيدة مصرية ، فأغضب ذلك بناته وأحزنهن غاية الحزن .

وقد عوض هذا الرجل الصابر خير عوض عما لقيه من شظف الحياة وضيق الرزق ، فقد حقق له أمنيته ، اذ تزوجت كل بناته بمصريين نابهين موفقين ، منهم من وصل الى منصب الوزارة ، ومنهم من أفاء الله عليه رزقا عميما ، وقد كان رجل فى مثل فقر الغاياتى وابتعاده عن المجتمعات ، وقلة صلاته بالناس ، خليقا بألا يوفق الى مثل هذا الحظ السعيد ، الذى يفرح به كل والد مهما كان جاهه وحظه من المال .

* * *

حرر الفاياتى مقالاته بالعربية والفرنسية ما يملأ كتبا ، تفيض بعلمه ، وتنضح بأدبه ، وتزدان بأسلوبه الأنيق ، وعبارته الرشيقة المحكمة، التى لا تعرف الإسراف فى شىء : لا فى اللفظ ، ولا فى الزخرف ، ولا فى العاطفة . فهذا الثائر فى شبابه ، اعتدل فى كهولته وشيخوخته وأن بقى كأكثر ما يكون الثائرون وفاء للعقيدة ، وإخلاصا للمبدأ .

والذى يقرأ ديوان (وطنيتى) قد لايجده كله شعرا من طراز رفيع، ولكنه يجد فيه حتما باكورة رائعة لشاعر شاب ، ويجد فيه إلى جانب ذلك وطنية نقية ، وعقلا متحررا ويجد فى هوامشه وتعليقاته الكثير من الحقائق التى تؤرخ العصر الذى ظهر فيه « وطنيتى » .

ففى ديوان وطنيتى مديح لمصطفى كامل وهو على قيد الحياة ، ورثاء له له حينما لحق بالرفيق الأعلى ، ومديح وثناء على محمد فريد ، بعد انتخابه رئيسا للحزب الوطنى ، ومديح للشيخ شاريش بمناسبة اتهامه فى إحدى القضايا ثم عند الحكم عليه ، ثم عند الافراج عنه ، ثم عند منحه (وسام الشعب) الذى اكتتب المصريون بثمنه ، وقلدوه إياه عندما خرج من السجن .

ترى وصف هذا الوسام فى أحد هوامش الكتاب جاء فى هذا الوصف :

« جاء هذا الوسام آية من آيات الوطنية الدالة على فضل الأستاذ بأجمل معنى وألطف شارة . وهو مولف من ثلاث قطع ذهبية نقش على الأولى رسم الأهرام ، وكتبت تحت الرسم هذه العبارة تذكار الشعب إلى الشيخ عبد العزيز جاويش اعترافا بوطنيته الصادقة » والثانية وهى أكبرها حجما رسم عليها نبات كان يتخذه القدماء رمزا للفوز والنصر ، ونقشت فيها هذه الآية الكريمة « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » والثالثة هلال فى وسطه ثلاثة نجوم وقد شبكت هذه القطع الثلاث بوشاح

من الحرير الأحمر والأبيض مرصعة كل واحدة منها بالأحجار الكريمة ترصيعا جميلا . »

وقد قلد الشيخ شاويش هذا الوسام فى حفلة كبيرة أقيمت له بفندق شبرد فى يوم الأفراج عنه فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٩ ، فنظم الغاياتى فى هذه المناسبة قصيدة بعنوان (الوسام بعد السجن) قال فى مطلعها :

عاد إلى القلم المشهود سيرته

ولاح بدر اللوا من بعدما احتجبا

تجلو بشاشته الآلام والكربا

وهكذا إذا تابعت قصائد الديوان ، قصيدة قصيدة ، وقرأت هوامشه ، هامشا بعد هامش ، اكتملت لديك صورة كاملة للعهد الذى ظهر فيه هذا الديوان صورة شعب يناضل من أجل إجلاء الانجليز عن أرضه ، بقلمه ولسانه ، ويتحفز لقتال أشد ضراوة فى سبيل نفس الغاية ، ومن أجل الدستور ومن أجل مزيد من الحريات الداخلية ، وإصلاح الحكم ، والضرب على يد المفسدين والحكام الذى يبعثرون أموال الدولة على أنفسهم ويغترفون منها بلا حساب ، ومن أجل نشر التعليم والعناية بالصحة ، ورفع مستوى التلاميذ والعمال ، وإشراكهم فى شئون بلادهم إشراكا فعلياً .

وقد يطول بنا الحديث إذا وقفنا أمام قصائد الديوان وهوامشه ، على الرغم من أنه ديوان صغير لم تزد صفحاته عن ١٣٥ صفحة من القطع الصغير ، ولم تزد قصائده عن مائة بعضها لا تزيد أبياته عن الأربعة .

ولكن فى مقدورنا أن نمر سريعاً على القصائد والهوامش ، لنعرف ماذا كان يساور وجدانه ، بوصفه شابا من شباب عصره . وقد أحس هو بدوره فى

صوغ هذه القصائد وفى تجميعها فقال :

« أرانى فيما نظمت ناطقا فى أكثر المواضع بلسان الرأى العام ، ممثلا شعور الأمة أقرب تمثيل ، بيد أنه قد يدفعنى شعورى الخاص فى بعض المواقف إلى الجهر بما لا يحب الجهر به بعض الناس وذلك لأننى لا أستطيع حكم عواطفى كثيرا فى مثل هذه الشئون المثيرة للوجد الكمين المعلنة للسر المكنون » .

وقد أعلن الفاياتى فى مقدمة ديوانه أنه شغل فى أول عهده بنظم الشعر بموضوعات لا خير فيها للبلاد ولا ذكر للأمة والوطن ، وقد علل ذلك بأنه ولد فى مدينة دمياط ونشأ فيها بين قوم كرام غير أنهم (محافظون) « يعبدون الحكام كأنهم آلهة يحيون ويميتون ، ثم لا يكادون يذكرون الوطن والوطنية على الإطلاق ، لقد بقيت فيهم حتى ناهزت الثانية والعشرين من العمر ثم غادرتهم آسفا مسرورا ميمما القاهرة (يوم الخميس ٤ أبريل ١٩٠٧) على أنهم لا يزالون إلا قليلا من نشئهم المأمول من أبعد العباد عن ذكر البلاد » .

فالفاياتى لا يرى فى الشعر إلا أداة من أدوات الكفاح الوطنى ، ولذلك ترى استجابته للأحداث استجابة برقية ، فلا يكاد الحدث الوطنى يقع حتى يفيض شعره . أعلن الدستور العثمانى فى يوم ٢٤ من يولية سنة ١٩٠٨ فنظم فى الحال قصيدة :

ويصرح شوقى الشاعر ، بلسان الخديو عباس ، فى حديث له مع جريدة المؤيد ، بأن الخديو لا يستطيع أن يعلن الدستو إلا بإذن الإنجليز ، فيعاجله بقصيدة يقول له فيها :

يا شاعر الأمير ويحك هل ترى ... فى النثر ما فى النظم من خطرات

إنى رأيتك فى حديثك شاعرا ... لكن خيالك زائغ النظرات

ويتورط أحمد زكى باشا (شيخ العروبة) فى كلمة يغمز بها الحزب الوطنى فيحمل عليه الوطنيون فيمتذر عن هذا الخطأ ويصفه أنه من فلتات اللسان ، فيمرك الغاياتى أذنه فى نفس القصيدة التى يعاتب فيها شوقى ، ويختتمها ببيت يقول فيه .

فعليك إصلاح الحديث فانه عندى أشد أذى من الفلتات

ويعنى بالفلتات هنا ، فلتات لسان أحمد زكى .

ويضرب طلبة الأزهر احتجاجا على عدم قبول بعض طلباتهم ويستقيل الشيخ حسونه النواوى شيخ الجامع الأزهر من منصبه لما لقيه الطابة الأزهريون من سوء معاملة بلغت حد جلد بعضهم فى قبلة مسجد الأزهر بأمر من رئيس ديوان الأوقاف خليل حماد باشا فيكتب قصيدة نارية يقول فيها :

ياحماة الدين ويحكمو ودعوا الدين الذى قبرا
إن بيت الله محترم كيف بات الآن محتقراً

ثم يقول فيها :

خلق الظالم لهم رجلا حارب العدل ومن عدلا
عشق الجلد وعدته فغدا الجلد له عملا

ويصدر قانون المطبوعات المقيد للحرية ، فى عهد وزير الحقانية سعد زغلول فيقول :

لئن قيدوا من اليراع وأوثقوا لسانى فقلبى كيفا شئت ينطق
فلا يأمنوا تلك القلوب فانها دماء أراها أوشكت تتدفق

ويميل الخديو عباس إلى الإحتلال بعد سياسة الوفاق التى أقامها السير (الدون جورست) بعد سياسة الشدة التى كان ينتهجها اللورد كرومر ، فلا يتردد

الفاياتى فى أن يوجه إليه قوارص العتاب قائلا :

أعباس هذا آخر العهد بيننا ... فلا تخشى منا بعد ذاك عتابا

وعزل السلطان عبد الحميد سلطان تركيا فى ١٣ أبريل سنة ١٩٠٩ على يد الثوار الأتراك ، فينظم فى هذا قصيدة يقول فى مطلعها :

لم يدرك السلطان فى قصره ... ما أدرك العسكر من أمره

ولم يهب من دهره سطوة ... حتى دهاه الخطب من دهره

ثم تعلو حماسته ، فتنسيه كل دواعى القانون ومقتضياته ، فيوجه التحيات إلى الشاب الهندى (دنجرا) الذى أطلق رصاصة على السير كيرزون ويلى فى أحد شوارع لندن فأراده قتيلا . وكان الشاب عضوا فى جمعية وطنية هندية سرية ، فلما قبض عليه ، لم يجزع ، ولم ينكر تهمته ، ولما صدر عليه الحكم بالموت ، وقف فى قفص الاتهام محييا الحكم تحية عسكرية . ويقول الفاياتى فى قصيدته إلى دنجرا (قبل الأعدام) :

هنيئا فقيد الهند نلت مدى المجد ... وخلدك التاريخ فى مصر والهند

ولما صدر حكم الموت قال الفاياتى :

كيف أرثيك دنجرا بمقال ... يدعى القوم أنه إجرام

ثم قال :

فسلام عليك والدمع جار ... وسلام وفى القلوب ضرام

وكتب الشيخ شاريش مقالا فى ذكرى تنفيذ حكم دنشواى ، فاعتبرته النيابة قذفا فى حق قضاة المحكمة وقدمته للمحكمة ، فسألت إحدى الصحف حسين رشدى وكان وزير الحقانية (العدل) رأيه فيما عساه يكون الحكم ، فقال إنه يؤكد أنه سيكون بإدانة كاتب المقال فأسرع الفاياتى إلى شعره يوجه فيه

إلى رشدى لوما يستحقه وقال :

حكمت فلم تنصف * وقلت فلم تصب * ورمت مراما * دونه الله والناس

واضطر حسين رشدى إلى تصحيح تصريحه وقال أنه لم يؤكد صدور حكم الإدانة بل رجح ذلك ، وصدر الحكم بالإدانة فعلا ، إذ قضت المحكمة الابتدائية بالغرامة فلما استأنفت النيابة الحكم قضت المحكمة الاستئنافية برياسة قاض أجنبي (أرمنى) أسمه ياغوص أوغوبيان بحبس الشيخ شاويش ثلاثة أشهر ، فصاح الغاياتى يوقظ النوام فى مصر ويسألهم هل تحركوا :

ومضوا إلى أهل الضلال فأعدموا من أعدموا
وقضوا على باغى المظالم ثم لم يتأثموا
واستفتحوا له باب الجحيم ولم يترحموا
فمضى بلعنة ربه واستقبلته جهنم

وقد ضاق صدر العقاد بهذه الأبيات ، وتساءل ، أيمكن أن تلام الحكومة إذا هى ضيقت من حرية الصحافة ، بعد أن استفاضت الدعوة إلى ارتكاب الجرائم هكذا ، وجرؤ غير المسئولين على إرسال الكلام الطائش بغير تقدير ولا محاسبة من النفس .

ولما امتنع الوزراء عن حضور جلسات الجمعية التشريعية — وكانت الهيئة التشريعية لمصر فى تلك الأيام أرسل الغاياتى إلى صدورهم سهام نقده قائلا :

يأيها الوزراء ماذا نابكم حتى هجرتم ندوة النواب ؟

ثم يروح الغاياتى ، يحرك الهمم ، ويحرض على القتال ، والفداء ، والتضحية ، فى شعر سهل جار ، يحمل فيه على الحكام الذين كبلهم الخوف ، والمواطنين الذين يترددون فى الاستجابة لدعاء الكفاح فيقول :

يافتى النيل أدرك النيل أنى ألمح الجبن فى قلوب الحماة
ليس فيهم فتى يجيب دعاء يوم يدوى بمصر صوت الدعاة
ألفــوا الذل واستماتوا فاطرحهم فانهم أمـــوات

فإذا فاض نهر (السين) وأغرق جانب من باريس ، انتهز الفرصة ، وواسى شعب فرنسا ، وأدار الكلام فى الشئون السياسية ، وكانت فرنسا آنذاك ، تتظاهر بتأييد الكفاح المصرى ضد الاحتلال البريطانى ثم جاءت القضية الكبرى قضية مد امتياز قناة السويس إلى سنة ٢٠٠٨ بدلا من انتهائه فى سنة ١٩٦٩ ، وقد أمر الخديو بعرض هذا الموضوع على الجمعية العمومية فى يوم ٨ فبراير سنة ١٩١٠ ، وقد أثارت هذه القضية مشاعر المصريين ، فاحتفلوا بها احتفالا شديدا ، وناقشتها الصحف حتى المعتدلة فى خصومتها كجريدة (الجريدة) وانتهت المناقشة إلى رفضها ، وقد ألهمت هذه المعركة الغاياتى بالكثير من قصائده .

وفى خلال نظر مشروع مد قناة السويس ، قتل المرحوم بطرس غالى باشا برصاصات ابراهيم ناصف الوردانى ، فطاش صواب الحكومة لهذا الحادث ، وأخذت تقبض على جميع من ينتسب إلى الحزب الوطنى لأن الوردانى كان من شباب الحزب الوطنى ، فقبضت ضمن حملات القبض على ثمانية من الشبان كانوا قد وقعوا مع الوردانى على القانون النظامى لجمعية اسمها (جمعية التضامن الأخوى) ثم قدمتهم إلى قاض الإحالة (متولى غنيم) فلم يجد فى مواد القانون ما يأذن بإدانتهم إذ لم يكن فى مواده آنذاك ما يعاقب على الإتفاق الجنائى ، وقد ذاع صيت القاضى متولى غنيم بسبب هذا الحكم ، ونظم فيه الشعراء الوطنيون القصائد الطوال . كما نظم الغاياتى قصيدة مطلعها :

حكمت فأرضيت البلاد وأهلها وحياك عيسى بعد موسى وأحمد

وقد أراد الله لهؤلاء الشبان الثمانية أن يطول عمرهم ، وأن يسام أكثرهم فى

الخدمة الوطنية بأساليب شتى فقد كان منهم المهندس على مراد الذى اشتغل بالخبرة بعد أن طرد من الوظيفة الحكومية ، وعرف بالأمانة والكفاية ، وكان منهم عبد الخالق عطية الذى انتخب فى البرلمان سنة ١٩٢٤ ، وشفيق منصور المحامى الذى حكم عليه بالإعدام فى قضية السردار بعد حياة حافلة بالعمل الوطنى السرى وعبده البرقوقى المحامى ، الذى أصبح مستشارا .

ولما وقع حادث اغتيال بطرس غالى باشا انتهزه خصوم الحركة الوطنية ، وأسرفوا فى القول بأن باعث الوردانى على القتل كان باعثا دينيا ، وكان هذا أبعد الأشياء عن الحقيقة ، وقد وقف المحامى الذائع الصيت مرقص فهمى ، يدافع عن الحركة الوطنية هذا الاتهام الظالم فتأثر الغاياتى لهذا الموقف النبيل وكتب قصيدة من أجمل شعره ، عنوانها « إلى خطيب السلام » وقال فيها :

خطبت فلم تجنح إلى شرعة الهوى ولم تتخذ نهج الخصام سبيلا

وقال فيها أيضا :

وما أمة القرآن فى مصر أمة ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا

فإنا وأنتم أخوة فى بلادنا أقمنا على دين السلام طويلا

وفى مارس سنة ١٩١٠ نزل تيودور روزفلت ضيفا بمصر وكان رئيسا سابقا للولايات المتحدة ، فألقى خطابا بها ، أشاد فيها بالاحتلال البريطانى وأياديه على مصر ، فأزعجت هذه الخطب خواطر المصريين ، فأصلوه نارا حامية ، ونظم فى خطبته هذه شوقى قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أيها المنتحى بأسوان دارا

والتى ختمها بقوله :

خطبت فـــكنت خطبا لا خطيبا

أضيف إلى مصائبنا الجسام

أما الفاياتى فقد نظم قصيدة مطلعها :

لعمرك لست بالرجل الهمام إذا عد الهمـــــام من الكرام
كرام الناس أصدقهم حديثا وأبعـــد عن أكاذيب اللئام

وذكر الفاياتى روزفلت فى هذه القصيدة بأن الإنجليز كانوا حكامهم وأن واشنجتون تار على الإنجليز ، لأن الانجليز ساموا الشعب الأمريكى الخسف ، وأشاد ببطولة واشنجتون وجفرسون وملأ هوامشه حقائق تاريخية عن تاريخ النضال الأمريكى .

ثم نظم قصيدة ثانية فى الحملة على روزفلت لما خطب فى قاعة (جيلد هول) بلندن ، وحمل على المصريين من جديد .

ولما رفض مشروع مد امتياز قناة السويس ، هنأ النواب المصريين بمواقفهم الباهرة التى أحبطت هذه المحاولة الاستعمارية المفضوحة .

ولما أفضى الخديو عباس بحديث إلى جريدة « الكان » الفرنسية ، ولام الوطنيين ، واتهمهم بالتسرع ، وأثنى على مندوب الاحتلال البريطانى فى مصر الدون جورست ، سدد إليه الفاياتى سهام نقده حامية .

وهكذا كان ديوان وطنيتى ، ديوان الوطنية المصرية فى الفترة ما بين سنة ١٩٠٧ حتى سنة ١٩١١ .

ولكن ديوان الفاياتى ، لم يخل من القيمة الأدبية ، فقد رأيناه يعلن أنه من المؤمنين بأن الأدب ، لايكون للأدب ذاته ، بل أن الحياة هى غاية الأديب وأن من يكتب الشعر وينظمه فى وساوس نفسه وشواغلها منفصلا عن الجماعة ، مبتعدا عن هموم وأحزان وآلام قومه ، شاعر محافظ ، وقد هجر قومه فى دمياط وإن كانوا من أفاضل الناس ، لأنهم منصرفون عن ذكر البلاد .

إلا أن قيمة ديوان الغاياتى لا تقتصر على أنه يؤمن بأن الشعر سلاح من أسلحة الوطن ، وأن قيمة الشعر هى فيما يقدمه للناس من خواطر ، تزيدهم قوة على الحياة ، وتحبب إليهم النضال ، بل لأن الغاياتى حاول أن يجدد فى الشعر العربى ، بأكثر من أسلوب .

فهو فى القصيدة التى مطلعها « رب ذكرى هيجت شجنا » لا يلتزم رويا واحدا ، ولا قافية واحدة ، بل إنه يغير القـافية كل سـبعة أبيات ، فخرجت القصيدة التى انتظمت خمسا وثلاثين بيتا ، سبعة قطع .

وقال فى بيان أسلوبه الجديد :

« وقد اقتفيت فى قصيدتى هذه طريقة جديدة ، هى جعل القصيدة قطعا . كل قطعة ذات روى خاص ، وبذلك تسهل على الشاعر بعض الصعاب التى يصادفها فى سبيل القافية والتزام الروى فى جميع القصيدة وهى طريقة وسطى بين طريقة الشعر المرسل والطريقة القديمة . وقد اخترت أن تـكون القطعة سبعة أبيات اتباعا لإصطلاح علماء العروض المعتمد فى أن القصيدة سبعة أبيات فصاعدا من بحر وضرب وروى واحد . وبهذا يصح أن تـكون كل قطعة قصيدة قائمة بذاتها ، وإن شئت فهى متعددة فى قصيدة واحدة فعسى أن يرى ذلك لشعرائنا فيقدموا على القريض ليـكون خيارهم بعد أحجامه وضعفه شاعرا مقداما قادرا ويتسنى لـكبيرهم أن يتحـدى شعراء أوروبا ويباريهم فى الشئون الاجـتماعية العصرية ، فيصبح له فى كل معنى قول مأثور وأثر مشكور »

ولم يقنع الغاياتى بإرسال هذه الدعوة ، بل أنه راح يبشر بها عند حافظ ابراهيم ، وإسماعيل صبرى وقال فى هذا الصدد :

« حادثت حضرة الشاعر الـكبير حافظ أفندى ابراهيم فى هذا النهج من الشعر ، فاستحسنه قبل أن أبدأ بسلوكه فى هذه القصيدة ووعد بالسير فيها ، ثم

حادثت أخيرا سعادة إسماعيل باشا صبرى فى ذلك ، فاستحسن أن يكون الشعر بيتين بيتين ووعد بإتباع هذه الطريقة فى نظمه ، ولكنى لم أر لسعادته بعد ذلك إلا قصيدة فى رثاء بطرس باشا غالى اتبع فيها الطريقة القديمة ونشرها على غير انتظار كما أن حافظا لم يف بوعده . ولا أرى لماذا لا تهذب طرق الشعر العربى حتى يجارى شعراؤنا شعراء الأمم الراقية ، ولا يكون لشكواهم من صعوبة الطريقة القديمة وجه حسن ، ولا لإحجامهم عن الوطنيات والإجتماعيات عذر مقبول .

فأنت ترى من هذا ، أن الغاياتى ، وإن كان مشغولا بأحداث الوطن السياسية ، وأنه وقف قلمه ونفسه للمعركة الوطنية ، إلا أنه لم يكن أديباً محافظا ولو اتسع له الوقت فى مصر ، ولم يهاجر إلى سويسرا ، لأكمل العمل الذى بدأه بهذه المحاولة المبكرة فى وقت لم يكن يجرؤ فيه أحد على التفكير فى الخروج على الشعر العمودى ، ولا فى التجديد فى طرق الشعر وقوالبه — ولو صدق الشاعران الكبيران حافظ وصبرى فيما وعدا به الغاياتى من تناول هذا الأسلوب الذى اقترحه الغاياتى لهما ووافقا عليه وأقراه ، لتحرر الشعر العربى تحررا كان يفتح له آفاقا جديدة فى الشكل والموضوع ، ولما تأخرت المسرحية الشعرية فى أدبنا عن الظهور هذه الحقبة الطويلة .

وقد حاول الغاياتى مرة أخرى أن يجدد فى شعره ، فحاكى شوقى فى قصيدته التى مطلعها « مال واحتجب ، وادعى الغضب » فنظم قصيدة فى ذكرى مصطفى كامل جرى مطلعها :

أيها الفتى جرد القلم

وانشر الأسى واشرح الألم

ولكن المحاولتين ذهبتا بلا أثر يذكر ، فقد استغرقت السياسة والجهاد ، ومتاعب الهجرة ومشاق الصحافة فى الخارج ، جهد الشاعر الشاب .

* * *

وقد احتفظ الغاياتى بالشرارة الثورية فى نفسه إلى آخر العمر ، ففى سنة ١٩٤٧ سافر لأداء فريضة الحج والسفر للحج كان فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود ، فرصة للصحفيين الذين يعرفون كيف تؤكل الكتف لجمع بعض المال ، والعودة بالهدايا الفاخرة من سيوف أو خناجر مذهبة عدا العباءات والشيلان الصوفية الغالية . وظنت السلطات السعودية أن الغاياتى واحد من هؤلاء ، ولكنه فر من مقابلة الملك ، وأسرع بالسفر إلى المدينة المنورة بعد انتهاء مناسك الحج ، ثم عاد منها إلى مصر فكتب أول بحث صريح صادق عن حالة البلاد المقدسة ، وعما يلاقيه الحجاج من متاعب وسوء معاملة ، للاهمال الشديد الذى تغرق فيه الأماكن التى يؤدى فيها الحجاج فرائضهم ، ولما يتعرضون له من استغلال فاحش ، وإهانات بالغة . وقد وصف مرافق الحياة فى مكة والمدينة وصفا دامياً ، ثم روى أنه عرض عليه أن يشترى جارية وابنها وابنتها بأربعة جنيهات مصرية ، لو أن غير الغاياتى انضم إليه فى حملته هذه ، وأعلى صوته بطلب تغيير الأمور على الوجه الذى اقترحه ، لأصاب المسلمين من وراء ذلك خيرا عميما ولكن ما كل الكتاب الغاياتى فقد كان نسيج وحده شجاعة ، وإيمانا وزهدا .

* * *

عاد الغاياتى إلى بلاده سنة ١٩٣٧ ، وتوفاه الله فى سنة ١٩٥٦ ،

فكأنه قضى بعد العودة من المنفى نحو عشرين عاما ، وكان فيها أشبه شىء بالمغمور ، وهو فى القمة من التمكن من اللغتين العربية والفرنسية ، ومن الخبرة الطويلة بالصحافة والسياسة ، وهو بعد فى السن التى تسمح بالانتفاع به ، ولكن شيئا ما ، حرمنا عن الانتفاع به ، فمضى إلى لقاء ربه ، مغموط الحق ، لينصفه التاريخ ، الذى يصدر حكمه فى تمهل وأناة ...

الفصل السابع

الآنسة «مى»

ذهبت فى خريف سنة ١٩٣١ إلى الآنسة « مى » أطلب منها كلمة للعدد الخاص من مجلة المصور ، عن « مشروع القرش » فأصبحت من رواد ندوتها التى تعقد أصيل كل ثلاثاء من كل أسبوع .

ويبدو أنى أدركت هذه الندوة ، وهى فى آخر أدوار حياتها ، إذ لم تلبث « مى » أن فضت (الندوة) وأقفلت على نفسها باب بيتها ولم تعد ترى أحداً ، ولم نسمع عنها بعد ذلك ، إلا ما يتعلق بمرضها ، ثم استفحاله ، ثم فترة صمت طويلة موحشة مقبضة ، انتهت بنبأ وفاتها الذى وصل إلى أسماعنا كأنه الإشاعة التى نتردد فى تصديقها ، ثم التى لا نعرف كيف نحقق نصيبها من الصحة أو الكذب ، حتى أصبحت يقينا لاشك فيه ..

وإذ أستعيد الآن ذكرياتى عن « مى » وندوتها ، وزوار بيتها فى يوم هذه الندوة ، فى ضوء ما قرأته عنها ، وما سمعته من آخرين كان لهم نفس حظى فى الاتصال « بمى » أو أكثر منه ، أدرك أن « مى » كانت ظاهرة اجتماعية ، أكثر منها « ظاهرة أدبية » .

فقد كانت « مى » آنسة لبنانية ، تكتب العربية والفرنسية ، وتقابل الرجال ، وتتحدث إلى الأدباء وأهل الفكر ، ويتحدثون إليها ، وفيهم أكثر من أعزب عاش حياته بلا زوجة ، وهم جميعاً بين متزوج وأعزب ، يضطربون

فى مجتمع لا تبدو فيه المرأة إلا كالطيف، وإذا أسفرت واحدة من النساء، كانت كالمحجبة تماما، لأنها لا تحسن حديثاً يشوق الرجل المثقف أو يمتعه، أو يثير خياله، أو يوحى إليه أو يلهمه بفكرة أو عاطفة أو خاطره. ولذلك فقد تجمع حولها عدد غير قليــــل من الرجال، بعضهم مثلها من لبنان وسوريا كخليل مطران وداود بركات وانطون الجميل وشبلى شميل، ونجيب هواوينى، وبعضهم من مصر كلطفى السيد وعباس العقاد ومصطفى عبد الرازق ومصطفى صادق الرافعى وأمين واصف. وكانت تتبادل مع بعض هؤلاء الرسائل، ومن هذه الرسائل، ومما نشر عن أحاديث النــــدوة، تحس أن هذه الأحاديث تــكاد تــكون غزلا مستوراً بين صاحبة الندوة وزائريها، فالجميع يحاولون كسب ودها فى تحفظ واحتياط، وهى تستثير عواطفهم، إذ تتلطف معهم، وتقترب وتبتعد من الواحد منهم بعد الآخر، وفى حضور الآخرين، فيــكون لهذه اللعبة، لعبة الحب المستور، نشوة فى نفوس هؤلاء المحرومين من المرأة فى الصورة التى تمثلها « مى »، ويخرج كل منهم من الندوة، وهو أسعد حالا، وأطيب نفساً. ولعل بعضهم كان يخرج من هذه الندوة وهو يحسب أنه ظفر من ودها والتفاتها، بأكثر مما ظفر سواه، وأنه بات أقرب ما يكون من عتبة الحب المنشود. ثم لا يجد بعد ذلك مما ظن وتوهم شيئاً. ولعل سعيد العريان كان موفقا غاية التوفيق حينما قال أن « مى » قد (ألهمت) جبران خليل جبران، و (أوهمت) مصطفى صادق الرافعى، إذ الواضح أنه وقع فى حبها، وظن أنها تبادله حبا بحب. والعقاد ومؤرخو حياته، يقولون أنه أحبها فعلا، وأنها أحبته كذلك، ثم وقعت الجفوة بينهما، فزارته فى جريدة البلاغ حيث كان يعمل، وانتهى حبهما، وإن لم تنقطع صلتهما والمفهوم أن « مى » هى إحــــدى بطلتى قصة (سارة) التى كتبها العقاد، حكاية لوقائع هذا الحب، ولحب آخر، كان جسديا عنيفا، تمده الغيرة والشكوك بالحرارة والعنف، الذى كان يعوز الحب الأفلاطونى

حب العقاد ومى — وقد اعترف العقاد بالحبين إذ قال : « لقد أحببت فى حياتى مرتين « سارة » و « مى » ، كانت الأولى مثالا للأنوثة الدافقة ناعمة رقيقة لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت مثقفة أيضاً .

« والثانية — وهى مى — كانت مثقفة قوية الحجة تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية، كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث أنها جليسة علم وفن وأدب ، وزميلة فى حياة الفكر ، أى أن اهتمامها كان موزعا بين العلم والأنوثة » .

وقد أحبها العقاد حباً روحياً وتحدث عنها فى آخر كتاب سارة وسماها باسم هند وكان يزورها ويجالسها ويتناولان من الحب ما يتناوله العاشقان العذريان ، وكان يكتب إليها ، فيفيض ويسترسل ويذكر الوجد والشوق والأمل . وكانت مى تحبه حباً شديداً ولم تكن تعلم بحبه لسارة ، وإنما كانت تزعم بينها وبين نفسها أنه معزول عن عالم النساء غير أنها لم تحفل باتصاله بالنساء ، ما دام اسمهن نساء ، لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبح غرام واحد ..

فلما شعرت بأنه يحب فتاة أخرى ، وكان هذا الحب قبل أن تقع فى حبه ، زارته على حين غرة فى مكتب عمله — وهى الزيارة الأولى والأخيرة — فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها المفاجئة ، وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت لها فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج — لست زائرة ولا سائلة . .

فقال — إذن . ؟

فلم تتكلم بل نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم ، وانحدرت من عينيها دمعتان فما تمالك نفسه ، وتناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها فمانعته

ولم تكف عن النظر إليه ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسة : « دع يدى ودعنى » .

ونشرت مجلة الهلال فى عدد شهر يناير ١٩٦٢ قصة حب أخرى بين لطفى السيد وبين مى ، يرجع تاريخها إلى سنة ١٩١١ ، فقد لقيها فى لبنان ، فى فندق (بسول) ببيروت وسمعها تتحدث عن المرأة الشرقية ، وتدافع عنها ، فاستوقف سمعه هـذا الدفاع ، فسأل عنها فعرف أنها مارى زيادة بنت الصحفى اللبنانى الياس زيادة الذى كان يصدر جريدة المحروسة اليومية فى القاهرة فنشأت بينهما علاقة ، وكانت إذ ذاك دون العشرين من عمرها — إذ ولدت سنة ١٨٩٥ وكان هو فى مرحلة الرجولة الناضجة — فقد ولد فى سنة ١٨٧٢ وقد استمرت العلاقة بينهما ، كأقوى ما تكون — على الأقل من جانب لطفى السيد — نحو عشر سنوات ، تولى خلالها ، رعاية ذوقها الأدبى ، فقد أهـدى إليها القرآن ، بعد أن كانت تكتب الشعر بالفرنسية بتوقيع مستعار هو « ايزيس كوبيا » .

وقارىء هذه الخطابات ، يحس أن عواطفها تجرى تحت ستار من الوقار المتكلف ، ففى الرسالة الأولى المؤرخة ١٥ يوليو سنة ١٩١٢ يوجه لطفى السيد كلامه إلى مى ، مناديا إياها : « سيدتى » .

ثم يقول : مضى أسبوع كامل من يوم كنت عندكم ، استأذن فى السفر إلى الاسكندرية ، وما كان من عادتى أن أغيب عنك أكثر من أسبوع ، إذا مضى كان يدفعنى الشوق إلى حديثك الحلو ، وأفكارك (المتينة) الممتعة إلى زيارتك . فلا غرو أن أستعيض عن الزيارة غير المستطاعة بهذه الرسالة السهلة الكلفة . كتابى يلقى اليك فى صحة وسلامة وجد على هذا الحر الذى ربما شبهه بعض أصحابنا الشعراء بشوق المحبين . يقص عليك أننى أذكرك دائماً كلما هبت نسمات البحر وقابلت بينها وبين لوافح القاهرة ، وكلما تجلى

علينا البدر يضىء البر والبحر . . أذكرك كلما خطر ببالى النظر فى حال المرأة الشرقية ومستقبلها .. وكلما قرأت من الشعر والنثر أفكاراً تتناسب مع أفكارك وتختلف معها ، وأذكرك كلما هاج البحر »

ويظهر أن لطفى السيد كان يعانى من نوبات الغضب عند مى فقد قال :

« أما هى فانها غضبى يلذ لنا غضبها فى كل أطواره ، كما يطيب لنا احتماله فى كل مظاهره : عبس فى الوجه لا يقل فى جماله عن الابتسامة الفاتنة ، وأعراض كالدلال فى الإقبال ، وتوقد فى العينين كأنه فى حلاوة لين النظر ، فما أشبه نظرها الشزر بلحظها الرحيم فى اللعب بقلوب الحكيم ثم قطع للرسائل وهجر جميل » .

ـ وكان لطفى السيد يود أن يسترسل مع هواه ، ولكنه يتذكر أن هناك حدوداً مرسومة لايحق لها تجاوزها فيقول :

« فاعذرى قلما حساساً ، غيوراً طماعاً يجرى إلى مايحب كالسيل المتدفق لايبالى صادف سهلا أو اصطدم فى وعر ، أو حبس فى حيز . إنه لايعبد إلا ما يحب من غير أن يفكر . ليس له عذر إلا فى صدقه وكفى بالصدق عاذرا ، وكفى بالصدق شفيعاً » .

وفى خطاب آخر يقول :

« جاءنى كتابك فشممته مليا ، وقرأته هنيأ مريا » ثم قال « جاءنى ولا اكذبك أنى كنت فى انتظاره ؛ فقرأته ثم قرأته ، وذكرت تلك الليلة التى لها فى حياتى تاريخ ومركز خاص » . ثم يمزج عبارات الحب بالفلسفة فيقول :

« ذلك هو شغلى طول النهار يا هانم أخشى أن تكون عصاك أو نفثاتك قد لعبت بعقلى أيضاً ، فاحكم على شوبنهاور ونيتشه حكمك القاسى عليهما » .

ويضيق لطفى السيد ، ونفسه تجيش بعاطفة حب حقيقية ، ويود أن ينطلق فيقول

« أجناية منى أن أتحدث بهذه النغمة السابقة : إلا أن للأرواح أيضاً غذاء يتنزل عليها من مكان أسمى من مكانها العادى ، وهزة تأخذها حين تتقابل جاذبيتها ، لعل ذلك هو سر المادة الإنسانية التى يلمسها الناس فلا يعرفون طرفها » ..

ثم ينفجر فيقول :

« ألقيود الاصطلاح ! إنى كاسرها وملق بها عنى لأقول ماذا ؟ لا شىء بل لأقول أنه لا ذنب على أن صرحت بأنى اليوم سعيد ، وربما كنته بعد اليوم وهذا مالا أعرفه » .

والحق أنه لشىء يثير الدهشة أن تكون « مى » قادرة على إلزام عشاقها ومحبيها حدودا لا يتجاوزونها ، وقيوداً لا يكسرونها ، وإن كان سر هذا عندى مفضوحا ، فهى بلا جدال لم تقع فى حب واحد من هؤلاء الأدباء الذين كانوا يحيطون بها — إلا إذا صدقنا قصة حبها الفاشل للعقاد — ولذلك كانت تتلهى وتتسلى وتستعيض بالحب الصادق ، بهذه الباقة من العواطف يقدمها لها أكبر رجال الفكر الذى يحفون بها ، ويسارعون إلى إهداء أرق العبارات إليها ، متنافسين على خطب ودها ، وكسب رضاها ، فى معركة صامتة ، لا يظهر فيها أحد منهم سيفه ، إذ لا أمل فى الكسب ، فراحت أجمل وأغرب معركة فى تاريخ الحب .. ولا عجب فقد كانت فى الشرق العربى ، وكانت قيود المحافظة ومراسمها مرعية للغاية !

ولما أتيح لى أن أنضم إلى هذه الزمرة الرفيعة ، زمرة ندوة الآنسة مى ، خيل إلى أننى أدخل عالما سحريا . ذهبت إلى شقتها التى كانت فى عمارة ملاصقة

لجريدة الأهرام ومملوكة لأصحاب الجريدة ، وهى شقة فسيحة ، يصل الإنسان فيها إلى حجرة الاستقبال ، من خلال طرقة معتمة نوعا ويخيل إلى الآن أننى حينما دققت جرس الباب ، فتحت لى الآنسة مى نفسها ، فلاحظت لأول وهلة أن لها عينين ضيقتين ، تبدوان للناظر ، كأن بهما أثرا من رمد قديم ، فليس فيهما شيء من الجمال . أما « مى » نفسها ، فممتلئة غير مترهلة ، وأظنها أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، فإذا أنت استبعدتها من الحسناوات ، لم تكن متجنياً عليها ، ولكنك تحس منذ اللحظة الأولى ، بفيض أنوثتها يشملك ويشمل المكان كله ، فهى ليست من الكاتبات المسترجلات ، اللوائى ، استعضن عن الجمال النسوى ، وفتنة الأنوثة ، بعقل الرجل ، ورطانة الأدباء . بل أنها على النقيض ، تخاطب فيك الرجل ، وتستحثه بإيماءات رأسها ، وصوتها الملىء بنبرات الدلال ، بإقبالها عليك ، على أن تخاطب فيها بدورك « مى » المرأة ، وألا تتمادى فى الحديث عن الأدب والفن ، ناسياً أنك فى صالون سيدة شابة .

وصوت « مى » تشوبه رنة حزن لا أدرى إذا كانت طبيعية أم مصطنعة ، وهى تقطع عباراتها ، وكأنها تلحنها وتوقعها كأغنية .

وقد كانت زيارتى الأولى « لمى » فى غير اليوم المحدد لانعقاد ندوتها ، وقد كانت زيارة فى الصباح ، وطالت الجلسة أكثر مما توقعت ، وخرجت وقد خيل إلى أننى نجحت فى أن أظفر لنفسى عندها بمكانة خاصة ، وبقيت على هذا الوهم ، حتى تبينت فيما بعد أن أكثر الذين تتاح لهم فرصة زيارتها والجلوس معها ، يخرجون بنفس الشعور .

ولما ترددت على صالونها أو ندوتها ، لم أر هناك فى أكثر المرات أدباء ذوى شأن ، ولكن وجدت فى جميع زياراتى سيدة تركية عجوزاً وابنها الذى

فهمت أنه موظف من موظفى الحكومة غير البارزين ، ولم يكونا يتكلمان بطبيعة الحال فى أى شأن من شئون الأدب أو الفكر ، ولكنهما كانا لا يحسان أنهما نابيان عن المجلس ، أو غريبان عن جوه وقد ذكرت « لى » ولضيوفها فى إحدى زياراتى حديثاً دار بينى وبين لطفى السيد ، فلم تعلق عليه « مى » بشىء ، ثم انقضى على ذلك سنون طويلة عرفت بعدها أن لطفى السيد كان أكثر من صديق بالنسبة لها .

وفى إحدى زياراتى لى — وكنا يومها وحيدين — جاء ذكر موسولينى وحياته ، فقالت شيئاً ما عن علاقته بزوجته ، قبل زواجهما ، فسألتها مستفسراً أكانت خليلته واستعملت كلمة Maitress ، فتظاهرت « مى » بأن الكلمة آذتها كثيرا ، ولكن لست أدرى لماذا لم يحرجنى موقفها هذا ، فقد أحسست أنه متكلف ، وأنه لا يليق بأديبة تقرأ الكتب بما فيها من أفكار مكشوفة ، وآراء متحدية للأوضاع المألوفة ، ولم تلبث حتى قالت ، وكأنما تعتذر عنى : المحامون لهم لغتهم التى لا تعرف المداراة .

وفى جلسة أخرى جاء ذكر زوجة أحد وزراء المعارف ، فوصفها أحدهم بأنها صخمة ضخامة لا تليق بامرأة فقالت مدافعة : والله انها (نغشه) فوقعت هذه العبارة على سمعى موقعاً غريباً .

ولقد أحسست على أوضح صورة ، بالأثر الذى كان لى فى مجتمعنا وقتئاك فى محاضرة ألقتها فى قاعة الجمعية الجغرافية . لقد كانت القاعة ممتلئة فلم يبق مكان لواقف أو جالس ، ولما ظهرت « مى » على المنصة وفى يدها منديل ، ورأسها تميل فى دلال لطيف يميناً ويساراً راحت الأنظار تتابعها ، وتلاحق حركاتها فى شغف باد ، ولم تدخر « مى » بدورها وسعاً فى أن تحرك شجون السامعين بنبرات صوتها ، وطريقة أدلتها ، فكأنها مطربة . والحق أنى لا أذكر هذه

المحاضرة حتى آرانى أخلط بينها و بين أم كلثوم ، فى حفلاتها الغنائية . وهناك شبه بينهما من حيث تكوين جسميهما .

وقد كانت المحاضرة عن الكاتب الإيطالى « مارنيتى » ، ومذهب « المستقبلية » Futurism ، وعلى الرغم من الأفكار الفلسفية التى كانت تدور حولها المحاضرة ، فقد أحسن المحاضرون الاستماع ، وقاطعوا الخطيبة بالتصفيق وخرجوا ، وكأنهم قد سمعوا غناء شجيا ، أو موسيقى جميلة .

وشغلت عن ندوة (مى) فترة من الزمن ، ثم أردت أن أزورها ، فاتصلت بها تليفونيا فردت على (مى) نفسها ، فطلبت موعدا ، فاعتذرت بأنها لا تقابل أحدا منذ توفيت أمها ، وكان وقت غير قصير قد انقضى على هذه الوفاة ، ولست أدرى ما الذى دهانى ، فقد ألححت — على غير عادتى — فى طلب المقابلة ، وكلما تذكرت هذه الواقعة ، شعرت بالخجل ، وحرت فى تفسيرها ، ولا تفسير لها عندى الآن سوى أنه خيل إلىّ أن واجب المواساة كان يقتضينى أن أبذل جهدا لإخراج (مى) من عزلتها ، وأن تركها مع خواطر الحزن ، من قبيل عدم الأكتراث لها .

وانقطعت أخبار (مى) منذ ذلك اليوم فلم أعد أسمع شيئا عنها ، وكانت قد انقطعت هى قبل ذلك بكثير عن الكتابة فى الصحف ، وفجأة أسمع من الأستاذ مصطفى مرعى ، أنه أصبح من أصدقائها وأنه يتردد عليها مع السيدة زوجته ، وكان آنذاك يلقى دورساً فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة بوصفه أستاذا غير متفرغ ، فدعاها لحضور أحد دروسه فى الكلية ، وكان الدروس فى المساء فلبت دعوته وذهبت معها السيدة حرمه ، ولما أخذت مكانها فى الصف الأول كتب على السبورة « نرحب بالكاتبة الكبيرة مى » أو شيئا من هذا القبيل فأحسن الطلبة تحيتها .

ثم لم ألبث حتى سمعت أن قضية رفعت من بعض أقاربها ، لتوقيع الحجر عليها ، وأنها تعانى اضطرابا عصبياً ، فسألت الأستاذ مصطفى مرعى عن هذا النبأ فأكد لى صحته ، ولما تحدثنا عنها مليا قال إن عزلتها الشديدة وإنكارها القاسى لحاجيات جسمها العاطفية ، أورثها هذا المرض ، ثم علمت بعد ذلك أنها تعالج فى مصحة بلبنان ، ثم نقل إلينا بعد حين ، أنها لحقت بالرفيق الأعلى .

وبذلك أنطوت صفحة كاتبة من ألمع كتاب العربية ، كانت آثارها على اختلافها ، آية من آيات الرقة ، تنضح بالانفعال الوجـــدانى ، وتتسم بالحزن الهادىء ، وتمتاز عن غيرها من الكاتبين بموسيقية وشاعرية ، تدل عليها . فلم تكن (مى) تصطنع أسلوب الرجال ولا تقلدهم ولم تكن رجلا فى ثياب إمرأة بل كانت امرأة حتى أطراف أصابعها ،وقد استطاعت بأنوثتها الناضجة ، ولطفها الأخاذ ، وأسلوبها الفريد فى الحياة ، إن تكون مصدر الهام رجال كثيرين ، أحبوها ، وأسرفوا فى الحب ، وظنوا جميعا أنها أحبتهم ، فأسعدهم هذا ،وحرك وجدانهم ، فأسدوا إلى الأدب العربى أيادى بيضاء ، وأضافوا إليه صحفاً باهرة الفضل فيها راجع إلى (مى) التى عاشت وحيدة ، وماتت فى عزلة موحشة . وقد أشار سلامه موسى إلى علاقته بمى فقال أنها دعته إلى أن يشترك فى تحرير جريدة المحروسة اليومية التى كان يصدرها والدها اليـــاس زيادة ، وقد لبى الدعوة واستمر يحررها بضعة أشهر ، ولكنه لم يلبث حتى سئم هذا العمل فى ظل الرقابة الشديدة التى كانت مفروضة أثناء الحرب الأولى ، ثم قال « ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارات مى ومؤانستها لنا من وقت لآخر فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة » .

ثم عاد فأسهب فى ذكر أطوار علاقته بها ، وأثرها فى نفسه فقال :

« من الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى شخصية الأديبه

الكاتبة مى ، وقد بقينا صديقين ، إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولم تكن « مى » جميلة ولكنها كانت « حلوة » وكانت تعرف الآداب الانجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيرا . وقفت على الاتجاهات العصرية فى أوروبا وأمريكا والشرق . وكانت أيضا متحدثة من حيث اكتمال وسائل التمدن فى المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفة ورقة . وقد استطاعت « مى » أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية لا استرجالا كريها . وكانت فى حياة أبويها تعقد بمنزلها اجتماعات (صالونية) حيث يكون السياسى والأديب والوجيه بعض ضيوفها ، وكانت تشترك فى جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها، ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك فى معالجته ، وتفعل كل ذلك فى رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر « الصالون » ولكن عقاب وفاة والدتها تزعزعت « مى » ولم يكن ذلك فى ظنى لحزنها على والدتها التى ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها منتظراً وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عندما تعرف أن مى لم تتزوج وأن رفقتها لأمها كانت تعزيتها وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا أنه متمدن ، لا يزال شرقياً .

« على أنى أظن أن السبب للترعزع النفسى الذى أصـــاب «مى» كان انتقالها الفسيولوجى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيرا ما يخل بالاتزان الفسيولوجى عند بعض النسوة وقد ماتت « مى » منذ أكثر من سنتين بعد سنوات قضتها فى مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان ، ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى ، وفتحت لنا الباب . فرأيت شخصاً لا أعرفه : رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسددت عينى ، فغمزنى أسـعد

وهمس : الآنسة مى ! الآنسة مى ! فسلمت وتضاحكت . ولكنها أدركت كل شىء . واستولى على اكتئاب وخجل وجمود وارتسمت فى ذهنى صورة لمذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها . ولكن سرعان مازال عنى الأكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فإن مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ماقاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام ، ثم — وهنا الأسف والحزن — كانت وهى تروى لنا ما وقع تذكر كيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا عنها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى . وتكرر منها هذا كثيرا . وأدركت أنها لاتزال فى حاجة إلى المستشفى .

« وزاد اعتقادى عندما أصرت على أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم ، وأنهم كانوا يتربصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

« وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجا ، فإنى بقيت طوال المساء ، وأنا أفكر فى جمودى ، وكيف أنى لم أتنبه عندما رأيتها بالباب فأحييها تحية اشتياق وتقدير وأنها لابد قد عرفت من جمودى أنها قد تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت ، وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

« فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طوال الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة ، مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانشراح واضحين وهى تقول : مرسى . مرسى يا أستاذ » .

«وشعرت أنى كفرت عن جمودى بالأمس ، وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت إذ لم تطق هذه التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلألأ فيها بالشباب والجمال . ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلألؤ » .

« ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى مما كانت فى جميع ما كتبت ، وكنت أقول لها أن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن نبوح بكل ما تفكر فيه ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث .

« وقد يسائل القارىء هنا ، ولم لم تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى ، ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين على الرغم من عصريتهم ، لايزالون شرقيين ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها فى صالون أدبى له حرية الصالونات الأدبية فى المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : أن مى عاشت عمرها قبل ميعاده بخمسين سنة » .

وقد وصف الدكتور منصور فهمى زيارة (لمى) تشبه زيارة سلامه موسى فقـــــال :

« طرقت على الأديبة بابها فى أصيل يوم من الأيام ولعل ذلك كان فى سنة ١٩٣٦ ، وثابرت فى دق الجرس وفتح الباب فى مواربة فهرولت إلى الداخل فاذا بالسيدة التى فتحت لى الباب إنسانة نفشاء الشعر ، مشعثة الرأس ، شاحبة الوجه ، مقرحة العين يلف جسمها المترهل ، جلباب أبيض فضفاض ، وتلابسه

أشعة صفراء خافتة يرسله مصباح كهربائى صغير يتدلى من سقف الدهليز أنها « مى » الآفلة ، ولم أتبين منها ومن بقايا شروقها إلا ابتسامة باهتة تتأرجح على شفتين تحاول أن تغزوهما طلائع النحيب ووساس الهموم .

« وقفت السيدة فى مدخل الدهليز دون أن تتكلم والابتسامة الذابلة الحارة تتردد على ثغر عهدته حافلا بالسناء ومليئا فيما مضى بأزهر البسمات ولكنه اليوم كاد أن يكون متقلصا من الألم . وكانت الأديبة تغمرنى بكل نظراتها وتصوبها إلى هيكلى وكأنها كانت ترفقها بتيار من عذوبة وحنان . ولكنها لم تشر إلىّ بالدخول إلى غرفة الاستقبال ولم تستدرجنى إليها حتى ولم تشر إلىّ بالجلوس على مقعد من المقاعد المبعثرة فى المدخل ، وظلت واقفة أمامى ناظرة إلى وهى شبه باسمة وباكية ومتوسلة . على أننى لم أفقد رباطة الجأش وحرصت على أن تصل كلماتى المحدودة القصار إلى نفسها وتنفذ إليها فى الأعماق ..

« ولكن السيدة التى أوجه إليها كلماتى القاطعة الصادقة لا تجيب ، وتظل تغمرنى بنظرات فيها العطف وفيها الحنان .

« وتطفر الدموع إلى عينيها الجميلتين الذابلتين وتنطق فى همس بنحو تلك الكلمات المبهمات للتقطعات البعيدات من صوغ العبارة المتصلة والخاليات من المعنى المتسلسل الصريح شكرا . شكرا . لا شىء أريد النوم . رب لم كانت الخطيئة » .

« وأدركت أن الأديبة — لا تريد أن يقتحم عزلتها أحد ، فخرجت ورد الباب ورائى فى رفق ، وأخذت أضرب فى الشارع وفى خيالى صورة للكاتبة الآفلة وفى نفسى تأثر عميق إلى أن استقر بى المقام فى المقهى أو فى مقصف غير مأهول فجلست وأخذت أقول لنفسى : إلا أن الحسنات قد تؤذى أربابها ، وأن الفضائل قد تضيع أصحابها »

والحق أن حياة « مى » تعد عملا فنياً رائعاً . وقد ألفنا القول بأن حياة الكاتب أو الفنان تكون فى بعض الأحيان ، أجمل آثاره الأدبية والفنية ، وهذا القول صحيح بالنسبة لبعض الكتاب والفنانين ، ولكنه لا يمكن أن يكون أعظم نصيبا من الصحة منه فى حالة الآنسة « مى » . فقد عرفت «مى» على البعد جبران خليل جبران وأحبته ، وأحبها ، دون أن يتلاقيا ، ولم يكن الحب عذريا وأن لم يتماسا أو يتلامسا ، أو يقترب جسد أحدهما من الآخر ، ودون أن يظفرا من دنياهما بخلوة ، يشبعان فيها حاجة كل منهما إلى الفناء فى الآخر ، والالتصاق به ، روحيا وجسمياً ، ويرويان ظمأ النفس الإنسانية إلى أن تتعرى حقيقتها ، وتهبط قليلا أو كثيراً عن إنسانيتها ، مع رفيق من الجنس الآخر ، ليتزودا من هذا الهبوط بنشوة تزيدهما تطلعا إلى ما هو أسمى من الإنسانية ذاتها ، وأنقى منها جوهرا وأوسع طموحا .

وقد استطاعا مع تنائيهما ، وبعد الواحد منهما عن الآخر بعدا لم يفصل من قبل فى تاريخ المحبين وأهل الهوى ، بين عاشقين ، أى يخلقا عالما خاصاً بهما ، يحتويهما ، وكأنهما فى دار واحدة تضمهما ، يتنقلان فى حجراتها ، ويقترب الواحد منهما من الآخر ، تحت سقفها ، ويبتعد ، ويغضب ويصفح ، ويتدلل ويبكى ويضحك ، ويلتفت إلى صاحبه بكل حواسه ، ثم يشرد بخاطره مع أحلامه وأوهامه ، وبقيا هكذا حتى ماتا ، ولم يسع أحدهما لأن يرى صاحبه فقد بقى جبران خليل فى أمريكا ، وبقيت « مى » فى مصر . وقصة هذا الحب كما يرويها الأستاذ جميل جبر يبدأ هكذا :

« دار الكلام غير مرة فى تلك الجلسات المنظمة حول آثار جبران وفعلها فى توجيه الفكر العربى المعاصر ، فشاق « مى » التعرف إلى ذلك المجدد الخلاق ، وكان أول ما طالعت منه مقاله (فى مثل هذا اليوم ولدتنى أمى) —

فتذوقت نهجه وطالعت سواه واستزادت ، ولما وقع أدب جبران من نفس «مى» موقعاً حسناً ، أرادت أن تعرف من أنبائه ، مايريدها معرفة بشخصه ، وأسلوب حياته ، بعد أن عرفت طرفا من ذلك عن طريق ما يشى به أدبه ، وتكشفه آثار الكاتب عن منهج الكاتب نفسه فى دنياه ، فأخبرها من يعرفون جبران خليل جبران أنه لبنانى بائس هاجر إلى بوسطن فى الولايات المتحدة مخلفا وراءه قريته (بشرى) وفيها أمه وأخته . وأنه عاش فى مهجره بأمريكا بحى موبوء قذر ، حيث بدأ يتعلم الانجليزية ، ويرسم ، ثم امتحنه القدر نخطف الموت أمه وأخاه وأخته فعاد إلى بيروت ودرس العربية فيها ثم قصد باريس ودرس على يد (رودان) المثال الشهير أصول الرسم الحديث ثم قفل راجعاً إلى بوسطن ، لعيش من أبرة أخته فى بيته تعاساً وحرمانا ، وقد أججت صور هذه الحياة المليئة بمرارة المعاناة والمكابدة ، شوق « مى » إلى أن تتصل أسبابها بأسبابه فكتبت إليه أولى رسائلها فى ٢٩ من مارس سنة ١٩١٢ ، وكان اسم « مى » قد صافح إذن جبران ، ولفته بعض ما قرأه لها إن أسلوب جديد لم يطرقه غيرها من الكاتبين والكاتبات ، ففرح برسالتها ، وأسرع بالرد عليها ، ومعها آخر كتبه « الأجنحة المتكسرة » وقرأت الرسالة ، وقرأت الكتاب ، وأحست أن ينبوعا دافقا ، قد انبثق فى حياتها ، يحمل إليها ما لا عهد لها به من قبل من العواطف والخواطر والمشاعر وصور الفكر . وكتبت إليه فى ١٢ من مايو سنة ١٩١٢ ، تعلق على كتابه وتقول :

« إننا لا نتفق فى موضوع الزواج ياجبران ، أنا أحترم أفكارك وأجل مبادئك ، لأننى أعرفك صادقا فى تعزيزها مخلصاً فى الدفاع عنها . وأشاركك أيضا فى المبدأ الأساسى القائل بحرية المرأة . وكالرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان تابعة فى ذلك أميالها وإلهاماتها

الشخصية ، لا مكيفة حياتها فى القالب الذى اختاره لها الجيران والمعارف ، حتى إذا ما انتخبت شريكا لها ، تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما ، أنت تسمى هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال ، وأنا أقول أنها سلاسل ثقيلة ، نعم ولكنها حبكتها الطبيعة التى جعلت المرأة ما هى ، فلن يتوصل الفكر إلى كسر القيود الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شىء » . ثم انتقلت إلى بطلة كتاب أو قصة الأجنحة المتكسرة .

« أنى أشعر شعورا بالقيود المقيدة بها المرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب . ولكن إذا جوزنا لسلمى ، ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسموا وذكاء ، الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها ، فهل يصح لكل إمرأة لم تجد فى الزواج السعادة التى حلمت بها ، وهى فتاة أن تختار لها صديقاً غير زوجها ، وأن تجتمع بذلك على غير معرفة من أهلها ! حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب

ثم قالت « مى » فى رسالتها هذه : « كل واحد من مؤلفاتك يا جبران صديق عزيز على » ثم أقيمت فى سنة ١٩١٣ حفلة تكريم للشاعر خليل مطران فى مبنى الجامعة القديمة بالقاهرة ، وأرسل جبران خطابا ليشارك به فى تكريم ابن بلده ، ووقع الاختيار على « مى » لتلقى هذا الخطاب ، وهى تحسن الأداء ، إذا خطبت ، كأنما تغنى ، وتحسن اختيار وقفتها على المنبر ، وتشكل فيها ، وتنوع ، وكأنها ترقص رقصة لطيفة من رقصات البالية ، فما بالك وهى تلقى خطبة صديقها الذى بدأ حبه يتسرب إلى قلبها ، ويضىء بنوره حياتها ، وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ، والشباب موشك أن يولى . لقد أبدعت فى الإلقاء ، وخلبت ألباب السامعين ، فكانت هذه الخطبة عربون الحب بين الشاعر الغائب ، والخطيبة التى نابت عنه وتحدثت باسمه .

ثم تندلع الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، وتنقطع الرسائل بين « مى »

فى القاهرة ، وجبران فى بوسطن ، بعد أن اتصلت هذه الرسائل ، وأصبحت قادرة أن تنقل إلى كل من هـــذين العاشقين وجود الآخر فكأن أدبهما ، وحرارة عبارتهما ، قد نجحت فى الغاء المحيط الأطلسى ، وما يليه من الأرض بسهولها وجبالها ، كما الغت مابين القاهرة ، والمحيط من مساحات شاسعة ، ثم وضعت الحرب أوزارها ، وعاد الصاحبان إلى اتصالهما ، أكثر حرارة ، فذابت اعتبارات التحفظ والاحتياط ، وخرجا إلى التصريح بعد التلميح ، فكتبت له مثلا تقول :

لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت ، وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصاً ، أن هناك رجلا أخاطبه فأكلمك كما أكلم نفسى ، وأحيانا كانت رفيقة لى فى المدرسة إنما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة ، أتكون المسافة وعدم التعارف الشخصى ، والبحار المنبسطة بيننا هى التى كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال .

ثم تقول :

« ومرت أسابيع سته أو سبعة دون أن اكتب لأنى كنت أقول لنفسى : يجب أن نقف هنا أنت قيدتنى (مذنبة) فى دفترك وقمت تشكو لأنى كلما حدقت فى شىء اخفيه وراء القناع وكلما مددت يداً اثقبها بمسمار ، فعلت ذلك متعمدة . تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التى تغزلها يد الغيب وتمــدها بين فكرة وفكرة وروح وروح ، وصرت أحرف المعانى وامسح الأسئلة وأضحك عند الكلمات التى تملأ العينين دموعا . وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكرك انى وحيدة أبوى ؟ قد لا يكون فى العائلة الغربية إلا ولد واحد فيقذفون به من انجلترا إلى الهند ، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء ولكن أين نحن من هؤلاء ونحن شرقيون ؟

« تعمدت ذلك خصوصاً » لأوفر على نفسى عـذابا هى فى غنى عنه ، ولأتحايد كلمة تقربنى من هذا الموضوع الذى ملأ روحى شوكا وعلقما ، فى هذه السنوات الماضية . ففهمت ما أريد وإنما فى غير معناه الحقيقى ، فنسيت أن السكوت لايحس بيننا على هذه الصورة نحن الذين تـكاتبنا أبدا كصديقين مفـكرين ، نسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضا وما دام أنه لم يكن الأصل فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر فى علاقتنا الأدبية الفـكرية .

« أما صدق القائلين أن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات ، آلمنى سكوتك من هذا القبيل ، وأرهف انتباهى ، فأعلمنى انك لم تشاركنى ارتياحى إلى تلك الصداقة الفـكرية لأنك لو كنت سعيداً بها مثلى ، لما كنت رميت إلى أبعد منها . علمت أننى كنت وحدى حيث كنت أظننا اثنين . وقدرتك أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة وأنا كنت أقدرها لذاتها . . وصار معنى سكوتك عندى : إما ذاك وإما لاشىء .. وأنت أدرى بأثر هذا فى نفسى » .

وانقطع جبران فترة عن الـكتابة إليها ، بعد هذا الخطاب فظنت أنها آلمته ، فبعثت تعتذر إليه وتدعوه إلى الصفح والرضا ، ويجيبها قائلا :

« أنا المسىء وحدى . وقد اسأت فى سكوتى وفى قنوطى . لذلك استغفرك أن تغفرى لى مافرط منى وأن تسامحينى » .

ولم يقنع الـكاتبان العاشقان النائيان بالرسائل يتبادلونها ، بل راح كل منهم يناجى حبيبه ويحدثه فى الـكتب التى يؤلفها ، فخاطبت « مى » فى كتاب ظلمات وأشعة جبران بهذه المقطوعة البارعة الجياشة بالعاطفة ، الحـارة ، الدافقة ، قالت :

« أنت أيها الغريب .. أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة ، وكما يعرف السجنا بأرقامهم ، يعرف كل حى باسمه ، وقد الفنا وسط جماعات المثقفين فيما بينهم على الضحك من سواهم حينا ، والضحك بعضهم من بعض أحياناً أنا منهم وإياك غير أن شبهى بهم يسوءنى لأنى انما أقلدهم لأريك وجها منى جديدا وأنت أتجاريهم بمثل قصدى أم الهزء والاستخفاف منك طوية وسجية ؟ ولكن رغم انقباض للنكتة منك والظروف ، ورغم امتعاض متفائل منك والحبور ، أرانى وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر فى لحظات الكتمان والعبوس والتأثر بنظرك النافذ الهادىء تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به ، فشعرت إذا ما ذكرتك ارتدت نفسى بثوب فضفاض من الصلاح والكرم متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق . « لى به ثقة موثوقه ، وقلبى الضنى يفيض دموعا . سأفزع إلى رحمتك عند اخفاق الأمانى ، وأبثك شكوى أحزانى أنا التى ترانى طروبة طيارة .

وأحصى من الأثقال التى قوست كتفى وحشت رأسى منذ فجر أيامى . أنا التى أسير محفوفة بجناحين ، متوجة بأكليل ، وسأدعوك أبى وأمى متهيبة منك سطوة الكبر وتأثير الأمر . وسأدعوك قومى وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين .

وسأدعوك أخى وصديقى ، أنا التى لا أخ لها ولا صديق .

وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التى تتخيل فى قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى .

وسأطلب منك الرأى والنصيحة عند ارتباك فكرى واشتباك السبل .

وإذا أسىء التصرف ، وارتكبت ذنباً سأسير اليك متواضعة واجفة فى انتظار التعنيف والعقوبة .

وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخط على وامتثل لأمرك .

« وسأصلح نفسى تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمالى حسابا وأحصل على التحبيذ منك أو الاستنكار ، فأسعد فى الحالين . وسأوقفك على حقيقة ما ينسب إلى من آثام ، فتكون لى وحدك الحكم المنصف .

« وما يحسبه الناس فضلا وحسنات سابسطه أمامك فتنبهنى إلى الغلط فيه والسهو والنسيان وستقومنى وتسامحنى وتشجعنى وتحتقر المحاولين والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جنانى كما اكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك ، ولا أصدق سوى نظرتى فيك وهى أبر شاهد .

كل ذلك وأنت لا تعلم .

سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية همومك وأطماعك وآمالك . حكاية البشر المجتمعة فى فرد واحد .

«وسأستمع إلى جميع الأصوات على أن أعزها على لهجة صوتك ، واشرح جميع الأفكار وامتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك .

« وسأتبين فى جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هى شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك .

« وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك ، فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفر إليك سأتصورك عليلا لأشفيك . مصابا لأعزيك ، مطروداً مرذولا

لأكون لك وطناً وأهل وطن ، سجيناً لأشهدك بأى تهور يجازف الإخلاص ، ثم أبصرك متفوقا فريداً ، لأفاخر بك وأركن إليك .

« وسأتخيل ألف ألف مرة كيف أنك تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادة الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل .

« وسأتخيل ألف ألف مرة إلى أى درجة تستطيع أنت أن تقسو وإلى أى درجة تستطيع أن تحب .

وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه الآخرون .

أتعلم ذلك أنت الذى لاتعـــــلم ؟ اتعلم ذلك ، أنت الذى لا أريد أن تعلم ؟ » .

وفى كتاب ظلمات وأشعة تقول أيضاً كلاما يظنه مؤرخوها انها توجهه إلى جبران :

« هناك فى تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القدر من دواهيه على صدرى جدران الحـديد ومعاقل الرصاص ، هناك قرب حلول الشفق ، برزت لجأة امامى ، واخذت تتكلم عن معان اختفت طى المعـانى ، واشياء توارت فى الأشياء ، وممكنات حجبت فى المستحيلات ، وخير حصص وراء الشر، ونور اشرق فى لجج الظلام . وسمو تجلى خلال الحقارة . وكانت يدك متريثه متأنية فبدت فيها الإشارات سحرية ساهية .

ثم تقول : ولـكن انى جاء الوجد ؟ انت لم تـكن تهتم بى ، وانا لم اكن اهتم بك ، ولـكن علام تشل أوصال روحى للدنو من مكان حلته ؟ وعلام

اضطرابك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالى عن بعـــد ؟ انت لم تـكن تعبأ بوجودى وانا لم اكن اعبأ بوجودك . ولـكن لماذا كنت اخاشنك متعمله الأعراض وعدم الانتباه .. من انت وماذا كنت ؟ اكنت وحياً من فيض شاعريتى المـكتظه ، وطيفا من اطياف شوق وعذابى ؟ ام انت حقيقة محسوسة مرت فى افق حياتى مرور الشفق ، فى البحر إلى الشواطىء العانية ، لقد كنت وحياً من فيض شاعريتى المـكتظه ، وكنت اطيافى شوق وعذابى . . يا مهذبى » .

ولـكن لم يستطع المحبان ، ان يستمر تشبثهما بالغموض والتلميح ، ولم تنفع المقاومة ، فقد انتهى الأمر « بمى » إلى ان تقول صراحة :

« جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لاتحايد كلمة الحب . ان الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه فى السهرات والمراقص والاجتماعات ينمى الحب فى أعماقهم قوة ديناميتية رهيبة قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم فى اللألاء السطحى لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التى لم تنفجر ، ولـكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعهـــا ، والتلهى بما لا علاقة له بالعاطفة ، يفضلون أى غربة واى شقاء ، وهل من شقاء وغربة فى غير وحدة القلب ؟ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذى أكتبه ؟ أنى لا أعرف ماذا أعنى به ، ولـكنى أعرف أنك محبوبى ، وأنى أخاف الحب ، أنى أنتظر من الحب كثيراً فاخاف ألا يأتينى بكل ما أنتظر . أقول هـذا مع علمى بأن القليل من الحب كثير . الجفاف والقحط واللاشىء بالحب خير من النذر اليسير . كيف أجسر على الإفضاء إليك بهـذا ، وكيف أفرط فيه ؟ لا أدرى الحمد لله ، إننى أكتبه على الورق

ولا أتلفظ به لأنك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولاختفيت زمناً طويلا . فما أدعك ترانى إلا بعد أن تنسى — حتى الكتابة ألوم نفسى عليها أحياناً لأنى بها حرة كل هذه الحريه . أتذكر قول القدماء من الشرقيين : أنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب .

« أن القديس توما يظهر هنا . وليس ما أبدى هنا أثر الوراثه فحسب . بل هو شىء أبعد من الوراثة ماهو ؟ قل لى أنت ماهو هذا . وقل لى ما إذا كنت على ضلال أو هدى فإنى أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول : سواء كنت مخطئة أو غير مخطئة . فان قلبى يسير إليك . وخير مايفعل هو أن يجلس حائماً حواليك ويحنو عليك .

« غابت الشمس وراء الأفق . ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة واحدة هى الزهرة آلهة الحب . أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون ؟ ربما وجد فيها من هى مثلى ، لها واحد جبران حلو بعيد هو القريب ، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء ، وتعلم أن أن الظلام يخلف الشفق ، وأن النور يتبع الظلام ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذى تحبه فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقى بالقلم جانباً لتحتمى من الوحشة فى اسم واحد : جبران » .

هذا الخطاب ، وتلك المقطوعتان — لاشك عندى — فى انهما من أنفس وثائق الأدب ، لا لأن بلاغتهما الوجدانية ، تفيض صدقا وتنبض انفعالا ، وتكشف فى عبارات سهلة بسيطة آلاما عميقة ، وترسم أحلاما بعيدة ، وتصور اوهاماً رهيبة ، بل لأنها جزء من مجموعة من أوراق تبادلها العاشقان أو كتبها كل منهما لنفسه ، ليبثها لواعجه وأشواقه ، واضطرامه بالحب ،

وانفعاله به ، بالخيال ،وفى الخيال ، فقامت مقام الاتصال الجسدى بكل آثاره ـ « فى » وجبران كانا يتقابلان فى هذه الرسائل ، كما يتلاقى العاشقان فى حديقة مهجورة أو مكان غير مطروق ، أو فى دار مغلقة ، ليلقى الواحد منهما بنفسه فى أحضان صاحبه ، ليتعلق بعنقه ، وليملأ رئتيه من عطر انفاسه . . ولو امتد بهما العمر ، لسعدا بهذه الرسائل ولما فكرا فى شىء آخر سواها ، لاعن زهد ، ولا عن رهبانية ، ولا نزولا على مقتضيات البعد المادى ، ولا احتراما لعواطف والدى «مى» بل لأن هذه الرسائل كانت فى ذاتها إشباعاً لهما ، وإن كان جبران لم يكف عن التطلع إلى لمس مى ، واحتوائها ، والوصول بحبه لها ، إلى الغاية التى لا يقنع الرجل الصحيح البدن ، بالوقوف دونها . ولكن لأن الظروف خلقت حبها بهذه الصورة غير المألوفة ، ولأن خيال كل منهما قوى ومديد ، فقد عوضهما هذا الخيال عن التلاق ، فاستعذبا هذا الطراز من الحب ، ولم يفكر أحدهما فى أن يذهب إلى الآخر ، ولا أن يتلاقيا فى منتصف الطريق ، ولو صحت عزيمة أيهما على ذلك لما حالت دونه الحوائل .

ولكن جبران يصاب بالمرض ، فيكافحه فى غربته ، وهو يكتب ويرسم ، ويناجى فى رسائله وكتبه من بوسطن ومن نيويورك حبيبة قلبه المقيمة فى فى القاهرة . وتعلم (مى) بحقيقة العلة وتعلم أن البرء منها كالمستحيل إن لم يكن المستحيل ذاته ، ولم يبق أمامها إلا أن تسليه وتخفف عنه شعوره بالوحدة فتكتب إليه :

« لقد توزع هذا الأسبوع بريد أوروبا وأمريكا ـ وهو الثانى من نوعه فى هذا الأسبوع ـ وقد فشل أملى بأن تصلنى فيه كلمة منك ، نعم أنى تلقيت منك فى الأسبوع الماضى بطاقة عليها وجه القديسة حنه الجميل ولكن هل تكفى الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل .

« لا أريد أن تكتب إليّ إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك أو عندما تنيلك الكتابة سروراً ، ولكن أليس من الطبيعي أن اشرئب إلى أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها حقيبته ! أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل ، حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى بعضها اسم نيويورك واضح ، فأذكر صديقى ، ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه ؟ ولتحمل إليك رقعتى هذه عواطفى فخفف من كآبتك إن كنت كئيباً وتواسيك إن كنت فى حاجة إلى المواساة . ولتقوك إذا كنت عاكفاً على عمل ولتزد فى رغدك وانشراحك إذا كنت منشرحاً سعيداً » .

ويرد جبران على هذا ، بقوله :

« صحتى الآن أردأ نوعا مما كانت عليه فى بدء الصيف ، فالشهور الطويلة التى صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحى وجسدى أما هذا الطائر الغريب الذى كان يختلج أكثر من مائة مرة فى الدقيقة فقد أبطأ قليلا بل أخذ يعود إلى نظامه الاعتيادى غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هد أركانى وقطع أوصالى . ان الراحة تنفعنى من جهة أخرى . أما الأطباء والأدوية فهى بمقام الزيت من السراج . لا لست بحاجة الى الأطباء والأدوية ، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون أنا بحاجة موجعة إلى من يأخذ منى ويخفف عنى ـ أنا بحاجة الى فصادة معنوية . إلى يد تتناول مما ازدحم فى نفسى ، إلى ريح شديدة تسقط أثمارى وأوراقى .

« أنا يا (مى) بركان صغير سدت فوهته ، فلو تمكنت اليوم من كتابة شىء كبير أو جميل لشفيت تماماً . لو كان بإمكانى أن أصرخ عالياً لعادت عافيتى . قد تقولين لماذا لا تكتب فتشفى ؟ وأنا أجيبك لا أدرى ، لا أدرى لا أستطيع الصراخ . هذه هى علتى . هى علة فى النفس ظهرت أعراضها

فى الجسد – وتسألين الآن إذن ، ما أنت فاعل ؟ وماذا عسى أن تكون النتيجة ، وإلى متى تبقى فى هذه الحالة ؟ أقول أنى سأشفى ، أقول أنى سأنشد أغنيتى فاستريح ، أقول أنى سأصرخ من أعماق سكينتى صوتاً عالياً . بالله عليك لا تقولى أنشدت كثيراً ، وما أنشدته كان حسناً . لا تذكرى أعمالى الماضية لأن ذكرها يؤلمنى لأن تفاهتها تحول دمى إلى نار محرقة ، لأن نشوفتها تولد عطشى ، لأن سخافتها تقيمنى وتقعدنى ألف مرة ومرة فى كل يوم . لماذا كتبت تلك المقالات ، وتلك الحكايات ؟ لماذا لم أصبر ؟ لماذا لم أضن بالقطرات فأدخرها وأجمعها ساقية ؟ لقد ولدت وعشت لأضع كتاباً واحداً صغيراً – لا أكثر ولا أقل – لقد ولدت وعشت وتألمت لأقول كلمة واحدة حية مجنحة ، ولكن لم أصبر ، لم أبق صامتاً حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتى ؟ لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارا ، فياللأسف ويا للخجل ! وبقيت ثرثارا حتى أنهكت الثرثرة قواى . وعندما صرت قادراً على لفظ أول حرف من كلمتى وجدتنى ملقى على ظهرى وفى فمى حجر صلد . لا بأس . إن كلمتى لم تزل فى قلبى . وهى كلمة حية مجنحة . ولابد من قولها لتزيل بوقعها كل ما أوجدته بثرثرة من الذنوب . لابد من إخراج الشعلة » .

وفى سنة ١٩٣٥ سافرت مى إلى إيطاليا ، ولو كان تلاقى الحبيبين فى حساب أيهما أو فى حسابهما ، لأسرع جبران إلى إيطاليا ، أو لأكملت مى رحلتها إلى أمريكا ، ولكنها لم تفعل ، ولم يفعل ، وأرسل إليها يقول :

« حبذا لو كنت مريضاً فى مصر . حبذا لو كنت مريضا فى بلادى قريباً من الذين أحبهم . أتعلمين يا مى أنى فى كل صباح ومساء أرانى فى منزل فى ضواحى القاهرة وأراك جالسة قبالى تقرأين آخر مقالة كتبتها أو آخر مقالة من مقالاتك وهى لم تنشر بعد . أتعلمين يا مى أنى ما فكرت فى الإنصراف الذى

يسميه الناس موتاً إلا وجدت فى التفكير لذة غريبة وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل؟ ولكنى أعود فأذكر أن كلمة لابد من قولها فأحار بين عجزى واضطرارى وتغلق أمامى الأبواب . لا . لم أقل كلمتى بعد ، ولم يظهر من هذه الشعلة غير الدخان . وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل مراً كالعلقم ، أقول لك « يامى » ولا أقول لسواك . أنى إذا انصرفت قبل تهجئة كلمتى ولفظها فانى سأعود لأقول الكلمة التى تتمائل الآن كالضباب فى سكينة روحى . أتستغربين هذا الكلام ؟ إن أغرب الأشياء أقربها للحقائق الثابتة ، وفى الإرادة البشرية قوة اشتياق تحول السديم فينا إلى شموس » .

بينما تزداد حالة جبران سوء ، تنبت فكرة إقامة عيد له ، إذ دعت الرابطة القلمية لهذا العيد ، وتجد « مى » فى هذه الفكرة ، ما يرضى عاطفتها ، فتبذل فى سبيل تنفيذها وتوفير أسباب النجاح لها كل ما تملك ، ولكن العلة التى تأكل الأيام الباقية من حياة جبران لاتحفل بما يبديه المحبون ، والمعجبون ، فقبل أن تنتهى سنة ١٩٣٠ ، تكون حياة جبران قد انتهت ، وتكون الوحشة المحيطة بمى قد زادت إحكاماً ، فقد فقدت أباها ، ثم فقدت الصديق الحبيب ، الذى لم تره ، ثم فقدت شبابها ، إذ كانت قد تجاوزت الخامسة الأربعين وهى بعد عزباء لم تتزوج ، تواجه انحدارها من قمة الحياة إلى سفحها وحيدة ، فوقعت فريسة حالة من المرض النفسى زادت مع الأيام ، وقد التمست منها علاجا ، فى السفر فسافرت فى سنة ١٩٣٢ إلى فرنسا وانجلترا ، ثم عادت إلى السفر فى سنة ١٩٣٤ فقامت برحلة إلى إيطاليا ، ثم يزداد شعورها بالضيق والضعف ، فتسافر فى سنة ١٩٣٥ إلى لبنان ، ولكن هذه الأسفار كلها لا تنجح فى التخفيف من إحساسها بالفراغ والجدب والوحدة والخوف .

وقد أبت مى إلا أن تتصل بقلب أو بعاطفة كل الذين لمعت أسماؤهم ،

فى عالم الأدب فى مصر ، وفى البلاد الشامية ، ممن وفدوا إلى مصر ، فنهم — كما قلنا — من أسعده القرب منها ، والتحدث إليها ، قانعاً بتذوق واسترواح هذا العطر الذى تنشره المرأة فى مجلسها ، هو عصر أشد نفاذاً ، وأجمل رائحة إذا ما صدر عن المرأة التى تتجمل للرجل ، فتبدى له زينة عقلهـــا وبدنها معاً ، وتخلبه بحلاوة وجهها ، ورشـــــاقة جسمها ، معززين بلطف حديثها ، وطرافة أفكارها .

ولقد كان من بين من استمتع بندوة مى ، وما تحركه هذه الندوة فى قلوب روادها ، من الخواطر والأوهام طه حسين فقال :(١)

وقد أتيح لى أن أكون من خاصة « مى » بفضل الأستاذ لطفى السيد فكنت أتأخر فى الصالون حتى ينصرف الزائرون ، وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق منهم إلا الأستاذ لطفى السيد ومحمد حسن نائل المرصفى رحمهما الله وأنا .. وفى ذلك الوقت كانت « مى » تفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن إنشائها ومن عزفها ومن غنائها ويظهر أنى لن أنسى صوت « مى » حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « يا جنينة » وتغنيها فى اللغات المختلفة وفى اللهجات المختلفة أيضا » .

أما مصطفى الرافعى فقد كان أعمق تأثراً بالدنو من « مى » وأشد انفعالا بحديثها ويقول الأستاذ محمد سعيد العريان فى هذا :

« لمسة الحب ، لمسة ساحر جعلت فى لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً ، وطال انفراد « مى » به عن ضيوفها فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه ثم قامت تودعه إلى الباب وهى تقول متى الزيارة الثانية ؟ » ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه فما افترقا بعدها إلا على ميعاد . وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها

(١) عن كتاب « مى أديبة الشرق » للأستاذ عبد الغنى حسن

يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف فإن منعه شيء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب لها من طنطا على أن يكون له عوض مما فاته يوم وحده كان يحبها حباً عنيفاً جارفا لا يقف فى سبيله شيء ، ولكن حبه ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات ، وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر ، وصفاء الروح ، وقد وجدها ولكن فى نفسه ، لا فى لسانه وقلمه ، وأحس وشعر وتنورت نفسه الأفاق البعيدة » .

ويقول الأستاذ العريان أن مصطفى الرافعى ، طافت به لفترة ،أمنية أن تكون « مى » له زوجة ثم صرف هذه الخاطرة ، أولعلها انصرفت على الرغم منه ، فما أحسب أن « مى » كانت تقبل أن تتزوجه وهو زوج وصاحب أولاد وقد رفضت أن تتزوج من أبناء جنسها ودينها ، وهم فى مثل شهرة الرافعى ، ومن يفوقونه وسامة إلا أن يشاء آله الحب ، فيزيل كل عائق ، ويتجاوز كل حساب ، ويهدم كل قاعدة ، ولكن حدث ما يرويه سعيد العريان بقوله :

وراح الرافعى يوما إلى ميعاده وكان فى مجلسها شاعر جلست إليه ، تحدثه ويحدثها ، ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته ، وجلس الرافعى مستريبا ينظر وابطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون لها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه «ما أنت هنا وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف » فاحمر وجهه وغلى دمه ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب .. واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ، وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب فى أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعى حين وجد كبرياءه نسى حبه ، وكان هو الفراق الأخير » .

هل كانت مى تحب الرافعى ، يذكر مؤرخوه الذين يذهبون إلى هذا ، خطاباً أرسلته مى إلى الرافعى تقول له فيه :

« أتذكر إذ التقينا وليس بنا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئا فى أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟ .

« وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل ، كأن فى كلينا قلبا ، ينتظر قلبا من زمن بعيد . ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ، وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب . وقلت لى بعينيك : أنا .. وقلت لك بعينى : وأنا .. وتكاشفنا بأن تكاتمنا ، وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها . وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ، فإذا هو إعجاب فإذا هو إكبار ، فإذا هو حب ».

« وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظران إليك . وجعلت أراك تشعر بما حولك شعورا مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد .وكان الجو جو قلبينا . وتكاشفنا مرة ثانية ، بأن تكاتمنا مرة ثانية » . وفى الرسالة إن كان صحيحاً أن الرافعى تلقاها من «مى» من الغموض والرموز ، ما لا تصلح معه دليلا إلا على أن «مى» كانت بارعة فى جذب حبال القلوب وارخائها ، وأن أحسن ما ينطبق عليها من الأوصاف فى هذا المجتمع (الرجولى) الذى كان يطوف حولها ، ويشرئب بأعناقه وحرمانه إليها الكلمة الإنجليزية (Tantalizing) والتى ترجمتها العامية أنها كانت (تحنس)[1] هؤلاء الرجال : تقترب منهم ، وتبتعد عنهم ، وتسرف أحيانا فى استعمال كلمات تثير شجونهم ، وتلهب عواطفهم ، ثم تصطنع الوقار ، وتلتزم الشدة ، وقد أحسنت إليهم جميعاً بهذا ، فقد ألهمتهم ، وحركت مشاعرهم وأخرجتهم من دنيا جامدة خامدة إلى عالم متحرك حر ، تشم فيه رائحة القلوب وهى تشوى على نار الحرمان ، ثم نار الرغبة ثم نار الأمل .

---

(١) قال عنها الرافعى . حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه وما بها الا أنها تفتنه .

ولكن يبدو أن (للازنى) لم يقع فى شباك (صالون) مى ، فقد كتب أنه تلقى دعوة « مى » إلى صالونها فى يوم ثلاثاء من شهر وسنة لا يذكرهما ، وأنه لم يعتذر عن تلبية الدعوة ، ولم يعتزم اجابتها ، إلا أن العقاد ، هون عليه الأمر ، وحمله على الذهاب فى الموعد المحدد . وكان مما نفر المازنى من هذه الدعوة أن بطاقة الدعوة كانت مكتوبة بخط جميل خيل إليه أنه خط خطاط استكتبته « مى » ورأى فى ذلك تكلفا ضايقه . وكان من بواعث تردده فى الذهاب إلى (صالون) مى أنه كان قد تلقى بعض كتبها ومنها كتاب (ظلمات وأشعة) فلم يكتب عنها شيئا فيما كان يكتبه فى صفحته الأدبية بجريدة الأخبار عن الكتب ، ويقول لعل كلمة (ظلمات) قد ساء وقعها فى نفسه .

ولما وصل إلى (الصالون) فى الموعد دخل مستحييا ووقف على الباب مترددا ، متهيباً لقاءها : مستحييا أن يحشر نفسه بين زوارها الذين قيل له أنهم من كل طبقة ، ومتردداً لأنه لم يعتد هذه المجالس وندعه يكمل وصف حالته بقلمه فقال :

فإنى أعرف من نفسى شدة النفور من هذه الطبقات التى تعد نفسها ممتازة أو عالية أو لا أدرى ماذا أيضا ، على انى دخلت بسلام واستقبلتنى هاشة باشة (شاكرة) فتعجبت ولا أظن انى نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت وكان هناك الأساتذة ، ومعذرة إذا لم اذكر الألقاب لطفى السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيد رشيد رضا وابن اخيه محى الدين رضا والأستاذ العقاد وآخرون كثيرون امتلأت بهم حجرات الدار ، وكانت المرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف وإكرامهم ، ولا أذكر أنه دار بينى وبينها حديث ، وكانت كلما مرت بى تلقى لى كلمة تحية او تكتفى بالابتسام وأنا كالأخرس لا انبث ببنت شفه ، وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات

إلى الردهة الفسيحة وإذا بها تقف لتخطب فارتعت ووجمت فما اكره شيئا كراهتى للخطب ، وقالت شيئا سمعت منه اسم ماكس (نورداو) فانطلق لطفى السيد يصفق ، فعجبت لهذا الرجل ولما عددته يومئذ إسرافا فى التلطف والمجاملة ، ولم أصغ لشىء مما قالت ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مثنين ، وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلمة لخطبة ، وزادنى رعبا ان السيد محى الدين رضا همس فى أذنى أنه سيدعونى إلى الكلام ،فقلت والله لئن فعلت لأقولن مايسوء فما أنا من رجال الصالونات ،ولست أحسن هذا الضرب من الكلام ، وما جئنا هنا ليثنى بعضنا على بعض ، على انى لا اعرف لماذا جئنا أو دعينا . واتفق فى هذه اللحظة أن مرت بى الآنسة مى فحاولت أن أنهض لها فنهتنى عن ذلك ، وعرفتنى انه غير لازم ، فوجدت لسانى وقلت لها معتذرا من جهلى بأنى من عامة أبناء الشعب ولست من رواد الصالونات فأرجو أن تتجاوزى عن اغلاطى فقالت بابتسامة وديعة : لا تقل هذا الكلام . قلت . ألا تحبين أن تعرفينى على حقيقتى ؟ قالت : طبعاً . قلت ثقى إذن انى من أبناء الشعب ، ولا أستطيع ولا أحب أن أرتقى عن هذ المنزلة ، فتبسمت وهزت رأسها ، ولا أدرى إلى هذه الساعة اكان هذا منها أسفا أم رفضا للتصديق ، وإنما الذى أدريه انى كنت جادا جدا . وبدا الناس ينصرفون وهمّ الأستاذ العقاد وهممت بالخروج فأخرتنا ، واستبقتنا ـ استغفر الله بل استبقت أيضا الأستاذ خليل مطران وجلسنا نحن الأربعة فى حجرة الاستقبال الكبرى ، وكان نصيبى منه الإصغاء مطرقا حينا ، وناظراً إليها حينا آخر ، ومعجبا بها فى الحالين ، وإن كنت قد شعرت أنى غير فاهم شيئا مما يقال لفرط اشتغالى بما فى نفسى .

« وخلوت بنفسى فى تلك الليلة ورحت أفكر فيما رأيت وسمعت فأعجبنى من الآنسة مى أن احتفالها برجال الأدب كان أبين

من احتفالها بغيرهم ، وسرني على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا كأنما كان همها كله هو أن تجالسنا نحن لا سوانا ، وتذكرت (ماكس نورداه) وتصفيق لطفي السيد الذي أسخطني فراجعت نفسي في سخطي عليه ، وراجعت (ماكس نورداو) فإذا الكلمة التي استلهمت بها كلامها معناها أن الاعتراف بالجميل ينطوي على الأمل في دوام هذا الخير ، ولو انقطع الأمل لكان الأرجح ألا يكون شكر أو اعتراف بمعروف ، فهي ـ أي الآنسة مي ـ تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الأمل في مواظبتهم على الحضور ، وكانت هذه براعة منها ، ولم يكن تصفيق لطفي السيد إذن في غير محله ، ولقد كنت خليقا أن أصفق مثله لو أنه كانت لي مثل فطنته ، أو على الأقل لو كنت ساعتئذ معنياً باصغاء .

ولا أدري هل عدت بعد ذلك إلى زيارتها أم لم أعد ، فإن كنت عدت فقد كان ذلك ولاشك بدافع من الإعجاب والإكبار ، وإن كنت كففت فمهما فالعلة لابد أن تكون نفوري مما سمي (الصالون) !» .[1]

وكلام المازني مهم جدا ، وذو قيمة كبيرة ، فكل الذين كتبوا عن «مي» وصالونها ، غرقوا إلى الأذنين في مجاملتها ، صوروا هذه الندوات ، في أبهى الألوان ، وأجملها ،ولم يفطن أحدهم إلى ما فيهذا الاجتماع من تكلف ، فقد كان الجميع يتجاوزونه ، ويغضون عنه ، فرحا بجلوسهم إلى سيدة مثقفة ذات دلال ، توزع الابتسامات ، والتحيات ، وتهمس لهذا بكلمة مجاملة ، وتوجه لذاك تحية تقدير ، وتستبقي البعض ، وتحسن توديع البعض الآخر ، وتتظاهر بالإهمال والإنصراف عن شخص بذاته كالرافعي مثلا لتثير غيرته ، أو لتتخلص منه حسب الأحوال .

وقد كتب العقاد — على طريقته وأسلوبه — عن هذا الصالون نفسه

(١) عن كتاب « من أدبية الشرق » للأستاذ عبد الغني حسن

فقال ، بعد أن ذكر ثلاثين من مشاهير الكتاب والأدباء والمفكرين المنتسبين إلى عالم الفكر والأدب ثم قال :

« أكل هؤلاء عشاق » .

« وعلى كل من هؤلاء ينبغى « لمى » إذا أجابت أن تجيب جواب المحبوبة التى تتقبل العشق ممن يدعيه ؟ .

« هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق إلى الوهم كلما ذكرت تحيات الرسائل أو القصائد أحياناً من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة . وهذا هو الخاطر الذى تصححه لمحة سريعة أيضاً إلى طبيعة الندوة وطبيعة التحية العرفية ، التى تناسبها بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، إن لم تقل بقانون الجنتلمانية والفروسية .

« فتاة جميلة أديبة ، يزورها أدباء وشعراء وكتاب قصة وأصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة . إن فات أحداً من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة .

« وإن فات « ميا » أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها — كما قد يخطر على بال الأقدمين — أن تصدها بالعبوس والغضب ، فليست هى زيارة ندوة إذن .. ولكنها زيارة واحدة قد تنتهى كما تبتدىء عند باب الدار .

« وهذا هو تأويل الرسائل على أسلوب الفن العاطفى أو العاطفة الفنية بين صاحبة الندوة ، وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار .

« ولكل منهم أسلوبه فى تعبيره داخل هذا الإطار من النخبة . »

« لطفى السيد وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف ، وعبد العزيز فهمى وأسلوب

الصمت والخجل ، كأنه الصبى فى مجلس الفتيات القريبات ، وأنطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر فى العرض على الهوانم . وشبلى شميل وأسلوب المصارع فى حلبة الفكر والشعور . وخليل مطران وأسلوب موليير على غير مسرح التمثيل . وسليم سركيس وأسلوب الدعابة للبيوتات فى صالون من أشهر صالونات البيوتات .

« ومصطفى صادق الرافعى وأسلوب المفاجأة بالكتابة التى يغنى الإطلاع عليها عن السماع .

« واسماعيل صبرى وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتلميح قبل يوم الزيارة مستئذناً فى الحضور .

« إن لم أمتع بمى ناظرى غدا

لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء »

« وأحمد شوقى وأسلوب الإيماء من بعيد ، وعليه تعليق الفيلسوف المعجب بالطرفين » .

ما أسعد مى ، وهؤلاء جميعاً ، يلتمسون حبها أو عطفها ، كل بأسلوبه ، وهم جميعاً كواكب ساطعة فى سماء الفكر والأدب ، وندوتها فى أوجها . يلمحون ويصرحون ، ويعرضون مواهبهم ، ويستعينون ببراعة الحديث ، وحلاوة العبارة ليستوقفوا سمعها ونظرها ، وليطرقوا باب قلبها .

ويروى العقاد شيئاً مما كان يجرى فى هذا الصالون على ألسن رواده من فكاهات فقال :

« كثيراً ما كان شميل يحمل على الأدباء فى عصره حملاته المنكرة ، ويصيح بهم كأنهم حاضرون أمامه يخاطبهم ويخاطبونه .

— فضونا من غلبتكم يا أدباتيه يا أولاد الكلب .

وكانت الآنسة تجيبه ضاحكة كلما صاح هذه الصيحة : قلمك يقول أننا أولاد القرد ولسانك يقول أننا أولاد الكلب .. فمن من الوالدين الكريمين تستقر نسبتنا إليه » .

وكان شبلى شميل من أوائل الأدباء العرب الذين شرحوا نظرية داروين ودعو إليها .

* * *

ولكن هذا (الصالون) ينفض سامره ، ويتفرق رواده ، وتحيط الوحدة الموحشة بمى ، فلا يبقى لها إلا أن تكتب عن محنتها لأقربائها وأصدقائها ، من ذلك ما كتبته إلى ابن عم لها يدعى (جوزيف) :

« لم أعد أكتب وكلما حاولت ذلك شعرت بشىء غريب يجمدحركة يدى ووثبة الفكر لدى . انى أتعذب شديد العذاب يا جوزيف ولا أدرى السبب فأنا أكثر من مريضة وينبغى خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه فى وحولى . أنى لم أتألم أبداً فى حياتى كما أتألم اليوم ، ولم أقرأ فى كتاب من الكتب أن فى طاقة بشرى أن يتحمل ما أتحمل . ووددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكنى لم أسأل أحداً إلا وكان جوابه لاشىء ، انه وهم شعورى تمكن منى .

« لا . لا ! يا جوزيف ان هناك أمرا يمزق أحشائى ويميتنى كل يوم بل وفى كل دقيقة . لقد تراكمت علىّ المصائب فى السنوات الأخيرة ، وانقضت على وحدتى الرهيبة التى هى معنوية أكثر منها جسدية فجعلتنى أتساءل كيف تمكن عقلى أن يقاوم عذاباً كهذا . وكان عزائى الأوحد فى محنتى هذه مكتبتى وحدتى الشعرية ، فكنت أعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلى أنسى فراغ سكنى ؛ أنسى غصة نفسى ، بل أنسى كل ذاتى . . انه ليدهشنى حقا كيف نى استطعت أن أكتب هذه الرقعة . ولعل الفضل فى هذا يعود جزئيا إلى

اللفائف التى أدخنها ليل نهار — أنا التى لا عهد لى بذلك — أدخنها لتضعف قلبى هذا القلب السليم المتـين الذى لا يزال يقاوم . واسلم لابنة عمك مارى » .

* * *

وجاءت وفاة والدة « مى » ، لتجعل الظلام الذى يحيط بها ، ليلا متصلا ، وجحيا ممتداً ، تنقلت فيه من مستشفى الدكتور نقولا بيز ببيروت فى سنة ١٩٣٨ ، زارها فيها الـكاتب اللبنانى أمين الريحانى ، ولـكنه لم يستطع أن يحملها على التفتح والاستجابة له ، مع أنه استعان بإحدى صديقاتها الآنسة بدريه عطا الأيوبى . ثم انتقلت إلى منزل خاص برأس بيروت تطل شرفاته على قمم الجبال المـكللة بالثلوج ، ويتردد عليها فيه بعض أصدقائها ، ثم إلى منزل بقرية (الفريكة) بجوار منزل أمين الريحانى . ثم بدا لفترة أن العلة انجابت عنها وعادت إلى القاهرة ، ويروى الدكتور منصور فهمى أنه كان يوما فى مكتبه بدار الـكتب حيث كان يشغل منصب مديرها ، فإذا بالباب يفتح ، وتدخل « مى » ومعها إحدى صواحبها ، وتقع من نفسه هذه المفاجأة أحسن موقع ، فيهش ويبش ، ويرحب ويؤهل ، ولـكن « مى » لا تتكلم ، وتجلس معه بعض الوقت ، وتخرج فى خطوة وئيدة مع ابتسامة مشرقة ، ويرافقها حتى باب المـكتب ، وتومىء برأسها وتلمح على شفتيها ابتسامة حانية ، ثم تختفى دموعها ولا يعرف أن هذه الدموع آخر ما سيراه منها .

* * *

ويذكر صحفى لبنانى أنه سمع من زميل صحفى فى سنة ١٩٣٦ أن « مى » ببيروت فى مستشفى الجامعة الأمريكية وكان قد سمع أنها فى مستشفى المجانين ،

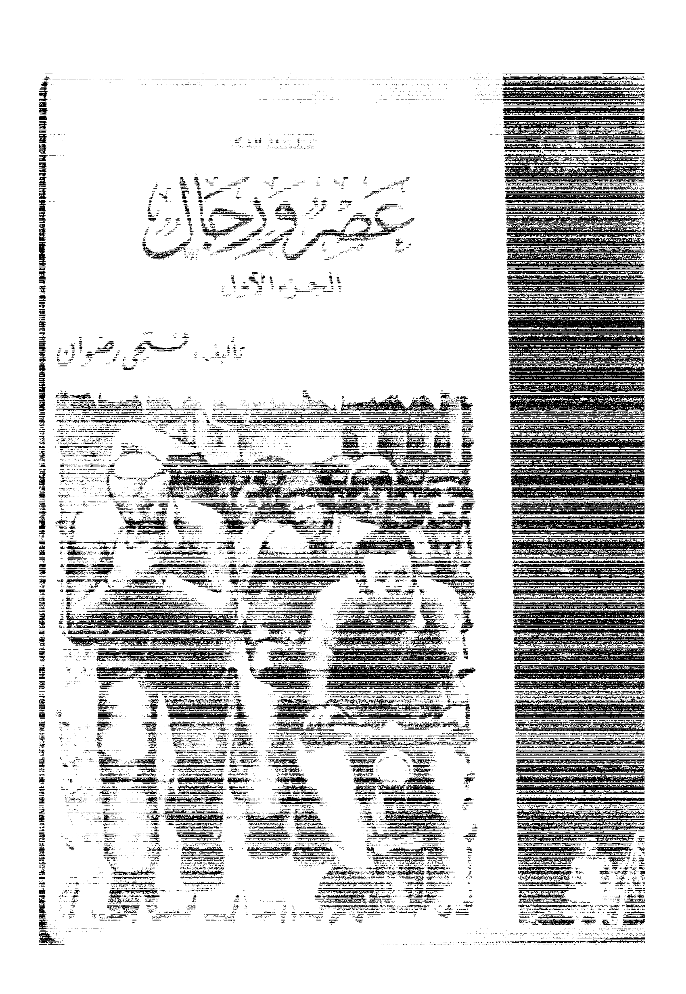
فذهبا إلى المستشفى معاً ، ودخل زميله الصحفى إلى غرفة بها مى ، ورآها من حيث كان واقفا فى الطرقة ، فأدرك من اشارات « مى » أنها غضبت لقدوم هذا الصحفى ، واستاءت من زيارته ، ولم يرد الصحفى الثانى إضاعة الفرصة، فدخل عليها فى غرفتها ، فوجدها على سريرها ، وقد أسندت ظهرها إلى وسادة ، فلما رأته هدأت وقالت أنها كانت ترفض مقابلته لأنها عاتبة على الصحافة اللبنانية لأنها عادت إلى لبنان موطنها الأصلى تنشد الراحة والاستجمام ، فوجدت نفسها تقيد وتساق إلى مستشفى المجانين ظلما وبهتانا فلا يرتفع صوت الصحافة اللبنانية من أجلها وهى صحفية ومن بيت أركانه من الصحفيين ، ثم بدأت تروى قصتها بأسلوب ساحر ، على حد قول الصحفى ، وعلى الرغم من أنها كانت جريحة النفس ، فإنها لم تستعمل لفظا واحدا نابيا فى حق ابن عمها الدكتور جوزيف زيادة الذى اتهمها بالجنون بعد أن أخذ منها توكيلا ، بالاستيلاء على ممتلكاتها ووصفت كيف ألبسوها قميص المجانين ، وكيف شهدها عشاقها فى لبنان وهى تسير باكية فى موكب رهيب .

ولما كانت « مى » قد رفعت دعوى أمام القضاء لإطلاق سراحها ، فقد دبر المعجبون بها ، حفلة لتخطب فيها « مى » وحضرها النائب العام وكان سيبدى رأيه فى هذه الدعوة ، فأفاضت فى الحديث ، ولم تشر إلى قضيتها ومحنتها بشىء فلما نظرت الدعوة تكلم النائب العام مؤيداً إطلاق سراحها ، فأطلقت من القيد . .

ولكن استمر جحيمها تتلظى فيه ، وتتقلب على الجمر ، حتى تعود ثانية إلى المستشفى غير أن هذه المستشفى كانت هذه المرة فى (المعادى) قريبا من القاهرة حيث بقيت فيه إلى الثلث الأخير من شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ ، وفى إحدى

ليالى هذه الأيام من ذلك الشهر تسرع الممرضة على صوت شهقة ، تصدر عن مى، وتعلن الممرضة أن المريضة تنفسها يضيق ، ويحاول الطب عبثاً إنقاذها، ثم تنطوى آخر صفحة من هذه الحياة العجيبة لأديبة عربية ، أرادت أن تكون غربية بعقلها ، شرقية بوجدانها ، فدفعت ثمن هذا التمزق آلاما ، كانت ثمن صدقها مع نفسها ، وحيرتها بين عالمين .

محتويات الكتاب


عصر ورجال
الجزء الأول
تأليف: فتحي رضوان